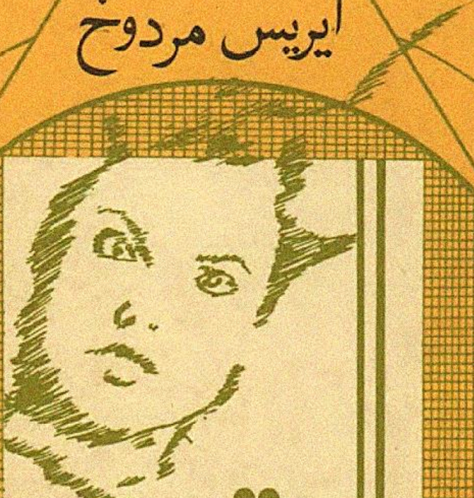
أيريس مردوخ



تحت الشبكة

رواية

ترجمة فؤاد كامل

دار الآداب

تحت الشبكة

رواية

تأليف

آيريس مردوخ

ترجمة

فؤاد كامل

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٩

الفصل الأول

عندما لمحت «فين» Finn واقفاً في انتظاري عند منعطف الشارع، أدركت من فوري أن هناك خللاً ما. ذلك أن «فين» اعتاد أن ينتظرني في الفراش، أو متكئاً على جانب الباب مغمض العينين. أضف إلى ذلك أن الإضراب كان هو السبب في تأخيري. وأياً كان الأمر، فأنا أمقت رحلة العودة إلى إنجلترا؛ ولم يكن للعزاء من سبيل إلى نفسي حتى استطعت أن أدفن رأسي عميقاً في أحضان عزيزتي «لندن» لكي أتمكن من نسيان أنني ارتحلت عنها ذات يوم. وهكذا يمكن أن تتخيل مدى شعوري بالتعابة حين ألفيت نفسي مرغماً على المكوث في «نيوهافن»، منتظراً أن تستأنف القطارات سيرها، ولمّا تزل رائحة فرنسا عالقة بخياشيمي. وكانت الجمارك - في هذه المناسبة أيضاً - قد حرمتني من زجاجات الكونياك التي أقوم دائماً بتهريبها. فلما حان وقت الإغلاق كنت نَهْباً تماماً لآلام المحاسبة الذاتية القاتلة. ذلك أن الموضوعية المنعشة الناجمة عن التأمل الصادق أمر لا يستطيع القيام به شخص له مثل مزاجي في مدن انجلترا غير المألوفة حتى وإن لم يكن مشغولاً أيضاً بالقطارات، فهذه وحدها كفيلة - حتى في أفضل الأوقات - بإتلاف الأعصاب.

تُرى ماذا كانت موضوعات الكوابيس التي تزعج الناس قبل وجود القطارات؟ فإذا وضعنا هذا كله في الاعتبار، كان من الغريب حقاً أن

ينتظرني «فين» على قارعة الطريق.

فما أن وقع بصري عليه حتى توقفت، ووضعت حقائبي على الأرض. وكانت ممتلئة بالكتب الفرنسية، وثقيلة جداً. صحت: «مرحى!» فأقبل عليّ فين متمهلاً. . كان لا يعرف التسرع في شيء أبداً. وكنت أجد مشقة بالغة إذا حاولت أن أفسِّر للناس تصرفاته. لم يكن خادمي بالضبط، بل كان يبدو في كثير من الأحيان أشبه بمديري. أعوله تارة، ويعولني تارة أخرى، حسب الأحوال. ومن الواضح على نحو ما أننا لسنا نِدَّيْن. اسمه «بيتر أوفيني» Peter O'Finney، ولا داعي لاهتمامك بهذا الأمر، لأنه يُدْعى دائماً باسم «فين»، وهو أحد أبناء عمومتي الأبعدين، أو هكذا كان يزعم، ولم يخطر لي أن أتحقق من صحة هذا الزعم. غير أن الناس يأخذونه على أنه خادمي، وكثيراً ما يكون انطباعي عنه أيضاً أنه كذلك، وإن يكن من العسير أن أحدد بدقة ملامح الموقف التي توحي بهذا الانطباع. وأحياناً يهديني تفكيري إلى أن «فين» شخص متواضع، مُنكر لذاته، ومن ثمّ فإنه يتخذ آلياً الموقع الثاني. فإذا أعوزتنا الأسِرَّة، كان «فين» هو الذي يفترش الأرض دائماً، وحينئذٍ يبدو هذا أمراً طبيعياً لا غرابة فيه. ومن الحق أنني أنا الذي أصدر الأوامر دائماً لـ «فين»، غير أن هذا راجع إلى أن «فين» ليس لديه كثير من الأفكار عن كيفية استخدام وقته. ويعتقد بعض أصدقائي أن «فين» معتوه، ولكنه ليس كذلك؛ فهو يدرك تمام الإدراك، وبكل تأكيد، ما يريد أن يفعله.

وحين أدركني «فين» في النهاية، أشرتُ إلى حقيبة من حقائبي لكي يحملها، ولكنه لم يرفعها، بل جلس عليها وشَخَص ببصره إليّ على نحو حزين. فجلستُ على الحقيبة الأخرى، ومضت برهة ونحن صامتان. كنت مرهقاً، عَزوفاً عن توجيه أية أسئلة إلى «فين»؛ ولن يطول به الأمر حتى يقص عليّ كل شيء في أقرب وقت. إنه يعشق المتاعب، سواء

كـانت متاعبـه أو متاعب غيـره من الناس دون تمييـز، وعشقه الأول هـو المبادرة بإذاعة الأنباء السيئة. و «فين» يميل إلى الوسامة، وسامة من ذلك الطابع الضامر الحزين، بشعره المسترسل الضارب إلى اللون الكستنائي، ووجهـه الأيرلنـدي المعضَّم. وهو أطـول مني بمقدار رأس (فـأنا رجـل قصير)، ولكنه ينحني قليلاً. وما أن نظر إليّ هذه النظرة الأسيانة، حتى غاص قلبي في ضلوعي.

وأخيراً قلت: «ماذا حدث؟».

فقال فين: «أَلْقَتْ بنا في الخارج».

لم أستطع أن آخذ ما يقول مأخذ الجد؛ فقد كان ذلك محالاً.

قلت له مشفقاً: «أفصح الآن. ماذا يعني هذا حقاً؟».

قال فين: «إنها تلقي بنا في الخارج.. نحن الاثنين، الآن، اليوم».

كان «فين» غراب نحس، ولكنه لم يكن ممن يلفقون الأكاذيب، بل لم يكن يبالغ أبداً فيما يقول. ومع ذلك كان ما يقوله الآن أشبه بالخرافة.

سألت: «ولكن لماذا؟ ماذا صنعنا؟».

قال فين: «ليس الأمر فيما صنعنا، ولكن ما هي صانعته. إنها تعتـزم الزواج من شخص معين».

كانت هذه صدمة. ومع أنني أجفلت، فقد حدَّثت نفسي قائلاً: ولماذا لا تفعل؟ فأنا رجل متسامح منصف. وفي اللحظة التاليـة كنت أتساءل: أين نستطيع الذهاب؟

قلت: «ولكنها لم تخبرني بشيء قط».

قال فين: «لأنك لم تسأل قط عن أي شيء».

وكان هذا حقاً. ففي خلال السنة الأخيرة لم أعد أعبأ بحياة «مَجْدَالين»

الخاصة. فإذا خرجت وارتبطت بشخص آخر، إلى من أوجِّه الشكر إن لم يكن ذلك لنفسي؟

سألت: «ومن هو هذا الشخص؟».
فأجاب «فين»: «وكيل مراهنات في سباق الخيل».
ـ «أهو من الأثرياء؟».

قال «فين»: «أجل، فهو يمتلك سيارة». وكان هذا هو معيار «فين»، وأظن أنه كان في ذلك الحين معياري أنا أيضاً.

وأردف «فين»: «النساء يصبنني بمرض القلب»، فلم يكن أسعد مني بذلك الطَّرْد.

جلستُ هناك لحظة، شاعراً بألم جسدي غامض امتزجت فيه مقادير من الغيرة والكبرياء الجريحة بإحساس عميق بالتشرد عن الأوطان. ها نحن أولاً، نجلس على قارعة طريق «إيرلز كورت» Earls Court في صباح يوم مشمس أغبر من أيام يوليو فوق حقيبتين، لا ندري أين سنذهب فيما بعد؟ كان هذا هو ما يحدث دائماً. أكون منهمكاً في إحلال شيء من النظام في عالمي يجعله ينبض من جديد، وبغتة ينفجر من جديد متطايراً شذر مذر، واستأنف أنا و «فين» «المشوار» مرة أخرى. قلت «عالَمي» ولم أقل «عالَمنا»، وذلك لأنني أشعر أحياناً أن «فين» لا يمتلك سوى حياة باطنة ضئيلة كل الضآلة. ولا أقصد بقولي هذا الاستهزاء به؛ فللبعض هذه الحياة، بينما لا يملك منها البعض الآخر شيئاً. وأنا أربط بين هذا وبين صدقه. فالأشخاص المرهفون ـ من أمثالي ـ يستطيعون أن يبصروا الكثير بحيث لا يجيبون إجابة صريحة. ولقد كانت جوانب الأشياء ومظاهرها المختلفة هي مشكلتي دائماً. وأنا أربط هذا باستعداده للإدلاء بأحكام موضوعية حين تكون هذه الأحكام هي آخر ما يبتغيه المرء، كأنها ضوء ساطع يواجَه به إنسان مصاب بصداع. وربما كان ذلك بسبب افتقار

«فين» إلى إدراك حياته الباطنة، وهذا ما يدعوه أيضاً إلى السير في أعقابي، إذ أمتلك حياة باطنة معقّدة شديدة التباين. وعلى كل حال، أعد «فين» ساكناً من سكان عالمي، ولا أستطيع أن أتصور له عالماً يحتويني؛ ويبدو أن هذا الترتيب كان مريحاً لكلينا.

كان لا بد من مرور أكثر من ساعتين حتى يحين موعد الفتح، ولم أكن أستطيع مجابهة فكرة الإقدام على رؤية «مجدالين» فوراً. إنها تتوقع مني أن أقيم مشهداً، غير أنني لم أكن أشعر من نفسي بالطاقة الكافية لإحداث مثل هذا المشهد، هذا بغضّ النظر عن عدم معرفتي بنوع المشهد الذي ينبغي عليّ أن أصنعه. هذا كله في حاجة إلى شيء من الرويّة. وليس هناك شيء مثل الطرد يجعل المرء يشرع في تحديد الشيء الذي طُرِد من أجله. كنت في حاجة إلى وقت لإمعان الفكر في وضعي الحالي.

قلت لفين يحدوني الأمل: «أتحب أن تتناول فنجاناً من القهوة في الليونز Lyons ؟».

فأجاب فين: «لا أظن. تحطمتُ فعلاً انتظاراً لرجوعك، وبعد أن استودعتني الشيطان. تعال الآن، واذهب لتراها». وشرع في السير فعلاً. وكان «فين» لا يشير إلى الأشخاص إلا بالضمائر أو صيغ النداء. وتبعته متئداً، محاولاً أن أصل إلى من أكون.

كانت «مجدالين» تعيش في واحد من تلك المنازل المنفِّرة الثقيلة الوزن في طريق «إيرلز كورت»، وهناك عشت أنا أيضاً ما يزيد على ثمانية عشر شهراً، وكذلك «فين». وكنت أقطن أنا و «فين» في الطابق الرابع من متاهة من الأقبية، بينما كانت «مجدالين» تسكن في الطابق الثالث، وإن كنت لا أقول إننا لم نكن نلتقي كثيراً في بداية الأمر. وكنت قد بدأت أشعر بأن هذا هو بيتي. وأحياناً، كانت «مجدالين» تتخذ أصدقاء من الرجال، فلا أكترث لذلك، ولا أبحث في الأمر. وكنت أفضل أن تكون

مشغولة بهؤلاء الأصدقاء، إذ يتيح لي ذلك مزيداً من الوقت للعمل، أو نوعاً من التأمل الحالم غير المربح الذي أستمتع به أكثر من أي شيء آخر في العالم. عشنا في ذلك المنزل على نحو دافىء مريح كزوج من البندق في قوقعته الصغيرة. كما كنا نعيش أيضاً دون أن ندفع إيجاراً، وهذه نقطة أخرى. فما من شيء يمكن أن يثيرني مثل أن أدفع إيجاراً.

ولمزيد من الشرح، كانت مجدالين تعمل على الآلة الكاتبة في المدينة، أو كانت كذلك في الوقت الذي وقعت فيه الأحداث المبكرة التي أرويها في هذه القصة. غير أن هذا لا يكاد يصفها، على كل حال. فوظيفتها الحقيقية هي أن تكون نفسها، ولهذه الوظيفة تكرّس حماسة هائلة وبراعة فنية. واجتهاداتها موجّهة وفقاً للخطوط التي توحي بها المجلات النسائية والسينما، وترجع ببساطة إلى ينبوع متدفق فيها من الحيوية الفطرية التي لا تقبل الفساد بحيث لم تنجح في أن تجعل من نفسها امرأة بلا ملامح رغم أنها جعلت من تقاليد الإغراء السائدة موضوع دراستها الدائمة. ولم تكن جميلة: وهذه صفة أستخدمها في شيء من الاقتصاد؛ ولكنها كانت فاتنة وجذابة معاً. أما فتنتها فتكمن في قسماتها المنتظمة وبشرتها الناعمة التي تغطيها بقناع من الأصباغ شبيه بالخوخ حتى يصبح كل شيء أملس لا تعبير فيه كالمرمر. وأما شعرها فيتموج دائماً وفقاً للموضة التي تقول عنها الإعلانات إنها الموضة المفضلة. فهو مصبوغ باللون الذهبي. إذ يعتقد النساء أن الجمال يكمن في الاقتراب من معيار منسجم (هارموني). والسبب الوحيد الذي يجعلهن فاشلات في التماثل التام اللامتميز هو الافتقار إلى الوقت والمال والصنعة الفنية (التكنيك). ونجوم السينما اللواتي يمتلكن هذا كله، متماثلات تمام التماثل بحيث يصعب التمييز بينهن. وتكمن جاذبية «مجدالين» في عينيها، وفي حيوية سلوكها وتعبيرها. فالعينان هما شطر الوجه الذي لا سبيل إلى تمويهه، أو على أي حال لم يُخترع بعد الشيء الذي يمكن أن

يقوم بهذا التمويه. العينان هما مرآة الروح، ولن تستطيع أن ترسم فوقهما عينين أخريين أو ترشهما بنثار الذهب. وعينا «مجدالين» واسعتان رماديتان لوزيتان، تتألقان كما تتألق حبات المطر. وهي تكسب أموالاً طائلة من حين إلى آخر، لا من الكتابة على الآلة الكاتبة، بل لوقوفها نموذجاً لمصور فوتوغرافي، إذ تمثّل فكرة كل إنسان عن الفتاة الفاتنة.

كانت «مجدالين» في الحمّام حين وصلنا. فقصدنا حجرة الجلوس حيث المدفأة الكهربائية والأكوام الصغيرة من الجوارب النايلون والملابس الداخلية الحريرية ورائحة بودرة الوجه ـ حيث يؤلف هذا كله مشهداً دافئاً مريحاً. وألقى «فين» بنفسه على الأريكة الوثيرة على النحو الذي كانت تطلب منه دائماً ألا يفعله. أما أنا فذهبت إلى باب الحمام وصحتُ «مادج!».

وتوقف صوت الدش، وقالت: «أهذا أنت، يا جيك؟». وكان السخان يحدث صوتاً جهنمياً.

«أجل، بالطبع، إنه أنا. انظري، ما هذا كله؟».

قالت «مجدالين»: «لا أستطيع أن أسمعك. إنتظر لحظة».

صحت: «ما هذا كله؟ ما هذا كله عن زواجك بوكيل مراهنات؟ لا تستطيعين أن تفعلي هذا دون مشورتي!».

كنت أشعر أنني أُعِد مشهداً لا بأس به خارج باب الحمام. بل تماديت إلى حد أنني طرقت اللوح الزجاجي.

قالت مادج: «لا أستطيع أن أسمع كلمة واحدة»، ولم يكن ذلك حقاً؛ وإنما كانت تلجأ هنيهة إلى العبث: «جيك، عزيزي، ضع البراد على النار، وسنتناول شيئاً من القهوة. سأخرج بعد لحظة».

ومرقت «مجدالين» من الحمام يحيط بها تيار معطر ساخن عندما

هممت بصنع القهوة، ولكنها راغت مسرعة إلى حجرة زينتها. ونهض «فين» مرتبكاً من الأريكة. ثم أشعلنا لفافتين من السجائر وانتظرنا. وبعد زمن طويل، بزغت «مجدالين» متألقة، ووقفت أمامي. حملقت فيها في حيرة بالغة. إذ طرأ على مظهرها كله تغيير بيِّن. كانت ترتدي ثوباً حريرياً ضيِّقاً، من طراز أنيق نفيس، بالإضافة إلى مقدار كبير من الجواهر الثمينة. . بل إن التعبير الذي ارتسم على وجهها كان مختلفاً. واستطعت الآن أخيراً أن أحيط بما أخبرني به «فين». حين كنت سائراً في الطريق كنت مهموماً بنفسي إلى درجة لم تترك لي مجالاً للتفكير في غرابة خطة ماج ومداها الهائل. أما الآن، فكانت قيمتها النقدية ماثلة أمامي. كانت شيئاً غير متوقع بكل تأكيد. فقد اعتادت «مادج» على معاشرة رجال المدينة الذين يبعثون على الضجر، ولكنهم كانوا على شيء من الإنسانية والعطف، وكان منهم الموظفون المدنيون من أصحاب الأمزجة البوهيمية، وبعضهم ـ على أسوأ تقدير ـ من الأدباء الفاشلين أمثالي. وجعلت أسأل نفسي أيّ خطأ عجيب في نظام الطبقات الاجتماعية مكّنها من الاتصال برجل يمكن أن يوحي إليها بارتداء ثوب كهذا. وطُفْت على مهل حولها، ملقياً عليها نظرة شاملة.

قالت «مجدالين»: «ماذا تحسبني، نصب آلبرت التذكاري؟».

قلت: «ليس بهذين العينين». وتفرست في أغوارهما الرقطاء.

وأصابني بغتة أَلَمٌ لم أتعوده، دفعني إلى الابتعاد عنها. كان ينبغي عليّ أن أتولى الفتاة بشيء أفضل من العناية. فلا بد أن هذا التحول قد استغرق وقتاً طويلاً في مرحلة الإعداد، وكنت من الغباء بحيث لم أفطن إليه. إن فتاة طيبة مثل «مجدالين» لا يمكن أن تتحول هذا التحول بين يوم وليلة. . ثمة شخص بذل في سبيل ذلك جهوداً مضنية.

راقبتني «مادج» في فضول ثم سألت: «ماذا في الأمر؟ أمريض أنت؟».

تحـدثت بما أفكـر فيه: «مـادج، كـان ينبغي عليّ أن أرعـاك رعـايـة أفضل».

قالت مادج: «إنـك لم تكن ترعـاني على الإطلاق.. والآن سيتـولى ذلك شخص آخر».

وكانت ضحكتها كالنصل الباتر، غير أن عينيها كانتا حائرتين، وراودني دافع ـ وإن يكن في هذه المرحلة المتأخرة/ أن أتقدم بخـطبة متسـرعة. وفي ضوء غريب، أُلقِيَ على ما مضى من صداقتنا، برزت أشياءٌ جديدة، وحاولت في لحظة أن أقبض على جـوهر حـاجتي إليها بـأكمله. أخذت نَفَساً عميقاً، على كل حال، واتبعت القاعدة التي وضعتها لنفسي وهي ألا أتحدث بصراحة قط إلى النساء في لحظات الانفعال. فلا خير يأتي من هــذه الصـراحــة. ولم يكن في طبيعتي أن أجعـل نفسي مسـؤولاً عن الآخرين. يكفيني أنني أشق طريقي الخاص في عناء شديد. وانقضت اللحظة الخطرة، وولّت العلامة، واختفى التوهج من عين «مجـدالين»، وقالت: «أعطني شيئاً من القهوة». فأعطيتها.

قالت: «والآن، أنظر يـا جاكي. أنت تفهم المسـألة. أُريـد أن تنقل حاجياتك بأسرع ما يمكن، اليوم إن استطعت. وقـد وضعت حاجيـاتك كلها في حجرتك».

وإذن، فقد فعلت هذا أيضاً. وكانت بعض الأشياء التي أملكها والتي تزيِّن عادة حجرة الجلوس، غير موجودة. وأحسست بالفعل أنني لم أعد أعيش هنا في هذا المكان.

قلت: «أنا لا أفهم كيف حدث هذا.. ويهمني أن أسمع».

قـالت مجدالين: «أجـل، يجب أن تأخـذ كل شيء. وسـأدفع أجـرة التاكسي إذا أحببت». كانت الآن في غاية من البرود كالخَسَّة.

قلت: «فليكن لك قلب، يا مادج»، وبدأت أنشغل بنفسي مرة أخرى، وشعرت بتحسن كبير. «ألا أستطيع مواصلة الحياة في الطابق العلوي؟ وهناك، لن أعترض طريق أحد». ولكنني كنت أعرف أنها فكرة سيئة.

قالت مادج: «أوه، جيك. أنت أحمق!» وكانت هذه أرحم ملحوظة نطقت بها حتى الآن. واسترخت أعصاب كلٍّ منا.

كان «فين» ـ طيلة هذا الوقت ـ مستنداً إلى الباب، ناظراً في شرود إلى المسافة الوسطى. هل كان ينصت أم لا. . هذا أمر من العسير أن نقرره.

قالت مجدالين: «اصرفه من هنا. . إنه يثير أعصابي».

سألت: «أين أستطيع أن أصرفه؟ أين يستطيع أيٌّ منا أن يذهب؟ وأنت تعلمين أنني خالي الوفاض».

لم يكن ذلك حقًّا على وجه الدقة، ولكنني كنت أتظاهر دائماً ـ على سبيل حسن السياسة ـ بأنني مفلس، فلا يدري المرء أبداً متى يصبح هذا شيئاً مفيداً إذا أُخِذ على أنه أمر مفروغ منه.

قالت مجدالين: «أنتما راشدان. . أو على الأقل، هذا هو المفروض. وتستطيعان أن تقررا ما تريانه لنفسيكما».

والتقيت بنظرة «فين» الحالمة، فسألته: «ماذا نحن صانعان؟».

وأحياناً تخطر لفين أفكار، فهو على كل حال يملك من الوقت أكثر مما أملكه للتروِّي.

قال: «نذهب إلى منزل ديف».

ولم يكن لدي اعتراض على ذلك، فقلت: «طيِّب!» وصحت في أثره: «خذ الحقائب!» ذلك أنه انطلق خارجاً كالسهم. وكنت أظن أحياناً أنه لا يعبأ بمجدالين. فعاد على عقبيه، وأخذ إحداهما، واختفى.

تبادلنا مجدالين وأنا النظرات كملاكمين في بداية الجولة الثانية.

قلت: «اسمعي يا مادج، إنك لا تستطيعين طردي بهذه الطريقة».

قالت مادج: «وأنت أيضاً وصلت بهذه الطريقة».

وكان ذلك صدقاً.. فتنهدت.

قلت لها: «تعالي هنا». ومددت لها يدي. فناولتني يدها، ولكنها ظلت متصلبة خالية من التجاوب كشوكة شرائح الخبز؛ وبعد لحظة أو لحظتين خلّيت سبيلها.

قالت مادج: «لا تجعل من المسألة مشهداً درامياً، يا جاكي».

ولم أكن أستطيع في تلك اللحظة أن أخلق مشهداً ولو صغيراً. كنت أشعر بالضعف، فرقدت على الأريكة.

قلت مترفقاً: «إيه، إيه! إذن، فأنتِ تخذلينني.. كل هذا في سبيل إنسان يعيش على رذائل الآخرين».

قالت مادج بنبرة من السخرية العصرية التي لم تكن تلائمها: «كلنا نعيش على رذائل الآخرين.. أنا، وأنت، بل إنك تعيش على رذائل أسوأ من الرذائل التي يعيش منها». وكانت هذه تلميحة إلى نوع الكتب التي أترجمها أحياناً.

سألتها: «من هذا الشخص، على كل حال؟».

تفحصتني مادج بنظراتها وهي تراقب الأثر الذي تركته ثم قالت: «اسمه ستارفيلد»، ولعلك سمعت عنه». وتوهجت في عينها نظرة ظافرة لا حياء فيها.

وشَدَدْت من قسمات وجهي لأجعله خالياً من كل تعبير. إذن فهو

«ستارفيلد»، «صموئيل ستارفيلد»، سامي المقدس، الناشر الماسي. وكان وصفُه بأنه وكيل مراهنات bookie(*) مبالغة ارتكبها «فين»، على حين أن مكاتبه ما زالت قريبه من بيكاديللي واسمه مكتوب بالحروف المضيئة. والواقع أن «ستارفيلد» يقوم الآن في تلك المناطق بشيء من كل شيء إلى حيث يمكن أن تقوده أهواؤه وأمواله: الملابس النسائية، المنتديات الليلية، أعمال السينما، والمطاعم.

قلت: «فهمت». ولم أكن أريد أن أقوم باستعراض من أجل «مادج». «أين التقيت به؟ وأنا أسأل هذا السؤال بروح سوسيولوجية بحتة».

قالت مادج: «لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمات. وإذا كان لا بد من أن تعرف، فقد التقيت به في حافلة الركاب رقم أحد عشر» كان من الواضح أنها أكذوبة، فهززت رأسي غير مصدق.

قلت: «أنت تكرِّسين حياتك كلها للعمل كمانيكان.. وسكيون عليك أن تنفقي عمرك كله لتكوني رمزاً على الثروة المبتذلة». وخطر لي وأنا أقول هذا أنها لن تكون حياة سيئة كل هذا السوء.

«قالت مجدالين: «جيك، أمن الممكن أن تنصرف!»».

قلت: «على كل حال، أنت لا تنوين الحياة هنا مع سام المقدس، أليس كذلك؟».

قالت مجدالين: «سنحتاج إلى هذه الشقة، وأريدك أن تخرج منها الآن».

ورأيت أن إجابتها مراوغة، فسألت: «أقلتِ إنكما تزوجتما؟» وبدأ

(*) في المسألة خلط بين bookie (وهي كلمة مشتقة من book: كتاب) وبين bookmaker ومعناها ناشر: (المترجم).

الاحساس بالمسؤولية يراودني من جديد. وأياً كان الأمر، فإنها بغير أب، وأحسست أنني في مقام والديها. وكان هذا هو المقام الوحيد الذي تركته. وبدا لي، الآن وقد بدأت أفكر في الأمر، أنه من غير اللائق ـ بصورة خرافية ـ أن يتزوج «ستارفيلد» من فتاة مثل مجدالين. وتخيلت «مادج» وقد علقت عليها معاطف الفراء كما تُعَلَّق هذه المعاطف على أية مانيكان في فترينة. غير أنها لم تكن فتاة مبهرجة، كما لم تكن غنية أو شهيرة. كانت فتاة إنجليزية لطيفة موفورة الصحة، بسيطة عذبة كيوم من أيام مايو في مدينة «كيو» Kew. ولكنني تخيلت أذواق ستارفيلد على أنها أشد غرابة، وأبعد ما تكون عن الحياة الزوجية.

قالت مادج: «أجل». بإصرار وتوكيد، ولما تزل ناضرة كالقشدة. «والآن، هلاّ شرعت في حزم أمتعتك؟» كانت على شيء من سوء الطوية، وهذا ما يمكن أن أراه من الطريقة التي تحاشت بها النظر في عيني.

وطفقت تعبث برفوف الكتب وهي تقول: «أظن أن بعض كتبك موجودة هنا». وتناولت رواية ميرفي Murphy وصديقي بييرو Pierrot Mon Ami.

قلت: «تفسحين مكاناً للرفيق ستارفيلد. أيستطيع القراءة؟ وبهذه المناسبة، هل يعرف أنني موجود؟».

قالت مجدالين مراوغة: «أجل. ولكن لا أريد منكما أن تلتقيا. ولهذا السبب ينبغي أن تحزم حقائبك حالاً. فمن الغد فصاعداً سيتردد سامي كثيراً هنا».

قلت: «شيء واحد مؤكد وهو أنني لا أستطيع نقل كل شيء في يوم واحد. سآخذ بعض الأشياء الآن، ولكن لا بد أن أعود غداً». كنت أكره

أن يستعجلني أحد. فأردفت في حماسة: «ولا تنسى أن المذياع مِلْكي». وكانت أفكاري ترتد بانتظام إلى «بنك لويدز المحدود».

قالت مادج: «نعم، يا عزيزي، ولكن إذا رجعت بعد اليوم، فاتصل بالهاتف أولاً، فإذا أجابك رجل، ضع السماعة».

قلت: «هذا شيء يثير اشمئزازي».

قالت مادج: «أجل، يا عزيزي، هل أطلب سيارة أجرة؟».

فصحت: «كلا!» وغادرت الحجرة.

فصاحت مجدالين من أعلى السلّم: «إذا عدت وكان سامي هنا، فسيدق عنقك».

* * *

حملت الحقيبة الأخرى، وحزمت مخطوطاتي في لفافة ورق بنية، وغادرت المنزل راجلاً. كنت في حاجة إلى التفكير، وما كنت أستطيع التفكير أبداً في سيارة أجرة لانشغالي بالنظر إلى العدّاد. فأخذت حافلة الركاب رقم ثلاث وسبعين، وذهبت إلى «السيدة تينكهام» Tinckham . وكانت هذه السيدة تمتلك حانوتاً للصحف بجوار «شارع شارلوت». وكان حانوتاً قذراً مليئاً بالغبار، قبيح المنظر، ألحقت به في الخارج لوحة إعلانات، رخيصة، وكان يبيع الصحف التي تصدر بمختلف اللغات، والمجلات النسائية، وروايات الغرب الأمريكي، والخيال العلمي، وقصص العجائب. . أو على الأقل كانت هذه السلع معروضة للبيع في أكوام مشوشة تماماً، رغم أنني لم أر أحداً يبتاع أي شيء من حانوت السيدة تينكهام سوى «الآيس كريم» (المثلجات)، التي كانت معروضة أيضاً للبيع، وسوى صحيفة «الايفننج نيوز» Evening News . وكانت معظم كتب الأدب مسجاة هناك عاماً بعد عام، حائلة اللون بفعل

الشمس، لا يزعجها شيء من مرقدها إلا إذا أصيبت «السيدة تينكهام» نفسها بنوبة القراءة، وكانت تتنابها حيناً بعد حين، فتلتقط رواية من روايات الغرب الأمريكي، اصفرت بتأثير الزمن، لتعلن بعد قراءة نصفها تقريباً، أنها قرأتها من قبل، ولكنها نسيتها تماماً. ولا بد أنها قد قرأت حتى الآن مخزونها كله، وهو مخزون محدود يتزايد في بطء شديد. وقد رأيتها أحياناً تتصفح المجلات الفرنسية، وإن اعترفت بأنها لا تعرف اللغة الفرنسية، فلعلها كانت تشاهد الصور فحسب. وإلى جانب صندوق المثلجات، كانت هناك منضدة حديدية صغيرة ومقعدان، وعلى رف فوقهما اصطفت المشروبات الحمراء والخضراء غير الكحولية في زجاجات. وفي هذا المكان، قضيت كثيراً من السويعات الهادئة التي لا يعكّر صفوها شيء.

خصوصية أخرى يتميز بها حانوت «السيدة تينكهام» هي امتلاؤه بالقطط. أسرة دائمة الزيادة من القطط العتابية (وهي قطط رمادية الوبر مخططة ومنقطة بالسواد) تنحدر من أمومة واحدة هائلة، ترقد فوق طاولة الحساب وفوق الأرفف الخالية، ناعسة ومتأملة، وعيونها العنبرية تضيق وتَطْرف من الشمس، شق مسحوب من السائل في رقعة من الفراء الساخن. وعندما أدخل الحانوت، تثب قطة منها ـ في أغلب الأحيان ـ لتجلس فوق ركبتي برهة على نحو موضوعي رزين، قبل أن تتسلل إلى الشارع عابرة واجهات الحانوت. غير أنني لم ألتق أبداً بواحد من هذه الحيوانات على بعد يزيد عن ياردات عشر من الحانوت. وفي الوسط تجلس «السيدة تينكهام» نفسها تدخن لفافة تبغ. وهي الشخص الوحيد الذي أعرفه من النوع الذي يسمّى حرفياً المدخّن ـ المُسَلْسِل، ذلك أنها تشعل كل لفافة من عُقب اللفافة التي قبلها؛ أما كيف تشعل اللفافة اليومية الأولى فما زال بالنسبة لي سراً مجهولاً، إذ يبدو أنها لا تحتفظ في منزلها قط بأعواد الثقاب حين أسألها عن عود منها. وذات يوم وصلت إلى منزلها

لأجدها في حالة من الحزن العميق لأن لفافتها الحالية سقطت في فنجان القهوة، وليس لديها نار لإشعال لفافة أخرى. لعلهـا كانت تـدخن الليل بطوله، أو ربما كانت هناك لفافة لا تنطفىء أبداً في حجرة نومها. وتحت قدميها طفاية من الخزف ممتلئة دائماً إلى حافتها بأعقاب السجائر؛ وإلى جانبها فـوق طاولـة الحساب، مـذياع صغيـر لا ينقطع أبـداً، ينبعث منه صـوت ناعم خـافت لا يكاد يُسْمـع، بحيث تصاحب «السيـدة تينكهام» موسيقى هامسة أثناء جلوسها مكللة بسحائب الدخان، وسط القطط.

جئتُ وجلست كالمعتاد إلى المنضدة الحديـدية، ورفعت من أقـرب رف إليّ قـطة ووضعتها فـوق ركبتي. وبدأت تَهِـرُّ كآلـة قمت بتشغيلها. ومنحت «السيدة تينكهام» أولى ابتساماتي التلقـائية لهـذا اليوم. فهي مـا يُطْلق عليه «فين» عيِّنـة قديمـة مضحكة، ولكنهـا كانت شـديدة العـطف عليّ، وأنا لا أنسى العطف أبداً.

قالت السيدة تينكهام: «حسن، ها أنت تعود الآن مرة أخرى» ووضعت جانباً «القصص المدهشة»، وقامت بتخفيض صوت المذياع قليـلاً حتى أصبح مجرد همس من الخلفية.

قلت: «أجل، لسوء الحظ. ما رأيك في كوب من أي شيء يا سيـدة تينك؟».

وكنت أحتفظ منذ أمد بعيد برصيد من الويسكي عند «السيدة تينكهام» في حالة احتياجي إلى شراب طبي، في جو هادىء، وسط لندن، في غير ساعات العمل. والآن، كانت الحـوانيت والحانـات مفتوحـة، غير أنني كنت في حاجة إلى الهدوء المريح للأعصاب الذي يميِّز حانـوت «السيدة تينكهام»، مع هرير القـطة، وهمس المذيـاع، و«السيدة تينكهـام» التي تبدو كإلاهة أرضية يطوف حولها البخور. وحين وضعت هذه الخطة لأول مرة، اعتدت أن أضع علامة على الزجاجة بعد كل مرة، ولكن هذا كان

قبل أن أعرف «السيدة تينكهام» جيداً. ذلك أنها تعادل من حيث الثقة فيها قانوناً من قوانين الطبيعة. كما تستطيع أيضاً أن تسدي المشورة. وذات مرة سمعتُ أحد زبائنها من أصحاب السُحن الغريبة وكان يحاول تحريضها على البوح بشيء، سمعته يصيح: «أنت كتومة بصورة مَرَضِية!» وهكذا كانت فعلاً. وأحسب حقاً أن هذا هو سر نجاح «السيدة تينكهام». وحانوتها يؤدي ما يُعْرف بخدمة «تيسير العناوين»، كما أنه ملتقى الأشخاص الذين يحيطون أعمالهم بكتمان شديد. وكثيراً ما أسائل نفسي عن مدى ما تعرفه «السيدة تينكهام» عن أعمال زبائنها. وحين أكون بعيداً عنها أشعر عن يقين أنها لا يمكن أن تكون من السذاجة بحيث لا تقدر - ولو نوعاً من التقدير - ما يدور تحت أنفها. وحين أكون معها، تبدو ساهمة مُبهمة، وتطرف بعينها كواحدة من قططها، بحيث يملأني الشك. وهناك لحظات، حين أختلس اليها النظر من ركن عيني - يبدو فيها أنني ألمح نظرة ذكاء حاد مرتسمة على وجهها، ولكن أياً كانت السرعة التي أستدير بها إليها، فإنني لا أتمكن أبداً من مباغتة أي تعبير آخر سوى الرعاية الأمومية المشرقة أو خلو البال، قلَّ ذلك أو كثر. وأياً كانت الحقيقة، فإن الشيء الأكيد الوحيد - هو ان أحداً لن يعرف هذه الحقيقة أبداً. ولقد تخلى رجال الشرطة منذ أمد بعيد عن استجواب «السيدة تينكهام».. فهذا وقت ضائع. وسواء كان ما تعرفه كثيراً أو قليلاً، فإنها لم تُظْهر أبداً - خلال تجربتي معها - أية معرفة تفصيلية بالعالم الصغير الذي يدور حول حانوتها، طمعاً في الربح أو التأثير. والمرأة التي لا تبوح بالأسرار جوهرة ملفوفة في المخمل. وهكذا كنت متفانياً في تقديري «للسيدة تينكهام».

ملأتْ لي كأساً من الورق الملون بالويسكي وناولتني إياه من فوق الطاولة. ولم أكن قد شاهدتها قط تتناول لنفسها مشروباً من أي نوع كان.

سألت: «لم تحضر معك براندي هذه المرة يا عزيزي؟».

فأجبت: «كلا . . صادرته الجمارك اللعينة». وبعد أن رشفتُ رشفة من الويسكي، أردفتُ قائلاً: «فليأخذهم الشيطان جميعاً!» قلت هذا بحركة تشمل الجمارك، و«مادج»، و«ستارفيلد»، ومدير مصرفي.

قالت «السيدة تينكهام»: «ماذا جرى، يا عزيزي؟ هل ساءت الأمور مرة أخرى؟» وحين نظرتُ إلى كأسي، كنت أستطيع أن أرى نظرتها مشتعلة بالادراك.

وبذلك الصوت الذي لا بد أنه مهَّد السبيل لكثير من الاعترافات أردفْت قائلة: «الناس محنة وعناء، أليسوا كذلك؟».

كنت على يقين أن الناس يتحدثون إلى «السيدة تينكهام» حديثاً مستفيضاً. وفي بعض الأحيان، كنت أدخل عندها، وأشعر شعوراً لا يخطىء بأن هذا أمر شائع في الجو. وقد تحدثت إليها أنا نفسي؛ ومن المرجح أنها تتمثل في حياة الكثير من زبائنها بوصفها كاتمة السر الوحيدة الموثوق فيها تماماً. مثل هذا الوضع قد لا يساعد كثيراً إلا إذا كان مُرْبحاً إلى حد ما، ومن المؤكد أن «السيدة تينكهام» تملك بعض المال، فقد أقرضتني ذات مرة عشرة جنيهات دون همسة، ولكني على يقين من أن الربح ليس هو موضع اهتمامها الرئيسي. كل ما في الأمر أنها تحب أن تعرف ما يقوم به كل شخص من أعمال، أو بالأحرى أن تعرف عن حياتهم، إذ أن «العمل» يوحي باهتمام أضيق مجالاً وأقل إنسانية من الشيء الذي أشعر به الآن، أو الذي أتخيل أنني أشعر به، مُسَلَّطاً في شيء من الشدة عليّ. والواقع أن حقيقة سذاجتها، أو الافتقار إليها، يمكن أن تكون بين الاثنين، ولعلها تحيا في عالم مؤلف من درامات الآخرين حيث لا سبيل إلى التمييز فيه بوضوح بين الواقع والخيال.

وتناهت إلى سمعي همسات ناعمة، ربما كانت منبعثة من المذياع، أو لعلها كانت «السيدة تينكهام» تتمتم بتعويذة تدفعني إلى التحدث إليها:

صوت أشبه بتحريك لطيف لخيطٍ تعلقت به ـ على حَرْفٍ ـ سمكة نادرة. ولكنني أصررت أسناني امتناعاً عن الحديث. كنت أود الانتظار حتى أتمكن من عرض قصتي بصورة أكثر درامية. كانت الإمكانيات متوفرة للموضوع، ولكن كان ما يعوزه هو القالب. فلو أنني تحدثت الآن لكنتُ عرضة دائماً للإفضاء بالحقيقة، وعندما أُباغَتْ على حين غرة، أبوح عادة بالحقيقة، وهل هناك أغبى من ذلك؟ وواجهت نظرة «السيدة تينكهام»، ومع أن نظرتها لم تقل شيئاً، إلا أنني كنت واثقاً من أنها تعرف أفكاري.

قلت: «الناس والمال، يا سيدة تينك. كم يكون العالم مكاناً سعيداً بدونهما».

فقالت السيدة تينك: «والجنس»: وتنهدنا معاً.

سألتها: «ألم تحصلي على قطيطات جديدة مؤخراً؟».

فأجابت السيدة تنيكهام: «ليس بعد. غير أن ماجي حامل مرة أخرى. وسرعان ما تحصل على قطيطاتك الجميلة، أليس كذلك، نعم!». قالت هذه العبارة الأخيرة لقطة سمينة راقدة على الطاولة.

سألتها: «أتعتقدين أن هناك فرصة للحظ هذه المرة؟».

كانت «السيدة تينكهام» تحاول دائماً تحريض قططها على معاشرة قط سيامي وسيم يعيش على مسافة غير بعيدة في الشارع نفسه. وكانت جهودها لا تزيد ـ وهذا حق ـ عن حملها تلك المخلوقات إلى الباب، ثم تشير إلى الذَّكَر الأنيق بملاحظات من هذا القبيل: «انظروا إلى ذلك البوسي المحبّوب هناك؟» ـ وحتى الآن لم يتمخض هذا كله عن شيء بعد. ولو أنك حاولت ذات مرة أن توجِّه انتباه قطة إلى أي شيء، فسوف تعرف ما ينطوي عليه هذا الأمر من عسر. فسوف تنظر القطة إلى كل

مكان عدا المكان الذي يشير إليه إصبعك.

قالت «السيدة تينكهام» في مرارة: «لا فرصة هناك. فكلهن شغوفات بالقط الأسود والأبيض توم الذي يقيم في حانوت «لحم ـ الحصان»، أليس كذلك أيتها الفتاة الفاتنة؟ أجل»، قالت هذه العبارة للقطة الحامل التي بسطت كفًا ثقيلاً مترفاً، وأنشبت مخالبها في كومة من صحيفة نوفيل ليتيرير Nouvelles littéraires.

وشرعتُ في فك الطرد الذي أحمله على المنضدة. فوثبت القطة مبتعدة عن ركبتي، وانفلتت من الباب. فقالت «السيدة تينكهام»: «آه، حسن»، ومدَّت يدها لتتناول مجموعة «القصص المدهشة».

ألقيت نظرة سريعة على المخطوطات. وكانت «مجدالين»/ في ثورة غضب انتابتها ذات مرة ـ قد مزقت المقاطع الستين الأولى من ملحمة شعرية سميتها «وسيرث السيد أوبنهايم الأرض وما عليها». وكنت قد نظمتها في مرحلة من العمر آمنت فيها بالمثل العليا. وفي ذلك الوقت أيضاً لم يكن قد اتضح لي بعد أن العصر الحاضر ليس من العصور التي يمكن فيها كتابة ملحمة. كنت في ذلك الوقت أتخيل في سذاجة أنه لا مانع يحول بين المرء ومحاولة كتابة أي شيء يشعر بميْل إلى كتابته. غير أن لا شيء يشل الإرادة مثل الاحساس بالمنظور التاريخي، وخاصة في المسائل الأدبية. وربما كان على المرء أن يتوقف عن التأمل عند نقطة معينة. والواقع أنني تحايلت لإيقاف نفسي عند النقطة التي سيصبح من الواضح بالنسبة لي أن العصر الحاضر ليس من العصور التي يمكن فيها كتابة رواية. ما علينا؛ فلنعد إلى «السيد أوبنهايم»؛ انتقد أصدقائي العنوان لأنه يبدو معادياً للسامية، وإن يكن السيد أوبنهايم يرمز بالطبع إلى الأعمال الضخمة، غير أن «مادج» لم تمزقها لهذا السبب، وإنما انتقاماً لكبريائها الجريحة، إذ أخلفت معها موعداً للغداء لكي ألتقي بإحدى

الروائيات. وكان ذلك اللقاء (مع الروائية) فشلاً ذريعاً، ولكن عندما عدت وجدت «السيد أوبنهايم» ممزقاً إرباً إرباً. كان هذا في الأيام الخوالي. ولكنني كنت أخشى أن يتكرر هذا العرض. من يدري بالأفكار التي كانت تعبر خلال عقل تلك الفتاة حين أزمعت طردي؟ فلا شيء هناك مثل امرأة تسيء إليك لأنك قصدت إثارة غضبها عليك. وأنا نفسي أعرف إلى أي مدى يكون سخط الآخرين عندما يضعون أنفسهم في مواضع لتجرح كبرياءهم فيها. وهكذا فحصت المخطوطات بعناية شديدة.

كان كل شيء يبدو في مكانه، ما عدا عمل واحد، هو النص المكتوب على الآلة الكاتبة من ترجمتي «للعندليب الخشبي» le Rssignol de Bois . هذا «العندليب الخشبي» كان كتاب جان بيير بروتاي Jean Pierre Breteuil الأخير، والثاني في الوقت نفسه. وقمت بترجمته على الآلة الكاتبة مباشرة، وقد ترجمت الآن كثيراً من متن الكتاب، وكانت المشكلة هي سرعتي في الكتابة على الآلة، كما لم أكن أستطيع أن أربك نفسي بأوراق الكربون إذ تعوزني المهارة اليدوية، وأنت تعلم كيف تكون أوراق الكربون ـ ولهذا لم تكن هناك سوى نسخة واحدة. ولم أكن أخشى شيئاً من هذه الناحية، إذ كنت أعلم أنه إذا أرادت «مجدالين» أن تدمِّر شيئاً فسوف تدمِّر عملاً من مؤلفاتي. لا مجرد ترجمة. ووضعت ملحوظة في ذهني أن أجمعها في المرة التالية؛ ومن المحتمل أنها في المكتب الموجود في الطابق السفلي. ستكون «العندليب» من الروايات الرائجة، وهذا معناه أموال تدخل جيبي. وتدور الرواية عن مؤلف موسيقي شاب يتعرض للتحليل النفسي، فيكتشف في نهاية التحليل أن طاقته الإبداعية قد ولَّت. وقد استمتعت بهذه الرواية، وإن كانت أسوأ الكتب الرائجة مثل كل ما يكتبه «جان بيير».

ويقول «ديف جلمان» Dave Jellman إنني تخصصت في ترجمة «بروتاي» لأن هذا الكتاب من نوع أستطيع أن أكتبه أنا نفسي،

غير أن المسألة ليست كذلك، فأنا أترجم بروتاي لسهولته، ولأنه يباع كالكعك الساخن في أية لغة يُنقل إليها. وكذلك، على نحو منحرف ـ أجد متعة في الترجمة، والأمر عندي أشبه بشخص يفتح فمه فإذا بصوت شخص آخر يصدر عنه. وكان آخر ما قرأته، وإن يكن الأول، «أحجار الحب» Les Pierres de l'Amour ـ الذي قرأته في باريس، كان بلا شك فائزاً آخر. ثم ظهرت بعد ذلك رواية حديثة جداً تسمى «نحن المنتصرين» Nous les Vainqueurs، لم أقرأها بعد. وكنت قد اعتزمت أن أقابل ناشري وأن أتقاضى منه عربوناً عن «العندليب الخشبي»؛ وأحاول أن أبيعه فكرة خطرت لي في باريس عن مجموعة من القصص الفرنسية القصيرة، أترجمها وأقدمها بقلمي. ولهذا كانت حقائبي ممتلئة بها. إنها تجعل الذئب بعيداً عني. أي شيء أفضل من العمل الأصيل، على حد تعبير «ديف». كنت أعتقد أن لي حوالي سبعين جنيهاً في البنك. ولكن المشكلة الفورية العاجلة كانت هي أن أعثر على مكان رخيص ملائم لمزاجي أعيش وأعمل فيه، الآن، بعد أن أغلق مكان «إيرلز كورت» في وجهي.

لعلك فكرتَ في أن «مجدالين» كانت قاسية نوعاً ما حين طردتني على هذا النحو من قلة الاحتفال، وربما فكرت أيضاً أنني كنت رخواً حين تقبّلتُ هذا كله بهدوء. غير أن الحقيقة هي أن مجدالين ليست من الفظاظة في شيء. إنها إنسانة مشرقة، مرهفة الحس، بسيطة ودافئة القلب، وهي على استعداد لخدمة أي شخص شريطة ألا يجلب لها ذلك أية متاعب؛ ومن يستطيع منا أن يقول أكثر من ذلك؟ فيما يتعلق بي، كانت طويتي سيئة تجاه «مادج». قلت منذ لحظة إنني أعيش في منزلها مجاناً تقريباً. حسن، هذا القول لم يكن صادقاً تماماً؛ الواقع أنني عشت دون أن أدفع لها إيجاراً على الإطلاق. وكانت هذه الفكرة تضايقني قليلاً. فما أسوأ أن يعيش رجلٌ «له مركزه» على إحسان امرأة. كما كنت

اعلم أيضاً أن «مادج» تريد الزواج، وقد لمّحت إلي بذلك أكثر من مرة، وأظن أنها كانت من الممكن أن تتزوجني. ولكنني كنت أبتغي شيئاً آخر. ومن ثمّ، فعلى أساس ما في نفس كلٍّ منا، لم يعد لي حق على الإطلاق في أن أبقى في «إيرلز كورت رود»، ولم يبق لي إلا أن أشكر نفسي لو أن «مادج» بحثت عن الأمان في مكان آخر؛ وإن اعتقدت أنني كنت موضوعياً تماماً حين حكمت على «سامي المقدس» بأنه ليس شخصاً موثوقاً فيه، وقد يكون هدفاً طيباً على المدى الطويل.

وعند هذه النقطة يحسن بي أن أقول كلمة غن نفسي. إسمي «جيمس دوناجيو»، ولكن لا حاجة بك إلى الوقوف عند هذا الاسم، إذ لم أذهب إلى دبلن إلا مرة واحدة، كنت فيها أعمى تماماً من جراء شرب الويسكي، فلم أبصر ضوء النهار سوى مرتين: مرة عندما أذنوا لي بالخروج من نُقطة الشرطة في ستور ستريت (شارع المخزن)، والمرة الثانية حين وضعني «فين» في الزورق المتجه إلى «هولي هيد» Holy head. كان هذا في الأيام التي أدمنت فيها الشراب. تجاوزت الثلاثين قليلاً، وأنا موهوب، ولكني كسول. وأعيش على الأعمال الأدبية غير المنتظمة، وقليل من الكتابة الأصيلة، القليلة، على قدر الإمكان. ويستطيع المرء أن يعيش على الكتابة هذه الأيام إذا عكف عليها طول الوقت، وكان متأهباً للكتابة في كل ما يطلبه السوق. أشرت فيما قبل إلى أنني رجل قصير القامة، ولكنني نحيف، متناسق البنيان، وهذا الوصف أليق بي. شَعْري لا بأس به، وملامحي حادة خبيثة. أجيد لعبة الجودو، ولكنني لا أهتم بالملاكمة. والأهم بالنسبة لأغراض هذه الحكاية، هو أن أعصابي كانت تالفة. ولا داعي لذكر أسباب ذلك، فهذه قصة أخرى، وأنا لا أروي لك قصة حياتي كلها.. أعصابي على هذا النحو وكفى، ومن آثار ذلك أنني لا أطيق أن أبقى وحيداً مدة طويلة. ولهذا كان «فين» نافعاً جداً لي. فنحن نجلس الساعات معاً، وأحياناً دون أن ننبس بكلمة.

وربما كنت أفكر في الله، والحرية، والخلود. أما فيمَ يفكر «فين»، فهذا ما لا أدريه. ولكن الأكثر من ذلك أنني لا أستطيع أن أحيا في منزل غريب، فأنا أحب أن أكون محمياً. ومن ثمّ، فأنا طفيلي، أعيش عادة في منازل أصدقائي. وهذا شيء مريح أيضاً من الناحية المالية. ولا يضيق أحد باستضافتي لأن عاداتي هادئة، كما يستطيع «فين» أن يؤدي أعمالاً غير مألوفة.

كان الأمر مشكلة بكل تأكيد: أن نعرف أين سنذهب بعد ذلك. وساءلت نفسي هل يستطيع «ديف جلمان» استضافتنا؟ واحتضنت هذه الفكرة، وإن كنت أشك في أنها لم تكن حسنة. «ديف» صديق قديم، ولكنه فيلسوف، لا من النوع الذي ينبئك بطالعك، وإنما فيلسوف حقيقي مثل «كانت» و «أفلاطون»، وبالطبع هو لا يملك مالاً. وأحسست أنه ربما كان من واجبي ألا أثقل على «ديف». كما أنه يهودي، مدبوغ دباغة حقيقية في الجلد اليهودي، إذ يصوم، ويؤمن بأن الخطيئة لا تكفير عنها، وتصدمه قصة المرأة التي حطمت الوعاء المرمري الذي كان يحتوي على مرهم نفيس جداً، وعددٌ آخر من القصص الواردة في «العهد الجديد». وليس هذا ما يعنيني، وإنما الطريقة التي يجادل بها «فين» دون انقطاع عن الثالوث، وعن عدم أهمية العواطف، وفكرة الإحسان. ولا يمقت «ديف» مفهوماً أكثر من مقته لمفهوم الإحسان الذي يبدو في نظره معادلاً لنوع من الغش الروحي. وفي رأي «ديف» أن هذه الفكرة تحبذ اللامباشرة، كما تحبذ فكرة أن المرء يستطيع أن يفلت بأي شيء، ويقول إن على البشر أن يعيشوا وفقاً لقواعد عملية واضحة، لا على استنارة مبهمة من أفكار سامية يبدو أنها تصفح عن كل ضروب الإسراف. و «ديف» من الأشخاص القلائل الذين يتحدث «فين» معهم باستفاضة. ولا بد أن أفسّر فأقول إن «فين» كاثوليكي مرتد، ولكنه ميثودي(*) بطبعه،

(*) Methodist معناها شديد التمسك بالمنهج أو الطريقة: أحد أتباع الحركة الدينية =

أو هكذا يبدو لي، وهو يشهد بحماسة متقدة لديف. ولا يكف «فين» عن القول بأنه سيعود إلى أيرلندا لكي يعيش في بلد تعتنق ديناً بحق، ولكنه لا يذهب أبداً. وهكذا رأيت أن الأمر لن يكون مستقراً تماماً عند «ديف». وأنا أوثر تلك الحياة (مع ديف) حين لا يتكلم «فين» كثيراً. وكنت أتحدث إلى «ديف» كثيراً أنا نفسي عن أشياء مجردة. وسررت عند معرفته لأول مرة ـ حين سمعت أنه فيلسوف، وظننت أنه قد يطلعني على بعض الحقائق المهمة. إذ كنت في ذلك الوقت أقرأ «هيجل» و«إسبينوزا»، وإن كنت أعترف بانني لم أفهمها كثيراً، وكنت أرجو أن أكون قادراً على مناقشتهما مع «ديف». ولكن يبدو أننا لم نتقدم لسبب ما أي تقدم يذكر، إذ كانت معظم محادثاتنا تتلخص في أن أقول شيئاً، فيقول «ديف» إنه لا يفهم ما أعنيه، فإذا قلته مرة أخرى، بدا «ديف» نافد الصبر. ولم أدرك إلا بعد وقت طويل أن ديف حين يقول إنه لا يفهم، فإنه يقصد أن ما أقوله هراء. ويقول هيجل إن «الحقيقة» كلمة عظيمة، غير أن «الشيء» أعظم منها. ويبدو أنني مع «ديف» لم نكن نتجاوز الكلمة أبداً، ومن ثمّ، فقد استسلمت في نهاية الأمر. ومع ذلك، فأنا شديد الإعجاب بديف، ولدينا أشياء أخرى كثيرة نستطيع أن نتحدث عنها؛ وهكذا، لم استبعد فكرة العيش معه. فقد كانت الفكرة الوحيدة عندي. وعندما وصلت في نهاية المطاف إلى هذه النتيجة، حللت بعض كتبي، وتركتها مع حزمة المخطوطات تحت طاولة «السيدة تينكهام». ثم غادرت الحانوت متجهاً صوب «ليونز».

= الاصلاحية التي قادها في أكسفورد (عام ١٧٢٩) تشارلز وجون ويزلي في محاولة لإحياء كنيسة انجلترا (المترجم).

الفصل الثاني

من مناطق لندن ما هو ضروري، ومنها ما هو عَـرَضي. فكل مـا هو غربيّ «إيرلز كورت» عَرَضي، ما عدا أماكن قلائل بمحـاذاة النهر. وأنـا أكره كل ما هو عرضي. أريد أن يكون لكل شيء في حياتي علّةٌ كافية. و «ديف» يعيش غربيّ «إيرلز كورت»، وهذا شيء آخر أحفظه ضده. كان يقـطن في الطرف الأقصى من طـريق «جـولـدهـوك» Goldhawk Road (طريق الصقر الذهبي)، في واحد من تلك المبـاني السود الضـاربة إلى الحمرة والتي تسمى لسبب ما بالقصور الريفية mansions. وفي مثل تلك السياقات، أثناء طفولتي المظلمة التي قضيتها في لندن، تعلمت لأول مرة هـذه الكلمة mansion، فكـان أن نسفت كثيراً من المقـطوعات النثـرية بالنسبة لي منذ ذلك الحين، بما فيها بعض مقطوعات الكتاب المقدس. وأعتقد أن «ديف» لا يعبأ كثيراً بالبيئة المحيطة به. فلأنه فيلسوف، تـراه يهتم بحكم مهنته بالعقدة الأساسيـة للوجود (وإن كـان يكره أن يسمعني استعمل هذه الجملة)، لا بـالأطراف السـائبة التي يعبث بهـا معظمنـا. وكذلك، لما كان يهودياً، فإنه يستطيع أن يشعر بنفسه جزءاً من «التاريخ» دون أن يبذل أي مجهود خاص. وإني لأحسده على ذلك. أما بالنسبة لي فأرى أنه ينبغي عليّ أن أعمل جاهداً عاماً بعد آخر لكي أواكب التاريخ. وهكذا كان في استطاعة «ديف» أن يتحمل عنواناً عَرَضياً، أما أنا، فلم

أكن واثقاً من قدرتي على ذلك.

والقصور الريفية التي يسكن «ديف» بينها، عالية، ولكن يعلوها رغم ذلك مستشفى عصريّ ضخم، ذو جدران بيض تنتصب إلى جوار تلك القصور. مكان من البساطة والتبرير، أعبره فتنتابني قشعريرة. والآن، حين بلغت السلّم الزجاجي المعتم عند مدخل شقة «ديف»، تناهت إلى سمعي همهمة أصوات. فساءني ذلك. إذ يعرف «ديف» أناساً أكثر من اللازم، وحياته عبارة عن تجربة مستمرة من العلاقات الحميمة. وأعتقد أنا نفسي أنه مما ينافي الأخلاق أن يعقد المرء صلة حميمة بأكثر من أربعة أشخاص في وقت واحد. ولكن يبدو أن «ديف» على علاقة حميمة بأكثر من مائة. وله دائرة واسعة وثيقة الصلة به من المعارف بين الفنانين والمثقفين، كما يعرف كثيراً من رجال السياسة اليساريين، منهم بعض الشواذ مثل «لِفتي تود» Lefty Todd زعيم الحزب الاشتراكي المستقل الجديد، وغيره ممن يزيدون عليه في غرابة الأطوار. ثم هناك تلاميذه، وأصدقاء تلاميذه، والقطيع المتزايد دائماً من تلاميذه السابقين. ويبدو أن أي شخص ممن تلقى العلم على «ديف» لم يقطع الصلة به أبداً. وإني لأجد مشقة في فهم هذا، على نحو ما، إذ أن «ديف» لم يستطع أبداً ـ كما ذكرت من قبل ـ أن يعلمني شيئاً على الاطلاق عندما كنا نتحادث عن الفلسفة. ولكن ربما كان ذلك لأنني موغل في طراز الفنان الذي لا سبيل إلى إصلاحه، على حد تعبيره ذات مرة. وهذا يذكّرني بأن أضيف إلى ذلك أن «ديف» لا يحبذ طريقتي في الحياة، ويحثني دائماً على الالتحاق بوظيفة منتظمة.

ويقوم «ديف» بعمل إضافي خارج جدران الجامعة، ويجمع حوله كثيراً من الشبان الذين يهتمون بالحقيقة شطراً من وقتهم part-time. وتلاميذ «ديف» يعبدونه، وإن كان هناك صراع دائم بينه وبينهم. وهم يتطلعون

نحوه كما تتطلع أزهار عباد الشمس، وكلهم ميتافيـزيقيون بـالطبيعـة، أو هكذا يقول «ديف» بلهجة ازدراء. وعلى حين يبدو لي هذا شيئاً رائعـاً، فإنه يثير في «ديف» شهوة المعارضة. والعالم في نظر تلاميذ «ديف» عبارة عن سر؛ سر لا بد أن يكون من الممكن عقلياً اكتشاف مفتـاحه. وهـذا المفتاح ينبغي أن يكون من النوع الذي يحتويه كتـاب يتألف من حـوالي ثمانمائـة صفحة. واكتشـاف المفتاح يمكن ألا يكـون بالضـرورة مسألـة هيِّنة، غير أن تلاميذ «ديف» على يقين من أن تكريس ما بين أربع ساعات إلى عشـر كل أسبـوع ـ دون حساب العـطلات الجامعيـة ـ كافٍ للعثـور عليه. وهم لا يتصورون أن المسألة إما أن تكون أكثر بساطة أو أشد تعقيداً من هذا. ولكنهم مهيأون على كل حال ـ في حـدود معينة ـ إلى تعـديل آرائهم. وكثيـر منهم يبدأون معتنقين للمـذاهب الاشراقيـة theosophists وينتهون بوصفهم واقعيين نقديين Critical Realists أو برادليين (من أتباع برادلي)(*). وجدير بالذكر أن مذهب «ديف» النقدي كان يبدو مكتسحاً تماماً في تأثيره. إذ ينقض عليهم بغضب مدمر كالشمس، وبدلاً من إضعاف مزاعمهم الميتافيزيقية، يقوم بتحويلهم من مرحلة ثرية إلى أخرى. هذه الحقيقة العجيبة تجعلني أعتقد أن «ديف» ربما كان ـ قبل كل شيء وعلى الرغم من نفسه ـ معلِّماً جيِّداً. وقد نجح أحياناً في تحويل بعض الشبان المستجيبين ـ على نحو خاص ـ إلى عصبته من أنصار التحليل اللغوي، وهو تحول يؤدي في معظم الأحيان إلى أن ينصرف الشاب كلية عن الفلسفة. ومراقبة «ديف» وهو يؤثر على هؤلاء الشباب أشبه بمراقبة شخص يتعهد شجيرة ورد بالتهذيب والتشذيب، بحيث لا يقتلع إلا أقواها وأروعها، وقد تنمو بعد ذلك بعض البراعم، ولكنها ليست براعم فلسفية، هذا ما يثق فيه «ديف». وهدفه الأعظم هو أن يصرف

(*) فـرانسيس هربرت بـرادلي Francis Herbert Bradley (١٨٤٦ ـ ١٩٢٤) فيلسـوف إنجليزي يعتنق المذهب المثالي (المترجم).

الشباب عن الفلسفة. وهو يحذرني دائماً بالابتعاد عنها في حماسة خاصة.

ترددت لدى الباب. كنت أبغض دخول حجرة مزدحمة والشعور بمتحف كامل من الوجوه يتركز عليّ. وشعرت برغبة قوية في النكوص؛ ولكنني بحركة داخلية من الانفصال، دخلت أخيراً. كانت الحجرة غاصة بالشبان، يتحدثون جميعاً في آن واحد، ويشربون فناجين الشاي، ولكني لم أكن بحاجة إلى الاهتمام بالوجوه، لأن أحداً لم ينتبه إلى دخولي سوى «ديف» نفسه. كان يجلس في ركن مبتعداً قليلاً عن الحشد، فرفع يده حين رآني بحركة وقور من بطريرك يحيي ظهور علامة متوقعة. وليس معنى ذلك أن «ديف» كان بطريركاً عبرياً حين النظر إليه. بل كان رجلاً بديناً أصلع. له عينان عسليتان مرحتان، ويدان قصيرتان سميتان، وصوت مبحوح قليلاً، وسيطرة ناقصة على الانجليزية. وكان «فين» جالساً على مقربة منه على الأرض، وقد أعطى ظهره للجدار، ومد رجليه كضحية في حادث.

وشققت طريقي خلال عدد من الشبان غير الملتحين، وخطوت فوق «فين»، ثم صافحت «ديف». وركلت «فين» مداعباً، وجلست على حافة المائدة. فناولني شاب فنجاناً من الشاي بحركة آلية، وهو يتحدث فوق كتفه أثناء فعله هذا.

قلت: «أرى أن الحال مازال يمضي كما كان».

قال «ديف» في شيء من العبوس: «نشاط إنساني طبيعي». ثم نظر إلي في مودّة.

قال: «سمعت أنك في أزمة». رافعاً صوته فوق صوت الجلبة.

قلت محاذراً وأنا أرشف الشاي: «يجوز أن تسميها كذلك». ولم أكن

أحب الإفضاء بمتاعبي إلى «ديف»، لأنه كان يقابلها في معظم الأحيان بالسخرية وعدم التعاطف.

قال ديف: «لو كنت مكانك، لالتحقت بوظيفة مناسبة». وأشار إلى جدار المستشفى الأبيض الذي كان جاثماً عن كثب خارج النافذة.

قال: «إنهم يطلبون هناك تمرجية دائماً، بل من الممكن أن تصبح ممرِّضاً. أو ربما استطعت أن تعمل شيئاً بعض الوقت».

وكان «ديف» يدلي بهذا الاقتراح دائماً وأبداً؛ ولا أدري، لماذا لم أكن أحب أن أتبع بعض النصائح. وأظن أنه كان يقترح هذا ليضايقني. وفي أحيان أخرى، كان يلح عليّ برغبته في أن أكون ضابطاً احتياطياً، أو مفتشاً في مصنع أو مدرساً في مدرسة أولية.

ونظرت إلى جدار المستشفى وقلت: «لإنقاذ روحي».

قال ديف مزدرياً: «ليس هناك! إنك دائم التفكير في روحك. وعلى وجه الدقة، ليس الخلاص أن تفكِّر في روحك، بل أن تفكِّر في الآخرين».

كنت أستطيع أن أرى أن هذا القول ينطوي على شيء، وإن لم أكن بحاجة إلى «ديف» لكي يوضحه لي، ولم أكن أستطيع أن أرى أن هناك أي شيء يمكن أن يُفْعل في هذه اللحظة عن ذلك الموضوع. وألقى إليّ «فين» بسيجارة. كان يريد دائماً أن يحميني من «ديف» بطريقة رفيقة. المشكلة الفورية هي العثور على مكان ملائم نعيش فيه، وحتى يتحدد ذلك، لم يكن أي شيء آخر ذا أهمية. ولا بد أن أواصل الكتابة إذا شئتُ للطرفينْ أن يلتقيا؛ وحين أكون بلا بيت. لا يمكنني أن أسوِّي أية مسألة.

وحين انتهيت من تناول الشاي، أخذت أتجول جولة هادئة في شقة ديف. هذه حجرة المعيشة، وهذه حجرة نوم «ديف»، وحجرة احتياطية،

الحمام، والمطبخ. فحصت الحجرة الاحتياطية بعناية، وكانت تطل هي أيضاً على جدار المستشفى الذي كانت تبدو عند هذه النقطة وقد ازدادت قرباً. كانت الحجرة مطلية بلون بني ذهبي سقيم، اسبرطية الطراز من حيث لوازمها. وفي هذه اللحظة كانت حاجيات «ديف» متناثرة فيها. ومن الممكن أن تكون أسوأ من ذلك. وبينا كنت أفحص دولاب الملابس، دخل «ديف». كان يعلم جيداً ما يدور في ذهني.

قال: «لا، يا جيك. بالقطع لا».

- «ولماذا لا؟».

- «لا ينبغي علينا ونحن اثنان محطّمان عصبيان أن نعيش معاً».

قلت: «أيها البيثون(*) العجوز python!». لم يكن «ديف» حطاماً فاشلاً، بل شخص صلب كالحذاء القديم. ومع ذلك لم أجادله، لأنني لم أكن راضياً عن الفكرة أنا نفسي بسبب يهواه Jehovah (إله اليهود) والثالوث. قلت: «ما دمت لا تريدني، فمن واجبك أن تقدّم اقتراحاً بنّاءً».

قال ديف: «إنك لا تُصغي للنصح أبداً، ومع ذلك سأحاول التفكير».

كان «ديف» يعرف متطلباتي. ورجعنا إلى الحجرة الأخرى، فغمرتنا الضجة من جديد.

- «عليك أن تحاول مع السيدات، أليس كذلك؟».

قلت: «ليس كذلك، فقد حاولت مع السيدات».

- «تجعلني عليلاً في بعض الأحيان، يا جيك».

(*) ثعبان كبير جداً، ويطلق في الأساطير الإغريقية على الكاهن أو العراف (المترجم).

ـ «لا أستطيع أن أتخلص من نفسيتي. وأياً كان الأمر، ليست الحرية إلا مجرد فكرة».

وصاح «ديف» قائلاً لشخص ما عبر الحجرة: «هذا في الجزء الثالث من «نقد العقل الخالص».

سألت: «أية السيدات تعني؟».

قال ديف: «أنا لا أعرف نسوتك. ولكن، لو أنك قمت ببعض الزيارات القليلة، فربما أوحت إليك إحداهن بفكرة».

أحسست بأن ديف سيكون أكثر سروراً حين يراني مستقراً في مكان آخر. وفجأة قال «فين» الذي كان يرقد مُخفياً رأسه تحت المائدة: «حاول مع آنا كوينتين». وكانت تخطر لفين أحياناً أعجب الالهامات.

ونفذ هذا الاسم في جسدي كما ينفذ الرمح قلت: «كيف أستطيع ذلك؟» وأردفت قائلاً: «لا شيء أشد استحالة من ذلك».

قال «ديف»: «آه، أنت مازلت كذلك».

قلت: «لستُ (كذلك) على الاطلاق. وعلى كل حال، ليست لدى أية فكرة عن مكانها». وأشحت عنهما متجهاً صوب النافذة. كنت لا أحب أن يقرأ الناس ما هو مسطور على وجهي.

قال ديف الذي يعرفني جيداً: «إنه منحرف المزاج!».

قلت: «اقترح شيئاً آخر».

قال «ديف»: «اقترح أنك أحمق كبير. يجب أن يأخذك المجتمع من مخنقك وأن يهزك ويجعلك تؤدي عملاً معقولاً. وحينئذ يمكن أن تتاح لك في أمسياتك إمكانية تأليف كتاب عظيم».

كنت أرى أن «ديف» في حالة سيئة من حالات مزاجه. وكانت الضجة

تتعالى. فدفعت بقدمي الحقيبة تحت المائدة إلى جوار «فين».

ـ «هل يمكنني أن أترك هذه هنا؟».

كيف يمكن أن تعرف نفسك الحقيقية على كل حال؟ كان شخص ما يوجِّه هذا السؤال.

قال «ديف»: «تستطيع أن تترك الاثنين هنا».

قلت: «سأتصل بك هاتفياً فيما بعد». وتركتهما.

*

كنت لا أزال متألماً من الاسم الـذي تفوَّه بـه «فين». ولكن في وسط هذا الألم أخذ لحن عجيب يتردد بين جوانحي؛ نـاي صغير نَفَـخَ داخل صدري لكي أنصرف. لم تكن لدي بالـطبع أيـة نية للبحث عن «آنّـا»، ولكنني كنت أريد أن أختلي بفكرتي عنها. لست متصرفاً فيما يتعلق بالنساء؛ وأنا أحب النسوة في روايات جيمس كونـراد اللواتي يشبهن الزهور شَبَهاً عجيباً، واللواتي يوصفن بأنهن «صادقات، عميقات، كتومات، جديرات بالثقة». صفة «العمق» هذه جيدة؛ أيادٍ بيض مرفرفـة، وعميقة كـالبحر. غير أنني لم أكن قد التقيت بإحدى هاته النسوة في الحياة الواقعية. كنت أحب أن أقـرأ عنهن، ولكنني كنت أحب أن أقرأ أيضـاً عن بيجـاسـوس Pegasus وكرايساؤور(*) Chrysaor. أما النساء الـلاتي عرفتهن فكن في أغلب الأحيان قليلات الخبـرة، عاجـزات عن الافصاح، سـريعات إلى التصديق، وبسيطات؛ ولكنني لا أرى ما يدعو إلى وصفهن بالعمق لأنهن يُـظْهـرن من الصفـات مـا يجعلنـا نسمي من يتصف بهـا من الـرجـال بالاستغراق الذاتي. أو لو كن ماكرات، فإنهن يخدعن أنفسهن ويخدعن الآخرين بنفس الطريقـة التي يلجأ بهـا الرجـال إلى الخداع. إنـه نفس

(*) إسمان في الأساطير الإغريقية: الأول لحصان مجنح نشأ من دمـاء «ميدوزا» حين أطاح برسيوس برأسها، والثاني اسم سيف ذهبي (المترجم).

الخداع الذي نتورط فيه جميعاً، فيما عدا أن النساء دائماً أقل توازناً نتيجة للدور الذي عليهن أن يقمن بأدائه.. وذلك أشبه بالأحذية ذات الكعب العالي التي تقوم بنقل الأعضاء الباطنية عن مكانها بمرور الزمن. وما أقل الأشياء التي تثير اشمئزازي أكثر من هذه الأفكار العميقة المزعومة.

ومع هذا كله، فقد وجدتُ «آنا» على شيء من العمق. ولا أدري ماالذي وجدته فيها بحيث يبرر لي وصفها بأنها غامضة، ومع ذلك بدت لي دائماً كائناً لا سبيل إلى سبر أغواره. قال لي «ديف» ذات مرة إنك إذا وجدت أن شخصاً ما غير قابل للتحليل فهذا ببساطة هو تعريف الحب، وهكذا، ربما كنت أحب «آنّا». إن لها صوتاً مبحوحاً، ووجهاً صيغ من حنان يضيئه دائماً توهج دافىء يشع من الداخل.. إنه وجه مفعم بالحنين، وإن كان متحكماً في توازنه دون أدنى أثر للسخط. ولها شعر كستنائي كثيف تعقصه في خصلات مقوّسة على الطراز القديم، أو كان كذلك حين عرفتها لأول مرة. وكان ذلك منذ عهد بعيد. و «آنّا» تكبرني بست سنوات، وحين التقيت بها أول مرة كانت تؤدي دوراً غنائياً بالاشتراك مع أختها سادي Sadie. كانت «آنّا» تقدِّم الصوت، وسادي تؤدي اللقطة. ولـ «آنّا» صوت من طبقة الكونترالتو ينفذ إلى القلب حتى لو استمعت إليه من المذياع؛ وإشاراتها قليلة حين تُغنّي، مما يجعل مقاومتها وجهاً لوجه أمراً لا سبيل إليه، إذ يبدو أنها تقذف بالأغنية في قلبك، أو هذا على الأقل هو ما صنعته بي في المرة الأولى التي استمعت إليها، ولم أستطع منذ ذلك الحين التغلب على هذا الشعور.

وتشبه «آنّا» أختها كما يشبه طائر أسود عذب نوعاً من السمكة الاستوائية الخطرة، ولم يلبث الفصل الذي اشتركتا فيه أن توقف، وأظن أن هذا راجع إلى أنهما متنافرتان، لا تحتمل إحداهما الأخرى من ناحية، ولأن طموحاتهما تفترق من ناحية أخرى. ولعلك تذكر أن الأفلام

البريطانية كانت تجتاز في تلك الفترة مرحلة حرجة. وكانت «شركة باونتي بلفاوندر» The Bounty Belfounder Company قد أنشئت من فورها، وانتقلت «شركة فانتازيفيلم المحدودة»Phantasifilm Ltd القديمة إلى أيْدٍ جديدة. غير أن أياً من الشركتين لم تكتشف نجوماً جديدة، على الرغم من وجود الأوفياء القدماء المعتادين؛ ومن حين لآخر كان أحد الشبان المبتدئين يظفر بالضجة الصحفية المعهودة ثم يتلاشى بعد فيلم واحد كما تتلاشى الضجة التي يحدثها إطلاق صاروخ من الألعاب النارية، وفي مدة قصيرة لا تزيد عن عمر هذا الصاروخ. ومن الجلي أن «فانتازيفيلم» قد قررت أن الكائنات البشرية لا تجلب لها إلا مكاسب ضئيلة من حيث شباك التذاكر، فبدأت تنصرف إلى أنتاج سلسلة من الأفلام عن الحيوانات؛ وقامت فعلاً بكشف أو كشفين في المملكة الحيوانية: هما بالطبع فيلم «الألزاسي» Alsatian وفيلم «ميستر مارس» Mister Mars اللذان كان ما فيهما من هروب عاطفي سبباً في إنقاذهما من الإفلاس. أما «شركة باونتي بلفاوندر» فكانت منذ البداية مؤسسة أكثر نجاحاً، وفي هذه المنطقة سرعان ما بدأت «سادي» تبيع مواهبها؛ وتحولت سادي - كما تعلم - إلى كوكب من الكواكب.

والنجمة ظاهرة غريبة. إنها ليست نفس الشيء الذي نسميه ممثلة جيِّدة على الشاشة؛ كما أنها ليست مسألة فتنة أو جمال. الذي يخلق النجمة صفة تطفو على السطح ونوع من البريق éclat، «وسادي» تتمتع بهذا البريق؛ أو هذا ما يعتقده الجمهور، وإن كنت لاأزال أوثر شخصياً كلمة «وميض» flash. ولعلك قد استخلصت أنني لست مولعاً بسادي. سادي مخلوقة لامعة مبهرة. وهي أصغر من «آنّا» سناً، ولها ملامح «آنّا»، وإن كانت أدق وأشد إحكاماً، وكان شخصاً شرع في تقليص رأسها ولكنه لم يتجاوز المرحلة الأولى أبداً. ولها صوت في الحديث لا يختلف عن صوت «آنّا»، فيما عدا أن النبرة المبحوحة أكثر معدنية. وهذه البحة

ليست بحة الفَرَس، بل بحة الحديد الصدىء. ومن الناس من يجد هذه البحّـة شديدة الإغراء، ولكنها لا تستطيع الغناء.

ولم تحاول «آنّا» مطلقاً أن تقـوم بتمثيل الأفـلام. ولا أدري لماذا؛ إذ كانت تبدو لي دائماً أنها تتمتع بقدرات أعظم كثيراً من قدرات «سادي». ولكن ربمـا كانت واجهتهـا الخارجيـة مفتقرة افتقاراً سـطحيـاً معينـاً إلى التحديد. فأنت في حاجـة إلى أن تكون سفينـة ذات مقدم حـاد لتقتحم عالم الأفلام. وبعد أن افترقت «آنّا» عن «سادي»، قامت «آنّا» بقـدر من الغناء الجاد؛ ولكنهـا كانت تفتقـر إلى التدريب الضـروري للتوغـل في العالم. وعندما سمعت عنها آخر مرة، كانت تغني أغاني شعبية في ملهى ليلي، وهذا النوع من الامتزاج بين الغناء الجاد والغناء الخفيف كان يعبِّر عنها تعبيراً حسناً جداً.

اعتادت «آنّا» الحياة في شقة ضيقة في «طريق بيـزووتر» Bayswater Road، تطل عليها المنازل الأخرى، وكثيراً ما ذهبت إلى هنـاك لأراها. كنت متعلقاً بها تعلقـاً شديـداً، وحتى مع ذلـك كنت أرى أن شخصيتها ليست على الاطلاق ما ينبغي أن تكون عليه. كانت «آنّا» من أولئك النسوة اللواتي لا تستـطعن رفض أي عـرض للحب. لا لأن ذلـك كـان يتملق مشاعرها، بل لأنها كانت موهوبـة في العلاقـات الشخصية، كمـا كانت تحن إلى الحب كما يحن الشاعر إلى جمهور. ولكل من يعن له أن يرتبط بها، كانت تمنحه من فورها انتباها متفانياً، سخياً، خيالياً، خالياً تماماً من كل نزوة، وإن تحاشى الاستسلام الذاتي تحاشياً محسوباً. وهذا بلا شك سبب آخر لعدم اشتراكها في الأفلام، إذ ينبغي أن تكون حياتها الخاصة نشاطاً يستغرق وقتها كله تقـريباً. ولهـذا أيضاً نتيجتـه المحزنـة وهي أن وجودها فصل واحد طويل من الخيانة؛ وعندما عرفتها كانت متورطة دائماً في الاستسرار والكذب لتخفي عن كل واحد من أصدقائهـا أنها مـرتبطة ارتباطاً وثيقاً بغيره من الأصدقاء جميعاً. أو قد تحـاول في بعض الأحيان

أسلوباً فنياً آخر، هو إماتة حدة الغيرة بصدمات صغيرة منتظمة حتى تصبح الضحية في نهاية الأمر مستسلمة للنظرة المتحررة لعواطفها، مع بقائها مستعبدة لها دائماً وأبداً كما كانت من قبل. لم يكن يعنيني هذا، وإنما كان بصري ينفذ من خلال «آنا» سريعاً. غير أن تفسيري لها لم يسلبها سرها أبداً، كما أن تحللها العاطفي لم يحوّلني ضدها. ولعل ذلك راجع إلى شعوري الدائم بقوة حنانها نحوي وحقيقته، وكأن هذا الحنان نسيم دافىء يهب من جزيرة طال الشوق إليها حاملاً إلى البحّار المسافر عبير الزهور والفاكهة. وكنت أعلم أن من الممكن جداً أن يكون هذا السحر بالضبط هو الذي يجعلها تحتفظ بمعجبيها جميعاً. ولكن كان هذا العلم وعدمه سيان.

ولعلك تتساءل: ألم أفكر قط في الزواج من «آنا»؟ الواقع أنني فكرت، غير أن الزواج يظل بالنسبة لي فكرة من أفكار العقل، مفهوماً قد يقوم بتنظيم حياتي لا بتكوينها. ولا يسعني/ حين أضع أية إمرأة موضع الاعتبار ـ إلا أن ألجأ إلى إمكانية الزواج بوصفها افتراضاً منيراً لا يكون بأي معنى جاد أداة لما هو واقع بالفعل. ولكنني مع «آنا» ـ على كل حال ـ اقتربت من أخذ المسألة مأخذ الجد؛ وربما كان هذا هو ما أبعدني عنها في النهاية، مع يقيني بأنها لن تقول نعم أبداً. وكنت أمقت العزلة، ولكنني كنت أخشى العلاقة الحميمة. وجوهر حياتي هو المحادثة الخاصة التي أجريها مع نفسي، والتي إذا تحولت إلى حوار كان ذلك معادلاً لتدمير ذاتي. والصحبة التي أحتاج إليها هي الصحبة التي يمكن أن تتوفر لي في حانة أو في مقهى. لم أكن أنشد أبداً تواصل الأرواح. والمشقة التي يلقاها المرء في مكاشفة نفسه بالحقيقة فيها بالفعل من الكفاية ما فيها. غير أن تواصل الأرواح كان الموضوع الخاص بـ «آنا» كما كان لها أيضاً شغف بالمأساة يثير أعصابي. كانت عينها شاخصة دائماً إلى الدراما الثقيلة، وكانت تأخذ الحياة بشدة وحدّة. على حين كنت

أعتقد أنه من الحماقة أن تؤخذ الحياة على هـذا النحو، وكـأنك تستفـز حيواناً خطراً سيحطِّم عظامك في نهاية المطاف على كل حـال. وهكذا عندما رحلت «آنّا» إلى فرنسا لتغني الأغاني الشعبية الفرنسية في الملاهي الليلية الفرنسية قلت لها في شيء من الإبهام إنني سأزورهـا حين تعود، وكانت تعلم أنني لن أفعل، وكنت أعلم أنها تعلم. كان ذلك منذ بضـع سنوات خلت، واستمتعت بوقت هـادىء منذ ذلـك الحين وبخاصـة في «إيرلز كورت رود».

وعنـدما غـادرت منزل «ديف»، سـرت متجهاً صـوب «شبردز بـوش» (أجمـة الراعي) Shepherds Bush، وركبت حـافلة الركـاب رقم ثمانيـة وثمـانون، وجلست في مقعـد أمامي من الـطابق الأعلى، وكانت بعض الخواطر التي سجلتها فيما سبق تَعْبُر ذهني. لم يكن من اليسير أن يجد المرء شخصاً ضاع منه منذ أعوام في لندن، وخاصة إذا كان ينتمي إلى الوسط الذي تنتمي إليه «آنّا»، وبالطبع كان أول ما يفعله هو أن يبحث في دليل الهاتف. ومن ثمّ، فقد نزلت في «سيرك أكسفورد» Oxford Circus، ودخلت الأنفاق. فلما تركت «طريق الصقر الذهبي» byoldhawk Road، لم تكن لدي أية نية للبحث عن «آنّا»، ولكن حين عبـرت «شارع بـوند» Bond Street، بدا لي حقاً أن لا شيء في العالم جدير بأن أفعله سـوى هـذا البحث. ولم يكن من الواضـح لي ـ بكـل تـأكيـد ـ كيف واصلت الوجود بدونها كـل هذه المـدة الطويلة. ولكن هـذه هي طبيعتي: أستقر فترات طويلة، وفي هذه الأوقات لا أحرك إصبعاً لنقل جنيه مسافة يـاردة واحدة. حين أكون مستقراً في مكاني لا أتحرك أبداً، ولكن حين لا أكون مستقراً أصبح قابلاً للتـطاير، ومن ثم أطيـر عشوائيـاً من نقطة إلى نقـطة كالمفرقعات النارية أو كأحد إلكترونات هيزنبرج(*) حتى أستقر مرة أخرى

(*) ورنـر هيـزنبرج Werner Heisenberg (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) عـالم ألماني في الفيـزياء =

في مكان آمن. كما أومن أيضاً إيماناً عجيباً بإلهامـات «فين». فكثيراً مـا يحدث أن يقدِّم «فين» اقتراحاً غير متوقع. فإذَا تبعته أتبين أنه كان الاقتراح السليم تمـاماً. وكنت أرى أن مـرحلة «إيرلـز كورت رود» من حيـاتي قد ولَّت، وأن خلوّ البال الذي استمتعت به في تلك المرحلة قـد مضى إلى غيـر رجعة. وهـا هي «مادج» تفـرض تلك الأزمة عليّ؛ فليكن، سـوف أستكشفها، بل ربمـا استغللتها. من يستـطيع أن يتنبأ باليـوم الذي قـد يستهل عصراً جديداً؟ وتناولت دليل لندن من حرف «ل» إلى حرف «ر».

لم يهـدني الـدليـل إلى شيء؛ فلم انـدهش. ثم اتصلت بـوكـالتين للمسرح، فلم تكن كلتاهما تعلم شيئاً عن عنـوان «آنّا»، واتصلت بهيئـة الاذاعة البريطانية B.B.c، التي كانت تعلم، ولكنها لا تـريد أن تقـول. وخطر لي أن ألتقي بسادي في «استوديو بلفاوندر»، ولكنني لم أكن أريد أن تعرف «سادي» أنني أبحث عن «آنّا»، إذ كنت أرتاب في أن «سادي» كانت مُغْرمة بي في وقت من الأوقات؛ وأيـاً كان الأمـر فقد كـانت دائماً مستاءة ـ في تلك الأيام الخوالي ـ من إعجابي بـ «آنّا»، وإن كنت أعلم أن بعض النسـاء ينظرن إلى الـرجال جميعـاً بوصفهم ملكيتهنّ الشخصيـة، واعتقدت أنه من الممكن أن تمتنع عن إخباري بمكان «آنّا» حتى لو كانت تعلم. وعلى كل حال، لم أكن قد رأيت «سادي» منذ أن أصبحت على تلك الشهـرة، فلم أتخيل أنهـا ترحِّب بـأية محـاولة من جـانبي لتجديـد معرفتي بها، ولا سيما إذا كانت تدرك أنني أدرك ما أخمنه على أنه كـان حالة مشاعرها نحوي. كان الآن هو موعد الفتح تقريباً. وبدا من العبث أن أبدأ في الاتصال بالملاهي الليلية في هذه الساعة، ومن ثم لم أجد ما أفعله سوى أن أقصـد «حي سوهو». فهناك دائماً من يعـرف الشيء الذي

= النـظريـة وضـع مبدأ اللاتعين indetermination في ميكانيكا الكم Quantum mechanics (المترجم).

تبحث عنه؛ كل ما في الأمر هو أن تجد ذلك الشخص الذي يدلّك. كما كانت هناك دائماً إمكانية الالتقاء بـ «آنّا» نفسها. ومن أقداري أنني ما أن أهتم بشيء ما حتى تقع مئات الحوادث التي تتصل بذلك الشيء. ولكنني كنت أرجو ألا ألتقي بـ «آنّا» في البداية في مكان عام، إذ كان عقلي قد بدأ فعلاً في الانشغال كثيراً بهذا اللقاء.

كنت أتجنب عادة الاقتراب من «حي سوهو»، أولاً لأنه مُتْعب جداً للأعصاب، وثانياً لأنه يكلّف كثيراً. وهو لا يكلف كثيراً لأن التوتر العصبي يدفع المرء إلى تجرع الخمر باستمرار، ولكن بسبب الناس الذين يأتون ويأخذون من المرء نقوده. وأنا سيّىء غاية السوء في مسألة رفض الناس الذين يسألونني شيئاً من النقود، إذ لا أستطيع أن أتصور كيف يكون لدي من المال النقدي الجاهز ما يزيد على ما لديهم ولا أكون ملزماً بإعطائهم على الأقل شيئاً مما أملك. أعطي بشيء من النفور، ولكن دون تردد. وفي الوقت الذي قطعت فيه «شارع بروَر» Brewer و «شارع أولد كومبتون» Old Compton وصعّدت في الشارع اليوناني Greek Street حتى بلغت «أعمدة هرقل» Pillars of Hercules، كانت معظم النقود التي في جيبي قد أخذها معارفي المتعددون. وشعرت حينذاك بأنني عصبي إلى أقصى حد، لا بسبب «سوهو» فحسب، بل لأنني كلما دخلت حانة تخيلت أنني سأجد «آنا» في داخلها. وكنت أتردد على هذه الحانات مئات المرات في الأعوام القلائل الأخيرة دون أن تطرأ هذه الفكرة على بالي؛ غير أن لندن كلها أصبحت الآن فجأة إطاراً فارغاً. كل مكان يفتقر إليها ويتوقعها في آن واحد. وبدأت أعاقر الخمر.

وعندما وجدت نفسي خاوِيَ الوفاض، اجتزت الشارع لأصرف شيكاً في أحد النوادي التي أتعاطى فيها الخمر بعد الظهر، وكان قريباً مني؛ وهناك التقطت أخيراً أول الخيط، إذ سألت الساقي إن كان يعرف أين أجد «آنّا» هذه الأيام. فأجابني بنعم، فهو يعتقد أنها تعمل بمسرح صغير في

هامر سميث Hammersmith . وفتّش تحت البار، وأخرج بطاقة تحمل هذه العبارة: «مسرح ضفة النهر» The Riverside Theatre، وعنواناً على «متنزه هامر سميث» Hammersmith Mall. وقال الساقي إنه لا يعرف إن كانت لاتزال هناك، ولكن هذا هو عنوانها منذ شهور مضت. وكانت قد تركت له هذه البطاقة ليعطيها لجنتلمان لم يعد إلى الظهور أبداً. وقال الساقي إن في استطاعتي أن آخذها الآن. فأخذتها، وخرجت إلى الشارع وقلبي يثب بين ضلوعي. وكنت بحاجة إلى تفكير جدّي في حالتي المالية مما يمنعني من اتخاذ سيارة أجرة إلى هامرسميث. غير أنني عدوت الطريق كله إلى محطة ميدان ليستر Leicester Square station .

الفصل الثالث

كان العنوان الذي أُعْطِيَ لي يقع في ذلك الجزء من المتنزه الذي يمتد بين «الدونز» the Doves (اليمام) و «البلاك ليون» the Black Lion (الأسد الأسود). والبيوت على «متنزه تشيزويـك» Chiswisk Mall تواجـه النهر، على أنها في ذلك الشطر من متنزه هامرسميث Hammersmith Mall الذي يتعلق بحكايتي تدير البيوت ظهورها للنهر، وتتظاهر بأنـه شارع عـادي. و «متنزه تشيزويك» عبارة عن مجموعة خاملة من المنازل والخضـرة التي تطل حالمة على المياه، غير أن «متنزه هامر سميث» يتألف من متاهة من شبكات المياه والمغاسل تتخللها الحانات والبيوت الجورجيانيـة، بحيث تواجه النهر حيناً وتدير ظهـرها لـه حيناً آخـر. وتبين لي أن الرقم الـذي وُجِّهتُ إليه عبارة عن منزل يقف منعزلاً قليلاً، ومنفرداً بنفسه، مولياً ظهره للنهر، ويطل بواجهته على شطو هادىء من النهر، وعلى جانبه فتحة تؤدي بعض درجات من سُلَّم ممتد أمامها إلى الماء؛

لم أكن حتى الآن في عجلة من أمري. نظـرت إلى المنزل بفضول مستـريب، فبدا كـأنه يَـرُدُّ على نظرتي. كـان نوعـاً من المنازل الكئيبـة المستغرقة في نفسها، تتصدره حديقة صغيرة مُهْملة، وجدار يرتفع عالياً. وكان المنزل مُرَبَّعاً، بصفوف من النوافذ الطويلة، وقد احتفظ بأثـارة من أناقة. اقتربت من البوابة الحديدية القائمة في الجدار، وحينذاك لاحظت

ملصقاً ثُبِّت على الجانب الآخر من البوابة. كان ملصقاً من صناعة منزلية قد بهتت ألوانه قليلاً بحيث اتخذ مظهراً حزيناً إلى حد ما. وكشفت مغاليقه. كان يقول:

مسرح ريفرسايد الإيمائي

يُفْتتح مرة أخرى في أول أغسطس بإنتاج فخم رائع للمهزلة farce العظيمة التي كتبها إيفان لازمنيكوف Ivan Lazemnikov «ماريشكا». الدخول للأعضاء فقط. ومطلوب من المشاهدين أن يضحكوا بصوت خافت وأن يمتنعوا عن التصفيق.

حملقت في هذا الكلام بعض الوقت، لا أدري لماذا، ولكنه صدمني بغرابته. وأخيراً، وبتصاعد (كريشندو) بطيء في منطقة القلب، دَفَعْتُ البوابة التي كانت صدئة قليلاً، لتنفتح، ومضيت داخل المنزل. كانت النوافذ تلتمع التماعاً أسود، كأنها عيون وراء نظارات سود. وكان الباب حديث الطلاء. لم أبحث عن جرس، وإنما حاولتُ أن أدير المقبض في الحال. انفتح الباب في هدوء، وخطوتُ إلى القاعة على أطراف أصابعي. . وانبعث من المكان سكون مُقْبض كأنه سحابة، فأغلقت الباب. وبهذا كتمت كافة الأصوات الصغيرة الصادرة عن جهة النهر. والآن، لم يعد هناك سوى السكون.

وقفت لحظة جامداً تماماً حتى صار تنفسي أكثر انتظاماً، وحتى أستطيع أن أتبين طريقي في القاعة المظلمة. وفيما أنا أقوم بهذه الأفعال سألت نفسي لماذا كنت أتصرف على هذا النحو الغريب؛ غير أن قربي الممكن من «آنا» أربكني تماماً، فجعلني عاجزاً عن التفكير، ولا أملك إلا الإتيان بهذه السلسلة الصغيرة من الأفعال التي تفرض نفسها بشعور من الحتمية. مشيت على مهل في القاعة، غارساً قدميّ بعناية فوق سجادة سوداء طويلة تمتص الصوت. وعندما وصلت إلى درجات السلم، انزلقت عليها؛ وظننت أن قدميّ لامستا تلك الدرجات. ولم أكن أستطيع الاستماع إلى أي صوت.

ألفيتُ نفسي فوق بسطة عريضة، ومن ورائي درابزين خشبي منقوش، وفي مواجهتي أبواب عِدَّة. كان كل شيء يبدو نظيفاً منسّقاً على نحو بديع. وكانت السجاجيد سميكة، والأشغال الخشبية مصقولة كتفاحة. نظرت حولي. ولم يخطر على بالي أن أشك في أن «آنّا» في مكان ما قريبة مني، كما لم يخطر على بالي أن أناديها باسمها أو أن أحدث أي صوت آخر. فتحركت إلى أقرب باب وفتحته على مصراعيه. وهنا أصابتني صدمة جمَّدتني من رأسي إلى أخمص قدمي.

وجدتني أنظر مباشرة إلى سبعة أو ثمانية أزواج من العيون المحملقة، كانت تبدو واقعة على بعد أقدام قلائل من وجهي. تراجعت إلى الوراء مسرعاً، وعاد الباب إلى الانغلاق بقرقعة خافتة كانت أول صوت أسمعه منذ أن دخلت المنزل. وقفت بلا حراك برهة من الزمن لا أفهم شيئاً على الاطلاق، تخزني فروة رأسي. وهنا أمسكت بالمقبض في شدة، وفتحت الباب ثانية، وخطوت وأنا أفعل ذلك إلى الدهليز. وتحركت الوجوه، غير أنها ما برحت مُصَوَّبة نحوي. وفي لحظة فهمت. كنت في قاعة مسرح صغير. وكانت القاعة المنحدرة القصيرة تبدو مؤدية مباشرة إلى المسرح؛ وعلى خشبة المسرح عدد من الممثلين يتحركون صامتين جيئة وذهاباً، ويرتدون أقنعة يتجهون بها إلى المشاهدين. وكانت هذه الأقنعة أكبر قليلاً من الوجوه الحية، ولهذا السبب كان ذلك الانطباع الغريب بالقُرب الذي تلقيته حين فتحت الباب أول مرة. والآن قام مجالي الإدراكي بعملية تكيُّف، ومن ثمّ أخذت أتأمل هذا المشهد الغريب في اهتمام مفتون ودهشة.

لم تكن الأقنعة ملتصقة بالوجوه، وإنما معلقة على قضيب يمسكه الممثل بيده اليمنى ويسندها بمهارة في موازاة الأضواء السفلية، بحيث لا تظهر أية لمحة من ملامح الممثل الحقيقية. وكانت معظم الأقنعة مصنوعة على أنها وجوه كاملة، عدا اثنين منها كانت تضعهما المرأتان

الوحيدتان في المشهد، إذ كانا لجانب واحد من الوجه فحسب. وكانت ملامح القناع مصطنعة ومبالغاً فيها، وإن تكن على طراز من الجمال عجيب، ولاحظت بوجه خاص القناعين الأنثويين، كان أحدهما حسّياً رزيناً، وكان الآخر عصبياً، مترقباً، منافقاً. ومُلئت عيون هذين القناعين، أما الأقنعة الذكورية فكانت عيونها جوفاء تلمع فيها عيون الممثلين على نحو غريب. وكان الجميع يرتدون البياض: الرجال في أقمصة ريفية بيضاء والسراويل القصيرة الخاصة بركوب الخيل، والنسوة في ثياب بيضاء طويلة تصل إلى كعوبهن وضيقة عند خصورهن. وتساءلت هل هذه هي مهزلة «ماريشكا» العظيمة التي كتبها «لازمنيكوف»؛ وكانت «ماريشكا» ومؤلفها غريبين عني على السواء.

وفي هذه الأثناء، كان الممثلون يواصلون تنفيذ حركاتهم في ذلك الصمت الغريب الذي خَيَّم على المكان كله كأنه السحر. وتبينت أنهم كانوا ينتعلون خفافاً ناعمة مُحْكمة، وأن خشبة المسرح مغطاة بالسجاجيد. فكانوا يتحركون على خشبة المسرح وكأنهم ينزلقون أو يتسللون، وقد جعلوا يديرون رؤوسهم المقنّعة من جانب إلى آخر، ولاحظت شيئاً من تلك التعبيرية الغريبة للعنق والكتف التي تفوّق فيها الراقصون والراقصات الهنود. وكانت أيديهم اليسرى تؤدي حركات تقليدية بسيطة متنوعة. ولم أكن قد شاهدت شيئاً من التمثيل الإيمائي كهذا من قبل، فكان تأثيره عليّ أشبه بالتنويم المغناطيسي. وما كان يجري على خشبة المسرح لم يكن واضحاً بالنسبة لي، ولكن كان يبدو أن شخصية رئيسية ضخمة فخمة كانت ترتدي قناعاً يعبِّر عن نوع من الغباء المشتاق المتواضع ـ يلقاها الممثلون بالسخرية والاستهزاء. وتفحصت المرأتين بعناية، متسائلاً عما إذا كانت إحداهما هي «آنّا»، ولكني كنت على يقين من أنها لم تكن إحداهما، وإلا لعرفتها في الحال. ثم استرعى نظري الممثل الساذج صاحب الجسم الضخم. وظللت فترة

من الزمن أحدق في القناع، بثباته المبالَغ فيه، ووميض العينين وراءه. ويدا كأن قوة معينة تشع من هاتين العينين نَفَذَت فيّ بصدمة لطيفة. وحملقت وحملقت. كان في هذا الهيكل العملاق شيء يبدو مألوفاً على نحو غامض.

وفي هـذه اللحظة، قـرقعت خشبـة المسـرح على أثـر حـركـة من الحـركات، وارتعش الستـار الخلفي قليلاً. وأرجعني هـذا الصوت إلى نفسي، وجلب معه إدراكاً مباغتاً منذراً بأن الممثلين يستطيعون أن يروني. فتـراجعت على أطـراف أصـابعي إلى البسـطة، وأغلقت البـاب. كـان الصمت يغشاني من فوق رأسي كأنه ناقوس ضخم، غير أن المكان كله كان ينبض بذبذبة لا صوت لها، تبينت بعـد لحظة أنهـا ضربـات قلبي. استدرت الآن لأشاهد الأبواب الأخرى. وعلى باب في الـطرف الأقصى من البسطة علِّقت ملحوظة. قرأت، «حجرة الأدوات المسرحيـة» Props room وكانت مكتوبة بحروف كبيـرة، وتحتها بحـروف أصغر، «الآنسـة كوينتين». أغمضت عينيّ لحظة، وأوقفت تنفسي. ثم طرقت الباب.

تـردد صدى الصـوت على نحـو غـريب، ثم قـال صـوت مبحـوح: «ادخل».

دخلت الحجرة. كانت حجرة طويلة ضيقـة تطل على النهـر، وكانت ممتلئة إلى حافتها بنوع من «الكراكيب» الملونة التي لم أستطع أن أميزها في بـداية الأمـر. ووسط هذه الفـوضى، جلست «آنّا» تكتب شيئـاً على منضدة للكتابة، وظهرهـا ناحيتي. وحين أغلقت البـاب ورائي استدارت نحوي على مهل. أخذنا نتبادل النظر في صمت لحظة طويلة. وأحسست بروحي تصعد إلى عينيّ كما يملأ المرء كأساً؛ وفي هذا الاتزان المتوتـر للقائنا، عاش كلٌّ منا لحظة تأمل. نهضت «آنّا» وقالت: «جيك!»، وهنا أبصرتُها.

كانت أكثر امتلاءً، ولم تدافع عن نفسها ضد الزمن. وارتسمت على محياها نظرة محطمة كانت مؤثرة إلى ما لا نهاية. ووجهها الذي أذكره على أنه مستدير أملس كثمرة المشمش، أصبح متوتراً إلى حد ما، متغضناً، وكشفت رقبتها الآن عن سنِّها. والعينان العسليتان الواسعتان اللتان كانتا متفتحتين على العالم في بشاشة، يبدو أنهما ضاقتا، وحيث اعتادت «آنّا» أن ترسم خطا قاتماً يميل إلى أعلى عند ركنيهما، خطّطت السنون مجموعة من التجاعيد الصغيرة. وخصلات الشعر التي كانت تفلت من إكليلها المعقوص على رأسها التفّت الآن حول عنقها، وتبينت فيها خيوطاً رمادية. تأملت الوجه الذي عرفته حق المعرفة، وشعرت الآن وأنا أرى جماله فانياً لأول مرة ـ انني لم أحبه قط بمثل هذا الاعتزاز. وارتاعت «آنّا» من نظرتي، وبحركة غريزية لاذت وراء كفّيْها.

قالت: «ماذا أتى بك هنا يا جيك؟».

انتهى السحر فقلت: «أردت أن أراك». ؛ وكنت الآن حريصاً على تجنب النظر إليها، واستجماع ذكائي المشتت. تفحصت الحجرة بنظراتي. كانت خليطاً عجيباً من أشياء مكدسة في أكوام يصل بعضها إلى السقف في أكثر من مكان. غير أن شيئاً من الاتساق والتجانس الغريبين كان يجمع بين محتويات الحجرة، وكانت هذه المحتويات تبدو ملتصقة بالجدار كأنها محتويات برطمان نصف فارغ من المربّى. ومع ذلك كان فيها كل أنواع الأشياء. كانت أشبه بحانوت كبير للّعب أصابته قنبلة. في اللمحة الأولى شاهدت نفيراً فرنسياً، وحصاناً هزّازاً، ومجموعةً من الأبواق الصفيح المزخرفة بخطوط حمراء، وأثواباً حريرية صينية، وبندقيتين، وشيلانا ماركة بيزلي، ودببة محشوة بالقش، وكرات زجاجية، وكتلاً متشابكة من العقود، وحُلِياً أخرى، ومرآة محدبة، وثعباناً محنطاً، ولعباً لا حصر لها على حيوانات، وعدداً من الحقائب المصنوعة من الصاج تتجرجر خارجة منها أردية متعددة الألوان. وعلى الأرض تشابكت دمى

أنيقة غالية الثمن مع المحتويات التافهة الرخيصة لمفرقعات أعياد الميلاد. جلست على أقرب مقعد تصادف أنه ظهر حصان هزاز، واستعرضت المشهد.

قلت: «ما هذا المكان العجيب؟ ماذا تعملين هذه الأيام، يا آنا؟»

قالت آنا: «أوه، هذا وذاك». تعودت دائماً أن تقول هذه العبارة عندما لم تكن تريد أن تقول لي شيئاً. ولاحظت أنها عصبية المزاج، وفي أثناء كلامها، كانت تلتقط الأشياء، فتارة تكون قطعة من شريط، وتارة تكون كرة، أو رباطاً طويلاً من مشدات (كورسيه) بروكسل.

سألتني: «كيف عثرت على هذا المكان؟» فأخبرتها.

- «لماذا جئت؟؟».

لم أكن أريد الدخول في سلسلة روتينية من الأسئلة والأجوبة. ما أهمية السؤال عن سبب مجيئي؟ لم أكن أدري أنا نفسي.

- «طُرِدت من المكان الذي أعيش فيه». لم يكن هذا أمراً جلياً جداً، ولكنني لم أكن أستطيع أن أقول شيئاً سوى الحقيقة.

قالت آنا: «أوه!».

ثم سألت: «ماذا كنت تفعل طيلة تلك السنين؟».

وددت لو كان لدي شيء مؤثر أقوله، ولكنني لم أستطع أن أقول مرة أخرى شيئاً سوى الحقيقة. «قمت بشيء من الترجمة والإذاعة» ثم أردفتُ: «استطعتُ التصرف».

غير أنني أدركت أن «آنا» لم تكن تصغي حقاً إلى إجاباتي. وتناولتْ زوجاً من القفازات الحمراء، ولبست فردة منها وأخذت تسرِّي أصابعها فيها، متحاشية أن تلتقي عيناها بعينيّ.

سَأَلتْ: «هل رأيت أحداً من أصدقائنا القدامى مؤخراً؟».

أحسست بأنني لا أستطيع حقاً الإجابة على هذا السؤال.
قلت: «من يعنيه أصدقاؤنا القدامى؟».

هل هناك ما هو أشد تعذيباً من لقاء يتم بعد زمن طويل تتساقط فيه الكلمات على الأرض كالأشياء الميتة، والروح التي ينبغي أن تشع فيها الحياة تطفو بلا جسد في الهواء؟ كان كل منا يشعر بحضورها.

قالت آنا: «تبدو كما كنت تماماً، يا جيك». وكان هذا حقاً، فمازلت أبدو كما كنت تماماً في الرابعة والعشرين.

وأردفتْ: «وددتُ لو كنتُ كذلك!».
قلت: «إنك تبدين فاتنة».
ضحكت «آنا»، والتقطت إكليلاً من الزهور الصناعية.
قلت: «هذه أيضاً فاتنة».
قالت آنا: «حسن. . إذا كانت هذه ما تسميها فاتنة!».

كانت طيلة الوقت تتحاشى عيني. لن تنقضي لحظة حتى نتحدث في رزانة كما يتحدث المعارف القدماء. ولم أكن أريد أن أسمح بهذا. نظرتُ إليها، ووسط هذه الفوضى الساحرة من الحراير والحيوانات والأشياء غير المحتملة التي كادت ترتفع حتى خصرها، كانت تبدو كحورية البحر التي أوتيت الحكمة وفصل الخطاب وهي تخرج من بحر متعدد الألوان؛ غير أنها في لحظة كانت تفلت مني. وفجأة ألفيت غرابة اليوم كله ماثلة أمامي بضرب من القوة الدافعة؛ وعلى الفور خطرت لي فكرة. في الأيام الخوالي كانت حجرة المعيشة في شقة «آنا» في «بيزووتر» محوطة بالنوافذ الأخرى بحيث لم يكن في الحجرة سوى ركن واحد، منخفض على الأرض ـ لا تطل عليه النوافذ. ومن ثم، كنت إذا أردت أن أقبِّل «آنا»، كان هذا هو المكان الوحيد الذي أستطيع أن أفعل فيه ذلك. وفي ذلك الحين أيضاً، كنت أعلِّم «آنا» شيئاً من الجودو، وإن

لم يكن ذلك بأسلوب نزيه تماماً، وكانت إحدى عاداتنا أنني عندما أدخل كنت أمسك بها وألقي بها في ذلك الركن لتقبيلهـا. وهاجت هـذه الذكرى في نفسي الآن كالإلهام، فهممت بها. وأخذت معصمها، فرأيت في لحظة عينيها تتسعان فزعاً، قريبتين من عينيّ أشد القرب، ثم ألقيت بها في لحظة، بعناية شديدة، على كوم من الملابس المخملية في ركن الحجرة. وغاصت ركبتي في المخمل إلى جانبها، وفي الحال تساقطت فـوقنا بغـزارة كمية من الأوسمـة والشرائط والأبـواق الصفيح، والكـلاب الصوفية، والقبعات الغريبة ـ تساقطت فوق رأسينا حتى دفنتنا تقريباً. ولثمت «آنا».

مازالت عيناها متسعتين وشفتاها منفرجتين، وظلت لحظة جامـدة بين ذراعيّ كدمية كبيرة. ثم شرعت في الضحك، فضحكت أنا أيضاً، وضحكنا نحن الاثنين ضحكاً هائلاً، صادراً عن السرور والشعور بالراحة. شعرت بها تتنهد وتتراخى، فصار جسدها ملفوفاً مطواعاً، ونظر كلٌّ منا في وجه الآخر وابتسم ابتسامة طويلة تنم عن الثقة والتسليم.

قلت: «عـزيزتي آنـا! كيف عشتُ بدونـك!» وسحبت بعض الثيـاب الحريرية المطرزة وراء رأسها لأجعل منها وسادة. قدفعت ظهرهـا فيها، ونظرت إليّ، ثم ضمتني إليها.

قالت: «أريد أن أفضي بأشياء كثيرة، يا جيك؛ ولكن لا أدري إن كنت أستطيع ذلك الآن. أنا سعيدة كل السعادة لرؤيتك، وتستطيـع أن تلمس ذلـك، أليس كذلـك؟» وسددت بصـرها إلى عينيّ. فـأحسست بالنسيم الدافىء الحرِّيف القديم يهب عليّ. بالطبع لم أكن أستطيع أن أشك في ذلك.

قلت: «أنت، أيتها الملتوية!».

وضحكت «آنا» في وجهي كما كانت تفعل دائماً. «إذن فقد طـردتك

واحدة من فتياتك!» وكانت تقوم دائماً بهجوم مضاد.

قلت: «كنت تستطيعين ـ لو شئت ـ الاحتفاظ بي إلى الأبد»، لم أكن أريد أن أدعها تتملص على هذا النحو، وكان ما قلته صادقاً بصورة أو بأخرى على كل حال.

وأردفتُ قائلاً: «كنت أحبك».

قالت آنا: «أوه، الحب، الحب! ما أكثر ما تعبت من هذه الكلمة. ماذا كان معنى الحب بالنسبة إليّ سوى سلالم تقرقع في منازل أشخاص آخرين؟ ما فائدة هذا الحب كله الذي فرضه أولئك الرجال عليّ؟ الحب اضطهاد. كل ما أريده هو أن يدعني الناس وحدي، لأصنع شيئاً من الحب لحسابي».

تأملتها بفتور، وأنا أحيط رأسها بذراعي. قلت: «ما كنت لا تعبأين به على هذا النحو لو أنك افتقرت إلى حب الآخرين».

واجهت نظرتي الآن، فلمحت في عينيها شيئاً منفصلاً، نظرياً، لم ألمحه فيهما من قبل. قالت: «ليس ذلك حقاً، يا جيك. هذا الحديث عن الحب لا يعني إلا قليلاً. ليس الحب شعوراً، ومن الممكن اختباره، الحب فعل، إنه صمت. وليس هو ذلك التوتر العاطفي والتخطيط من أجل التملك الذي تعودت على التفكير فيه بهذه الصورة».

بدا لي هذا كله نوعاً من الهراء. فقلت: «غير أن الحب يهتم بالامتلاك. ولو كنت تعرفين شيئاً عن الحب الذي لم يُتح له الاشباع، لعرفت هذا».

قالت «آنا» في نبرة غريبة: «كلا، الحب الذي لم يعرف الإشباع يهتم بالفهم. ولو كان كله، كله فهماً فحسب، فمن الممكن أن يظل حباً دون إشباع».

لم أكن مصغياً إلى هذا الحديث الخطير لأن كلمة أخرى استرعت انتباهي هي «الصمت».

سألت: «ما هذا المكان، يا آنا؟».

قالت «آنا»: «هذا شيء من الأشياء التي يصعب شرحها، يا جاكي». وكنت أستطيع أن أشعر بيديها، وكل منهما تبحث عن الأخرى في رقعة صغيرة من ظهري. وأغلقت عليّ في حضنها، ثم قالتت؛ «إنها تجربة صغيرة».

هذه الجملة أثارتني. فليس فيها من «آنا» شيء. ها هنا صوت آخر. وخَطَر لي أن أهتدي إلى سبيلي حول هذه المسألة.

سألت: «ماذا عن غنائك؟».

قالت آنا: «أوه، لقد هجرت الغناء، لن أغنّي بعد ذلك أبداً». وهربت نظرتها بعيداً فوق كتفي وسحبت يديها.

ـ «ولماذا بحق السماء لا تفعلين، يا آنا؟».

قالت «آنا»، ولا أزال أحس بتصنع غريب في نبرتها: «حسن، لم أعد أهتم بهذه الطريقة في كسب عيشي، وهذا النوع من الغناء الذي أحترفه فيه كثير..» وبحثت عن كلمة.. «المباهاة. لا حقيقة فيه. كل ما في الأمر أنني استغل فتنتي لإغواء الناس».

أمسكت بها من كتفيها وهززتها صائحاً: «أنت لا تؤمنين بما تقولين!»

ـ «أؤمن بما أقول، يا جيك» ونَظَرَتْ إليّ ضارعة إلى حد ما.

سألت: «وماذا عن المسرح؟ كيف دخل حياتك؟».

قالت آنا: «هذا فن خالص.. إنه بسيط جداً، ونقي جداً».

سألتها: «آنا، من الذي وصل إليك؟».

قالت آنا: «جيك، أنت دائماً على هذا النحو. ما أن أقول شيئاً

يفاجئك، حتى تقول إن هناك شخصاً وصل إليّ!».

وخلال الشطر الأخير من محادثتنا، كانت تضع يدها فوق كتفي بحيث كانت ساعة معصمها في مجال الرؤية، وكنت أرى نظرتها تعود إليها حيناً بعد حين. وانتابني الغضب.

قلت: «كفّي عن النظر إلى ساعتك. إنك لم تريني منذ سنين. وتستطيعين الآن أن تمنحنيني شيئاً من وقتك!».

وخمنت أن «آنا» تضع في ذهنها أن لقاءنا هذا وجهاً لوجه سوف ينقطع. . وأن له جدولاً معيناً كانت «آنا» تدركه باستمرار. حياة «آنا» كلها كانت تسير وفقاً لجدول؛ فهي كالراهبة، كانت يمكن أن تضيع بغير ساعتها. وقبضت على معصمها والساعة من فوقه، ولويتهُ حتى سمعتها تلهث. وواجهتني الآن بشدة، وبتحدٍّ صامت متألق تذكرته الآن، وأحببته منذ أمد بعيد. نظر كل منا إلى الآخر برهة من الزمن، وكان كل منا يعرف الآخر جيداً. حافظت على بقائها مكبّلة، غير أنني خفّفت من التوتر بما يكفي للتقبيل. وعاد جسدها إلى التوتر ثانية، ولكن بدا الآن وكأنما أمدتها قبضتي بشيء من القوة الايجابية، وأصبح الأمر أشبه بصاروخ أتشبث به ونحن نندفع بعنف عبر الفضاء. وقبلت عنقها المشدود وكتفها.

قالت آنا: «جيك، أنت تؤذيني».

أطلقت سراحها، وجثمت متثاقلاً على صدرها، الليِّن تماماً. وأخذت تعبث في شعري. ورقدنا على هذا الوضع فترة طويلة. . واستراح الكون كما يستريح طائر عملاق.

قلت: «ستقولين لي إنه لا بد من رحيلي».

قالت: «لا بد من ذهابك، أو بالأحرى، لا بد من ذهابي. . والآن، انهض، من فضلك».

نهضت، وأحسست كأنما أصحو من النوم. ونظرتُ إلى «آنا». كانت ترقد وسط الحطام الملون كأميرة في حكاية خرافية سقطت من عـرشها. وكانت الأنسجة الحريرية على ردفيها وصدرها، وخصلة طويلة من شعرها أفلتت من مكانها. ظلت راقدة لحظة، متلقية نظرتي، وقد قوّست قدميها.

سألتها: «أين تاجك؟».

وبحثت «آنـا» تحت الركـام، وأخرجت إكليـلاً مـذهبـاً. فضحكنـا. وعاونتها على النهوض، ونفضنا ما علق بنا من غبار ذهبي، وخلّصنا ثوبها من الترتر اللامع.

وبينمـا كانت «آنـا» ترتب شعـرها، أخـذت أجوس خـلال الحجـرة، فاحصاً كل شيء. وشعرت فجأة بأنني مرتاح تماماً الآن. وكنت أعلم أنني لا بد من أن أرى «آنا» مرة أخرى.

قلت: «يجب عليك أن تفسري هذا المكان. . من الذي يمثّل هنا؟».

قالت آنا: «معظمهم من الهواة. وبعضهم أصدقائي. غير أنه أسلوب فني خاص جداً.».

قلت: «أجل، أستطيع أن أرى ذلك».

واستدارت آنا نحوي: «إذن، فقد ذهبت إلى المسرح؟».

قلت: «أجل، مقدار لحظة. ألهذا شيء من الأهمية. كان يبدو مؤثراً جداً. . أهذا شيء هندي؟».

قالت آنا: «إنه يتصل اتصـالاً ما بـالهند. . ولكنـه شيء متفرد بنفسـه حقاً». وكنت أرى أنها تفكر في شيء آخر.

قلت مشيراً إلى لوح الرعد: «حسن، هـذه أداة مسرحيـة لن تحتاجي إليها كثيراً!».

ولوح الرعد، إن كنت لا تعلم هو شريحة معدنية رقيقة ساحتها حوالي ياردتين، فإذا هُزَّت أحدثت هزيماً غامضاً لا يختلف عن صوت الرعد. ذهبت إليها.

قالت آنا: «لا تلمسها.. نعم، سوف نبيعها».

سألتها: «آنا، هل تعنين ما قلته عن الغناء؟».

قالت آنا: «أجل، إنه شيء فاسد». وانتابني مرة أخرى ذلك الشعور العجيب بأنني أشاهد شخصاً في قبضة نظرية.

وأردفت قائلة: «الأشياء البسيطة جداً هي وحدها التي يمكن أن تقال دون زيف».

قلت لها: «ما شاهدته في ذلك المسرح لم يكن بسيطاً».

سألتني وهي تبسط يديها! «ماذا تريد مني؟».

أعادني هذا السؤال إلى الواقع. قلت في حذر: «أردت أن أراك. أنت تعلمين ذلك. غير أن لدي مشكلة في اختيار مكان أعيش فيه. ربما استطعت أن تسدي إليّ النصح». وسألتها: «أظن أنني لا أستطيع أن أعيش هنا. في قبو أو شيء من هذا القبيل؟».

وارتجفت آنا وقالت: «كلا، هذا محال».

نظر كل منا إلى الآخر، ونحن نفكر بسرعة.

سألت: «متى أراك مرة أخرى؟».

كان وجه «آنا» متصلباً، منسحباً. قالت: «جيك، ينبغي أن تتركني وحدي فترة من الزمن. عندي أشياء كثيرة لا بد من التفكير فيها».

قلت: «وكذلك، عندي أيضاً. من الممكن أن نفكر معاً».

ابتسمت ابتسامة شاحبة ثم قالت: «إذا احتجت إليك، سأدعوك، وقد

احتاج إليك».

قلت: «أرجو ذلك». وكتبت لها عنوان «ديف» على قطعة من الورق: «وأنا أخطرك بأنه إذا انقضى وقت طويل دون أن يُحْتاج إليّ، فسأظهر سواء كنت في حاجة إلي أم لم تكوني».

نظرت «آنا» إلى ساعتها مرة أخرى.

سألت: «هل أستطيع الكتابة إليك؟» وكنت أعرف من تجربتي أن المرأة التي تهتم بالاحتفاظ بك نادراً ما ترفض هذا. إذ أنها تربط دون التزام. ونظرت إليّ آنا التي كانت تعرف أفكاري عن هذا الموضوع، فابتسمنا معاً.

قالت: «لن يضايقني ذلك. رسالة إلى المسرح تصل إليّ».

كانت تلملم أشياءها الآن، وقد عبست قليلاً. وخطر لي أن المشكلة التي تشغلها هي كيف تخرجني من المبنى دون أن يراني أحد.

قلت لها: «لا مكان عندي أبيت فيه الليلة» وكانت هذه كذبتي الأولى. «أأستطيع البقاء هنا؟».

سددت «آنا» نظرتها إليّ مرة أخرى، مندهشة بمعرفتي كثيراً مما تفكّر فيه. وتروّت في الأمر.

قالت: «فليكن، امكث هنا.. ولا تنزل معي الآن. وما عليك إلا أن تعدني بألا تحوم حول المكان وأن تغادر المكان غداً في وقت مبكر». فوعدتها

قلت: «اقترحي أين يمكن أن أعيش، يا آنا».

وقلت لنفسي الآن وقد وَصَلْتُ إلى أن تدعني أمكث هذه الليلة، فلعلها تتساهل في مسألة القبو. وأخذت «آنا» ترتّب مكتبها، ثم أغلقت الأدراج.

قالت: «انظر، تستطيع أن تحاول مع سادي، فهي تعتزم السفر إلى الولايات المتحدة، وهي بحاجة إلى وكيل يشرف على شقتها. وربما كنت ملائماً». وكتبتْ عنواناً.

أخذت العنوان في شيء من التحفظ، وسألتها: «أأنتما أصدقاء الآن.. انتِ سادي؟».

ضحكت آنا ضحكة يشوبها شيء من نفاد الصبر: «إنها أختي.. وسرعان ما ندبّر أمورنا معاً. تستطيع أن تذهب وتراها على كل حال.. هذه الفكرة قد تنجح». ونظرت إليّ في ارتياب.

قلتِ مقترحاً: «حسن، دعينا نلتقي غداً، لنناقش المسألة أكثر من ذلك».

وكان هذا سبباً في أن تحسم «آنا» أمرها، قالت: «كلا، اذهب أنت وقابل سادي. .ولا تعُد إلى هنا إلا إذا استدعيتُك..».

وهَمَّت بمغادرة الحجرة، فتناولت يدها، ثم عانقتها بحنان هائل، وبادلتني العناق. وافترقنا.

لم أسمع صوتاً بعد أن أُغْلِق الباب. ووقفت لحظة في منتصف الحجرة كشخص مسحور. وكانت الحجرة قد أظلمت تماماً أثناء حديثي مع «آنا»، أما في الخارج، فكان المساء الصيفي الأزرق مازال في أواخره بحيث جعل الأشجار والنهر متماوجة بالألوان. وبعد لحظة قصيرة تناهى إلى سمعي صوت سيارة تشرع في السير. فذهبت إلى النافذة، وبانحناءة طفيفة أمكنني الاشراف على رقعة من الطريق. فما أن نظرت حتى انعطفت سيارة سوداء فارهة من طراز آلفيس Alvis عن الركن ومرقت إلى الطريق الرئيسي. فساءلت نفسي هل كانت «آنا» في داخلها. لم يكن ذلك يعنيني في هذه اللحظة. وفيما يتعلق باستبعادي المُبْهم، كنت قد

اعتدت على هذا. معظم النساء اللواتي عرفتهن، كن يتصرفن على هذا النحو، بحيث تعودت ألا أوجِّه أية أسئلة، أو حتى مجرد التفكير في توجيه الأسئلة. فنحن نعيش جميعاً في الفجوات المتاحة من حياة الآخرين، وستتولانا الدهشة جميعاً إذا استطعنا أن نرى كل شيء. كنت أعرف أن هناك رجلاً في مكان ما؛ وكان هناك دائماً هذا الرجل إذا تعلق الأمر «بآنا». غير أن هذا التفكير يمكن أن ينتظر.

كنت سعيداً بوحدتي، بعد هذا اليوم الذي يعد بالنسبة لي يوماً حافلاً بالأحداث على نحو لا يُحْتمل.. والآن، انحنيت وقتاً طويلاً على حافة النافذة، مطلاً على «جِسْر هامرسميث». كان النهر يواصل خريره، حاملاً بقايا النهار الأخيرة، حتى أصبح في نهاية الأمر خليجاً معتماً لحركة لامرئية. وشرعت استعرض لقائي «بآنا». قالت بعض الأشياء الغريبة، غير أنني لم أكن أمعن الفكر في هذه الأشياء. كنت أتذكر الطريقة التي كانت تحرك بها يديها، ولفتاتها العصبية وهي تعبث حيناً بكرة، وحيناً آخر بالعقد الذي يزيِّن رقبتها، ومنحنى ردفها وهي ترقد على الأرض، وخصلات شعرها التي تسلل إليها الشيب، والتعب الذي ظهرت آثاره حول عنقها ـ هذه الأشياء جميعاً تداعت لتؤلف ما بدا لي حباً جديداً. أعمق مائة مرة من الحب القديم. تأثرت بعمق. ومع ذلك، أخذت الأمر كله مع حَبّة من الملح في الوقت نفسه، إذ كنت أعرف نفسي ـ في معظم الأحيان ـ متحركة في الماضي، ولم يتمخض عن ذلك إلا القليل. الشيء المؤكد هو أن شيئاً ما ظل متماسكاً مما كان بيننا سابقاً، وأن مرور الزمن على ما تبقى من تلك العلاقة جعله أثمن، على نحو ما. واستولين عليّ شيء من الرضا وأنا أفكر في لقائنا، وكيف تجاوبت آنا تجاوباً رائعاً مع تلميحاتنا القديمة جميعاً.

أضيئت الآن مصابيح الشارع فوق الجسر، وهناك بعيداً اندفع النهر المظلم في جيشان من النور. عدت إلى داخل الحجرة، وتعثرت في

طريقي إلى الباب، وأدرت زر النور الكهربائي، فأنار مصباح في مكان ما من الركن، كان مدفوناً تحت ركام من المواد الشفافة. طلبت مني «آنا» ألا أحوم في المكان؛ ولكنه كان نهياً غامضاً، وظننت أن قليلاً من الحومان لن يضر في شيء. واستبدت بي رغبة شديدة في الوقوف مرة أخرى في المسرح الصغير. والحق، أن هذا ـ في شطر كبير منه ـ هو الذي دفعني إلى أن أطلب منها ـ بوحي اللحظة ـ أن تدعني أبقى. وفي الضوء المعتم وجدت الزر الكهربائي على البسطة، وبعد أن أغلقت ورائي باب حجرة الأدوات المسرحية، اتجهت إلى باب المسرح. لم يكن يدهشني أن أجد التمثيل الإيمائي الصامت مستمراً في الظلام. وحاولت أن أفتح الباب، غير أنه كان موصداً. فحاولت مع الأبواب الأخرى الموجودة على البسطة، ثم أبواب القاعة من الطابق السفلي. كانت جميعاً موصدة مما أثار حنقي الشديد. ثم أخذ سكون المكان يغشاني كالضباب، وغمرني فزع مباغت من أن أعود إلى أعقابي لأجد باب حجرة الأدوات المسرحية موصداً هو الآخر. ركضت دون أن أحدث صوتاً على درجات السلم مرة أخرى، واندفعت إلى داخل الحجرة. كان المصباح ما زال يرسل ضوءاً معتماً وكل شيء كما تركته من قبل. وخطر لي أن أخرج، وأحاول الدخول إلى قاعة المتفرجين من الشارع، غير أن روحاً ما منعتني من مغادرة المنزل. أزحت طبقة أو طبقتين من الأنسجة التي كانت تغطي المصباح، واستعرضت الحجرة. كانت تبدو في هذا الضوء المعتم أوغل في الغرابة. وتجولت فيها لحظة، وأنا التقط الأشياء التي كانت «آنا» تعبث بها. وعاودت النظر مرة بعد أخرى إلى «لوح الرعد»، واستولى عليّ دافع عصبي إلى أن أندفع نحوه وأن أضربه. وتخيلت الضجة الهائلة التي ترقد خامدة في هذا اللوح الرقيق، وكيف يمكن أن أجعل المنزل كله يتزلزل بها. وتفصدت عرقاً من عصبيتي الثائرة وأنا أتخيل هذا. غير أن شيئاً ما أجبرني على الصمت، بل لقد سرت على

أطراف أصابعي.

وبعد برهة بدأت أشعر شعوراً حرجاً بأنني مراقب. وأنا شديد الحساسية إزاء المراقبة، ولا يراودني هذا الإحساس في أغلب الأحيان في حضرة الكائنات البشرية فحسب، بل في وجود الحيوانات الصغيرة أيضاً، وفي مرة تعقبت مصدره من عنكبوت كبير كانت عيونه المستسرة مُثَبَّتة عليّ. وفي تجربتي أن العنكبوت هو أصغر المخلوقات التي يمكن الشعور بنظراتها. بدأت الآن أبحث حولي لأرى من يكون هذا الذي ينظر إليّ، لم أستطع العثور على مخلوق حي، ولكني صادفت عَرَضاً مجموعة من الأقنعة شبيهة بتلك التي شاهدتها على المسرح ـ كانت عيونها المنحرفة متجهة نحوي بصورة باعثة على الحزن. وليس من شك أنني لاحظتها لا شعورياً أثناء تجوالي في الحجرة. تفحصتها الآن في عناية، فاسترعى انتباهي تصميمها المتسم بجمال باهر، وبالرزانة التي عبَّرت عنها الأقنعة التي كانت أقل جمالاً. كانت تلك الأقنعة مصنوعة من مادة خشبية رقيقة، ومرسومة بخطوط قليلة، بعضها وجه كامل، وبعضها الآخر جانب واحد من الوجه (بروفيل). وكان فيها شيء من الطابع الشرقي من حيث الحالة المزاجية، شيء ربما كان أكثر إفصاحاً عن نفسه في الثغر المقوس المرهف، منه في العينين المنحرفتين. وذكَّرني واحد أو اثنان منهما ببوذا الهندي تذكيراً بعيداً. وكانت كلها أكبر قليلاً من الوجوه الحية. وقد ألفيتها أشياءً منذرة جداً، بكل تأكيد، فوضعتها بعصبية على الأرض بعد برهة قصيرة. وحين أطلقت سراحها فرقعت بصوت مكتوم، مما جعلني أجفل، وأعاني السكون من جديد. ثم بدأت أتبين أن الحجرة غاصة بالعيون، عينا الحصان الهزاز الخاويتان، العيون الخرزية للدببة المحشوة بالقش، العيون الحمراء للثعابين المحنطة، عيون الدمى والعرائس والمسوخ الشوهاء. بدأت أشعر بأقصى ضروب الحرج. فنزعت عن المصباح الأنسجة الشفافة المتبقية، ولكنه لم يرسل ـ حتى

بعـد ذاك ـ سوى ضـوء واهن نفيـس. كان ثمـة شيء ينخسف بهدوء في الركن البعيد. جلست القرفصاء في منتصف الأرضية، محاولاً التفكير في شيء يمت بصلة إلى الواقع.

تناولت من جيبي قطعة الورق التي أعـطتها لي «آنـا». كانت تحمـل عنـواناً في «شـارع ولبك» Welbeck . تـأملتها، وسـاءلت نفسي، بروح صادرة عن التنبـؤ لا عن القصد، هل أُمْثُل أبداً بنفسي أمام باب «سادي»؟ أحسسـت بإحجامي عن هذا للأسباب التي ذكرتها آنفاً. ومن جهة أخرى، كـانت المسألـة بأكملهـا تبدو مختلفـة الآن من حيث أن «آنـا» هي التي اقترحت أن أذهب لرؤية «سادي». فلو كانت «آنا» و «سادي» صديقتين، لكان التوافق مع «سادي» طريقة للاحتفاظ بـالصلة مع «آنـا». كما كنت حريصاً أيضاً ـ بعد أن أمعنت الآن التفكيـر في المسألـة ـ على أن أرى كيف تستقبلني «سادي». وأخيراً، فإن قلة من الناس هم الـذين تحرروا من الغرور الدنيوي بحيث لا يرون في الصلة الحميمـة بشخص يُعْرض وجهه في أرجاء لندن كلها على إعلانات ترتفع اثني عشـر قدماً ـ لا يرون في هذا شيئاً يبعث على السرور. ومن ثمّ فقد أدركت بغتة كيف سيكون من الروعة المطلقة أن ترحل «سادي» وتتخلى لي عن شقة إيجار فاخـرة في مـوقع مـركزي. بـدا لي هذا أمـراً مرغـوباً إلى أبعـد حـد وجـديـراً بالمجازفة ـ في وجه الرفض المحتمل ـ للحصول عليه. وبدا من المرجح حقاً أن أحاول ـ على أقل تقدير ـ تقصي الموقف في «شارع وِلْبِك».

ومـا أن وصلت إلى هذه النتيجـة الاستقرائيـة البحتـة عن تحـركـاتي المستقبلة حتى أحسست بـالتحسن، وبدأت على الفـور أشعر بـالنعاس يغزوني. وكانت الشقة مكدسة بالأشياء بحيث كان ينبغي عليّ أن أشرع في العمـل لأفسح مكـانـاً لنفسي. وظهـرت مـزقـة من السجـاد الأبيض الملوث. ثم أخذت أفتش عن شيء أستخدمه كبطانية. ولم يكن المكان يفتقـر إلى المنسوجـات. وفي النهايـة انتقيت فراء دب كـامل بخيـطومه

ومخالبه. ولم أطفىء النور، ولكنني غطيت المصباح بتلك الأنسجة الشفافة مرة أخرى بحيث لم ينبعث منه إلا وهج خافت. لم أكن أريد المجازفة بالاستيقاظ في وقت متأخر لأجد نفسي وحيداً في الظلام في مثل هذه الحجرة. ومن ثمّ فقد أدخلت يديّ وقدمي في براثن الدب وتركت الخيطوم الضخم المكشر عن أنيابه يتدلى فوق جبهتي. وبهذا أصْبَحَتْ حُلّة نوم مريحة ودافئة. وقبل أن ألفّ نفسي فيها، فكّرت في «آنا» مرة أخرى وفيما يمكن أن تفعله في هذا العالم. كان من الممكن أن أعتقد أن هذا المسرح من صنع «آنا»، ومع ذلك، كان من الواضح أن هناك عقلاً آخر يعمل أيضاً، ولم تكن بعض الأشياء التي قالتها «آنا» صادرة عنها بكل تأكيد، وخطر لي أيضاً أن أسائل نفسي من أين جاءت النقود. وأخيراً تثاءبت ومددت أطرافي. وتوسدت وشاحاً (شالاً) شرقياً، وكانت أشياء ناعمة تتساقط على قدميّ. ثم ساد السكون. لم يكن النوم ليهجرني أبداً أو يتركني أنتظر طويلاً بعد استدعائه. وفي الحال تقريباً غشيني النوم.

الفصل الرابع

وفي حوالي الساعة العاشرة تقريباً من اليوم التالي، كنت أسير في «شارع ولبك». كنت متوعك المزاج. بدا المشروع كله أقل جاذبية في ضوء النهار. أن تصدَّني إحدى نجوم السينما شعور يضعني لمدة أشهر في حالة ذهنية سيئة. غير أنني نظرت إلى المسألة على أنها شيء قد تقرر، ولم يبق الآن إلا تنفيذه. وقد اتبعت هذا المنهج في كثير من الأحيان لحسم الحالات الصعبة. ففي المرحلة الأولى أعالج الموضوع على أنه افتراض محض، وفي المرحلة الثانية أعتبر تفكير المرحلة الأولى قراراً ثابتاً لا رجعة فيه. وأنا أوصي بهذه الطريقة الفنية لمن لم يكن يجيد اتخاذ القرارات. وراودني إغراء بالرجوع إلى المسرح لأرى إن كنت أستطيع أن أجد «آنا» مرة أخرى، ولكني كنت أخشى إثارتها. ومن ثمّ، لم يكن هناك ما أفعله سوى الانتهاء من مسألة رؤية «سادي».

تقع شقة «سادي» في الطابق الثالث، وقد وجدت الباب مفتوحاً. وظهرت خادمة (نهارية) ساذجة أخبرتني بأن «الآنسة كوينتين» ليست في المنزل. ثم أنبأتني بأن «الآنسة كوينتين» عند الحلاق، وسمَّت لي مؤسسة غالية هي مايفير Mayfair. وعلى سبيل الحذر، ذكرت لها أنني ابن عم «للآنسة كوينتين». شكرتها، واتجهت مرة أخرى صوب «شارع أكسفورد». وكنت كثيراً ما أزور نساءً في مؤسسات الحلاقة، ولهذا لم

تكن هـذه الفكـرة تفـزعني. والحق أنني كنت أجـد النسوة محسنـات مستجيبات بوجه خاص حين يزورهن المرء عند الحلاقين، ربما كان ذلك لأنهن يحببن أن تتاح لهن الفرصة لإظهار أسير لهن من الجنس الآخر أمام هذا العدد الكبير من النساء الأخـريات اللواتي لـم يكنّ محـظوظات بـأن يقف أحبابهن من الرجال إلى جوارهن. ولكي يقوم المرء بهذا الدور لا بد أن يكون على كل حـال، حسن المظهـر، ومن ثمّ فقد قصـدت مباشـرة حـانوت حـلاق، واستمتعت بحلاقـة جيدة. وبعـد ذلك، ابتعت لنفسي رَبْطة عنق جديدة من محل في شارع أكسفورد، ورميت الربطة القديمة. وحين أخـذت أرتقي السلم المعطر عـطراً ثقيلاً عنـد حـلاق «سـادي»، لمحتُ نفسي في إحـدى المرايـا، فاعتقـدت أنني أبصـرت رجـلاً أنيق المظهر.

ويتبع حلاقو النساء قانوناً غامضاً من قوانين الـطبيعة يختلف عمـا هو مُتَّبـع في حالـة المهن الأخرى، ألا وهـو: كلما كـانت المؤسسة غـاليـة الأسعار، كانت الخلوة الخاصة الممنوحة للزبائن أقل. ففتيات المحلات يستطعن في بوتني Putney أن تصفّف لهن شعـورهن بمعزل تسـدل عليه الستائر، أما النسوة الثريات في ماي فير Mayfair فيجلسن معروضات في صفوف تراقب كل منهن الأخرى أثناء تحويـل شكلها. ألفيت نفسي في حجرة واسعة كانت فيها الرؤوس الأنيقة في مراحل مختلفة من التجمع.. وأمامي صف من الظهور الأنيقة الملبس، وحين أخذت عيناي تدوران في المكان يميناً وشمالاً بحثاً عن «سادي»، شعرت بأنني تحت مراقبة دستة من المرايا الوردية. لم أستطع رؤيتها في أي مكـان، فبدأت أنـزلق بين واحـد من تلك الصفوف، نـاظراً في كـل مرآة، لأرى وجهـاً شابـاً هنا، وسحنـة عجـوزاً هنـاك تحملق فيّ تحت خصـلات الشعـر المجعـدة أو الموضوعة في القوالب. وكان كل زوج من تلك العيون يلتقي بعينيّ في نظرة متسائلة حتى بدأت أشعر مثلما يشعر أمير في حكاية خرافية. وكنت

مسروراً لأنني استثمرت أموالي في رباط رقبة جديد. وفي نهاية الصف كان هناك صف من أشخاص عديدين غُطّيت رؤوسهم بمجففات الشعر الكهربائية التي تحدث صوتاً كالخرير. وهنا التقيت أخيراً في المرآة بزوج من العيون كان عيني «سادي» اللتين لا أخطئهما.

توقفت ووضعت يدي على ظهر مقعدها. ووقفت لحظة ونظرت بوقار في هاتين العينين على حين ردت صاحبتهما على نظراتي بشيء من المصادقة في أول الأمر، ثم في شيء من العداء، وأخيراً بإظهار التعرف.

صاحت «سادي» صيحة قصيرة وقالت: «جيك!».

أحسست بأن العيون اتجهت نحونا. وبدأت أشعر بالسرور لمجيئي.

قلت: «هاللو، سادي»، ولم أجد ما يدعو إلى تزييف ابتسامة.

قالت سادي: «أيها المخلوق العزيز، لم أرَك منذ قرون! ما أحب ذلك! أكنت تبحث عني؟».

قلت إنني كنت أفعل ذلك، وتناولت مقعداً وجلست وراء كتفها تماماً. ابتسم كل منا للآخر في المرآة. وخطر لي أننا زوجٌ يسر الناظرين. كانت «سادي» تبدو غاية في الوسامة حتى وشعرها في شبكة، وأصغر كثيراً من أي وقت مضى. وحتى في المرآة الوردية، كانت ملامحها رائعة، وعيناها العسليتان تتألقان بالحيوية. ودون إرادة مني، وضعت يدي على ذراعها.

قالت «سادي»: «أنت، أيها الشخص الساحر! أية ألعاب رياضية تمارسها هذه الأيام؟ أخبرني بكل شيء!».

كان في صوتها وسلوكها شيء من التكلف، صدمني بأنه شيء جديد. كما كانت تتحدث أيضاً بنبرة عالية على نحو غريب، ورنانة بحيث ترددت أصداء ما تقول مسموعةً في الحجرة كلها. وطرأ على ذهني تفسير هذا في

لحظة؛ كان خرير المجفف يصم أذنيها إلى حد ما، فلم تكن تدرك أنها تتحدث بصوت مرتفع.

أجبتها، وأنا أرفع صوتي أيضاً: «أوه، ما زلت في لعبة الكتابة القديمة. كتب، كتب، كما تعلمين. وأنا أعمل الآن في ثلاثة منها. وما زال الناشرون يضايقونني».

صاحت «سادي» في إعجاب: ««كنت دائماً فتى ذكياً، يا جيك».

كان السكون سائداً في الشطر الباقي من المحل، فيما عدا الأصوات الهامسة لمساعدات قلائل، وكنت أشعر بالآذان مرهفة في اتجاهنا. من المحال أن يكون في الحجرة أحد لا يعرف من تكون «سادي». واستقر عزمي على الاستمتاع بالمحادثة.

سألتها: «كيف تعاملك الحياة؟».

قالت «سادي»: «أوه، إنها مضجرة إلى أقصى حد.. وأنا مثقلة تماماً بالعمل.. من الفجر إلى غسق الليل. دبرت هذا الفرار لأصفِّف شعري في هدوء. فقد تشاجرت مع الحلاق في الأستوديو. أنا مُرْهقة إلى درجة أنني أتشاجر مع كل إنسان في هذه الأيام». وأتحفتني بابتسامة مغرية.

سألتها: «متى تتناولين العشاء معي، يا سادي؟».

قالت «سادي»: «أوه، يا عزيزي. أنا مرتبطة لأيام وأيام.. بل سيأتي من يأخذني من هذا المكان. ينبغي أن تأتي ذات مرة لتتناول مشروباً في شقتي».

حسبت الأمر بسرعة. من المحتمل أن تكون أيام «سادي» مثقلة بالارتباطات، وربما كانت هذه هي فرصتي الوحيدة لكي أتحدث إليها بعض الوقت. فإذا كان لا بد من إثارة ذلك الموضوع الشائك، فمن الأفضل أن يكون ذلك الآن.

قلت وأنا أخفض صوتي: «اسمعي، يا سادي».
فصاحت «سادي» من تحت المجفف: «ماذا هنالك يا عزيزي؟».

فصحت رداً عليها: «اسمعي! علمت أنك تريدين تأجير شقتك أثناء سفرك في الخارج».

لم أكن أستطيع، أمام هؤلاء النظارة، أن أعرض المسألة على نحو ألطف. وتمنيت أن تلتقط «سادي» ما أقول بلباقة.
وكانت استجابة سادي ألطف كثيراً مما كنت أتوقع، قالت: «يا فتى العزيز، لا تتحدث عن التأجير. أنا أريد وكيلاً، والواقع أنني أريد حارساً خاصاً.. ويمكن أن تبدأ العمل من الآن، لو أحببت».

قلت: «فليكن، سأكون في غاية السعادة. فترة إيجاري لمكاني الحالي قد انتهت.. وأنا الآن ضائع في الشوارع».

فهدرت «سادي»: «إذن، يا عزيزي، ينبغي أن تأتي فوراً. ستكون ذا نفع هائل إذا كنت موجوداً في المكان بعض الوقت. أنت ترى، إنني واقعة تحت اضطهاد أفظع الرجال».

بدا الأمر شائقاً. وكنت أشعر بالآذان وقد أُرهفت كلها حولنا. ضحكت بطريقة رجولية.

قلت: «حسن، أظن أنني خشن بما فيه الكفاية.. ولا يضايقني أن أحرس الأشياء، شريطة أن أقوم بشيء من العمل في الوقت ذاته». وبالفعل، بدأت تراودني رؤى عن شيء أفضل من طريق «إيرلز كورت».

قالت سادي: «يا عزيزي، إنها شقة مترامية الأطراف، ويمكن أن تتخذ لك جناحاً كاملاً.. كل ما في الأمر أنني سأشعر بمزيد من الأمان إذا أمكنك أن تأتي وأن تبقى هناك حتى أرحل. فهذا الشخص متيّم بي إلى درجة الجنون، فهو لا يكف عن زيارتي ويحاول أن يأتي في كل الأوقات،

وعندما لا يأتي للزيارة، يتصل هاتفياً، وأنا الآن منهارة عصبياً».

قلت وأنا أنظر إليها بخبث في المرآة «أظن أنك لن تبدئي بالخوف مني؟». فانفجرت «سادي» ضاحكة: «جيك عزيزي، كلا، أنت لا ضرر منك على الإطلاق!».

لم أكن أعبأ كثيراً بهذا التحول الذي طرأ على المحادثة، إذ كنت أستطيع أن ألمح من طرف عيني عدداً من النسوة الأنيقات يشرأببن بأعناقهن للنظر إليّ.

سألت: «من هو ذلك الشخص الذي لا يطاق؟».

قالت سادي: «أخشى أن يكون الرئيس الكبير نفسه.. إنه بلفاوندر. ومن ثمّ تستطيع أن تتخيل مدى الحرج الذي يكتنف المسألة. والواقع أنني في حيرة من أمري».

وما ان نطقت بهذا الاسم، حتى كدت أسقط من مقعدي. ودارت حولي الحجرة مرات ومرات، وخيِّل إليّ أنني أرى «سادي» من خلال سحابة. لقد غيَّر هذا كل شيء. وبمجهود هائل احتفظت برباطة جاشي، غير أن معدتي كانت تهر في داخلي كقطة وحشية. لم أكن أريد شيئاً الآن سوى أن أبتعد، وأن أمعن الفكر في هذه الأنباء العجيبة.

قلت لسادي: «أأنت متأكدة؟».

قالت سادي: «يا فتاي اللذيذ، أنا أعرف رئيسي».

قلت: «أعني، متأكدة من أنه يحبك».

قالت سادي: «إنه متيم بي تماماً». وأردفت قائلة: «وبهذه المناسبة، كيف علمت أنني أريد وكيلاً؟».

ـ «أخبرتني آنا..» كنت الآن عبرْ كل حذر.

لمعت عين «سادي» في المرأة ثم قالت: «إذن فقد عدت لرؤية «آنا» ثانيةً».

وأنا أمقت هذا النوع من الملاحظات، فقلت: «تعلمين أن «آنا»، وأنا صديقان قديمان».

قالت «سادي»، وما زالت في أعلى صوتها: «أجل، ولكنك لم ترهـا منذ دهور، أليس كذلك؟».

بدأت أنفر من المحادثة نفوراً شديداً بكل تأكيد. ولم أكن أريد سوى الانصراف.

قلت: «مكثت في فرنسا زمناً طويلاً».

ولم أكن أتخيل أن لسادي أيّة معرفة وثيقة بتصرفات «آنا». وكنت أستطيع أن أرى الآن أن وجه «سادي» قد تركز في نظرة حقد ذكي. كانت تبدو كأفعى جميلة؛ وصوَّر لي الخيال العجيب أنني لو نظرت إلى وجهها الحقيقي تحت المجفف لا إلى صورتها المنعكسة في المرآة، فسوف أرى ساحرة عجوزاً بشعة.

قالت سادي: «إذن، تعـال لزيـارتي يوم الثلاثاء القـادم، في سـاعـة مبكرة، وسوف أعيِّنك. أعني في وظيفة الحارس الخاص».

قلت بنبرة آلية: «سيكون هذا رائعاً، يا سادي العزيزة.. سآتي بكـل تـأكيـد». وقمت من مكـاني، ثم قلت مفسِّـراً: «لا بـــد لي من أن أرى الناشر».

تبادلنا الابتسامات، وخرجت من المكان، يشيعني عدد كبير من العيون الأنثوية المفتونة.

نسيت أن أذكر فيما سبق أنني أعرف «بلفاوندر». ولما كـانت معرفتي

بهوجو Hugo هي الموضوع الـرئيسي لهذا الكتـاب، فلم يكن هناك مـا يدعو إلى ذكرها مسبَّقاً. وستسمع عن هذا الموضوع أكثر ممـا يكفي في الصفحات التالية. ومن الأفضل أن أبدأ بتوضيح شيء عن «هوجو» نفسه، ثم أروي الملابسات التي قابلته فيها لأول مرة، وشيئـاً عن أيام صـداقتنا الأولى. لم يكن الاسم الأصلي لـ «هوجو» هو بلفاوندر. وكان أبـواه من الألمان، واتخذ أبوه اسم «بلفاوندر» حين أقام في إنجلترا. وقد وجد هذا الاسم ـ على مـا أظن ـ فوق شـاهد قبـر في فنـاء «كنيسـة كـوتسـوولـد» Cotswold ، فاعتقد أنه ملائم للأعمال التجـارية. ومن الجليّ أنـه كان كذلك فعـلاً، إذ ورث «هوجـو» ـ في الوقت المنـاسب ـ مصنعاً مـزدهراً للأسلحة، وشركة بلفاوندر وبايرمـان Baermann ، للأسلحـة الصغيرة، المحدودة. ومن سوء حظ الشركة أن «هوجو» كـان في الوقت نفسـه من أنصار السلام المتحمسين؛ وبعد تقلبات متعددة، انسحب أثناءها الشطر الخاص ببايرمان، تبقّى لـ «هوجو» نصيب صغير أطلق عليه فيما بعد اسم «أنوار وصواريخ بلفاوندر المحدودة»، وتحايل لتحويل مصنع الأسلحة إلى مصنع للصواريخ؛ واهتم هنا لعدة سنوات بـانتاج الصـواريخ، وصنـاعة الأنوار، والديناميت التجاري الصغير، والألعاب النارية من كل صنف.

بدأ المشروع ـ كما قلت ـ صغيراً. غير أن المال كان ملازمـاً لهوجـو دائماً، بحيث لا يسعه إلا أن يجمعه، فلم يمض وقت طويل حتى كان من كبار الأثرياء الناجحين، بـل لم يكن يقل ازدهـاراً عن أبيه (مـا من أحد يستطيع أن يكون أكثر ازدهاراً من منتج للأسلحة). وعلى كل حال، كان يحيـا حياة بسيـطة، وحين تعرفت بـه لأول مرة كـان معتاداً على العمـل بوصفه من الصناع المهرة في مصنعه. وكان تخصصه هو قطعة الانطلاق. ومن المحتمل أنك تعلم، أن إبـداع قطعـة الانطلاق مسـألة تحتـاج إلى مهارة فائقة إذ تتطلب البراعة اليدوية والعبقرية الخلّاقة في آن معاً. وكانت المشكلات العجيبة لقطعة الانطلاق تسر هوجو وتلهمه: العلاقـة الشبيهة

بالزناد بين الأجزاء، الجاذبية المغايرة بين الانفجار واللون، المزج بين الأساليب المختلفة في صناعة الصواريخ النارية، طرق الجمع بين «البريق» eclat والديمومة، والمشكلة الدائمة لذيل الصاروخ. وكان «هوجو» يعالج قطعة الانطلاق وكأنها سيمفونية. ويزدري ما في القطع الاستعراضية من ابتذال، وقال لي ذات مرة: «الألعاب النارية نسيج وحدها sui generis ، وإذا أردت أن تقارنها بفن آخر، فليكن ذلك بالموسيقى».

كان في الألعاب النارية شيء يفتتن به «هوجو» افتتاناً مطلقاً. وأعتقد أن أكثر ما كان يسره فيها هو «سرعة زوالها». وأتذكر تعريفاً حدثني فيه ذات مرة عن ذلك الشيء الأمين الذي هو الصاروخ الناري. إنه مجرد تفجر عابر للجمال لا يبقى منه شيء بعد لحظة واحدة. وقال هوجو: «هذه هي الماهية الحقة لكل فن، ولكننا لا نريد الاعتراف بها. كان ليوناردو(*) يفهم ذلك، ولهذا تعمد أن يكون «العشاء الأخير»(**) فانياً. ويرى «هوجو» أن الاستمتاع بالألعاب النارية ينبغي أن يكون تربية على الاستمتاع بكل روعة دنيوية. قال هوجو: «أنت تدفع نقودك، وتأخذ في مقابل ذلك متعة وقتية تماماً دون أي كلام فارغ حولها. لا يتحدث أحد بكلام زائف عن الألعاب النارية».

ولكنه كان ـ لسوء الحظ ـ مخطئاً، وكانت نظرياته هي التي تسببت في إفلاسه بوصفه صانعاً ماهراً. إذ انهالت الطلبات على صواريخ هوجو، ولم تعد الحفلات المنزلية الأنيقة، أو المهرجانات العامة تكتمل إلا بها.

(*) يقصد بالطبع ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) الرسام والنحات والموسيقي والمهندس الإيطالي. (المترجم).

(**) لوحة شهيرة رسمها ليوناردو دافنشي. (المترجم).

بل كانت تُصَدَّر أيضاً إلى أمريكا. وحينئذٍ شرعت الصحف في الحديث عنها، والإشارة إليها بوصفها أعمالاً فنية، وتصنيفها إلى أساليب. وأثار هذا كله تقزز «هوجو» بحيث أصاب عمله بالشلل. ولم يلبث حتى اتخذ موقفاً من الكراهية الإيجابية للصواريخ، وبعد فترة هجرها هجراً تاماً.

التقيت بهوجو أول مرة من خلال البرد والزكام المشترك. كان ذلك في فترة أعوزتني فيها النقود على نحو خاص، وكانت الأمور سيئة للغاية معي حتى اكتشفت مشروعاً خيرياً لا يصدقه المرء، إذ كنت أستطيع أن أقيم إقامة كاملة بالسكن والطعام نظير أن أكون حقل تجارب لعلاج البرد والزكام. وكانت التجربة تمضي قدماً في منزل ريفي بديع يستطيع المرء أن يبقى فيه إلى أجل غير مسمى، وأن يُحْقن بأنواع متعددة من أمصال البرد وأدويته. وكنت أبغض الإصابة بالبرد، ويبدو أن الأدوية لم تكن فعَّالة على الإطلاق عندما يقومون بتجربتها عليّ، ولكنها كانت - من ناحية أخرى - مجانية، ويتعود المرء بعد فترة على العمل مع البرد والزكام، وهذه ممارسة طيبة للحياة العادية. واستطعت أن أنجز قدراً كبيراً من الكتابة، على الأقل حتى ظهر «هوجو».

وكان المشرفون على هذا المشروع الخيري يقترحون عادة على الضحايا أن يقيموا أزواجاً أزواجاً، إذ لاحظوا في النشرة التمهيدية أن قلة من الناس يستطيعون احتمال الوحدة التامة. ولم أكن أهتم بالوحدة أنا نفسي - كما تعلم - ولكن بعد محاولات قلائل انتهى بي الأمر إلى كراهية صحبة الحمقى الثرثارين، وعندما عدت إلى ذلك المكان البديع موسماً آخر، طلبت السماح لي بالعيش على انفراد. والواقع أن هذه العزلة المحدودة المحمية التي توفرها مثل هذه المؤسسة كانت تلائمني كل الملاءمة. وأُجيب طلبي؛ فاجتهدت في العمل، وصارعت نوبة برد شنيعة بوجه خاص، بحيث أعلنوا إليّ أن مشكلة السكن تجبرني الآن على

قبول رفيق. ولم يكن أمامي اختيار، فوافقت. ونظرت بامتعاض شديد إلى الشخص الضخم الفظ الذي دخل متثاقلاً، فوضع حاجياته على السرير، ثم جلس إلى المنضدة الأخرى. غمغمت بنوع من الترحيب الذي يفتقر إلى اللياقة، وعدت إلى عملي، لكي يكون واضحاً أنني رفيق غير صالح للثرثرة. وزاد من سخطي أنه بينما كان البرد وحده من نصيبي، كان البرد والعلاج من نصيب رفيقي، ومن ثمّ، حين كنت أعطس وأشرق، مستعملاً كيساً مليئاً بالمناديل الورقية، ظل هو محتفظاً تماماً بكرامته الإنسانية، بحيث بدا صورة للصحة. ولم يتضح لي قط على أي المبادىء كان يتم توزيع الأمصال، إذ بدا لي دائماً أنني أحصل على ما يتجاوز نصيبي العادل من نوبات البرد.

كنت أخشى أن يلجأ رفيقي إلى الثرثرة، ولكن سرعان ما تبينت أنه لا وجود لمثل هذا الخطر. إذ انقضى يومان دون أن نتبادل كلمة واحدة. وبدا عليه حقاً أنه لا يشعر بوجودي تماماً. ولم يكن يقرأ أو يكتب على السواء، وإنما ينفق معظم وقته جالساً إلى المنضدة، شاخصاً ببصره خارج النافذة، عبر الحديقة البديعة التي تحيط بالمنزل. وكان يتمتم لنفسه أحياناً، ويتفوه بألفاظ مكتومة، ويقضم أظافره كثيراً، وذات مرة أخرج مطواة، وأحدث ـ وهو شارد الذهن ـ ثقوباً في الأثاث حتى انتزعها منه أحد الملاحظين. وظننت في بداية الأمر أنه ربما كان مختل العقل. وفي اليوم التالي بدأت أشعر بشيء من العصبية بسببه. كان ضخماً إلى أقصى حد، طويلاً متين البنيان في آن واحد، عريض المنكبيْن، ضخم اليديْن. وكان رأسه الهائل يغوص عادة بين كتفية، على حين كانت نظرته الهائمة تطوف بالحجرة أو بالمنظر الريفي المحيط بنا وفقاً لخطٍّ لا يوحي به أي شيء عادي من الأشياء الواقعة في مجال الرؤية. وكان شعره متلبداً أفحم؛ وفمه الواسع الذي لا شكل له والذي ينفتح حيناً بعد حين، يرسل صوتاً شبه ـ منطوق. وفي مرة أو مرتين بدأ يهمهم لنفسه، ولكنه كان

ينقطع فجأة في كلتا المناسبتين ـ وبدا عليه في هذه الحالة أنه أقرب ما يكون إلى الاعتراف بوجودي.

وفي مساء اليوم التالي كنت عاجزاً تمام العجز عن مواصلة العمل. جلست أنا أيضاً أنظر من نافذتي وقد التهمني مزيج من العصبية والفضول، فأخذت أنفخ أنفي، وأتساءل كيف يمكن البدء في إقامة اتصال إنساني أصبح الآن ضرورة مطلقة. وانتهى بي الأمر إلى سؤاله ـ في مباغتة تخلو من كل دبلوماسية ـ عن اسمه. وكانوا قد قاموا بتقديمه إليّ عند وصوله، ولكنني لم أعبأ بذلك حينذاك. فالتفتَ إليّ بعينين داكنتين غاية في اللطف ونطق اسمه: «هوجو بلفاوندر». وأردف قائلاً: «حسبت أنك لا تريد الكلام». فقلت إنني لست ممتنعاً عن الكلام بتاتاً، كل ما في الأمر أنني كنت منهمكاً في شيء حين وصوله، وسألته الصفح إن كنت قد بدوت فظّاً. وبدا لي ـ حتى من الطريقة التي يتحدث بها ـ أنه لم يكن غير مختل العقل فحسب، بل كان على درجة عالية من الذكاء، وبدأت بحركة تكاد تكون آلية ـ في حزم أوراقي. وعرفت أنني ـ من الآن فصاعداً ـ لن أقوم بأي عمل. كنت مختلياً بشخص فاتن إلى أقصى حدود الفتنة.

ومنذ تلك اللحظة تبادلنا «هوجو» وأنا حديثاً لم أعرف له نظيراً من قبل. أخبر كل منا صاحبه بقصة حياته كاملة، وبسرعة، حقَّقتُ فيها ـ من جانبي على الأقل ـ صراحةً لم يسبق لها مثيل. مضينا بعد ذلك نتبادل آراءنا حول الفن، والسياسة، والأدب، والدين، والتاريخ، والعلم، والمجتمع، والجنس. كنا نتحدث دون انقطاع اليوم كله، وشطراً من الليل في كثير من الأحيان. وكنا نضحك ونصيح أحياناً إلى درجة وبّختنا معها السلطات، وأنذرتنا ذات مرة بالفصل بيننا. وفي منتصف هذا الحدث انتهت الفترة التجريبية الحالية، غير أننا أدرجنا اسمينا في الفترة التالية. وكان الأمر قد استقر بنا إلى الدخول في مناقشة تتفق طبيعتها إلى حد ما مع قصتي الحالية.

كان «هوجو» يوصف في كثير من الأحيان بأنه مثـالي. غير أنني أؤثـر وصفه بأنه نظري، وإن يكن نظريًا من نوع غريب. كان يفتقر في آن معاً إلى الاهتمامات العملية وإلى الجدية الأخلاقية الواعدة بذاتها التي يتميز بها أولئك الذين يسمون عادةً بـالمثاليين. وكـان أكثر الأشخـاص الذين التقيت بهم موضوعية خالصة، وبُعْداً عن الارتباط بشيء - ولكن لم يكن هذا الانفصال فضيلة بقدر ما كان مجرد هبة من الطبيعـة، وهذا أمـر لم يكن على وعي بـه تمامـاً. كان شيئاً مُعَبَّـراً عنه في صـوته وسلوكـه. وأستطيع أن أصـوِّره الآن، كما كنت أراه خـلال محادثـاتنا في كثيـر من الأحيان - منحنياً إلى الأمام كثيراً في مقعده، وهو يقضم أظافره كلما التقط ملاحظة ساخنة من ملاحظاتي. وكان في المناقشة غايـة في البطء. كان يفتح فمه متمهلاً، ثم يغلقه، ويفتحه مرة أخرى، وأخيراً يجازف بملاحظة فيقول: «تقصد. . . » ثم يأخذ في شرح ما قلته على نحو بسيط ومحسوس تماماً، كان يلقي في بعض الأحيان ضوءاً هائلاً عليه، وأحياناً يجعله يبدو هراءً كاملاً. لا أقصد أنه كان مصيباً دائماً. ففي كثير من الأحيان كان لا يفهمني على الإطلاق. ولم أستغرق وقتاً طويلاً في اكتشاف أن معلوماتي العامة أوسع من معلوماته كثيراً في معظم الموضـوعات التي نـاقشناهـا. ولكنه كان يدرك بسرعة فائقة حين نصل إلى طريق مسـدود، من وجهة نظره هو، فكان يقول: «حسن، لا أستطيع أن أقول شيئاً عن هـذا»، أو «أخشى أن أكون هنا عاجزاً تماماً عن فهمك، تماماً»، بصورة نهائية تقتل المـوضوع. وكـان «هوجـو» هو الـذي يقود المحـادثة، من البـداية إلى النهاية.

كـان مهتماً بكـل شيء، ومهتماً بنـظرية كـل شيء، ولكن على نحو غريب. لكل شيء نظرية، ومع ذلك ليست هناك نظرية مسيطرة على كل شيء. ولم ألتقِ قط بإنسان أشد حـرماناً من «هوجو» من أي شيء يمكن أن يسمى الـرؤيـة الميتـافيـزيقيـة أو النـظرة الكـونيـة العـامـة

Weltanschauunng . الأحرى أنه كان يريد من كل شيء يقابله أن يعرف طبيعته ـ ويبدو أنه كان يتناول هذه المسألة في كل مَثَل بصفاء ذهني مطلق. وكانت النتائج مثيرة للدهشة في معظم الأحيان. وإني لأتذكر محادثة دارت بيننا ذات مرة عن الترجمة. ولم يكن «هوجو» يعرف شيئاً عن الترجمة، ولكن عندما علم أنني مترجم أراد أن يعرف كيف تكون الترجمة. وأتذكر أنه أخذ يمضي ويمضي في الموضوع، واضعاً مثل هذه الأسئلة: ماذا تعني حين تقول إنك تفكر في المعنى بالفرنسية؟ كيف تعرف أنك تفكِّر فيه بالفرنسية؟ إذا رأيت صورة في ذهنك، كيف تعرف أنها صورة فرنسية؟ أم أن المسألة هي أنك تقول الكلمة الفرنسية لنفسك ماذا ترى حين ترى أن الترجمة مضبوطة تماماً؟ أتتخيل ما يمكن أن يفكِّر فيه شخص آخر، حين يراها لأول مرة؟ أم هذا نوع من الشعور؟ أي نوع من الشعور؟ هل تستطيع أن تصفه وصفاً أوثق من ذلك؟ وهكذا، وهكذا، في صبر خرافي. وفي بعض الأحيان تصبح المسألة مثيرة للغضب. وما كان يبدو لي أبسط العبارات، سرعان ما أصبح ـ تحت ضغط «هوجو» المتكرر لعبارة: «أنت تقصد. . .» ـ قولاً معتماً مشوشاً لم أعد أنا نفسي أعرف معناه. وتحول نشاط الترجمة الذي كان يبدو لي أبسط الأشياء في العالم ـ تحول ليصبح معقداً غير مألوف بحيث أصبح من المحيِّر أن يرى المرء كيف يمكن لأي إنسان أن يقوم به. وفي الوقت نفسه، كانت تساؤلات «هوجو» نادراً ما تفشل في إلقاء قَدْرٍ غير مألوف من الضوء على أي موضوع يهتم به. إذ كان كل شيء ـ في نظر هوجو ـ مثيراً للدهشة، باعثاً على السرور، معقداً، غامضاً. وخلال هذه المحادثات، بدأت أرى العالم كله من جديد.

وفي أثناء الشطر المبكر من مناقشتي مع «هوجو»، كنت حريصاً على أن «أضعه» في موضعه. وسألته مرة أو مرتين سؤالاً مباشراً إن كان يعتنق هذه النظرية العامة أو تلك ـ وهو أمر كان ينكره دائماً بلهجة شخص يواجه

برداءة ذوقه. وبدا لي فيما بعد بالتأكيد أن توجيه مثل هذه الأسئلة لهوجو كان معناه إظهار انعدام غريب للحساسية بالنسبة لمزاياه الذهنية والأخلاقية الفريدة. وتحققت بعد فترة أن «هوجو» لا يعتنق نظريات عامة أياً كانت. ونظرياته جميعاً، إن كان من الممكن تسميتها بالنظريات، كانت خاصة (جزئية). ومع ذلك، كان يساورني شعور بأنني لو اجتهدت بما فيه الكفاية فسأصل على نحو ما إلى مركز تفكيره؛ وبعد فترة كان همِّي هو ألا أناقش «هوجو» كثيراً في السياسة أو الفن أو الجنس، وإنما مناقشة ذلك الشيء الخاص في تناول هوجو للسياسة أو للفن، أو للجنس. وأخيراً دارت بيننا محادثة بدا لي أنها تمس شيئاً مركزياً في فكر «هوجو»، إن كان من الممكن أن يكون لفكر هوجو شيء تشكيلي يتمثل في مركز. ومن المحتمل أن ينكر هو نفسه هذا الكشف، أو بالأحرى، لست واثقاً من أنه يعرف ما معنى أن يكون للأفكار اتجاه معين. وصلنا إلى هذه النقطة التي نحن بصددها عرضاً في مناقشة عن بروست Proust(*). ومن «بروست» انثنينا إلى مناقشة ما يعنيه وصف شعور أو حالة ذهنية. وكان «هوجو» يجد هذا شيئاً محيِّراً، كما يجد ـ بالتأكيد ـ كل شيء محيِّراً إلى أقصى حد.

قال هوجو: «ثمة شيء مريب في وصف مشاعر الناس.. هذه الأوصاف جميعاً درامية إلى حد بعيد».

قلت: «وما الخطأ في ذلك؟».

قال هوجو: «لا شيء سوى أن الأشياء تُزَيَّف منذ البداية. فإذا قلت فيما بعد إنني شعرت بهذا أو بذاك، فليكن أنني «أشعر بالخوف» ـ لن يكون ذلك حقاً».

(*) مارسل بروست Marcel Proust (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) روائي فرنسي كبير اشتهر بأسلوبه «تيار الشعور» الذي تمثل في روايته «البحث عن الزمن الضائع» A la Recherche du Temps Perdu. (المترجم).

سألت: «ماذا تعني؟».

قال هوجو: «إنني لم أشعر بهذا. إنني لم أشعر ـ حينذاك ـ بأي شيء من هذا النوع على الإطلاق. إنه شيء أقوله فيما بعد».

قلت: «ولكن أفترض أنني أحاول جاهداً أن أكون دقيقاً».

قال هوجو: «ليس في إمكان المرء. والأمل الوحيد هو أن يتحاشى المرء قول ذلك. فما أن أبدأ في الوصف، حتى أكون قد ضعت. حاول أن تصف أي شيء، محادثتنا على سبيل المثال، وسترى كيف أنك غريزياً على نحو مطلق. . . ».

اقترحت قائلاً: «أتناولها بالتهذيب؟».

قال هوجو: «الأمر أعمق من ذلك. فاللغة لن تدعك تعرضها كما كانت في الواقع حقًّا».

قلت: «أفترض إذن أن المرء يقوم بتقديم الوصف في الحال».

قال هوجو: «ولكن ألا ترى أن هذا يقضي على الموضوع؟ لا يستطيع المرء أن يقدِّم وصفاً في الحال دون أن يرى أنه لم يكن حقيقياً. كل ما يمكن أن يقوله المرء في الحال ربما كان شيئاً عن خفقان قلبه، ولكن إذا قال المرء إنه كان خائفاً، فلن يكون ذلك إلا لأنه يحاول أن يعطي انطباعاً ـ أنه من أجل التأثير، وسيكون هذا كذباً».

تحيَّرت أنا نفسي بما يقول. وأحسست أن ثمة شيئاً خطأ فيما يقوله «هوجو»، وإن كنت لم أستطع تحديده. وناقشنا الموضوع مزيداً من المناقشة، وحينئذٍ قلت له: «ولكن بهذا المقياس يصبح كل ما يقوله المرء فيما عدا أشياء مثل: «ناولني المربّى»، أو «هناك قطة فوق السقف» ـ يصبح كل ما يقوله المرء نوعاً من الكذب».

تروّى «هوجو»، ثم قال بجدية: «أعتقد أن الأمر على هذا النحو».

قلت: «في هذه الحالة، لا ينبغي على المرء أن يتكلم».

قال هوجو: «أعتقد.. ربما كان لا ينبغي على المرء أن يتكلم». وكان جاداً كل الجد. ثم لمحت عينه، فضحكنا معاً ضحكاً شديداً، ونحن نفكر في أننا لم نفعل شيئاً آخر سوى ذلك أياماً بأكملها.

قال هوجو: «هذا شيء هائل! بالطبع يتكلم الإنسان، ولكن..».

وعاودته الرزانة مرة أخرى: «يقدِّم المرء كثيراً من التنازلات من أجل حاجته إلى الاتصال».

ـ «ماذا تعني؟».

ـ «طيلة الوقت الذي أتحدث فيه إليك، حتى الآن، لا أقول بالضبط ما أفكر فيه، ولكن ما يؤثر فيك ويجعلك تستجيب. الأمر على هذا النحو حتى بيننا ـ وما أكثر ما يكون كذلك حيث تكون ثمة دوافع قوية للخداع. والواقع، أن المرء قد اعتاد ذلك بحيث لم يعد قادراً على رؤيته. اللغة كلها آلة لصنع الأقوال الزائفة».

سألته: «ماذا يحدث لو قال الإنسان الصدق؟ هل هذا ممكن؟».

قال هوجو: «أنا أعرف نفسي، حين أقول الحقيقة فعلاً، تتساقط الألفاظ من فمي ميتة تماماً، وأرى خواءً كاملاً في وجه الشخص الآخر».

ـ «وهكذا لا نتواصل حقاً؟».

قال: «حسن، أظن أن الأفعال لا تكذب».

استغرق وصولنا إلى هذه النقطة نصف دستة من جلسات علاج البرد. وكنا قد رتبنا الأمور بيننا الآن على أن نُصَاب بالبرد بالتناوب، بحيث أن كل ضعف ذهني يترتب عليه، نتقاسمه بالتساوي بيننا. وقد ألح «هوجو» على هذا، وإن كنت على أهبة الاستعداد للإصابة بنوبات البرد كلها،

وهذا راجع في شطر منه إلى شعور الحماية الذي أخذ ينمو في داخلي نُحو «هوجو»، وفي شطر آخر لأن «هوجو» يحدث ضجة جهنمية حين يصاب بالبرد. ولست أدري لماذا لم يخطر لنا مبكراً أننا لسنا بحاجة إلى البقاء في مؤسسة علاج البرد لمواصلة أحاديثنا.

ربما كنا نخشى انقطاع الاستمرارية. ولست أدري متى خطر لنا أن نرحل عن المكان بمحض إرادتنا؛ غير أن السلطات كانت هي التي صرفتنا بالفعل إذ خشيت أننا مع إصابتنا بهذه النوبات الكثيرة من البرد أن تصاب صحتنا بعلّة دائمة.

كنت وقتئذٍ واقعاً تحت سحر «هوجو» تماماً. أما هو نفسه فلم يظهر عليه أبداً أنه يلحظ مدى الانطباع الذي تركه عليّ. ولم يكن في المحادثة حريصاً أدنى الحرص على أن يسجِّل نقاطاً تُحسب له؛ ومع أنه كان يفحمني في كثير من الأحوال، إلا أنه ـ على ما يبدو ـ لم يكن يفطن إلى هذا ولم يكن ذلك لأنني أتفق معه دائماً. بل إن فشله في فهم نوع معين من الأفكار كان يملأني بالضيق. ولكن كان الأمر وكأنما تكشف طريقته في الوجود نفسها عن أن رؤيتي الخاصة للعالم يطمسها التعميم إلى درجة لا أمل فيها في الإصلاح. كنت أشعر بما يشعر به رجل يعتقد اعتقاداً غامضاً أن الزهور كلها سواء، وخرج للنزهة مع عالم في الزهور. غير أن هذا التشبيه لا يلائم «هوجو» أيضاً، ذلك أن عالِم الزهور لا يلاحظ التفاصيل فحسب، بل يقوم بالتصنيف، على حين أن «هوجو» يلحظ التفاصيل فحسب، ولا يقوم أبداً بالتصنيف؛ وكأنما كانت رؤيته من الحدة بحيث تجعل التصنيف محالاً، إذ كان كل شيء يراه فريداً على نحو مطلق. وكنت أشعر أنني التقيت لأول مرة برجل صادق صدقاً كاملاً. وبدأت التجربة تتخذ منحى انقلابياً. إذ كنت أميل إلى إضفاء قيمة روحية على «هوجو» تتناسب مع انصرافه التام عن التفكير في نفسه في مثل هذا الضوء.

وعندما طلبوا منا مغادرة مؤسسة علاج البرد، لم يكن عندي مكان أعيش فيه. فاقترح «هوجو» أن أعيش معه، غير أن شيئاً من غريزة الاستقلال منعني من ذلك، إذ أحسست بأن شخصية «هوجو» يمكنها في ـ يسر شديد ـ أن تبتلع شخصيتي تماماً، وبقدر ما كنت معجباً به، كنت لا أريد أن يحدث هذا. ومن ثمّ، اعتذرت عن قبول هذا العرض. وكان عليّ ـ على كل حال ـ أن أذهب إلى فرنسا حينذاك لألتقي بجان بيير، الذي أحدث ضجة فيما يتعلق بإحدى ترجماتي، ومن ثم فقد انقطعت محادثتنا لفترة. وخلال هذه المدة، عاد «هوجو» إلى العمل في مصنع الصواريخ، وشرع في تنمية مواهبه الفذة في قِطَع الانطلاق، واستأنف بوجه عام نموذج حياته في لندن. وكانت محاولاته للخروج من هذا النموذج تتخذ دائماً شكلاً غريب الأطوار؛ وكان عجزه عن قضاء إجازة سوية مريحة مترفة ـ كان هذا العجز أقرب شيء اكتشفته فيه إلى سمة المرض العصبي. وعندما رجعت من باريس استأجرت حجرة رخيصة في باترسي Battersea ، فاستأنفنا ـ هوجو وأنا ـ أحاديثنا. فكنا نلتقي عند «جسر تشلسي» Chelsea بعد أن يفرغ «هوجو» من عمل يومه، ونتسكع على ضفة تشلسي، أو نطوف بحانات «طريق الملك» King's Rood ، مستهلكين نفسينا في الحديث إلى درجة الإرهاق.

قبل هذا الوقت بقليل، قمت بحركة ثبت لي فيما بعد أنها مهلكة. ذلك أن المحادثة التي قدّمتُ منها موجزاً قصيراً فيما سبق شغلتني كثيراً بحيث سجلت عنها ملاحظات قلائل على سبيل التذكرة. وعندما تصفحت هذه الملاحظات مرة أخرى بعد فترة وجيزة، بدت لي مهوشة قاصرة، ومن ثمّ أضفت إليها قليلاً حتى تكون أفضل تذكيراً. وعندما تأملتها بعد ذلك استرعى انتباهي أن المناقشة كما هي مسطورة على الورق ـ تبدو خالية من المعنى . فكان أن أضفت إليها مزيداً، لأجعلها تبدو معقولة، وما برحت أعتمد على ذاكرتي. ولما قرأتها قراءة متمعنة

خطر لي أنها جيدة نوعاً ما. فلم أكن رأيت شيئاً مثلها تماماً من قبل. راجعتها مرة أخرى وجعلتها تبدو أكثر أناقة. فأنا كاتب بالسليقة، على كل حال، وما دامت الآن على الورق، فربما بدت شيئاً محترماً. ومن ثمّ، عمدت إلى صقلها مرة بعد أخرى، ثم بدأت في كتابة المحادثة التمهيدية أيضاً. هذه المحادثة لم تكن واضحة تمام الوضوح في ذاكرتي، وفي إعادة بنائها رجعت إلى عدد من المناسبات المختلفة.

وبالطبع لم أخبر هوجو بشيء من هذا. إذ كنت أرى في ذلك تسجيلاً خاصاً وشخصياً أحتفظ به لنفسي، وبالتالي لم يكن هناك ما يدعو إلى إخباره. والواقع أنني كنت أعلم في صميم قلبي أن إبداع هذا التسجيل كان نوعاً من الخيانة لكل شيء تخيلت أنني تعلمته من «هوجو». غير أن هذا التفكير لم يوقفني. ومن المؤكد أن هذه العملية بدأت تتخذ صورة الافتتان بخطيئة مستسرة. وعكفت عليها باستمرار. وتوسعت فيها الآن لكي تغطي عدداً كبيراً من محادثاتنا التي لا أعرضها بالضرورة كما أتذكر أنها وقعت، ولكن على نحو يتلاءم مع خطة الكل. وبدأ كتاب ضخم يتشكل. وحرصت على أن يتخذ شكل الحوار بين شخصيتين سميتهما تاماروس Tamarus وآناندين Annandine . والشيء العجيب هو أنني كنت أستطيع أن أرى بوضوح من البداية إلى النهاية أن هذا العمل تبرير موضوعي لموقف «هوجو». أعني أنه كان محاكاة مصطنعة وتزييفاً لمحادثاتنا. وإذا قورن بها كان زيْفاً أجوف. وحتى إن كنت قد كتبته لنفسي، فقد كان من الواضح أنه كتب للتأثير والاستهواء. وبعض لحظات حديثنا التي كانت أكثرها استنارة، كانت إذا سجلت، تبدو أوغلها في السطحية. غير أن هذه لم أستطع أن أنجح إطلاقاً في تسجيلها بما كان فيها من قوة في الواقع. كان عملي مقصوراً باستمرار على إضافة شيء من الشكل، تلك اللمحة من العلاقة التي يفتقر إليها الأصل. ومع أنني كنت

أرى بوضوح أن هذا العمل محاكاة زائفة، إلا أن حبي له لم ينقص لهذا السبب.

وذات يوم لم أستطع مقاومة رغبتي في عرضه على «ديف جلمان». ظننت أنه سيؤثر فيه. وقد كان. وأراد أن يناقشه معي على الفور. ولم يتمخض هذا عن شيء كثير - على كل حال - إذ وجدت نفسي عاجزاً عن مناقشة أفكار «هوجو» مع «ديف». ومع شدة تأثري بهذه الأفكار، لم أكن قادراً تماماً على إعادة عرضها في الكلام مع أي شخص آخر. وعندما حاولت أن أشرح فكرة من أفكار «هوجو» كانت تبدو سطحية وصبيانية، أو مجنونة تماماً، وسرعان ما كنت أتخلى عن المحاولة. ولم يلبث «ديف» أن انصرف بعد ذلك عن الاهتمام بالكتاب؛ ذلك أن الشيء لا يكون حقيقياً أو مهماً في نظر «ديف» إلا إذا أمكن الدفاع عنه في المناقشة الشفاهية. وأياً كان الأمر، فقد عرضه خلال ذلك الوقت - مخالفاً بذلك تعليماتي - وكان قد أخذه إلى المنزل لينتهي من قراءته - على شخص أو شخصين آخرين، تأثرا به أيضاً تأثراً شديداً.

ولما كنت أعلم إلى أي مدى يمكن أن يُغْضب المشروع كله «هوجو»، فقد ألفيت نفسي ملزماً بإخفاء هويته. وعرضت الأمر على «ديف» بوصفه تمريناً دراميا يقوم - من بعيد إلى حد ما - على محادثات جرت بيني وبين عدد من الأشخاص. غير أنني بعد فترة وجيزة وجدت نفسي الآن منظوراً إليّ في بعض الأوساط بوصفي نوعاً من الحكماء، وألح عليّ كثير من أصدقائي لرؤية المخطوط .والواقع أنني أطلعت عليه مزيداً من الأشخاص القلائل، وبدأت أتعود على فكرة انتشاره في نطاق ضيق. وكنت طيلة هذا الوقت لا أكف عن العمل فيه، مستخدماً مادة إضافية من محادثاتي الحالية مع «هوجو». واستمر حرصي على أن تظل صداقتي بهوجو سراً لا يعلمه أصدقائي الآخرون جميعاً. فعلت ذلك في البداية مدفوعاً برغبتي الغيور في الاحتفاظ بصديقي العظيم لنفسي، ثم فيما بعد

خوفاً من أن يكتشف «هوجو» خداعي.

والآن، أخذ الناس يقترحون باستمرار أن أنشر هذا العمل، فكنت ألقاهم بالضحك فحسب، غير أن الفكرة كانت جذابة بالنسبة لي على كل حال. كانت جذّابة في البداية جاذبية الشيء الذي يعلم المرء أنه لن يفعلِه أبداً. ولما كان النشر خارج الموضوع تماماً، فقد أحسست أنني في أمان مطلق حين أطيل التفكير فيه بخيالي. كنت أتصور أي كتاب عظيم سيكون، وكيف سيكون أصيلاً، وإلى أي حد سيكون مدهشاً، منيراً! وكنت أسرِّي عن نفسي بابتكار العناوين له. وأجلس قابضاً على المخطوط بيدي، ثم أتخيّل أنه استنسخ ألف نسخة. إذ كنت أعاني حينذاك خوفاً من فقدان المخطوط، ومع أنني استنسخت منه على الآلة الكاتبة نسختين أو ثلاثاً، إلا أنني كنت أشعر بأنه من المحتمل أن تتلف جميعاً أو تضيع إلى الأبد على نحو أو آخر ـ ولم يكن يسعني إلا أن أشعر بالرثاء لنفسي. وذات يوم اتصل بي مباشرة أحد الناشرين مقترحاً نشره.

كان هذا العرض مفاجأة لي. إذ لم يتصل بي ـ قبل ذلك ـ ناشر من تلقاء نفسه، فأدار مثل هذا التنازل رأسي. وخطر لي أنه لو حقق هذا الكتاب نجاحاً ـ وهذا ما لا أستطيع الشك فيه ـ فسوف يمهد ذلك طريقي في العالم الأدبي بشكل ملحوظ. فمن الأيسر عليك أن تبيع سَقَط المتاع إن كنت معروفاً، من أن تبيع أعمال العبقرية إن لم تكن معروفاً. فإذا استطعتُ الوثوب إلى الشهرة على هذا النحو، فإن شخصيتي بوصفي كاتباً تكُون قد استقرت. طرحت هذه الفكرة جانباً، قائلاً لنفسي إن المشروع كله مستحيل. إذ لا أستطيع أن أبيع أفكار «هوجو» على أنها أفكاري. والأدهى من ذلك كله، لم أكن أستطيع أن أستغل مادة أستمدها من علاقتي الحميمة بهوجو لأقدم للجمهور عملاً سوف يملأ «هوجو» نفسه بالنفور والتقزز. غير أن أحلامي الخاملة عن النشر التي راودتني في وقت مبكر كشفت عن نفسها النقاب الآن بوصفها إرادة حقيقية. واستبدت

بي فكرة النشر، وكأن ضرباً من القدر يسوقني إليها. ورأيت أفعالي الماضية كلها وكأنها تسوقني حتماً إلى هذه النهاية. وتذكرت أمسية مخمورة استعرضت خلالها في خيالي كل مرحلة من مراحل العملية التي ستجلب الحوار إلى المطبعة. وفي تلك الأثناء أصبح للفكرة واقع متجسد في الخيال لم يكن ليطول كثيراً قبل أن يتحول إلى الفعل. واتصلتُ بالناشر في منزله.

كان يعلم أسباب إحجامي وترددي، فوصل مبكراً في صباح اليوم التالي حاملاً العقد الذي وقّعتُه في حالة من غَلَبة التسليم، والصداع الأليم. وبعد أن انصرف، تناولت المخطوط ونظرت إليه كما ينظر المرء إلى المرأة التي أفقدته شرفه. وكنت قد سميته «المُسْكِت» The Silencer وأضفت إليه تصديراً للمؤلف ذكرت فيه أنني مدين بكثير من الأفكار التي يتضمنها إلى صديق لا ينبغي أن أذكر اسمه، ولكن ليس عندي سبب يدعوني إلى الاعتقاد بأنه سيرضى عن الشكل الذي عرضتُ فيه هذه الأفكار. ثم رميت بالمخطوط، وتركته لمصيره.

وفي أثناء تجمُّع هذه الأزمة، بدأ «هوجو» يستثمر أمواله في الأفلام. شرع في هذا على نحو خيري غامض، لكي يعطي لصناعة الفيلم البريطانية قدماً تقف عليه. غير أن هذا الاتجاه أخذ يستولي عليه، وما أن أُنشئت «مؤسسة بلفاوندر»، حتى كان «هوجو» قد عرف طريقه معرفة جيدة في عالم السينما. إذ كان في الواقع رجل أعمال مرموقاً. وكان يوحي بالثقة للجميع، وكانت له أعصاب فولاذية. وأخذت «مؤسسة بلفاوندر» تتقدم كنيران وحشية. فاتخذت لنفسها مسرحاً تجريبياً، إن كنت تذكر ذلك ـ وكان في الشطر الأكبر منه بوحي من «هوجو» نفسه، حين أنتج عدداً من الأفلام الصامتة من ذلك النوع الذي كان يسمى «تعبيرياً»، وسرعان ما استقر به الأمر على إنتاج الأفلام العادية التي تتخذ من حين إلى آخر طابعاً تجريبياً. ولم يكن «هوجو» يحدثني كثيراً عن مشروعاته

السينمائية، مع أننا كنا نلتقي كثيراً في تلك الأثناء طيلة الوقت. وأظن أنه كان خجلاناً إلى حد ما من نجاحه. أما أنا ـ فعلى العكس من ذلك ـ فقد كنت فخوراً به لخصوبته وتعدد وجه نشاطه، وكنت أشعر بمتعة خاصة حين أذهب إلى السينما لأشاهد قبل أسماء المشتركين في الفيلم، اللقطة المعتادة عن «أبراج المدينة» (شعار المؤسسة)، وأستمع إلى كريشندو «أجراس المدينة» في الوقت الذي تظهر فيه هذه العبارة: «يقدمه هوجو بلفاوندر» ـ تظهر بوقار على الشاشة.

ولأول وهلة ـ يبدو أن نشاطي السري لم يؤثر أي تأثير على صداقتي بهوجو. واستمرت أحاديثنا، بكل نضارتها القديمة وتلقائيتها، وكانت موضوعات هذه الأحاديث لا ينضب لها معين. وفي الوقت الذي أخذ فيه الكتاب ينمو ويكتسب قوة، بدا أنه يستنزف بعض الدماء من علاقتي الحميمة الأخرى. إذ اتخذ لنفسه موقف الخصم. وما بدا في أول الأمر «كتماناً بريئاً للحقيقة»، بدأ يتحول إلى «مطب صناعي» مسموم. ذلك أن معرفتي بأنني أخدع «هوجو» انتزعت الصراحة من استجاباتي له حتى في المجالات التي لم تكن متصلة تماماً بهذا الخداع على وجه خاص. ولم يبد على «هوجو» أنه لاحظ شيئاً على الاطلاق، واستمر استمتاعي الشديد بصحبته. ولكن، حين وقّعت العقد أخيراً، وانتقل الكتاب إلى الناشر، أحسست بأنني لا أكاد أستطيع أن أنظر إلى «هوجو» في وجهه. وبعد يوم أو يومين تعودت رؤيته حتى في هذه الظروف، غير أن شيئاً من الأسى الرهيب أخذ يخيِّم على علاقتنا. وعرفت الآن أن صداقتنا مآلها إلى زوال.

وتساءلت هل أجرؤ ـ حتى في هذه المرحلة ـ على الإفضاء بالحقيقة إلى «هوجو». وفي مرة أو مرتين كنت على شفا الاعتراف. ولكنني كنت أحْجم في كل مرة. كنت عاجزاً عن مواجهة احتقاره وغضبه. غير أن أسوأ ما منعني هو الشعور بأن الأمر كله لم يكن بلا رجعة تماماً. إذ كنت

أستطيع أن أذهب إلى الناشر وأن أطلب منه إحلالي من العقد. وإذا عرضت عليه شيئاً من التعويض المالي، فقد أستطيع حتى الآن أن أتخلص من الأمر كله. غير أنني كلما فكرت في ذلك، غاص قلبي بين جنبيّ. كان عزائي الوحيد يكمن في قَدَرية مخيفة ـ وفكرة أنني ما زلت فاعلاً حراً، وأنه من الممكن حتى الآن تجنب الجريمة، كانت هذه الفكرة تؤلمني ألماً شديداً كلما واجهتها. ومجرد فكرة أن «هوجو» يمكن أن يطلب مني سحب الكتاب سببت لي كرباً عظيماً بحيث لم أكن أستطيع أن أغري نفسي حتى بتأمل إخباري له بفعلي؛ ولم يكن هذا بسبب لهفتي على أن أرى الكتاب مطبوعاً. حلاوة هذا الشعور قُتِلت منذ فترة بسبب حزني الآن إذا ما فكرت في فقداني لهوجو. ولم يعد في وسعي أن أجلب العزاء لنفسي إلا بشيء واحد هو هذا اليقين الرهيب الذي أتَشبث به يوماً بعد يوم، من أن زهرة النرد قد أُلْقيت.

اعترتني في الآونة الأخيرة كآبة كانت من الشدة بحيث كنت أجد صعوبة هائلة في التحدث إلى «هوجو»، رغم أنني كنت أراه كثيراً كسابق عهدنا. كنت أجلس أحياناً صامتاً في حضرته ساعات إثر ساعات، إلا من بعض الاستجابات الوجيزة التي تجعل من الاستمرار في حديثه أمراً ممكناً. وسرعان ما فطن «هوجو» إلى اكتئابي، فسألني عنه. فتظاهرت بالمرض؛ وكلما انشغل «هوجو» بحالتي واهتم بها ـ كان عذابي أكبر. وبدأ يبعث إليّ بهدايا من الفاكهة والكتب، ومقويات الجلوكوز والحديد، وتوسل إليّ أن أعرض نفسي على طبيب؛ والحق أنني خلال هذه الفترة أمرضت نفسي بكل تأكيد.

وفي اليوم الذي أُعْلن فيه نشر الكتاب، كنت خارجاً عن طوري. وكنت على موعد للالتقاء بهوجو هذا المساء، على الجسر كالمعتاد. وما أن انتصف النهار حتى أحسست أن الدليل على خداعي لا بد أنه معروض في كل حانوت للكتب في لندن. وقلت لنفسي ربما لم يكن «هوجو» قد

شاهد الكتاب بعد. غير أن الوقت الذي سيمضي دون أن يراه لن يكون طويلاً، لأنه كثير التردد على حوانيت الكتب. كان موعدنا في الساعة الخامسة والنصف، فقضيت بعد الظهر في شرب البراندي ـ وفي حوالي الخامسة ذهبت إلى «منتزه باترسي» Battersea Park. وهناك نزل عليّ نوع من السكينة حين علمت أنه لا ينبغي عليّ أن ألتقي بهوجو هذا اليوم، أو أي يوم آخر بعد ذلك أبداً. فتنة مأساوية ساقتني إلى شاطىء النهر، وهناك كنت أستطيع أن أرى الجسر. ظهر هوجو في الموعد المضبـوط، وانتظر. جلست على مقعد ودخنت سيجارتين. أخذ «هوجو» يذرع المكان جيئة وذهاباً. وبعد برهة أطول، شاهدته يعبر الجسر متجهاً إلى الضفة الجنوبية، فعلمت أنه سيذهب إلى مسكني. أشعلت سيجارة أخرى. وبعد نصف ساعة رأيته يسير متمهلاً عبر الجسر، ولم يلبث أن اختفى.

عدت إلى حجرتي بعد ذلك، وأخطرت صاحب المنزل، وحزمت أمتعتي، وغادرت المكان من فوري بسيارة أخرى. وبعد أسبوع وصلتني رسالة من «هوجو» يستفسر فيها عما حدث لي، ويطلب مني الاتصال به. تركت الرسالة دون رد. ولم يكن «هوجو» من كتّاب الرسائل المجيدين، بل كان يجد صعوبة شديدة في التعبير عن نفسه على الورق على الإطلاق. فلم أتلق مزيداً من الرسائل. وفي هذه الأثناء كانت بعض الصحف قد تناولت كتابي «المُسْكِت» بمقالات قلائل فاترة اللهجة. والنقاد الذين حرصوا على أن يقولوا شيئاً وجدوا بوضوح أنه غير مفهوم. ووصفه أحدهم بأنه لا يخلو من «الادعاء والتعمية». وبالجملة، لم يهتم به أحد اهتماماً كبيراً. وكان فشلاً ذريعاً. وبدلاً من أن يفتح لي طريق الشهرة الأدبية، أساء إلى سمعتي إساءة بالغة، وأخِذت على أنني مثقف جاد لا يمتلك أية قدرات على التسلية، وذلك في أوساط جاهدت فيها كثيراً لأبني انطباعاً آخر مختلفاً تمام الإختلاف.

غير أنني لم أعبأ بهذا كثيراً، على كل حال. وكانت لهفتي تنصب على نسيان الموضوع كله، وعلى أن أمحو من مذهبي علاقتي بهوجو محواً تاماً. ولم يطبع «المُسْكِت» سوى طبعة واحدة، بعد أن ركدت ـ بصورة جلية ـ في طريق تشيرنج كروس Charing Cross Rood ، واختفت من السوق، وكان اختفاؤها رحمة. ولم أحتفظ لنفسي بنسخة منها، ووددت من صميم قلبي أن يبدو الأمر كله، وكأن هذا الكتاب الملعون لم يوجد قط. وانقطعت عن الذهاب إلى السينما، وتجنبت النظر في الصحف اليومية المثيرة التي تهتم بمتابعة نشاطات «هوجو». وفي هذه الفترة ظهر «فين»، وارتبط بي، وسَلَكْت حياتي بالتدريج نموذجاً جديداً، وأَخَذَتْ صورة «هوجو» القوية تتلاشى رويداً رويداً. ولم تنقطع عملية التلاشي هذه حتى اللحظة التي ذكرتْ فيها سادي ـ على غير توقع ـ اسم «هوجو» في حانوت الحلاق.

الفصل الخامس

سِرْت في الشارع شارد اللب مذهولاً. ابتعت علبة سجائر ودخلت مشرب ألبان لأتروى في الأمر. كان ذكرْ اسم «هوجو» كافياً في حد ذاته لإحداث انقلاب ملحوظ في نفسي، واستولى عليّ - برهة من الزمن - عذاب جعلني لا أستطيع أن أتبين المسألة بوضوح على الإطلاق. وكان يبدو جلياً - فيما يتعلق بموقفي الحالي - أن ارتباط «هوجو» بهذه المسألة يجعل من المستبعد تماماً أن أقبل عرض «سادي»، أو أن تكون لي بعد ذلك أية صلة بسادي بحال من الأحوال. وكان الدافع المباشر الذي يجتاحني هو أن ألوذ بالفرار. وعلى كل حال، بدأت أشعر - بعد برهة - بقدر كاف من الهدوء جعلني أرى الموقف على شيء من الطرافة؛ وعندئذٍ، كلما أمعنت التفكير فيه، اتضح لي أن «سادي» لا يمكن أن تكون قد أفضت بالحقيقة. كنت أعلم من قديم أن «سادي» كذابة أشرة، ومن الممكن أن ترتكب أي بهتان إن كان فيه ما يُكْسِبُها أية مزية ولو مؤقتة. وكذلك كانت استحالة وقوع «هوجو» في غرام «سادي»، حين ترويت فيها، أمراً لا مجال فيه للشك. ذلك أن «هوجو» لم يكن شغوفاً بالنساء، وكان يميل - على كل حال - إلى الإعجاب بأنماط سيدات البيوت. كما عجزت عن تصوره سالكاً على النحو الذي وصفته «سادي». أما أن تكون هناك مكيدة مُـدَبّرة لتوريط «هوجو» فأمر محتمل جداً؛ غير أن

التفسير المرجَّح هو أن «سادي» كانت على وشك القيام بطفرة مهنية كان «هوجو» يحاول إحباطها. ولم أكن أعلم شيئاً عن عالم الأفلام، غير أنني كنت أتصوره خميرة مستمرة للمكائد الشخصية. وبالتأكيد، كان من الممكن أن تكون «سادي» هي التي وقعت في غرام «هوجو»، وأنها تحاول اصطياده بصورة أو بأخرى. وحين خطر لي هذا، بدا افتراضاً معقولاً إلى حد بعيد. وكنت أعرف، من سلوك «سادي» نحوي كيف تتأثر بسهولة بالرجال الذين تتخيل أنهم مثقفون؛ ولمَّا لم يكن هوجو الرجل الذي يمكن أن يعشق «سادي» بحال من الأحوال، فقد كانت «سادي» هي بالضبط المرأة التي يمكن أن تعشق هوجو.

وعندما انتهيت إلى هذه النتيجة، تحسَّنت نفسيتي. فقد كانت فكرة أن يذهب «هوجو» لسادي فكرة لا أستسيغها على الإطلاق. غير أن هذا كله لم يُفْلح في إنارة سبيل الفعل أمامي. ماذا ينبغي أن أفعل؟ لو أنني قبلت عرض «سادي»، فسوف أبدو وكأنني أنضم إلى الجانب الخاطىء في المعركة الغامضة نوعاً ما ضد «هوجو»؛ ولو أنني قبلت العرض بنيَّة كاملة لمساعدة هوجو ما أمكن ذلك ومخادعة «سادي»، فسيكون ذلك لعباً على الحبلَيْن. ولم يزل عندي ـ فضلاً عن ذلك ـ مَيْل قوي إلى الابتعاد عن هذا الموضوع جملة وتفصيلاً، إذ لم أكن أجرؤ حتى على تخيّل نفسي مواجهاً لهوجو، إذا اقتضت ذلك الضرورة المخيفة، كما شعرت الآن ـ من ناحية أخرى ـ أنني متورط إلى حد ما أنا نفسي، ولا يسعني إلا أن أكون مأخوذاً بالطريقة التي سلكتها الأشياء، ولا أكف عن التساؤل عما سيحدث بعد ذلك. كان ثمة قدر لا أستطيع نكرانه يسوقني للعودة إلى «هوجو».

أمعنت الفكر في المسألة، وقلّبت الأمور على وجوهها جميعاً، وانقضى الصباح دون أن أهتدي إلى قرار. وأرهقني هذا التعلّق كل الإرهاق، ولهذا قررت ـ وقد أصبح العمل مستحيلاً نظراً لحالتي العصبية

المنفعلة ـ أن أمضي عصر ذلك اليوم أيضاً بطريقة روتينية نافعة بأن أذهب بحثاً عن جهاز البرق اللاسلكي في «طريق إيرلز كورت». وهنا ألفيتُ نفسي في حالة يرثى لها من الفكر، فإذا كان هناك احتمال أن يدق هوجو عنقي في «شارع ولبك»، فثمة احتمال مماثل أن يكسر «سامي المقدس» عنقي في «إيرلز كورت رود»! فذهبت إلى الهاتف.

لم يرد عليّ أحد حين أدرت رقم «مادج»، ومن ثم استنتجت أن المكان خال ومجهَّز. وكنت لا أزال أحتفظ بمفتاحي للشقة، فدخلتها، وتساءلت أي مكان أصلح لإيداع جهاز البرق اللاسلكي، في شقة «ديف»، أم في حانوت السيدة تينكهام. وثبت إلى حجرة الجلوس، وكنت لا أزال داخل الباب عندما لمحت رجلاً يقف في الجانب الآخر من الحجرة ممسكاً بزجاجة في يده. ولم أكن أحتاج سوى لمحة واحدة لأعرف أنه «سامي المقدس» Sacred Sammy . كان يرتدي حلة من التويد، وكان منظره يوحي بأنه رجل عاش كثيراً خارج أبواب المنازل بواسطة الضوء الكهربائي. وكان له وجه ثقيل ضارب إلى الحمرة، وأنف مفلطح قوي. وكان الشيب قد وخط رأسه قليلاً، ويرفع رأسه جيداً، وهو ممسك بالزجاجة من عنقها. نظر إليّ الآن نظرة هادئة رقيقة تنذر بالخطر. وكان من الواضح أنه يعرف من أكون. ترددت. كان اسم «سامي» مكتوباً بالأنوار، ولكنه تعود على أن يكون مراهناً حقيقياً في السباق، ولم يكن من شك أنه زبون فظ. قدَّرت المسافة بيننا، وتراجعت خطوة إلى الوراء. ثم خلعت حزامي، وكان حزاماً جلدياً ثقيلاً، بتوكة نحاسية متينة. كان ذلك مجرد تظاهر. وكنت قد شاهدت الحراس يفعلون ذلك قبل بدء المعركة، فهي حركة مؤثرة. ولم أكن أنوي استخدامه كسلاح، ومَنْع نشوب المعركة خير من الالتحام، و«سامي» ـ الذي ربما لم يكن يعلم أنني خبير في الجودو، قد ينوي الشروع في شيء. فلو همَّ بي، أكون قد خططت فعلاً لإعطائه علقة ساخنة من الطراز القديم.

وفيما أنا أتهيأ لهذه المناورات، رأيت وجه «سامي» يلين متحولاً إلى نظرة مصطنعة من عدم الفهم.

سألني: «ماذا تظن أنك فاعل»؟

لم أكن متهيئاً تماماً لهذا، فأحسست بخمود انفعالي، فأجبته بشيء من الغضب: «ألا تريد القتال؟».

حملق «سامي» في وجهي ثم انفجر ضاحكاً وقال: «أنا.. أنا! من أوحى إليك بهذه الفكرة؟ أنت دوناجيو Donaghue، أليس كذلك؟ إليك، هذا اللوسيون». وبسرعة البرق، وضع كأساً من الويسكي في يدي الخالية. ويمكنك أن تتخيل مدى شعوري بأنني أحمق، بالويسكي في إحدى يديّ وبالحزام في الأخرى.

وعندما تعرّفت على نفسي، قلت راجياً الا أبدو مأفوناً: «أظن أنك ستارفيلد؟» وأحسست بالحيرة تماماً. وكنت أظن أن المبادرة في يدي إن أردت النزال أو لم أرده. وكنت لا أريد القتال بكل تأكيد، غير أنني تركت لسامي المبادرة الآن، لا خطأ في ذلك، وكنت أكره هذا أيضاً.

قال سامي: «إنه أنا، وأنت الشاب دوناجيو. حسن، يا لك من آكل للنار!» وانفجر ضاحكاً مرة أخرى. أخذت رشفة من الويسكي، وارتديت حزامي، محاولاً أن أبدو ـ على عكس المظاهر جميعاً ـ سيداً للموقف. والأفلام تزوِّد المرء بحركات نافعة من هذا القبيل. تفحصت «سامي» بنظري متعمداً، صاعداً وهابطاً. كان شخصاً أميل إلى الوسامة على النحو الذي ذكرته آنفاً. وكان يتمتع بقوة غشوم (غير مصقولة)، وحاولت أن أنظر إليه بالعين التي تنظر بها «مادج» إليه. لم يكن ذلك عسيراً. كانت له عينان مثلثتان زرقاوان تشيع فيهما الفكاهة تلاحظان ما أقوم به من فحص في شيء من التسلية، وترد عليه بجدية ساخرة.

قال سامي: «أنت شاب صغير حقاً! وما كنت أستطيع أن أظفر من مادج بالكثير عنك». وملأ كأسي من جديد. وأضاف بلهجة تخلو تماماً من كل استفزاز: «أتوقع أن تكون مستاءً لطردك».

قلت: «انظر هنا يا ستارفيلد، ثمة أشياء لا يستطيع الجنتلمان أن يناقشها في برود. إن كنت تريد القتال، فلك ما تريد. وإن لم تكن تريده، فاسكت. جئت هنا بحثاً عن بعض حاجياتي، لا لأثرثر معك». كنت مسروراً لأنني لا أشعر بالخوف منه، ورجوت أن يكون واعياً لذلك، غير أنني كنت أعلم أن كلامي سيكون أفضل وقعاً لو لم أكن أشرب الويسكي الذي قدمه لي هذا الرجل. وخطر لي أيضاً في هذه اللحظة أن «سامي» ربما ناقش ملكيتي لجهاز البرق اللاسلكي.

قال سامي: «أنت شخص شديد الحساسية. لا تكن متسرعاً على هذا النحو. أريد أن أنظر إليك. فالمرء لا يلتقي كل يوم بكاتب يتحدث في الإذاعة».

ارتبت في أنه كان يتهكم، غير أن مجرد الفكرة في أن سامي قد يراني شخصية رومانسية، كانت مسلية بالنسبة لي إلى درجة أنني ضحكت، وضحك سامي أيضاً على سبيل التعاطف. كان يبدو عليه أنه يريد مني أن أحبه. وكنت أشرب كأسي الثانية من الويسكي، وبدأت أفكر في أن «سامي» ربما كان شخصاً جديراً بالحب.

سألت: «أين التقيت بمادج؟» لم أكن أريد أن أترك توجيه الأسئلة إليه وحده.

فسألني «سامي» بدوره هذا السؤال المضاد: «أين أخبرتك بأنني التقيت بها؟».

- «في حافلة الركاب رقم إحدى عشرة».

وأطلق «سامي» قهقهته قائلاً: «من غير المحتمل!... تلتقي بي راكباً حافلة ركاب! كلا، لقد التقينا في حفل أقامه المشتركون في أحد الأفلام».

رفعت حاجبيّ.

ـ «أجل، أيها الفتى، لقد بدأت تبحث حولها». وصوّب سامي اصبعه نحوي: «لا تدعهن يغبن أبداً عن بصرك، هذه هي الطريقة الوحيدة!».

هذا المزيج من الانتصار والرعاية أصابني بالغثيان، فقلت بفتور: «مجدالين حرة في أفعالها».

قال سامي: «لم تعد كذلك الآن!».

نظرت إليه ببغض مباغت وقلت: «انظر هنا.. أمقبل أنت حقاً على الزواج من مادج؟».

اخذ سامي هذا السؤال بوصفه ارتياباً وديّاً من شخص يتمنى الخير، فقال: «ولم لا؟ أليست فتاة جميلة؟ إنها لا تضع ساقاً خشبية، أليس كذلك؟». وغرس إصبعه في ضلوعي بعنف شديد انسكب معه الويسكي على السجادة.

قلت: «أنا لا أقصد هذا، ولكنني أقصد: هل تنوي الزواج منها؟».

قال سامي: «أوه، أنت تسأل عن نيّاتي. هذه ضربة في الجسد! كان ينبغي عليك أن تحمل مسدسك!» وانفجر ضاحكاً مرة أخرى قائلاً: «إليك.. دعنا نُفْرغ هذه الزجاجة».

كنت قد تجرعت الآن ما يكفي من الويسكي، فلم أعد أعبأ أخذت أو لم آخذ.

قلت: «هذا شأنك».

قال سامي: «إنه لكذلك.. صدقني». وتركنا المسألة عند هذا الحد.

وشرع «سامي» يفتش في جيوبه، ثم قال: «هناك شيء أريد أن أعطيك إيّاه، أيها الشاب». ونظرت إليه في ارتياب. أخرج دفتر شيكاته في فورة زهو وتباه، وفتح قلمه الحبر.

قال: «حسن، الآن.. أنقول مائة من الجنيهات، أو نقول مائتين؟».

فغرت فمي دهشة وسألته: «من أجل ماذا؟».

قال سامي وهو يغمز بعينيه: «فلنقل إن ذلك من أجل مصاريف الانتقال».

مرّت لحظة كنت فيها مشدوهاً تماماً. ثم خطر لي أنني كنت مباعاً! كيف وَرَدتْ مثل هذه الفكرة على رأس «سامي؟» واستغرقت لحظة أخرى لأستنتج أن «مجدالين» هي التي وضعت هذه الفكرة هناك. هذا الدليل الجديد على طابع إلحاق الأذى بالناس الذي يتسم به عقل «مادج»، تركني لاهثاً. لا بد أن هذه هي فكرتها عن وضع شيء من الخير في طريقي. كنت مهاناً إلى أقصى حد، ومتأثراً إلى أقصى حد في آن واحد. ابتسمتُ لـ «سامي» في شيء من اللطف.

قلت: «كلا، لا أستطيع أن أقبل هذه النقود».

قال سامي: «ولم لا؟».

قلت: «أولاً، لأنه ليست لي حقاً أية حقوق عند مادج». وظننت أنه ربما استطاع أن يفهم هذه النقطة أفضل من غيرها، ولهذا بدأت بها. «وثانياً لأنني لا أنتمي إلى طبقة اجتماعية تتقاضى نقوداً في موقف مثل هذا».

رمقني «سامي» كما يرمق الإنسان مجادلاً ذكياً.

قال: «تقول أولاً إنه ليس هناك موقف، ثم تقول إنه ليس موقفاً تأخذ فيه نقوداً. فلنكن كباراً في هذه المسألة. أنا أعرف التقاليد كما تعرفها أنت. ولكن لماذا يعبأ أمثالك بطبقتهم الاجتماعية؟ الأشخاص ممن هم على شاكلتك يعوزهم المال دائماً. وإذا لم تأخذ هذه النقود، فستندم عليها غداً». وبدأ يكتب الشيك.

وأضاف إدراكي لما في عبارته الافتراضية من حق ـ أضاف مزيداً من الحماسة على صيحاتي: «كلا، لن آخذها! لا أريدها!».

نظر إليّ «سامي» نظرة شخص مهتم بمشاعري، ثم قال بلهجة شارحة: «ولكنني ألحقت بك ضرراً، ولن أتصالح مع ضميري إن لم تأخذ شيئاً».

كان في صوته ما ينم عن الاهتمام بي حقاً، وبدأت أسائل نفسي: تُرى أي نوع من الصور أعطتها له «مادج» عني.

سألته: «وما هذا الذي جعلك على يقين من أنك أسأتَ إلي؟».

قال سامي: «حسن، كنتَ حريصاً على الزواج من مادج».

وتنفست نفساً عميقاً. بهذا وضعني سامي في ركن. إذ يبدو خيانة لمادج أن أعلن بأن فكرة الزواج منها لم تراود عقلي إطلاقاً ـ لا سيما وقد خطر لي الآن أن «مادج» ربما اتخذت من تطلعاتي المزعومة حافزاً لكي يتخذ «سامي» قراره. وأياً كان الأمر، كنت أرى أن «سامي» كان مصراً على ألاّ يصدق أي إنكار.

قلت في حقد: «فليكن... ربما أصابني ضرر».

صاح سامي مسروراً: «هذا فتى كريم. فلنقل الآن، مائتين!».

تحيرت، ماذا أفعل. يبدو أن قانون سامي الأخلاقي العجيب يتطلب

تسوية. كنت في حاجة إلى النقود. ماذا يمنع من إنهاء هذه الصفقة المجزية للطرفين؟ مبادئي. هناك ـ بكل تأكيد ـ وسيلة للخروج من هذا المأزق. في مثل هذه المآزق، نادراً ما فشلت في الاهتداء إلى مخرج.

قلت: «لا تقاطعني يا ستارفيلد، فأنا أفكر». ثم برقت لي فكرة.

كانت طبعة الظهيرة من صحيفة «الإيفننج ستاندارد» **Evening Standard** مسجاة على الأرض عند أقدامنا. تناولت الصفحة الأخيرة، ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة ٢,٣٥. كان سباق الخيل يجري هذا اليوم في سالسبوري ونونتجهام.

قلت: «أقترح أن تخبرني بفائز في سباق الساعة الثالثة، وأن تخطر بالرهان من أجلي شركتك هاتفياً، أو أي مكان تحتفظ فيه بحساب مراهناتك. فإن خسر هذا الرهان، نرفع الرهان في سباق الثالثة والنصف، وهكذا دواليك في بقية سباقات بعد الظهر. سنهدف إلى تحصيل خمسين جنيهاً، وعليك أن توافق على تحمل الخسارة إن وجدت».

استولت عليه حالة من السرور الغامر فقال: «فليكن!.. يا لك من رجل رياضي! ولكننا سنفسح رؤيتنا لأكثر من خمسين جنيهاً. أنا أعرف بطاقات اليوم كما أعرف ابنتي.. هذا شِعر.».

وبسطنا الصحيفة على السجادة.

قال سامي: «سيربح «جرانج الصغير» سباق الساعة الثالثة في سالبوري، هذامؤكد، ولكن الرهانات فردية عليه. سنعمل على انعاشه بضم كوينزروك Queen's Rook إليه في الثالثة والنصف».

بدأت أشعر بالحذر؛ وانتابني بالفعل شعور بأن «سامي» يقامر بأموالي.

قلت: «ولكن افترض أن «كوينزروك» لم يربح! ليست التسلية هي ما أبغي، وإنما النقود. فلنراهن بشيء على جُرانج الصغير وحده».

قال سامي: «هراء! ما فائدة الحذر ان كنت تعرف بَصَلَكَ؟ تمسك بقبعتك، يا فتاي، وبينما أتصل بالمكتب هاتفياً. هاللو، هاللو! أهذا آندي؟ أنا سام».

وأخـذت أردد قائلاً له: «حافظ على تخفيض الرهان، حافظ على تخفيض الرهان».

وكان سامي يقول: «من حسابي الخاص؛ بالتأكيد، أنا لاأحبذ المقامرة» وذلك رداً على نزوة من نزوات آندي. «هذا من أجل صديق أسدى إليّ معروفاً».

وغمز بعينه المثلثة نحوي، وفي لحظة كان قد وضع أربعين جنيهاً على ربح مزدوج: جرانج الصغير، وكوينز روك. وبينما كان يدبِّر هذا الأمر، صرفنا انتباهنا إلى بطاقة نوتنجهام. وكانت الساعة الثالثة هي موعد سباق الخيل في نوتنجهام.

قال سامي: «إنه لا يعنيني. فهو سباق الخيل ذات الأرجل الثلاث، سنتَّجه بعيداً عنه. أما بقية اليوم، فهي هدية الزفاف. فلنجعلها مثيرة حقاً، ولنراهن على ثلاثة جياد. «سانت كروس» Saint Cross في الثالثة والنصف، «هال آدير» Hal Adair من الساعة الرابعة، و «بطرس الاسكندراني» Peters of Alex . ولا أعبأ بسباق الساعة الرابعة في سالسبوري. هذا يترك سباق الساعة الرابعة والنصف في سالسبوري. وهذا سيربحه إما ديجنهام Dagenham أو اختيار إلين Elaine`s Choise ».

قلت: «حسن، ضعه على ما تراه، بحق السماء».

وصببت لنفسي كأساً أخرى إلى حافتها. فلم أكن مقامراً بطبيعتي.

كان «سامي» على الهاتف يراهن بعشرين جنيهاً في سباق نوتنجهام، ثم أخذ يسأل عن الفائز في سباق الساعة الثالثة في سالسبوري. أما أنا فقد جلست على الأرض. كان سامي على استعداد ليخسر أكثر من رصيدي في البنك. وكانت أعصابي تهتز كأوتار القيثارة.. وتمنيت لو أنني لم أقترح ذلك أبداً.

قال سامي: «لا تبـد شاحباً على هذا النحو. إنها مجرد نقود!خمِّن من الفائز في سباق الساعة الثالثة. جرانج الصغير بنسبة اثنين إلى واحد!».

وبهذا كانت الأمور تسير نحو الأسوأ. قلت: «ولكنه ثنائي، والثنائيات لا تنجح أبداً.. وهذه طريقة لخسارة أكثر من رهان واحد».

قال سامي: «اسكت.. ودع الهم لي. فإذا لم تكن تستطيع الاحتمال، اذهب واجلس على بسطة السلم».

كان يحسب على قطعة من الورق ما سوف نكسبه. «كوينز روك» لا يمكن أن يخسر، غير أن سباق الساعة الرابعة والنصف يغطِّينا على كل حال. خمسة وعشرون جنيهاً على كلٍّ من الجوادين لمجرد أن أبعث السرور إلى نفسك. أنت تحظى بالأمان! تضع النقود، ثم تتناولها!».

أما أنا فكنت أحسب ما سوف نخسره! هذا أيسر ومن الممكن أن يحسبه المرء برأسه دون حاجة إلى الورق. قدَّرت الخسارة بمائة وستين جنيهاً. وكان الانصراف والتخلي عن كل شيء لسامي يغريني إغراء شديداً، غير أن الكرامة منعتني من أن أتخلى عنه فيما يُعَدُّ قبل كل شيء - مغامرتي الخاصة. وفضلاً عن ذلك، كانت المسألة أكاديمية، ما دام كثير من الويسكي على معدة خاوية قد عبأني الآن تعبئة كاملة. كنت أشعر وكأنما حُشِيَتْ ساقيَّ قشًا. زمجرت. وكان «سامي» يتصل بالهاتف للاستفسار عن السباق التالي. هُزِم «كوينز روك» بمسافة رأس، غير أن

«سانت كروس» فاز في نوتنجهام.

كان هذا أسوأ من كل شيء. قلت: «هذا يربطك، لماذا لم تفعل ما قلته لك عن «جرانج الصغير»؟ انخفض رصيدنا الآن بمقدار أربعين جنيهاً، ولم نربح أي شيء حتى على «سانت كـروس».

قال سامي: «هذا ما يجعلها رياضة أفضل. صدقني، اليوم هو يومك السعيد. ما اليوم؟ الأربعاء؟ حسن، الأربعاء هو يومك المحظوظ. مضت سنوات لم أقامر فيها مقامرة حقيقية.. لقد نسيت هذا الشعور تماماً!» وكان يفرك يديه في حماسة بشعة.

قال: «أتعلم يا فتى، أنه مما يفيدني كثيراً أن ألتقي بشخص مثلك من حين لآخر.. ذلك يجعلني أدرك قيمة النقود!».

وحين فاز «هال آدير» في سباق الساعة الرابعة في نوتنجهام، سالت قنوات باردة من العرق فوق ظهري وعلى جوانبي. لم يكن ذلك بالطبع يومي السعيد، بل إن علامات التوتر بدأت تظهر على «سامي» نفسـه. فتجرع ما تبقى من الويسكي، وأخبرني أن عيبي هو أنني لا آخذ الأمور بالروح الصحيحة.

قال سامي: «الحصول على النقود أشبه بترويض أسد. لا تدعه يلحظ أبداً أنك تعبأ به».

ومـال رأسـي ـ بعد أن وَصَـفَ دوائر لطيفة ـ على السجادة، وقد حملت بقية جذعي معه. وأدرت وجهي تحت الأريكة. «مالٌ قذر! مالٌ قذر!» سـمعت «سامي» يردد هذه العبارة، بصوت رجل يلعن المرأة التي حطّمـها. وعندما اقتربت الساعة من الرابعة والنصف، تكهرب الجو. كان «سامي» قد هرع إلى الهاتف قبل أن يبدأ السباق، غير أنني لم أكد أسمع شيئاً. كنت مشغولاً بسؤالٍ نفسي كيف يمكن أن أحصل على المال

لكي أردّ له ما ضاع من أجلي في هذه المراهنات. وقررت أنني لو أعطيته جهاز اللاسلكي لأصبحنا بذلك متخالصينْ تقريباً.

سمعت سامي يقول: «تعال هنا يا آندي، انظر جيداً. عندي هنا صدّيق يعض قطع الأثاث»، ثم سمعته يُقْسم، فسألته بصوت واهن: «ما هذا؟».

قال سامي: «إلينز تشويس (اختيار إلين) Elaine's Choice لم يشترك في السباق. وكان ترتيب ديجنهام الرابع».

سألت دون اهتمام: «وماذا عن نوتنجهام؟».

قال سامي: «انتظر». ثم التصق بالهاتف مرة أخرى. وطفقت أتدحرج بلطف تحت الأريكة، ثم سمعته وهو يصيح: «إلّهي، لقد فعلناها! قلت إن لك وجهاً محظوظاً!» تدحرجت إلى الخارج مرة أخرى، واعتدلت في جلستي.

صاح سامي: «بطرَس الاسكندراني بلغ تسعة إلى اثنين! أسرع، افتح زجاجة أخرى!».

كافحنا نحن الاثنين في فتح الزجاجة، وكسرنا كأساً، ثم جلسنا على الأرض ضاحكين كالمجانين، وكلٌّ منا يشرب نخب الآخر. وأخذت الحجرة تدور بلطف حولي، ولم أعد واثقاً من أنني أدرك ما يحدث. كان «سامي» يهتف، «أحسنت الشركة القديمة فعلاً!» و«هل أستطيع أن ألتقطها! وهل أستطيع أن ألتقطها!» وأخذ يراجع مبالغه.

قال: «انظر، كان «سانت كروس» سبعة إلى اثنين، وهذا يجعل تسعين جنيهاً على «هال آدير» بنسبة اثنين إلى واحد، وهذا يجعل مائة وخمسة وثلاثين جنيهاً على بطرس الاسكندراني بنسبة تسعة إلى اثنين، وهذا يربح سبعمائة واثنين وعشرين جنيهاً وعشرة. فإذا وضعنا في اعتبارنا

الاجتماعات، كانت هذه أرباحاً محترمة. ماذا قلت لك؟ خير من الكتابة (الشخبطة)، ماذا؟» ولوّح سامي بالزجاجة في الهواء.

قلت: «انتظر لحظة. هناك أربعون جنيهاً خسرناها على «كوينز روك»، وهناك أيضاً الرهان المزدوج في سالسبوري».

قال سامي: «أوه.. نسيت. تذكر أنني أربح كل يوم.. ولهذا استمتعت بذلك استمتاعاً عظيماً».

صحت: «كلا.. ستتمسك ـ عليك اللعنة ـ بالاتفاق!» وكان ما تبقى من شرفي في خطر.

وبعد مزيد من الصياح، وافق «سامي» على الاقتطاع. وقال: «فليكن لك ما تريد يا دوناجيو. هذا يجعل المبلغ ستمائة وثلاثة وثلاثين جنيهاً وعشرة سنتات سأكتب لك الشيك الآن. وستضاف النقود إلى حسابي». وأخرج دفتر شيكاته مرة أخرى.

وكان في هذا تهدئة لنفسي. وراودني إحساس عجيب بأنني عدتُ مرة أخرى إلى البداية؛ غير أن سامي كان يعرض عليّ الآن ثلاثة أضعاف المبلغ. ولم أستطع أن أصدق، بعد أن انتهت الإثارة ـ أن سامي يستطيع أن يكسب كل هذه النقود من مجرد أن يقول تلك الأشياء في الهاتف.

أخبرت «سامي» بما يدور في خلدي، فضحك مني وقال: «عيبك هو أنك اعتدت أن تفصد دماً في سبيل النقود. غير أن هذه ليست الطريقة للحصول عليها. ما عليك إلا أن ترقد على ظهرك وتصفّر وسوف تأتيك سعياً». واتفقنا في نهاية الأمر أن يرجىء «سامي» إرسال الشيك حتى يتسلم الحساب الذي يبيّن أرباحه. فهذا سيقنعني بأن الصفقة حقيقية. وأشاد كثيراً بمعاملتي المحترمة لأنني وثقت فيه، فأعطيته عنوان «ديف»، وترنحت قائماً للانصراف. وطلب سامي سيارة أجرة لي. وكان أبعد ما

يكون عن منازعتي في ملكية جهاز اللاسلكي، بل ظننت أنه سيتخلى لي عن الشقة بأكملها، وساعدني في حمل الجهاز حتى نهاية السلم. فوضعناه إلى جانب السائق، ثم افترقنا بكثير من عبارات المجاملة والاحترام. قال سامي: «كانت رياضة طيبة.. ينبغي أن نمارسها يوماً آخر!».

أقلني «التاكسي» إلى «طريق الصقر الذهبي»، ونقلني السائق أنا والجهاز إلى أعلى السلّم. وانفجرت في وجه «ديف» و«فين» ضاحكاً كالمجنون. وعندما سألاني عن سبب هذا الضحك، أخبرتهما بأنني قبلت وظيفة بوصفي حارساً خاصاً لسادي ـ وكان هذا ـ عند شرحه لهما ـ كافياً للإضحاك بكل تأكيد. ولم أقل شيئاً سواء عن «هوجو» أو عن «سامي». وتلقى كلٌّ من «فين» و«ديف» مشروعي: «ديف» بالسخرية، و«فين» باهتمام المتوقّع لأمور كثيرة. وكنت أعتقد أنني مصدر دائم للتسلية في نظر «فين». ولم ألبث، بعد ذلك، أن ذهبت إلى الفراش، واستسلمت لنوم مخمور.

الفصل السادس

كانت الساعة حوالي التاسعة والربع، من صباح اليوم الموعود، عندما وصلت إلى «شارع ولبك» Welbeck ، إذ كان عليّ أن أذهب أولاً إلى «السيدة تينكهام» لأجمع مخطوطاتي. وجدت الباب مفتوحاً، و«سادي» تدخن وتتحرك بقلق واضطراب في القاعة.

قالت: «يا عزيزي.. حمداً لله أنك أتيت. عندما أقول من الفجر إلى المساء، فأنا أعني من الفجر إلى المساء. لقد جعلتني أتأخر بجنون. لا بأس، لا تبد على هذا النحو، ادخل. أرى أنك حملت من أوراق الكتابة ما يكفي عاماً بأكمله.. وهذا أفضل، على كل حال. أصغ إليّ، إني أريدك، اليوم وغداً فحسب، أن تمكث اليوم كله. أفي هذا ما يزعجكَ؟ سأشعر أنني بخير إذا علمت أن أحداً سيبقى هنا كل الوقت. عندك محيطات للشرب، والثلاجة ممتلئة بالسَلَمون والتوت وأشياء أخرى. ولكن، لا تَدْعُ أصدقاءك، يوجد ملاك. فإذا اتصل بلفاوندر أو أي شخص آخر بالهاتف، فانبئه بصوت رجولي صارم بأنني رحلت إلى أجل غير مسمى.. والآن، ينبغي أن أنصرف فوراً».

سألتها: «متى تعودين؟»، وقد أربكتني هذه التعليمات.

قالت سادي: «أوه.. في ساعة متأخرة من الليل. لا تنتظر مستيقظاً؛

واختر لك حجرة من الحجرات الاحتياطية. الأسِرَّة كلها مُعدّة». ثم قبَّلتني في حماسة شديدة، وانطلقت.

وعندما أُغْلق الباب، وخيم الصمت على الشقة الرحبة التي غمرها ضوء الشمس، فيما عدا أصوات الشارع البعيدة، بَسَطْتُ ذراعيّ في استمتاع مُتْرف، وشرعت أجوس في المكان. السجاجيد من كازاخستان وأفغانستان والقوقاز تغوص ليّنة تحت قدميّ وقد وُضِعت فوق الأرضية الخشبيّة. وأخشاب الورد والأطلس والماهوجني تتموج وتنبسط وتستدق في سطوح تتألق عنايةً وروعة. وتحف دقيقة الحجم مصنوعة من البَشْم تحتل رفوف المدفأة البيضاء. والستائر الدمشقية تَرِفُّ برفق كلما هبَّ عليها نسيم الصيف. لقد قطعت «سادي» شوطاً بعيداً منذ أيام الشقيقتين «كورينتين». وهنا وهناك، تحت الحيوانات المصنوعة من الخزف الصيني، أو المثقلات الفرنسية التي تمنع تطاير الأوراق ـ كانت هناك أكوام مرتَّبة من الرسائل. أو أوراق مقطوعة من الصحف، أو أوراق مالية من فئة الألف فرنك. تسكعت في هدوء، وأنا أُصفِّر لنفسي. وعلى منضدة منخفضة، صُفَّت عدة مصافِق(*) جيورجيانية من الزجاج المشطوف، وحول أعناقها بطاقات مطلية بالمينا الملونة؛ ووجدت في دولاب آخر عدداً لا يحصى من الزجاجات نصف الفارغة من الشيري، والبورت، والفرموت، والپرنو، والجن والويسكي والبراندي. وفي المطبخ، كان هناك مقدار كبير من الهوك (ضرب من الخمر hock) والكلاريت(*) في أحد الدواليب، وكان المكان المخصص لحفظ اللحوم وغيرها من المأكولات مليئاً بأصناف متعددة من الفطائر (الباتيه) والسجق

(*) مفرده مِصْفق، وهو إناء يصب منه الخمر أو الماء على مائدة الطعام، كما يستخدم أيضاً لصفق الشراب، decanter . (المترجم).

(*) خمر بوردو الفرنسية الحمراء. (المترجم).

الصغير، والكابوريا، والدجاج المُهَلّم Jellied المحفوظ في العلب. ووجدت اثني عشر نوعاً من البسكويت، ولكن لا أثر للخبز. وفي الثلاجة، وُضِعَ السَلَمون والتوت، وكميات كبيرة من الزبد واللبن والجبن.

عدت إلى حجرة الجلوس، وصببت لنفسي كأساً طويلة من القرموت الإيطالي وماء الصودا، وأضفت إليه مكعبات من الثلج. وتناولت سيجاراً من علبة صغيرة من البللور السيفر Sèvres كانت تعتمد على قوائم مذهبة. ثم غصت برفق في مقعد وثير عميق، وتركت إحساسي بالزمن متوقفاً في موجة طويلة منتظمة كانت تبدو وكأنها تعبر من خلال جسدي كتنهيدة. كان اليوم حاراً، والنوافذ مفتوحة على همهمة لندن البعيدة المتقطعة. وكان رأسي خاوياً، وأطرافي مثقلة بالرضا. وبعد فترة طويلة نهضت لألقي نظرة على مخطوطاتي، وبدأت أخرجها. وبينا أنا أنظر إليها، كانت كل فكرة عن «سادي»، وعن الضجة الأخيرة ـ قد بَعُدت تماماً، وتصاغرت حتى أصبحت كرأس الدبوس، ولم تلبث أن اختفت. ومددت ساقيّ، فتجعدت سجادة قوقازية ذات لون أصفر ذهبي بديع وخطوط زرقاء داكنة، في طيات عند قدميّ. ولو غشيني النوم الآن، فسوف يكون شلالاً عميقاً من الانتعاش والسكينة. غير أنني رقدت متيقظاً، وسرعان ما توقفت عن تقليب الصفحات المنسوخة بالآلة والمخطوطة بيدي، وتركتها تنزلق على الأرض.

كان الوقت قد مضى، وعيني تطوف برف منخفض أبيض للمكتب على الجانب الآخر من الحجرة. وعلى قمة هذا الرف كانت تتراءى لي على فترات شخصيات وورسستر Worcester ودرسدن Dresden. استعرضت هذه، فرجَعَتْ نظرتي متكاسلة على الصف الأعلى من الكتب. وفجأة، تصلب جسدي، وقفزت من مكاني وكأنما سُدِّدتْ إليّ طعنة، وبعثرت الأوراق يميناً وشمالاً. وخطوت متجهاً إلى دولاب الكتب. وهناك، في

المركز تماماً، كانت نسخة من «المُسْكت» The Silencer. لم أكن قد شاهدت نسخة منذ سنين. فنظرت إليها في نفور وافتتان. ثم انتزعتها، وأنا أحدث نفسي بمدى حماقتي إذ تأثرت كل هذا التأثر برؤية هذا العمل التافه مرة أخرى؛ وبينما كنت أمسكه بيدي، فارقني بغتة الشعور بالنفور، وأحسست بالعطف والحماية نحوه، بل بشيء من الفضول. فجلست القرفصاء على الأرض بجانب رفوف الكتب، وفتحته.

من التجارب العجيبة دائماً أن يقرأ المرء كتاباته مرة أخرى بعد فترة من الزمن. فهي نادراً ما تفشل في التأثير. وحينما كنت أقلّب صفحات هذه اليوميات العجيبة، أحسست أن الأعوام التي تفصل بيني وبين لحظة إبداعه قد منحته استقلالاً غريباً. كان الأمر أشبه بلقاء شخص بالغ عرفه المرء منذ أمد بعيد بوصفه طفلاً. لم تكن المسألة أنني أحببت العمل بصورة أفضل، ولكنها كانت أنه يقف الآن بمفرده على نحو ما؛ وعَبَرتْ هذه الفكرة ذهني، وهي أنه من الممكن الآن أخيراً أن أتصالح معه. وبدأت أقرأ ما يقع عليه بصري بصورة عشوائية.

تاماروس: ولكن الأفكار مثل النقود. فلا بد أن تكون هناك عملة معتمدة للتداول. والمفاهيم التي تستخدم للاتصال يبررها ما تلقاه من نجاح.

أناندين: هذا قريب من قولك إن القصة تكون حقيقية إذا صدّقها عدد كاف من الناس.

تاماروس: بالطبع، أنا لا أعني هذا. فلو أنني استخدمت تشبيهاً أو اخترعت مفهوماً هو جزء مما ينبغي اختباره حين يُخْتبر النجاح، فهو: هل أستطيع بهذه الوسيلة أن استرعي الانتباه إلى الأشياء الواقعية في هذا العالم؟ ومن الممكن أن يساء استخدام أي مفهوم، كما يمكن أن تقرر أية جملة شيئاً باطلاً. غير أن الألفاظ في حد ذاتها لا تقول أكاذيب. وقد يكون للمفهوم حدود، غير أن هذا لا يؤدي إلى التضليل إذا عرضت الألفاظ في استخدامي لهذا المفهوم.

أناندين: أجل، هذا هو الأسلوب الفخم في الكذب. ضع أفضل أنصاف حقائقك

وسمّها أكاذيب، ولكن دعها تصمد على السواء. وسوف تعيش بعد أن تُنسى مسوغاتك، حتى بالنسبة لك أنت نفسك.

تاماروس: ولكن، لا بد للحياة من أن تعاش، وأن تعاش ينبغي أن تُفْهم، هذه العملية تسمّى بالمدنية civilization. وهذا الذي تقوله يتجه ضد طبيعتك نفسها. نحن حيوانات عقلانية، بمعنى الحيوانات التي تصنع نظريات.

أناندين: حين تشتبك مع الحياة اشتباكاً دافئاً، وحين تشعر بأنك في أوج شعورك بنفسك كإنسان، هل أعانتك أية نظرية على ذلك قط؟ ألا تلتقي حينذاك بأشياء عارية هي نفسها؟ هل أعانتك نظرية ما حين ساورك الشك فيما ينبغي أن تفعل؟ أليست هذه اللحظات البسيطة نفسها هي التي تكشف عن أن تلك النظريات مَضْيَعة للوقت؟ ألا تتحقق من ذلك بوضوح في مثل تلك اللحظات؟

تاماروس: إجابتي ذات شقين. أولاً انني قد لا أفكّر في النظريات نفسها، إنما أكون ـ مع ذلك ـ معبّراً عن واحدة منها. ثانياً ان هناك نظريات في الخارج في العالم، نظريات سياسية على سبيل المثال، ومن ثمّ، علينا أن نتعرض لها في أفكارنا، وهذا أيضاً في لحظات اتخاذ القرار.

أناندين: إذا كنت بالتعبير عن نظرية ما تقصد أن شخصاً آخر يمكن أن يضع نظرية عما تفعله، فهذا ـ بالطبع ـ حق وشائق. وما أتحدث عنه هو القرار الحقيقي كما نعانيه؛ وهنا تكون الحركة بعيداً عن النظرية والتعميم هي حركة صوب الحقيقة. كل أنواع التنظير هروب. إذ ينبغي أن يتحكم فينا الموقف نفسه، وهذا شيء جزئي، لاجدال في ذلك. كما أنه شيء لا نستطيع ـ بكل تأكيد ـ أن نقترب منه أبداً اقتراباً كافياً، مهما اجتهدنا في المحاولة، وكأننا نزحف تحت الشبكة.

تاماروس: قد يكون الأمر كذلك. ولكن ماذا عن نقطتي الأخرى؟

أناندين: من الحق أن النظريات قد تكون في بعض الأحيان جزءاً من موقف على المرء أن يواجهه. غير أن جميع أنواع الأكاذيب الجلية والأوهام يمكن أن تكون جزءاً من مثل هذا الموقف، ولعلك قائل بأنه ينبغي على المرء أن يكون بارعاً في الكشف عن الأكاذيب وفضحها، لا أن يكون بارعاً في الكذب.

تاماروس: وهكذا تريد أن تقطع كل حديث عن الحياة الإنسانية قطعاً تاماً، فيما عدا أبسطها. وأن تفعل ذلك، معناه أن تستبعد كل وسائلنا لفهم أنفسنا لجعل الحياة محتملة.

المركز تماماً، كانت نسخة من «المُسْكت» The Silencer. لم أكن قد شاهدت نسخة منذ سنين. فنظرت إليها في نفور وافتتان. ثم انتزعتها، وأنا أحدث نفسي بمدى حماقتي إذ تأثرت كل هذا التأثر برؤية هذا العمل التافه مرة أخرى؛ وبينما كنت أمسكه بيدي، فارقني بغتة الشعور بالنفور، وأحسست بالعطف والحماية نحوه، بل بشيء من الفضول. فجلست القرفصاء على الأرض بجانب رفوف الكتب، وفتحته.

من التجارب العجيبة دائماً أن يقرأ المرء كتاباته مرة أخرى بعد فترة من الزمن. فهي نادراً ما تفشل في التأثير. وحينما كنت أقلّب صفحات هذه اليوميات العجيبة، أحسست أن الأعوام التي تفصل بيني وبين لحظة إبداعه قد منحته استقلالاً غريباً. كان الأمر أشبه بلقاء شخص بالغ عرفه المرء منذ أمد بعيد بوصفه طفلاً. لم تكن المسألة أنني أحببت العمل بصورة أفضل، ولكنها كانت أنه يقف الآن بمفرده على نحو ما؛ وعَبَرتْ هذه الفكرة ذهني، وهي أنه من الممكن الآن أخيراً أن أتصالح معه. وبدأت أقرأ ما يقع عليه بصري بصورة عشوائية.

تاماروس: ولكن الأفكار مثل النقود. فلا بد أن تكون هناك عملة معتمدة للتداول. والمفاهيم التي تستخدم للاتصال يبررها ما تلقاه من نجاح.

أناندين: هذا قريب من قولك إن القصة تكون حقيقية إذا صدَّقها عدد كاف من الناس.

تاماروس: بالطبع، أنا لا أعني هذا. فلو أنني استخدمت تشبيهاً أو اخترعت مفهوماً هو جزء مما ينبغي اختباره حين يُخْتبر النجاح، فهو: هل أستطيع بهذه الوسيلة أن استرعي الانتباه إلى الأشياء الواقعية في هذا العالم؟ ومن الممكن أن يساء استخدام أي مفهوم، كما يمكن أن تقرر أية جملة شيئاً باطلاً. غير أن الألفاظ في حد ذاتها لا تقول أكاذيب. وقد يكون للمفهوم حدود، غير أن هذا لا يؤدي إلى التضليل إذا عرضت الألفاظ في استخدامي لهذا المفهوم.

أناندين: أجل، هذا هو الأسلوب الفخم في الكذب. ضع أفضل أنصاف حقائقك

وسمّها أكاذيب، ولكن دعها تصمد على السواء. وسوف تعيش بعد أن تُنسى مسوغاتك، حتى بالنسبة لك أنت نفسك.

تاماروس: ولكن، لا بد للحياة من أن تعاش، وأن تعاش ينبغي أن تُفْهم، هذه العملية تسمّى بالمدنية civilization. وهذا الذي تقوله يتجه ضد طبيعتك نفسها. نحن حيوانات عقلانية، بمعنى الحيوانات التي تصنع نظريات.

أناندين: حين تشتبك مع الحياة اشتباكاً دافئاً، وحين تشعر بأنك في أوج شعورك بنفسك كإنسان، هل أعانتك أية نظرية على ذلك قط؟ ألا تلتقي حينذاك بأشياء عارية هي نفسها؟ هل أعانتك نظرية ما حين ساورك الشك فيما ينبغي أن تفعل؟ أليست هذه اللحظات البسيطة نفسها هي التي تكشف عن أن تلك النظريات مَضْيَعة للوقت؟ ألا تتحقق من ذلك بوضوح في مثل تلك اللحظات؟

تاماروس: إجابتي ذات شقين. أولاً انني قد لا أفكّر في النظريات نفسها، إنما أكون ـ مع ذلك ـ معبّراً عن واحدة منها. ثانياً ان هناك نظريات في الخارج في العالم، نظريات سياسية على سبيل المثال، ومن ثمّ، علينا أن نتعرض لها في أفكارنا، وهذا أيضاً في لحظات اتخاذ القرار.

أناندين: إذا كنت بالتعبير عن نظرية ما تقصد أن شخصاً آخر يمكن أن يضع نظرية عما تفعله، فهذا ـ بالطبع ـ حق وشائق. وما أتحدث عنه هو القرار الحقيقي كما نعانيه؛ وهنا تكون الحركة بعيداً عن النظرية والتعميم هي حركة صوب الحقيقة. كل أنواع التنظير هروب. إذ ينبغي أن يتحكم فينا الموقف نفسه، وهذا شيء جزئي، لاجدال في ذلك. كما أنه شيء لا نستطيع ـ بكل تأكيد ـ أن نقترب منه أبداً اقتراباً كافياً، مهما اجتهدنا في المحاولة، وكأننا نزحف تحت الشبكة.

تاماروس: قد يكون الأمر كذلك. ولكن ماذا عن نقطتي الأخرى؟

أناندين: من الحق أن النظريات قد تكون في بعض الأحيان جزءاً من موقف على المرء أن يواجهه. غير أن جميع أنواع الأكاذيب الجلية والأوهام يمكن أن تكون جزءاً من مثل هذا الموقف، ولعلك قائل بأنه ينبغي على المرء أن يكون بارعاً في الكشف عن الأكاذيب وفضحها، لا أن يكون بارعاً في الكذب.

تاماروس: وهكذا تريد أن تقطع كل حديث عن الحياة الإنسانية قطعاً تاماً، فيما عدا أبسطها. وأن تفعل ذلك، معناه أن تستبعد كل وسائلنا لفهم أنفسنا لجعل الحياة محتملة.

أناندين: ولماذا ينبغي أن تُجْعل الحياة محتملة؟ أعرف أن لا شيء يجلب العزاء أو يبرر الأشياء سوى قصة ـ غير أن ذلك لا يمنع كل القصص من أن تكون أكاذيب. أعظم الناس وحدهم هم الذين يستطيعون أن يتحدثوا ويكونوا صادقين في الوقت نفسه. وأي فنان يعرف ذلك على نحو غامض؛ فهو يعرف أن النظرية هي الموت، وأن كل تعبير مثقل بالنظرية. والشخص الأقوى هو وحده الذي يستطيع أن يرتفع فوق هذا الثقل. ومن الممكن لمعظمنا، بل لكلنا تقريباً، أن يبلغ الحقيقة ـ إن كان ذلك ممكناً ـ بالصمت وحده. وفي الصمت تلامس الروح الإنسانية ما هو إلهي. وهذا شيء فهمه القدماء. وقد قيل لبسيشيه Psyche(*) إنها لو تحدثت عن حَمْلها، فسيكون طفلها فانياً؛ وإذا أخلدت إلى الصمت فسيكون إلهاً.

قرأت هذا متمعناً. وكنت قد نسيت تماماً أنني اجتهدت لتقديم مثل هذا العرض الجيد ضد «هوجو». ولكنني وجدت الآن أن حجج «هوجو» أقل تأثيراً بكثير، وهنا خطر لي فوراً عدد من الطرق المتباينة التي يمكن بها تدعيم موقف «تاماروس». وعندما كتبت الحوار، كان من الواضح أنني مفتون بهوجو. ومن ثمّ قررت أن أصادر الكتاب لاستعمالي الخاص، وأن أقرأه كله بعناية شديدة، ومراجعة آرائي. بل خطرت لي إمكانية كتابة تتمة، ولكني رفضتها في الحال. وبقيت هذه الحقيقة وهي أن «أناندين» ليس سوى صورة هزلية ممسوخة لهوجو. وما كان لهوجو أن يستخدم أبداً ألفاظاً مثل «نظرية» و «تعميم». وهكذا لم أنجز أكثر من تعبير تغمره الظلال عن وجهة نظر «هوجو».

وبينما كنت أتروى في هذه الأفكار، كان جدول صغير يسري برفق في مكان ما من عقلي، جدول صغير من الذكرى. ماذا كان؟ شيء كان يطالب بأن أتذكّره. أمسكت الكتاب برفق بين يديّ، وتتبعت دون تسرع مجرى خواطري، منتظراً من الذاكرة أن تفصح عن نفسها. وتساءلت

(*) وتعني في اليونانية «الروح». وتتحدث عنها الأساطير اليونانية بوصفها امرأة جميلة وقع في غرامها كيوبيد نفسه حين أرسلته فينوس إليها ـ غيرة منها ـ لإغرائها بحب شخص دميم (المترجم).

متكاسلاً، لماذا اقتنت «سادي» نسخة من الكتاب؟ لم يكن من صنف الأشياء التي يمكن أن تشوقها. رجعت إلى البداية، ونظرت داخل الغلاف. لم يكن الاسم المكتوب هناك هو اسم «سادي»، بل اسم «آنا». نظرت إليه لحظة، ومازلت ممسكاً بالكتاب في رفق شديد، فاجتاحتني الذكرى التي كنت أبحث عنها بحيث استولت على شعوري كله بقوة العاصفة.

كان ما تحاول فقرة الحوار أن تذكرني به هو الكلمات التي نطقتها «آنا» على المسرح الايمائي Mime Theatre (الصامت)؛ الكلمات التي شعرت بأنها ليست كلماتها.. ولم تكن بالفعل كذلك، فقد كانت كلمات «هوجو». كانت مجرد صدى، محاكاة هزلية لهوجو، مثلما كانت كلماتي صدى ومحاكاة هزلية له. وعندما سمعت «آنا» تتحدث بها، لم يخطر على بالي أن أربط بينها وبين «هوجو» الحقيقي؛ وعندما فكرت في «هوجو»، لم يذكرني ذلك بـ «آنا». كانت نسختي التعسة لموقف «هوجو» هي التي أوضحت لي فجأة المصدر الذي لا بد أن «آنا» استقت منه أيضاً المبادىء التي تكلمت عنها، والذي كان المسرح نفسه تعبيراً عنه. ولم يخطر لي أن أتخيل أن تستطيع «آنا» الحصول على أفكارها من كتابي. ذلك أن الكتاب لم يكن أداة قوية بما فيه الكفاية، أو نقية بما فيه الكفاءة بحيث تؤثر على عقل في بساطة عقل «آنا» وبعده عن التنظير. لم يكن ثمة شك في ذلك. كانت أفكار «آنا» ـ ببساطة ـ تعبيراً عن «هوجو» في وَسَطٍ أقل شأناً، مثلما كانت أفكاري مثل هذا التعبير، ولكن في وسط آخر؛ وكانت بين التعبيرين أوجه تشابه بارزة ـ على نحو عجيب ـ أكثر مما بينها وبين الأصل.

كـان رأسي يدور كالمِغْزل. وضعت الكتاب في مكانه، واستندت إلى الرفوف. كان لدي إحساس بأن كل شيء يسقط في مكانه ليصنع نموذجاً لم يتح لي الوقت بعد لاستعراضه. إذن، فقد كان «هوجو» يعرف «آنا».

ولم يكن هناك سبب في الطبيعة يحول بينه وبين ذلك، مادام يعرف «سادي». غير أن معرفة هوجو بـ «آنا» كانت فكرة جديدة عليّ، ومزعجة بعمق. ذلك أنني حرصت دائماً على أن أَعْزِل بعناية شديدة ذلك الشطر من حياتي الذي يتعلق بهوجو. وكنت قد التقيت «بآنا» أولاً قبل أن أفترق عن «هوجو»، وإن كنت لم أعرفها جيداً إلا بعد ذلك الافتراق. وقد تحدثت إليها عن «بلفاوندر»، وإن كان ذلك بصورة غامضة ـ بوصفه شخصاً اعتدت على معرفته قليلاً، قبل أن يصبح بهذه العظمة. ومن المحتمل أنني تركت لديها انطباعاً بأن «هوجو» هو الذي قاطعني. أما فيما يتعلق بالكتاب، فلم أطلعها قط على نسخة منه، كما لم أذكره لها إلا بوصفه عملاً من أعمال الصبا، وشيئاً لا يستحق الاهتمام على الاطلاق. وكنت أشير إليه دائماً على أنه نُشر منذ سنوات بعيدة، وأنه دُفِن فعلاً، وطواه النسيان.

كانت سحابة من الأسئلة تحوم حولي. متى حصلت «آنا» على الكتاب؟ ما مدى ما تعرفه عن سلوكي المخادع تجاه «هوجو»؟ ما دلالة المسرح الإيمائي؟ ما هي العلاقات بين «هوجو» وآنا؟ ما الأشياء التي لم يقلها كل منهما للآخر عني؟ وغطيت فمي جزعا من ضخامة الامكانيات التي بدأت الآن في الظهور. وفجأة، بدأ سلوك «سادي» يتخذ بدوره معنى ـ وتبينت في لحظة أن «هوجو» لم يكن مُغْرماً بسادي، بل بـ «آنا». لقد أصبح «هوجو» واحداً من أولئك الذين تمنحهم ذلك التسامح اليسير والانتباه العاطفي المعتدل الذي تدعو إليه الحاجة للاحتفاظ بهما في حالة النشوة. أما «آنا»، فكانت بالطبع، أليق كثيراً بنوع الفتاة التي يمكن أن يحبها «هوجو»، هذا هو الموقف الذي كان يدفع «سادي» ثائرة بالغيرة، ولعلها هي التي كانت توحي بالعداوات التي انشغل «هوجو» بمجابهتها، والتي استخدمتني ـ كما هو ظاهر ـ لإشعالها على نحو غامض. أو ربما كان «هوجو» مهتماً بشارع ولبك لأنه يظن أنه سيجد «آنا» هناك. كانت

هناك مئات من الامكانيات.

وفي هذا أيضاً تفسير للمسرح الايمائي. لم يكن هذا بلا شك سوى إحدى تهويمات «هوجو» التي اختار لها «آنا» لتحقيقها، وربما كان ذلك رغم إرادتها. فإذا كانت قد التقطتْ أثناء هذه العملية نسخةً غير مصقولة من أفكاره، فليس في ذلك ما يبعث على الدهشة، كانت «آنا» مرهفة الحس، وكان «هوجو» شديد التأثير. وربما كان هذا المسرحْ قد تم تصميمه ـ بكل تأكيد، لاجتذاب اهتمام «آنا» وانتباهها، ولكي يكون في نهاية المطاف القفص الذهبي الذي تُسْجن فيه. وتذكرت النزعة التعبيرية الصامتة في أفلام «هوجو» المبكرة. ولعل النقاء الصامت في التمثيل الإيمائي قد أصبح الفكرة المتسلطة الأصيلة على «هوجو». غير أن المسرح الجميل نفسه، كان منزل «آنا»، المنزل الذي شيده «هوجو» والذي ستكون «آنا» مليكته. ملكة قلقة، وتذكرت عدم استقرارها، وعصبيتها، حين شاهدتها على المسرح. كان من الواضح أنها ليست متصالحة مع الدور الذي وضعه «هوجو» لها. وهنا لاح لي كشف آخر. استرجَعَتْ ذاكرتي بحيوية هائلة الشخص الضخم الذي يضع قناعاً والذي رأيته على خشبة المسرح الصغير، الشخص الذي بدا في الحال مألوفاً لي على نحو غريب. وكان واضحاً بالنسبة لي حينذاك، دون ظل من الشك ـ أنه «هوجو» نفسه.

وفي هذه اللحظة عينها دق جرس الهاتف. فوثب قلبي بين جوانحي وسقط كما يسقط طائر يضرب خصاص نافذة. ونهضت على قدميّ. لم يكن لديّ أدنى شك أن الداعي هو «هوجو». نظرت إلى الهاتف وكأنه ثعبان ذو أجراس. رفعت السماعة وقلت: «هاللوا!» بصوت منتحل، خشن، متهدج.

وفي الطرف الآخر من السلك، قال هوجو متردداً: «آسف كل

الأسف، وأتساءل إن كنت أستطيع أن أتحدث إلى الآنسة كوينتين، لو كانت هناك؟».

وقفت في مكاني مشلولاً، دون أية فكرة عما أقول له، ثم قلت: «اسمع يا هوجو، إنه جيك دوناجيو هنا. أريد أن أراك بأسرع ما يمكن لأمر مهم». وساد صمت قاتل. ثم قلت: «أيمكن أن تحضر إلى شقة «سادي»؟ أنا وحدي هنا. أو أذهب إليك أنا حيثما تكون؟» وفي منتصف هذه الجملة أعاد هوجو السماعة إلى مكانها.

حينذاك أصابتني نوبة هياج كاملة، صرخت في الهاتف، وقذفته بعنف. ومزقت شعري، وأخذت أسب بأعلى صوتي، وأذرع الغرفة جيئة وذهاباً، مبعثراً السجاجيد الصغيرة يميناً وشمالاً. واستغرقت عودتي إلى الهدوء عشر دقائق، شرعت بعدها أسائل نفسي ماذا أثارني بالضبط كل هذه الثورة. أحسست بأنه لا بد لي الآن من أن أرى «هوجو» حالاً، وبأي ثمن، خلال ساعة إن أمكن. سيتوقف العالم عن الدوران حتى أرى «هوجو». ولم يكن لدي أدنى وضوح عما أريده من أجله. كان الأمر جوهرياً فحسب، هذا كل ما في الأمر، وسأظل قلقاً حتى ينتهي. تناولت دليل الهاتف، وكنت أعرف أن «هوجو» انتقل من منزله القديم، وحرصت على ألا أعرف شيئاً عن مسكنه الحالي. قلبت الصفحات بأصابع مرتجفة. أجل، كان اسمه في الدليل؛ عنوانه في هولبورن Holborn وله رقم من أرقام المدينة. وبقلب واجف، أدرت الرقم. فلم يجب أحد.

عندئذ جلست في هدوء أسائل نفسي عن الخطوة التالية. قررت أن أذهب مباشرة أول الأمر إلى العنوان المذكور في دليل الهاتف، فإن لم يكن هناك، فلأبحث عنه، إن اقتضى الأمر - في استوديو «باونتي بلفاوندر». وإذا كان «هوجو» يبحث عن «سادي»، فمن غير المحتمل أن يكون في الاستوديو، لأن «سادي» هناك. ومن ناحية أخرى، ربما كانت

«الآنسة كوينتين» التي سأل عنها هي «آنا». ومن ثم، لم يكن من الممكن معرفة ما إذا كان في الاستوديو أو لم يكن. وعلى أي حال، كان أول ما أفعله هو أن أذهب إلى هولبورن لأرى إن كان مختبئاً هناك، ولكنه لا يجيب على الهاتف. وبالطبع سيكون واثقاً من تخمينه، إذا كان قد اتصل هاتفياً من منزله، من أنني سأطلبه فوراً عقب مكالمته.

وبدأت أتخيل بأية مشاعر من التقزز والازدراء وضع السماعة بعد أن أعلنت عن هويتي. لم يستطع حتى أن يقنع نفسه بالتحدث إليّ لحظة من الزمن. نحّيتُ هذه الأفكار جانباً، فقد كانت مؤلمة أشد الألم، وأخذت أسوّي السجاجيد، وأرتّب حاجياتي. وخطر لي حينذاك أن «سادي» طلبت مني بوجه خاص أن أمكث في الشقة اليوم بأكمله. وفي مضاد هذه الفكرة، وضعت فكرة أنني لا أغادر الشقة إلا بحثاً عن «هوجو»، ومن المفترض أنني أدافع عن المكان ضد غزو يقوم به «هوجو». ومن ثمّ، يمكن أن يُعَد ما أفعله على أنه بالأحرى من قبيل أساليب الهجوم، لا من أساليب الدفاع، واضعاً نصب عينيّ غاية واحدة، هي صد «هوجو» عن «شارع ولبك». فإذا تمكنت من العثور على «هوجو»، وشغلته بنفسي، فإنني أكون في هذه الحالة منفِّذاً لرغبات «سادي» بطريقة أخرى. وبهذه الأفكار خطوت صوب الباب، وألقيت نظرة وداع على الشقة، ثم أدرت المقبض.

لم يحدث شيء. أدرت المقبض مرة أخرى. ولكن الباب لم يستجب. وقد دار القفل البيل Yale كالعادة، ولكن كان هناك قفل من تصميم آخر، بلا مفتاح فيه، في مكان أشد انخفاضاً من الباب، ومن الجلي، أنه كان موصداً. فحصت المزاليج، ولكنها كانت جميعاً مسحوبة. هززت الباب، وجذبته بكل قوتي. كان من المؤكد أنه موصد، وأن المفتاح قد ذهب. كنت حبيساً في الداخل. وعندما اتضح

لي ذلك دون أدنى ظل من الشك، اتجهت صوب المطبخ، وحاولت فتح بابه الذي كان يستخدم للنجاة في حالة الحريق. وكان هذا موصداً أيضاً.

فحصت النوافذ بعد ذلك. وكانت النافذة الوحيدة التي أتاحت لي شيئاً من الأمل هي نافذة المطبخ التي كانت منفصلة عن الباب بأقدام قلائل. يستطيع شخص جسور أن يتسلل منها إلى باب النجاة من الحريق. قدّرت المسافة، ونظرت إلى أسفل، وقررت أنني لست ذلك الشخص الجسور. لم يكن رأسي يحتمل النظر من الأماكن العالية. وهذا الحُكْم يسري أيضاً ضد ماسورة التصريف البارزة من واجهة المنزل. وشرعت أفتش المنزل، باحثاً في الأدراج والصناديق عن مفتاح. غير أنني فعلت ذلك دون أمل كبير في النجاح. كنت بالطبع على يقين تام بأن «سادي» فعلت هذا متعمدة. كانت تريد مني ـ لأسباب خاصة بها ـ أن أقوم بالحراسة اليوم بأكمله، وكانت طريقتها للتأكد من أنني سأفعل ذلك، أن تبقيني سجيناً. ومع أنها كانت على صواب في التنبؤ بأنني سأريد الابتعاد عن موقعي، إلا أن هذه الحقيقة لم تجعلني أقل سخطاً عليها. وكان من الواضح أيضاً أن علاقاتي بسادي يجب أن تنتهي بعد هذه الحادثة بكل تأكيد.

ولما يئست من البحث عن المفتاح. كانت محاولتي الأخيرة هي أن اغتصب القفل من باب المطبخ. وقد كان قفلاً بسيطاً، كما أنني لم أكن سيئاً جداً ـ بوجه عام ـ في اغتصاب الأقفال، وهي مهارة اكتسبتها من «فين» الذي يُعَد بارعاً فيها كل البراعة. غير أنني لم أستطع أن أفعل شيئاً في هذا القفل، لأنني لم أتمكن من العثور على الأداة المناسبة. وأفضل طريقة لاغتصاب قفل تكون باستخدام قطعة سلك صلبة، أو دبوس شعر متين. لم أجد هذا أو ذاك في الشقة، ومن ثم، سرعان ما تخليت عن المحاولة. والآن، بعد أن لم يعد ثمة مفر من الاعتراف بأنني سجين، وبأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى انتظار عودة «سادي»، أحسست

بحالة تامة من الهدوء والسكينة، وإن كانت كلمة كآبة هي خير ما يصف هذه الحالة. حزمت ممتلكاتي جميعاً تأهباً لانتقال سريع، إذ اعتزمت أن أكون حازماً مع «سادي». كما كنت مصمماً أيضاً على الانطلاق في لحظة تحرري نفسها للبحث عن «هوجو». أدرت رقم «هوجو» مرة أخرى، غير أنني لم أتلق رداً. وخطر لي أن اتصل هاتفياً بمكان آخر طلباً للمعونة، ولكن بعد أن ترويت في الأمر، انتهيت إلى أنه لا يوجد من أشعر نحوه بميْل للتحدث عن محنتي بصراحة. وصببت لنفسي نصف قَدَح من الجن، وجلست، وضحكت ضحكاً كثيراً.

وبعدئذ، بدأت أشعر بالجوع. كان الوقت قد تجاوز الثانية. فذهبت إلى المطبخ فأعددت لنفسي وجبة فاخرة عامرة تتألف من فطيرة الكبد (فواجراه)، والسَلَمون، والدجاج المهلّم (جيلي)، والهليون (الأسبارجوس) المعلّب، والتوت، والجبن الروكفور، وعصير البرتقال. وقررت ألا أشرب من نبيذ «سادي»، على الرغم من فداحة جرمها. ووجدت بعض البراندي في أحد الدواليب، وأمضيت وقتاً في الاستمتاع به، آسفاً لأن سادي لا تدخن السيجار، وعندما بدأت أفكاري عن «هوجو» و «آنا» تعكر بإسراف صفو نفسي، قمت بغسيل الأطباق جميعاً. ثم أحسست بعد ذلك بتقلب في المزاج، فقصدت إحدى النوافذ الأمامية التي تطل على «شارع ولبك»، وأشرفت منها، مراقباً لحركة المرور والسابلة.

انقضت فترة قصيرة على هذه الإطلالة، كنت أغني فيها لنفسي أغنية فرنسية، وأتساءل مكتئباً عما سأقوله لسادي عند عودتها، حين لمحت شكلين مألوفين يقبلان من الجانب الآخر للشارع. كان أحدهما «فين» والآخر «ديف». وعندما شاهداني، أخذا يلوّحان إليّ بإشارات تآمرية.

صحت: «كل شيء على ما يرام. أنا وحدي».

واجتازا الشارع مقتربين من المنزل وقال ديف: «حسن! كنا نخشى أن تكون ملكة سبأ هناك!» ونظر إليّ كل منهما بابتسامة عريضة. أما أنا فقد كنت مسروراً برؤيتهما إلى أقصى حد.

قال «ديف» الذي كان مسروراً بنفسه: «إذن، فالأمر على هذا النحو! أتستمتع بكونك حارساً خاصاً؟ هل قمت بالحراسة جيداً؟».

وابتسم لـيّ «فين» بتودده المعتاد، وإن كنت أرى في هذه المناسبة أن تعاطفاته كانت مع «ديف». وكان يبدو عليهما أنهما يجدان الموقف مضحكاً للغاية. وسألت نفسي عما سيفكران فيه بعد لحظة.

قلت في وقار: «قضيت يوماً هادئاً.. أنجزت بعض العمل».

قال ديف لفين: «أنسأله عما كان عمله؟» وتذكرت أنني قضيت نصف ساعة سيئة في عملي الأخير.

قال ديف: «حسن، إذا كنت قد أنجزت عملَ يومك، فلماذا لا تخرج لتتناول كأساً. لقد حان الوقت تقريباً لفتح الحانات.. إلا إذا آثرت أن تدعونا.. أم أنه من غير المسموح لك أن تكون صاحب أتباع؟».

قلت في هدوء: «لا أستطيع الخروج، كما لا أستطيع أن أدعوكما».
سأل ديف: «ولِمَ لا؟».
قلت: «لأن الأبواب غُلِّقت عليّ».

تبادل «فين» و «ديف» النظرات، ثم انهارا بلا حول ولا قوة. جلس «ديف» على حافة الرصيف منفجراً بالضحك، على حين استند «فين» برفق على عمود النور. كان الضحك يهزهما هزاً، فانتظرت هادئاً حتى تنتهي هذه النوبة، مهمهما لنفسي بصوت خافت. وأخيراً، رفع «ديف» رأسه، وبعد عدة محاولات استطاع أن يقول لفين: «غير أن هذا يحل المشكلة!» وعاودتهما النوبة من جديد..

قلت نافد الصبر: «انظرا هنا.. كُفّا عن الضحك، واشرعا في إخراجي من هنا».

صاح ديف: «إنه يريد الخروج! ولكن، ألم تحاول؟ ماذا عن ماسورة التجفيف؟ يبدو الأمر يسيراً كل اليسر، أليس كذلك، يا فين؟» واشتركا مرة أخرى في الضحك.

قلت: «حاولت كل شيء.. والآن اصمتا، وافعلا ما أقول لكما. أقترح أن يغتصِب «فين» قفل باب المطبخ. وتستطيع أن تصل إليه من الخلف عن طريق باب النجاة من الحريق. كنت أستطيع أن أفعل ذلك أنا نفسي، لولا أن «سادي» لا تستعمل دبابيس الشعر».

قال ديف: «ونحن أيضاً لا نستعمل دبابيس الشعر ـ ولكن إذا أردت، فسنقدم التماساً لسادي».

قلت: «فين، أيمكنك أن تساعدني على الخروج من هذا المكان؟».

قال فين: «سأفعل ذلك بالتأكيد، ولكني لا احمل معي شيئاً».

فصمت: «إذن، إذهب وابحث عن شيء!».

في هذه الأثناء، كانت محادثتنا الغريبة قد استرعت انتباه عدد كبير من الناس في الشارع، ولم أكن أريد لها أن تطول. فاتفقنا في النهاية على أن يطوف «فين» بالشوارع المجاورة حتي يجد دبوساً للشعر، ثم يعود لمعالجة الباب. وحتى في تلك الأيام، لم يكن على المرء أن يسير بعيداً في شوارع لندن للعثور دبوس للشعر. وكان خوفي الوحيد هو أن ينسى «فين» ما ذهب من أجله، فيدخل إحدى الحانات. وكنت أعرف أنه ما من شيء يمكن أن ينيم الإنسان تنويماً مغناطيسياً كسيره مركِّزاً عينيه على الرصيف.

وعندما استقر الأمر على هذا النحو، أغلقت النافذة بإحكام.. إذ

شعرت بأن المزيد من المحادثة مع «ديف» لم يكن مجدياً في هذه اللحظة. وعلى كل حال، سمعته ـ بعد دقائق معدودات ـ يطرق باب المطبخ، وكان عليّ أن أذهب فأحادثه من شباك المطبخ لكي يلتزم الهدوء. ولكنه استمر ربع ساعة تقريباً في سيل من الهذر المثير، الممتلىء باقتراحات خرافية مؤداها أنني لو كنت أملك ذرّة من الروح، لولّيت الفرار زحفاً على الأفاريز، وتسلقاً للمواسير للصعود إلى السطح، وربطا للملاءات بعضها إلى البعض الآخر، وأشياءً أخرى من هذا القبيل، أجبت عليها جميعاً باقتضاب. وأخيراً سمعت «فين» يقفز على باب النجاة من الحريق، فقد وجد دبوساً جميلاً للشعر، ولم يستغرق منه التعامل مع القفل أكثر من نصف دقيقة. وكنت أراقبه و «ديف» في إعجاب. وعندما فُتح الباب أراد «ديف» و «فين» الدخول والتفرج، غير أنني دفعتهما بسرعة للنزول على السلالم. لم أكن آسفاً على إلغاء مقابلتي مع «سادي». كما لم تكن لدي أية رغبة في عودتها في هذه المرحلة بالذات. وقبل انصرافي، حشوت جيوبي بالبسكويت. وسألت نفسي: هل أنتمي إلى طبقة اجتماعية يمكن أن تسرق علبتين من فطيرة أكباد الدجاج (فواجراه) من امرأة اقترفت جريمة الحبس غير القانوني، وقررت أن أفعل ذلك. وألقيت نظرة أخيرة حزينةً على السجاجيد الأفغانية والقوقازية، وتناولت متاعي، وانصرفت.

وما أن بلغنا الشارع حتى لوّحت في الحال لسيارة أجرة. وكان «فين» و «ديف» في أعلى حالاتهما المعنوية، ولم يكن لديهما أية نية للافتراق عني؛ وأظن أنهما كانا يشعران بأنهما لو لازماني فسوف يظفران بأمسية مسلّية، وهما يكرهان أن يُخْدعا في هذا التوقع. ومن ناحيتي أنا، فلم أكن بعد واثقاً تمام الوثوق مما سأفعله، وأحسست بحاجتي المعتادة إلى السّند الأخلاقي، ومن ثمّ تركتهما يتكومان ورائي في سيارة الأجرة. ذهبنا أولاً إلى حانوت «السيدة تينكهام» حيث تركت حقيبتي ومخطوطاتي.

سألني ديف: «والآن، أين نحن ذاهبون؟» وكان وجهه المستدير يتألق ابتهاجاً كصبي صغير قبل القيام بنزهة.

قلت: «نحن ذاهبون للبحث عن بلفاوندر».

قال فين: «تقصد رجل الأفلام.. الرجل الذي كنت تعرفه منذ أمد بعيد؟».

قلت: «إنه هو». ورفضت أن أفضي بالمزيد، بحيث كان على «ديف» أن يقوم على تسلية «فين» بقية الرحلة بثروة من التخمينات الأقل أو الأكثر مهانة.

لم أكن أنصت إليهما. إذ بدأت أشعر بالعصبية الآن وهناك احتمال اللقاء بهوجو يحوم فوق رأسي كجبل من جليد. ولم يكن لدي حقاً أدنى فكرة عما أريد قوله لهوجو. ولم يكن ما أريده بالضبط من رؤيته هو اكتشاف مشاعره نحو «آنا». إذ كنت واثقاً من أنني قد شخّصت هذه المشاعر التشخيص الصحيح وثوقي من أن ذلك الشخص الساذج الذي شاهدته على خشبة المسرح الايمائي كان «هوجو»، ومن أن «هوجو» هو الشخص الذي دفع آنا بعد ذلك في السيارة «الآلفيس» Alvis الضخمة السوداء. كنت طبعاً أريد أن أكتشف بالأحرى حالة «هوجو» العقلية نحوي. لا لأني كنت في حالة شك عن هذا أيضاً؛ فمن المؤكد أن «هوجو» كان ينظر إليّ بأقصى ما يمكن فهمه من البغض والاحتقار. غير أن هذه الحالة هي ما قد أتمكن من تغييره بجهودي الخاصة. ومع ذلك، لم يكن حتى هذا هو ما يدفعني إلى رؤية «هوجو». ففي أثناء العصر خطر على بالي أن لدى هوجو مزيداً كبيراً من المعرفة يمكن أن يعلمني إياه. وبخاصة بعد ذلك التغير الذي طرأ على منظوري منذ الأيام التي جرت فيها أحاديثنا المبكرة. رأيت هذا في ومضة واحدة حين أعدت قراءة تلك المقطوعة من الحوار، بعد مضي زمن طويل على كتابتها. لم يكن شوقي

إلى محادثة «هوجو» قد زال. لعل هناك مزيداً من الحديث بيننا. أكان هذا هو ما دفعني إلى البحث عنه بمثل هذا الإلحاح المحموم؟ وبدا لي بعد كل هذا أنني أريد أن أراه لأنني أريد أن أراه. ولا يستطيع مصارع الثيران في الحَلَبة أن يفسِّر لماذا يريد أن يلمس الثور. كان «هوجو» هو مصيري.

الفصل السابع

توقفت سيارة الأجرة، فنزلنا منها، ودفع «ديف». كان «هوجو» يقطن على ما يبدو، فوق «جسر هولبورن» مباشرة، في شقة قابعة على قمة مباني إحدى المصالح. وفُتح باب يؤدي إلى سلَّم حجري، ولوحة مطلية لمحنا عليها ـ ضمن أسماء مؤسسات تجارية وقانونية ـ اسم بلفاوندر. ومضت سيارة الأجرة في طريقها، وتركتنا واقفين بمفردنا فوق الجسر. ولو أتيح لك أن تزور مدينة لندن في المساء فسوف تعرف مدى الوحشة الغريبة التي تسود تلك الشوارع التي تمتلىء أثناء النهار بالضجيج والحركة. والجسر وجهة نظر درامية. فعلى الرغم من أننا نستطيع أن نرى طريقاً طويلاً، ليس صوب شارعي هولبورن ونيوجيت فحَسب، ولكن بمحاذاة شارع فارينجدون Farringdon أيضاً، ذلك الشارع الذي يمتد تحتنا كنهر جفّت مياهه، ـ على الرغم من هذا لم يقع بصرنا على كائن حي. ما من قطة، أو حتى رجل شرطة. وكانت الأمسية دافئة، خالية من السحب، لامعة الزرقة، والمكان أبكم حولنا، تحوطه جدران من همهمة بعيدة لعلها صوت حركة المرور، أو تنهيدة صيفية للشمس الغاربة. وقفنا بلا حراك. حتى «فين» وديف كانا في حالة من التأثر.

قلت لهما: «انتظرا هنا، فإذا لم أخرج بعد دقائق قليلة، فإنكما تستطيعان الانصراف».

لم يسرهما هذا، فقال ديف: «سننظر إليك حتى تنتهي من صعود السلم. ومن الممكن أن تثق في أننا سننصرف في اللحظة التي تريدها». وأظن أنهما كانا يأملان الفوز بلمحة يلقونها على «هوجو».

لم أكن واثقاً على الاطلاق في استطاعتي الاعتماد عليهما، غير أنني لم أجادل، وأخذنا نصعد في السلم الحجري في صف واحد كما يصعد الهنود. لم أكن أشعر الآن إلا بتصميم خاوٍ (لا مضمون فيه). وطفقنا نصعد متمهلين على درجات السلم، عبر المكاتب المغلقة لصنّاع الثياب النسائية، ورجال القانون. فما أن بلغنا الطابق الرابع، حتى تناهى إلى أسماعنا صوت غريب. توقفنا، وتبادلنا النظرات.

قال فين: «ما هذا؟».

ولم يستطع أحد منا تحديده. واصلنا السير قليلاً على أطراف أصابعنا. كان الصوت صادراً عن قمة المبنى؛ وبدأ يحدِّد نفسه بوصفه حديثاً متصلاً مرتفع النبرة.

قلت بإلهام مفاجىء: «إنه يقيم حفلاً!».

قال ديف: «إنهن نساء.. نجوم السينما، على ما أتوقع. تعالوا!».

تقدمنا في حذر؛ ولم يعد يفصلنا عن باب «هوجو» سوى منعطف من درجات السلم. دفعت الاثنين إلى الخلف، وصعدت بمفردي. كان الباب موارباً، وأصبحت الضجة الآن تصم الآذان. ألقيت كتفيّ إلى الوراء ودخلت.

ألفيت نفسي في حجرة خالية تماماً.. وكان هناك باب آخر في مواجهتي. مشيت بسرعة عبر الحجرة وفتحته. الحجرة التالية خاوية أيضاً. وما أن خطوت راجعاً إلى الداخل حتى اصطدمت بفين وديف.

قال فين: «إنها طيور صغيرة». وقد كانت كذلك. كانت شقة «هوجو»

تحتل موقعاً ركنياً، ويلتف حولها من الخارج حاجز مرتفع. وثمة سقف منحدر يمتد فوق النافذة يكاد يلمس ذلك الحاجز. وفي الزاوية العميقة تحت السقف كان هناك مئات من الطيور الصغيرة، كنا نستطيع أن نراها تصفّق بأجنحتها إذ تصطدم بالنوافذ، وتتواثب صاعدة هابطة بين الزجاج وبين الحاجز وكأنها في قفص. ولا بد أن الضوضاء التي تحدثها لم تكن مسموعة من الشارع، أو لعلنا خلطنا بينها وبين الضجة العامة المنبعثة من لندن. أما هنا فقد كانت جائحة. وأحسست باضطراب هائل، وارتياح هائل.. لم يكن ثمة أثر لهوجو.

كان «ديف» عند النافذة يقوم بمحاولات لامجدية لإبعاد الطيور.
قلت: «دعها وشأنها.. إنها تعيش هنا».

ونظرت حولي مستطلعاً. كانت الحجرة الثانية هي حجرة نوم «هوجو»، وكانت مفروشة بتلك البساطة الخفيفة المميِّزة لهوجو الذي عرفته. لم تكن تحتوي إلا على سرير حديدي، ومقاعد ذات قيعان من القش، وخزانة ملابس ذات أدراج، وصندوق من الصفيح عليه كوب من الماء. أما الحجرة الأولى، الأوسع، فكانت تكشف عن «هوجو» جديد. فهنا كانت سجادة تركية تغطي الأرضية كلها، والمرايا والأرائك والوسائد المخططة تؤلف مشهداً مترفاً أنيقاً. وعلى الجدران، علّق عدد من اللوحات الأصلية، حددت منها لوحتين لرينوار Renoir(*)، وواحدة لمينتون Minton، وأخرى لميرو Miro(**). أطلقت صفيراً خافتاً عندما أبصرت هذه اللوحات. ولم أستطع أن أتذكر أن «هوجو» كان مهتماً بفن

(*) بيير أوجست رينوار (١٨٤١ ـ ١٩١٩) رسام فرنسي كبير يعد أحد زعماء الحركة الانطباعية (المترجم).

(**) جون ميرو (١٨٩٣ ـ) رسام سيريالي من أصل أسباني عاش في الولايات المتحدة فترة من الزمن (المترجم).

التصوير على وجه خاص. أما الكتب، فكانت قليلة. واسترعى انتباهي ما عددته مميِّزاً لهوجو على نحو ساحر، وهو أن يغادر المنزل وقد ترك الباب مواربأ على منزل يضم كل هذه الكنوز.

كان «فين» يراقب الطيور. والحق أن منظرها كان بديعاً، إذا استطاع المرء أن يتجاهل ما تحدثه من ضجة تصم الآذان، وهي تتدافع، وتصفق بأجنحتها، وتتصادم، ناشرة أجنحتها المضمومة، تحيط بكل نافذة كالإطار، وكأنها جزء من ديكور الحجرة. وبينما كنت أتأملها تساءلت أمِنَ الممكن أن استقر هنا، وأنتظر «هوجو» حتى يعود؟

غير أن «ديف» الذي كان يجوس خلال الشقة لحسابه الخاص، فقد هتف في هذه اللحظة قائلاً: «انظر إلى هذه!» وكان يشير إلى ورقة معلقة على الباب لم نفطن إليها حين دخولنا، وفيها هذه العبارة : «ذهبت إلى الحانة».

كان «ديف» على البسطة فعلاً. سأل: «ماذا ننتظر؟» كان يبدو كشخص يريد شراباً. وما ان وُضعت هذه الفكرة في رأس «فين»، حتى بدا «فين» بدوره مثل «ديف».

ترددت، ثم قلت: «ولكننا لا نعرف أية حانة».

قال ديف: «من الجلي أن تكون أقرب حانة، أو واحدة من أقرب الحانات.. ونستطيع أن نقوم بجولة».

شرع هو و«فين» في النزول فعلاً. أما أنا فألقيت نظرة سريعة على البسطة. كان هناك باب آخر بدت لي منه حجرة الحمّام، ومطبخ صغير. وكانت نافذة المطبخ تطل على سقف مستوٍ، أستطيع أن ألمح من ورائه نوافذ مباني المصالح الأخرى وأضواءها العالية. كان هذا كله هو مجال «هوجو». ألقيت على الطيور نظرة وداع، وتركت باب حجرة جلوس

«هوجو» كما وجدته، وتابعت «فين» و «ديف»، نازلاً على درجات السلّم.

وقفنا بجانب الأسود الحديدية على الجسر. وكانت أنوار المساء الساطعة تسّاقط فوق قمم كنيسة القديس برايد St Bride وأبراجها في الجنوب، وكنيسة القديس جيمس في الشمال، والقديس آندرو في الغرب، والقديس ليونارد فوستر والقديسة ماري لبو St Mary-le-Bow في الشرق. وأشاع ضوء المساء الهدوء في المنازل، وعلى الأبراج البيضاء المهجورة. وما برح شارع فارينجدن Farringdon عريضاً خالياً من الناس.

سأل ديف: «أي طريق نسلك؟».

كنت أعرف المدينة جيداً. فإما أن نتجه غرباً إلى شارع كنج لود King Lud وحانات فليت ستريت Fleet Street، أو نتجه شرقاً إلى حانات المدينة التي يقل غشيانها لأنها تقع في أزقة ملتوية، وأماكن تسيطر عليها الكنيسة. واستحضرت في ذهني شخصية «هوجو»، فقلت: «إلى الشرق».

فسأل «فين»: «أيُّها يؤدي إلى الشرق؟».

قلت: «تعالَ!».

اجتزنا كنيسة «الضريح المقدس»، ودخلنا مباشرة إلى «شارع حانة الجسر» Viaduct Tavern. وكفتني لمحة واحدة حول البارات لأقرر أن «هوجو» لم يكن هناك، وكنت على وشك الرحيل حين بدأ «فين» و «ديف» في الاحتجاج.

قال ديف: «أذكر أنك أخبرتني ذات مرة انه من غير المستحسن أن يشرب المرء في حانة لا يعرف اسمها، أو أن يدخل حانة دون أن يشرب».

قال فين: «هذا يجلب سوء الحظ».

قال ديف: «أياً كان الأمر، فأنا أريد شراباً.. ما هو شرابك يا فين؟».

لو تساوت الأشياء الأخرى، لأردت شراباً بدوري، ولما كانت الليلة حارّة، فقد شاركت الآخرين في كأس صغيرة، ووقفت بمعزل عنهما أفكر في «هوجو». وانتهينا من شرابنا بسرعة، ثم أصدرت إليهما الأمر بالمسير، وتوليت قيادتهما عبر الطريق، متحاشياً النظر إلى «الأولد بيلي» Old Bailey.

وكانت هناك حانة في شارع شارنجتون تسمى «ماجبي وستامب» Magpie and Stump. تقدمتهما وألقيت نظرة شاملة على المكان، وخرجت قبل أن يبلغا الباب، وصحت: «مكان غير لائق!.. سنحاول الحانة التالية». وكنت أرى أن الكحول سيعمل على «إبطائنا» وتراخينا، وكنت أريد أن أصل إلى أبعد ما في وسعنا، ونحن قادرون على المسير.

وسبقني «فين» و «ديف» عند منعطف الطريق، واقتحما «حانة جورج». وكانت هذه الحانة وهي إحدى الحانات اللطيفة في شارع ويتني Watney، ذات جدران مقشورة الطلاء، وطاولة طويلة قديمة تعلوها تراكيب فوقية من الزجاج المشطوف والماهوجني يحملق من خلالها الساقي كأنه كاهن حبيس. ولم نجد أثراً لهوجو.

قلت لديف: «لا جدوى»، ونحن نرفع أباريقنا الثلاثة، «ربما كان في أي مكان».

قال ديف: «لا تيأس. تستطيع دائماً أن تعود إلى الشقة».

كان هذا حقًّا؛ وفي أي الأحوال كان يلتهمني قلق لا يطاق. وإذا كان لا بد لي من أن أقتل الأمسية حتى يعود «هوجو»، فلأقتلها بحثاً عن

«هوجو» كأية طريقة أخرى. واستعرضت في ذهني الشوارع المحيطة بالكاتدرائية. ثم وقّعت اتفاقية مع «فين» و «ديف» مؤداها أن نمر مر الكرام على كل حانة أخرى. وأخيراً، ركزت انتباهي على أن أدفعهما على الانتقال. فلما خرجنا، توجهت صوب «لودجيت هيل» Ludgate Hill ، وانعطفت منه متجهاً صوب كنيسة القديس بولس. كانت هناك على التل «حانة يانجر» Yonger ، غير أن «هوجو» لم يكن فيها. وكان موقفنا التالي عند «حانة شورت» Short في فناء كنيسة القديس بولس. تناولنا مشروباً في تلك الحانة، وتجادلنا حول ما إذا كان لا ينبغي علينا العودة إلى «فليت ستريت»؛ ولما كنت قد راهنت على الجانب الشرقي، فإنني لم أكن أريد الآن أن أنهزم. وفضلاً عن ذلك، كنت أشعر بالإحجام عن المخاطرة بلقاء «هوجو» في الوَسَط المحيط بفليت ستريت حيث يمكن أن يفسد الصحفيون السكارى مأساتك الشخصية. وهكذا قدت رفيقيّ إلى طريق «تشيبسايد» Cheapside .

كان المساء قد تقدّم في تلك الأثناء، والظلام عالقاً بالهواء، ولكنه لم يلبث أن انتشر في مسحوق مُعَلَّق أضفى على الألوان المتلاشية مزيداً من الحيوية والتألق. واتخذ السمت لوناً شديد الزرقة، على حين اصطبغ الأفق بلون أرجواني شفاف. ومن ظلمة فناء كنيسة «القديس بولس» وظلالها خرجنا إلى «تشيبسايد»، وكأننا نخرج إلى حَلَبة مشرقة، وشاهدنا مستطيلات كنيسة القديس نيقولا كول آبي St Nicholas Cole Abbey الشاحبة المنتظمة محصورة في إطار فجوة في أحد الأطلال، ومنتصبة وحدها إلى الجنوب منا على الجانب الآخر من «شارع كانون» Cannon Street . وبينهما كان نبات أرجواني الزهر (الأبيلوبيون) يتماوج فوق ما تبقّى من الشوارع. وفي هذه الوحشة، كانت أصداف المنازل الملونة ما برحت ترفع مربعات، ممتلئة وخاوية من الجدران والنوافذ. واصطدمت أشعة الشمس الغاربة بقوالب الطوب المتوهج والقرميد اللامع، وقامت

بتدفئة حجر تبقّى من عمودٍ هوى. وفي عبورنا أمام كنيسة القديس فيداست St. Vedast كانت قمة السماء تتماوج متحولة إلى زرقة لاصقة، وانعطفنا إلى ما كان يسمى «فريمانز كورت» Freeman's Court ، ثم دخلنا حانة هينيكي Henekey .

وهنا فسخنا اتفاقيتنا، وذلك بسبب عملية «التراخي» التي أشرت إليها من قبل. وبدأت أفكر أنه من غير المحتمل الآن أن نلتقي بهوجو، ولكن، علينا رغم ذلك أن نكمل الدائرة. وعندما رجعنا عابرين «تشيبسايد» ومنعطفين إلى «بلولين» Blow lane ، كان العمال يطفئون أنوار الشارع. وكانت أضواء صفراء تتأرجح من مصابيح في الشوارع الجانبية تساقط على جدران بيضاء، كاشفة عن أسماء قديمة، ومُضاعفةً لظلمة الطبقات العليا من الجو متجهة صوب الليل. وشاهدنا نجوماً قلائل كانت تبدو وكأنها ظهرت هناك منذ زمن طويل. واستدرنا داخلين إلى الحانة القديمة old Tavern في شارع وتلنج Watling Street . وكانت هذه الحانة بالذات من نوع الحانات التي يحبها «هوجو»؛ ولكنه لم يكن فيها. وبينما كنا نشرب، أنبأت الاثنين الآخرين أنه ينبغي علينا زيارة سكينرز آرمز Skinners' Arms ، ثم نرجع على أعقابنا إلى سيرك لودجيت Ludgate Circus .

لم يعترض منهما أحد . وقال فين: «ما دمنا لا نضيع كثيراً من الوقت الطيب في المشي». فانتزعتهما من ذلك المكان، واقتربنا من «سكينرز آرمز». وكانت هذه الحانة تقع في ملتقى «شارع كانون» بشارع «الملكة فيكتوريا»، تحت ظل كنيسة القديسة ماري آلدرماري St. Mary, Aldermary . ودخلنا مترنحين.

وعندما استقر أمرنا داخل الباب، واطمأنت نفسي إلى أن «هوجو» لم يكن هناك، شدَّد «ديف» قبضته على ذراعي وقال: «هنا شخص أحب أن تقابله».

وعند نهاية البار الطويل، كان هناك شخص نحيل شاحب الوجه يرتدي رباط رقبة على هيئة فراشة (بابيون)، ويتكىء على طاولة تقديم المشروبات. حَيَّا «ديف»، وعندما اقتربنا منه، استرعى انتباهي عيناه الواسعتان جداً، اللتان نظر بهما إلينا، وكانتا حزينتين مستديرتين متألقتين كعيني دب صغير أو كعيني المسيح كما صوّره رووُه Rouault(*).

قال ديف: «أقدم إليك لفتي تود Lefty Todd »، وقدمني إليه أيضاً، فتصافحنا. وكنت قد سمعت بالطبع الكثير عن الزعيم غريب الأطوار للاشتراكيين المستقلين الجدد، غير أنني لم أكن قد التقيت به من قبل، فأخذت أدرسه الآن في اهتمام ملحوظ.

قال مخاطباً ديف: «ماذا تفعل هنا؟» وكانت نظرته المكدودة التي تطل منها الأنيميا (فقر الدم) تتعارض مع القوة والحيوية اللتين تشيعان في حديثه، وفي أثناء كلامه كان يلوِّح على نحو غامض «لفين» وكأنه يعرفه. وكان «فين» من الأشخاص الذين لا يُقدَّمون لأحد أبداً.

قال ديف: «اسأل دوناجيو».

فوجّه لفتي خطابه إلي: «ماذا تفعل هنا؟».

لم أكن أحب أن تُوَجَّه إليّ أسئلة مباشرة، وفي مثل هذه الظروف كنت ألجأ عادة إلى الكذب، فقلت: «كنا نزور صديقاً في إدارة صحيفة «ستار».

قال لفتي: «من يكون؟ فأنا أعرف كل شخص في ستار».

قلت: «شخص يُدعى هيجنز، وهو جديد».

حملق لفتي في وجهي ثم قال: «حسن»، والتفت إلى ديف مرة أخرى

(*) جورج رووَة (١٨٧١ ـ ١٩٥٨) رسام فرنسي ابتدأ حياته برسم اللوحات الدينية. (المترجم).

قائلاً: «إنك لا تغشى هذه الأماكن كثيراً».

قال ديف: «أظن أنك كنت تضع «الاشتراكي المستقل» في الفراش».

فقال لفتي: «إنها لم توضع في الفراش بعد على وجه الدقة، فقد تركتها للآخرين!».

واستدار إليّ قائلاً: «لقد سمعت عنك».

كنت لا أزال أشعر بالضيق. ولم أرتكب هذا الخطأ الذي يفتقر إلى اللباقة بأن أجيب على هذه الملاحظة حين يتفوه بها شخص شهير بهذه العبارة «ولقد سمعت عنك أنا أيضاً». وبدلاً من ذلك قلت: «وماذا سمعت؟»، فهذه الإجابة تحرج السائل في كثير من الأحيان، ولكنها لم تحرج «لفتي»؛ تروّى لحظة ثم قال: «بأنك شخص موهوب، كسول إلى درجة الامتناع عن العمل، وبأنك تعتنق آراء الجناح اليساري ولكنك لا تشارك مشاركة إيجابية في السياسة».

كان كلامه واضحاً بما فيه الكفاية، فقلت له: «لم تحصل على معلومات خاطئة».

قال لفتى: «عن الشطر الأول، لا يهمني في شيء، ولكن أحب أن أوجّه إليك أسئلة قليلة عن الشطر الثاني. ألديك وقت؟»، وأشار إلى مينا ساعته.

والواقع أنني ارتبكت قليلاً بالنسبة للشطرين الأول والثاني على السواء، وكذلك بطريقته المباغتة في التصرف، وبكمية الجعة التي احتسيتها.

- «تعني أنك تريد أن تحدثني عن السياسة؟».
- «عن سياستك أنت».

كان «ديف» و«فين» قد ابتعدا، وجلسا في ركن بعيد.

قلت: «ولِمَ لا؟».

الفصل الثامن

قال لفتي: «والآن، دعنا نوضِّح موقفنا، أليس كذلك؟ ما هي تجربتك السياسية التي كانت لك في الماضي؟».

قلت: «كنت ذات مرة عضواً في .Y. C. L (رابطة الشبان الشيوعيين) وأنا الآن عضو في حزب العمل».

قال لفتي: «حسن، نحن نعرف ما يعنيه هذا، أليس كذلك. الخبرة العملية معدومة. ولكن، أتراك تواكب الأحداث على الأقل بطريقة نظرية؟ هل تدرس المشهد السياسي؟» وكان يتحدث بمرح الطبيب خفيف الظل.

قلت: «نادراً».

- «أتستطيع أن توضِّح سبب اعتزالك؟».
فبسطت يدي قائلاً: «لا أمل في...».

قال لفتي: «آه، هذا هو الشيء الوحيد الذي لا ينبغي أن تقوله. هذه هي الخطيئة ضد الروح القدس. فلا شيء أبداً يخلو من الأمل. أليس كذلك يا ديف؟» وكان «ديف» في هذه اللحظة عند الطاولة يطلب مشروباً آخر..

قال ديف: «لا شيء فيما عدا محاولة إسكاتك».

سألني لفتي قائلاً: «أتريد أن تقول إنك اعتزلت لأنك لا تعبأ بما يحدث، أم لأنك لا تدري ما تفعل؟».

قلت: «هذان الأمران مترابطان»، وكنت أريد أن أقول المزيد عن هذا، غير أن «لفتي» قاطعني قائلاً: «وأنت على حق تماماً فيما تقول.. بل كنت على وشك أن أقوله أنا نفسي.. إذن، فأنت تعترف بأنك تبالي؟».

قلت: «بالطبع، ولكن...».

قال: «هذا هو الشرخ الموجود في السد. إن كنت تبالي على كل حال، فإنك تستطيع أن تبالي على نحو مطلق. ما هي المشكلة الأخلاقية الأخرى في هذا العصر؟».

أجبت بسرعة كالسهم: «أن تكون وفياً لأصدقائك وأن تسلك السلوك الصحيح إزاء النساء».

قال لفتي: «أنت مخطىء.. إنه الإطار بأكمله الذي يتعرض للخطر. ما فائدة منع إنسان من التعثر إذا كان يقف فوق سفينة غارقة(*)؟».

فأجبته قائلاً: «لأنه لو انكسر كاحله، فلن يكون قادراً على السباحة».

- «ولكن، لماذا تحاول أن تنقذه من كسر كاحله، إذا كنت تستطيع أن تنقذه من فقدان حياته؟».

قلت له في شيء من المشاكسة: «لأنني أعرف الأمر الأول، ولا أعرف الثاني».

(*) يذكرني هذا ببيت المتنبي الشهير: «أنا الغريق فما خوفي من البلل». (المترجم).

قال لفتي: «حسن، دعنا نرى، أليس كذلك؟» دون أن يفقد شيئاً من حماسته.

فتح حقيبة أوراق، وأخرج منها حزمة من الكتيبات، أخذ يتصفحها بسرعة.

قال: «هذا هو الكتيب الذي يخصك»، وأمسك به في مواجهتي كأنه مرآة. وبحروف ضخمة على الغلاف، كان هذا السؤال: لماذا تركت السياسة؟ وتحتها: السياسة اليسارية في حاجة إليك! وفي أسفل الصفحة: الثمن ٦ دولار. وشرعت أفتش في جيبي.

قال لفتي: «كلا، خذه، إنه هدية، والواقع أننا لا نبيع هذه الأشياء أبداً. ولكن إذا كان هناك سعر، فإن الناس سيعتقدون أنهم أحرزوا صفقة طيبة، ومن ثم يكون ذلك دافعاً لهم على قراءته. انظر فيه إذا أتيح لك شيء من الوقت الهادىء غداً». وحشره داخل سترتي.

- والآن، هل أنت اشتراكي؟.

قلت: «أجل».

- «متأكد؟».

- «أجل».

- «فليكن. ولكن فلتعلم أننا لا نعرف ما يعنيه ذلك.. على كل حال، لا بأس. والآن، ما هي سمات الموقف الحالي التي تجعلك تشعر بأنه لا جدوى من المحاربة في سبيل الاشتراكية؟».

بدأت قائلاً: «ليس الأمر بالضبط أنني أشعر بأنه لا جدوى...».

قال لفتي: «أكمل، أكمل. ها نحن قد اعترفنا بالمرض، ألم نفعل ذلك؟ والآن، دعنا نتقدم صوب العلاج».

قلت: «فليكن. . الأمر هو هذا. الاشتراكية الانجليزية قيّمة تماماً، ولكنها ليست اشتراكية. إنها رأسمالية الرفاهية. فهي لا تمس اللغة الحقيقية التي أصابت الرأسمالية، وهي أن العمل مميت».

قال لفتي: «مرحى، مرحى. دعنا نأخذ المسألة الآن على مهل. ما هو أعمق شيء قاله ماركس؟».

بدأت أشعر بالضيق من هذا المنهج على طريقة السؤال والجواب، إذ كان يوجِّه كل سؤال وكأنما لا يوجد له سوى جواب واحد دقيق. كان ذلك أشبه بكتاب العبادة Catechism. فسألت: «ولماذا يكون شيء واحد هو الأعمق؟».

قال لفتي: «أنت على حق، فقد قال ماركس مجموعة كبيرة من الأشياء العميقة»، ولم يحاول التظاهر بأنه لم يلحظ ما أعانيه من ضيق. «وعلى سبيل المثال، قال إن الوعي لا يؤسس الوجود، وإنما الوجود الاجتماعي هو أساس الوعي».

قلت: «فلتعلم، أننا لم نعرف بعد ما يعنيه بهذا. . .».

قال لفتي: «أوه، بلى، نحن لا نعرف. كما أنه لا يعني ما يعتقده بعض الماركسيين من ذوي العقول ذات النزعة الآلية أنه يعنيه. فهو لا يقصد أن المجتمع ينمو آلياً والأيديولوجيات تلحق به. ما هو الشيء الحاسم في حقبة الثورة؟ لماذا، إنه الوعي. وما هي سمته الرئيسية؟ لماذا، ليست هي بالضبط أن يعكس الظروف الاجتماعية، بل أن ينعكس عليها، داخل حدود معينة، انتبه، داخل حدود معينة. ولهذا السبب كان المثقفون ذوي أهمية. والآن، ماذا تقول عن مستقبل جهاز مثل (NISP) حزب الاشتراكيين المستقلين الجدد؟».

ـ «أن يحصل على أصوات أكثر من أي حزب آخر، ويجعلك رئيساً للوزراء».

قال لفتي في لهجة المنتصر: «لا شيء من ذلك!».

فسألت: «إذن، ما هو مستقبله؟».

قال لفتي: «لا أدري».

وأحسست أنه مما يجافي العدل أن يطرح بغتة سؤالاً لا يدري الإجابة عليه.

وأردف قائلاً: «ولكن، هذا هو جوهر المسألة. الناس يتهموننا بأننا غير مسؤولين. ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون بالضبط دورنا. دورنا هو أن نستكشف الوعي الاشتراكي لانجلترا. أن نزيد من إحساسها بالمسؤولية. وسرعان ما تُفرض علينا أشكال اجتماعية جديدة بما فيه الكفاية. ولكن، لماذا نقعد منتظرين بحيث يكون أفضل ما يبقى على صحبتنا هو تلك الأفكار الاجتماعية المستمدة من الأفكار القديمة؟».

قلت: «انتظر لحظة. ماذا عن الناس في تلك الأثناء.. أعني الجماهير. الأفكار تطرأ لأفراد. كانت هذه دائماً هي مشكلة الجنس البشري».

قال لفتي: «لقد وضعت إصبعك عليها، ماذا ستقول عن الوحدة الشهيرة بين النظرية والتطبيق؟».

قلت: «بالتأكيد، لن أرغب لانجلترا في خير أعظم من أن تصبح الاشتراكية الانجليزية ملهمة، متجددة الشباب. ولكن ما فائدة نهضة عقلية لا تحرك الناس؟ النظرية والتطبيق لا يتحدان إلا في ظروف خاصة جداً».

قال لفتي: «متى، على سبيل المثال؟».

قلت: «حسن، مثلاً حين حارب الحزب البلشفي للاستيلاء على السلطة في روسيا».

قال لفتي: «آه.. لقد اخترت مثلاً سيئاً بالنسبة لحجتك. لماذا نتأثر كل هذا التأثر بالدرجة العالية جداً من الوعي التي بلغها أولئك الناس بما كانوا يسعون إليه؟ لأنهم نجحوا. فلو أنهم لم ينجحوا لبدوا أشبه بعصبة قليلة من الشواذ. نحن ننظر إلى المسألة كلها بأثر رجعي على أنها آلة فهموا تشغيلها فإنك لا تستطيع أن تحكم على وحدة النظرية والتطبيق على أساس لحظة بلحظة. ومبدأ انفصام وحدتهم مهم أيضاً. وعيبك هو أنك لا تؤمن حقاً بـ«الإمكانية الاشتراكية». لأنك من أصحاب النزعة الآلية mechanist. ولماذا أنت من أصحاب هذه النزعة؟ سأخبرك. أنت تسمّي نفسك اشتراكياً. ولكنك نشأت على شعار «بريطانيا تحكم البحار» كما نشأت بقيتهم. فأنت تريد أن تنتمي إلى استعراض ضخم a big show. وهذا هو سبب أسفك على أنك لا تستطيع أن تكون شيوعياً. ولكنك لا يمكن أن تكون كذلك ـ كما أنك لا تملك الخيال الكافي الذي يجعلك تنتزع نفسك من الشيء الآخر. ومن ثمّ تشعر بالقنوط. إن ما تحتاج إليه هو المرونة، المرونة!» وأشار إليّ لفتي بإصبع لين وطويل طولاً مفرطاً. وقال: «لعلنا أضعنا فرصة أن نكون زعماء أوروبا. غير أن المسألة هي أن نستحق هذه الزعامة. وعندئذٍ، ربما أتيحت لنا فرصة أخرى».

قلت: «وفي هذه الأثناء، ماذا عن الديالكتيك (الجدل)؟».

قال لفتي: «ها أنت تعود مرة أخرى.. إن ذلك أشبه بعين الحسود. أنت لا تؤمن بها حقاً، ولكنها تشل حركتك. وحتى أنصار الجدل يعلمون أن المستقبل عرضة لتكهنات أي شخص. وكل ما يستطيع المرء أن يفعله هو أن يفكر أولاً، ثم يفعل. هذه هي الوظيفة الإنسانية. حتى أوروبا نفسها لن تظل تتقدم إلى الأبد. لا شيء يتقدم إلى الأبد».

وكان «ديف» قد عاد إلى البار مرة أخرى.

قلت: «فيما عدا اليهود».

قال لفتي: «أجل، أنت على صواب، فيما عدا اليهود».
فنظرنا إليه نحن الاثنين.
قال ديف: «ماذا؟».
قالت ساقية البار: «حان الآن وقت الإغلاق.. أرجوكم».
فسألت لفتي: «إذن فأنت تعترف بأسرار معينة؟».
قال: «أجل، فأنا من أنصار المذهب التجريبي».
وقمنا بتسليم كؤوسنا.

وكان قد دخل في أحشائي الآن من الكحول ما يكفي لشعوري باليأس من احتمال الكف عن الشراب. كما بدأت أيضاً أميل شيئاً من الميل إلى «لفتي».

سألت: «ألا نستطيع أن نشتري زجاجة براندي من هنا؟».

قال: «أظن ذلك».

قلت: «حسن، ماذا لو اشترينا واحدة وواصلنا المناقشة في مكان آخر».

وتردد «لفتي» ثم قال: «فليكن، ولكننا سنحتاج إلى أكثر من زجاجة. من فضلك يا آنسة أربعة أنصاف زجاجة من هينسي».

وخرجنا إلى «شارع الملكة فيكتوريا». كانت الليلة ساخنة ساكنة إلى أقصى حد، تشعلها النجوم، ويغمرها القمر. ومَرَّ علينا عدد من السكارى المترنحين، فأخلوا لنا المشهد. وقفنا شاخصين إلى «كنيسة القديس بولس»، وفي جيب كل منا زجاجة من البراندي.

قال ديف: «إلى أين؟».

قال لفتي: «دعني أستجمع أفكاري. يجب أن أذهب إلى مكتب

البريد لأرسل بعض الخطابات.».

من الأشياء المميزة لوسط لندن أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تبتاعه هناك في أي ساعة من الليل أو النهار هو طابع البريد. وحتى لو أردت امرأة، فإنك لا تستطيع الحصول عليها بعد الساعة الثالثة والنصف صباحاً إلا إذا كنت على إحاطة كافية bien renseigné . فاتجهنا صوب مكتب البريد العام، وحين دلفنا إلى «شارع الملك إدوارد»، تناولت جرعة من زجاجتي. وعندما فعلت ذلك، تأكدت أنني سكران فعلاً بلا أدنى ريب.

كان مكتب البريد العام فسيحاً، متكهِّفاً، رصيناً، بيروقراطياً، معتماً. دخلنا في صخب، فعكرنا صفو التأمل الذي استغرق فيه قليل من الكتبة، وبعض الأشخاص الذين تجدهم دائماً هناك في الساعة المتأخرة يكتبون رسائل بغير توقيع، أو إخطارات بالانتحار. وبينما كان «لفتي» يبتاع الطوابع، ويبعث ببرقيات، قمت بتنظيم الغناء للنشيد الجماعي: «توم العظيم قد طُرد»، الذي استمر حتى طردنا أحد الموظفين من المكتب. إذ كنت لا أملك أبداً من حضور الذهن ما يكفي لإنهاء نشيد جماعي بدأ فعلاً. وفي الخارج، أخذنا ندرس صناديق البريد العجيبة، بأفواه فاغرة، حيث يستطيع المرء أن يراقب الخطاب المُنْطلق وهو يسقط ويسقط في بئر عميقة مظلمة حتى يرسو على صينية في حجرة مضيئة تقع بعيداً إلى أسفل. وكان أن افتتن كل منا ـ «فين» وأنا ـ بهذه العملية بحيث قررنا أن نكتب بعض الخطابات فوراً، فرجعنا إلى الداخل، وابتعنا بطاقتين بريديتين. وأخبرنا «ديف» بأنه قد تلقى رسائل أكثر مما يريد، ولم يعد ثمة ما يدعو إلى دعوة المزيد من المتراسلين. وقال «فين» إنه سيكتب إلى شخص ما في آيرلندا. أما أنا، فقد شرعت في الكتابة إلى «آنّا»، وأنا أضغط على البطاقة عمودياً على جدار مكتب البريد؛ غير أنني لم أجد ما أكتبه لها سوى: إنني أحبك، وكتبت هذه العبارة عدة مرات، وبخط

رديء. ثم أضفت: أنت جميلة، وختمت الخطاب، ثم وضعته في فتحة الصندوق، وتركته يمضي ويسقط، وهو يتقلب مرة بعد أخرى كورقة من أوراق الخريف.

قال لفتي: «هيا بنا!».

- «أين؟».

قال: «هنا»، وتقدمنا فجأة نازلاً إلى جانب حافة مكتب البريد. وفي شيء من الدُّوار أبصرت «لفتي» ينهض أمامي من الأرض. كان يقف على أعلى جدار مشيراً إليّ. والطريقة التي شعرت بها في تلك اللحظة هي أنني أستطيع أن أسير إلى جانب «كوين ماري». تبعته، وتبعه الآخرون. وبعد لحظة أخرى، ألفينا أنفسنا فيما يبدو أنه حديقة صغيرة مغلقة، ملتفة الأشجار. وفي عتمة الصيف الخفيفة، استطعت أن أتبين شجرة تين تنحني فوق بوابة حديدية. وكان العشب ينمو حتى يصل إلى الركبة بين أحجار بيضاء متهاوية. وجلسنا. ثم أدركت أننا كنا في صحن «كنيسة القديس ليونارد فوستر» St. Leonard Foster سابقاً. رقدت فوق الحشائش العميقة، وامتلأت عيناي بالنجوم.

وبعد فترة قصيرة، قال لي لفتي: «ما تحتاج إليه هو أن تكون ملتزماً. فعندما تنغمس في عمل شيء، وتحتك بالنسا، سوف تبدأ في كراهية القليل منهم. ولا شيء يدمِّر التجريد مثل الكراهية».

قلت متكاسلاً: «هذا حق.. فأنا لا أكره أحداً في الوقت الحاضر».

كنا نتحدث بصوت خفيض. وعلى مقربة منا، كان «فين» و «ديف» يتهامسان.

قال لفتي: «وعندئذٍ، لا بد من أن تخجل».

فسألته: «ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل حينذاك؟».

قال لفتي: «هذا ما ينبغي دراسته. ونحن نعامل أعضاءنا معاملة علمية. ونضع هذا السؤال عند كل شخص: أين تقع نقطة التقاطع بين احتياجاته واحتياجاتنا؟ ما هو أحب شيء يستطيع أن يفعله ويكون في الوقت نفسه أنفع شيء لنا؟ وبالطبع، نتحرى عن أمور كثيرة معينة تدخل في روتين العمل البسيط أيضاً».

قلت: «طبعاً». وكنت أراقب النجم أوريون Orion صاعداً خلال غابة من الأعشاب.

قال لفتي: «بالنسبة لحالتك.. من حسن الحظ أن ما تستطيع أن تفعله واضح كل الوضوح».

- «ماذا؟».

قال لفتي: «كتابة المسرحيات».

قلت: «لا أستطيع. ألا تنفع الروايات؟».

قال: «كلا.. من ذا الذي يقرأ الروايات الآن؟ ألم تحاول كتابة مسرحية؟».

- «كلا».

- «إذن، كلما أسرعت، كان ذلك أفضل.. هادفة إلى الحي الغربي «الوست إند» West End بالطبع».

قلت له: «ليس من اليسير أن تحصل على مسرحية تدور حوادثها في الحي الغربي».

قال لفتي: «ألا تعتقد ذلك! إنها ليست أكثر من القيام ببعض تنازلات روتينية للذوق الشعبي. وتستطيع قبل أن تبدأ أن تقوم بتحليل علمي لقليل من النجاحات الأخيرة. وآفتك هي أنك لا تحب العمل الشاق. ضع لها

الإطار الصحيح، ثم املأها بعد ذلك بأية رسالة تعجبك. ومن الأفضل أن تأتي إليّ لمناقشة هذا الموضوع في وقت ما من الأسبوع التالي. والآن، متى تستطيع أن تأتي؟».

وأخرج «لفتي» مفكرته، وبدأ يقلب صفحاتها المغطاة بالعلامات. وحاولت أن أفكر في سبب يجعل هذا الأمر مستحيلاً، فلم أجد سبباً واحداً. وكان «أوريون» يضع قدمه في عيني.

قلت له: «الثلاثاء، الأربعاء، الخميس.. ولكني لا أعد بشيء».

قال لفتي: «أيامي كلها مشغولة.. ولكن ماذا عن الجمعة حوالي الساعة الثالثة والربع؟ سأكون حراً حتى الرابعة، وإذا حالفني الحظ استطعت أن أزيد قليلاً. تعال إلى مكتب «الاشتراكي المستقل»».

قلت: «اتفقنا، اتفقنا». وكنت أستطيع أن ألمح امتقاع وجه «لفتي» ملتفتاً إلى ناحيتي.

قال لي: «والآن، تستطيع أن تخبرني. ماذا كنت تفعل في تلك الأنحاء؟».

تأثرت بهذا السؤال، لأنه كان أول علامة مباشرة أتبين منها أن «لفتي» كان بشراً، هذا من جهة، ولأنها ذكّرتني بهوجو من جهة أخرى، وكان قد غاب عن ذهني ـ دون توقع مني ـ خلال الساعات القلائل الأخيرة. جررت نفسي لاتخاذ وضع الجلوس. وكنت أشعر برأسي وكأنه فوق لولب وهناك شخص ما يحاول انتزاعه، فقبضت عليه بعنف بين كلتا يديّ.

قلت له: «كنت أبحث عن بلفاوندر».

قلت لفتي: «هوجو بلفاوندر؟» وكان في صوته نبرة اهتمام.

فسألته: «أجل، أتعرفه؟».

قال لفتي: «أنا أعرف من تقصده».

نظرت إليه، غير أن عينيه الواسعتين كانتا تطلان وحدهما كبقعتين سوداوين في شحوب وجهه، فسألت: «هل رأيته هذا المساء؟».

قال لفتي: «إنه لم يذهب إلى السكينرز The Skinners ».

كنت أريد أن أوجه إلى «لفتي» مزيداً من الأسئلة؛ تُرى كيف ينظر إلى «هوجو»؟ على أنه رأسمالي؟ غير أن رأسي كان محور اهتمامي في الوقت الحاضر.

كان الوقت متأخراً، ولا بد أنه كان بعد الساعة الثانية، عندما أعرب «فين» عن رغبته في السباحة. وكان «لفتي» يتحدث إلى «ديف»، أما أنا فكنت في حالة الانقلاب الثاني لمزاجي. كان الليل دافئاً ساكناً لا تشوبه شائبة. فما ان اقترح «فين» هذه الفكرة حتى بدت لنا جميعاً ـ فيما عدا ديف ـ فكرة لا تُقَاوم. وناقشنا المكان الذي نذهب إليه. كان «حمام السربنتاين» Serpentine بعيداً جداً، وكذلك كان «حمام متنزه ريجنت» Regent's Park ، ومنطقة «تنزه القديس جيمس» St. James Park غاصة برجال الشرطة. وكان الشيء الجليّ هو أن نسبح في نهر التيمس Thames .

قال ديف: «سيجتاحكم المد».

وقال فين: «لن يفعل ذلك حين نسبح بعد انحساره». وكانت هذه فكرة ألمعية. ولكن متى يكون انحساره؟.

قال لفتي: «ستخبرنا بذلك مفكرتي». تحلقنا حوله أثناء إشعاله عوداً من الثقاب. كان المد العالي عند جسر لندن يحين في الساعة الثانية وثمانٍ وخمسين دقيقة. وهذا شيء رائع. وفي اللحظة التالية كنا نتسلق الجدار.

قال لفتي: «انتبهوا لرجال الشرطة.. فربما ظنوا أننا نقوم بسرقة مخزن

للسلم. فإن لمحتم أحداً منهم، تظاهروا بأنكم سكارى».

وكانت هذه نصيحة سطحية إلى حد ما.

وعبر فضاء فسيح يسبح في ضوء القمر، مَشْينا فيما كان يعرف بـ «فايفوت لين» Fyefoot lane ، وهناك توجد لوحات إخطار كثيرة حزينة تنبىء الناس بأطلال المدينة حيث كانت تقوم ذات يوم الكنائس والدور العامة. وإلى جانب برج «كنيسة القديس نيقولا»، عبرنا متجهين إلى شارع التيمس الأعلى Upper Thames . ما من صوت؛ أو جرس، أو وقع أقدام. وخفّفْنا الوطء. وانعطفنا خارجين من ضوء القمر لندخل في متاهة مظلمة من الأزقة والمستودعات القديمة التي تكدست فيها أشياء لا سبيل إلى تمييزها. وقصاصات من الصحف تلطخ الشوارع، وقد ألصقها الليل الساكن بالأرض. وكانت مصابيح الشارع النادرة تكشف عن جدران من الطوب الأحمر ممتلئة بالفجوات والثقوب، وتلقي ظلاً لهرة عابرة. وأخيراً انتهى شارع عميق مظلم كالبئر إلى حاجز صخري للمياه، وعلى الجانب الآخر، سطع القمر مرة أخرى عند قدم درجات قلائل، فتناثرت أشعته شظايا على النهر. ارتقينا درجات السلم، ووقفنا برهة صامتين، والماء يلعق أقدامنا.

وعلى الجانبين تناثرت جدران المخازن، تعترض رؤيتنا، وتحمي الخليج الصغير حيث كان النهر يصل إلينا محمّلاً بالزّبد وقطع الأخشاب الطافية، ممتلئاً إلى درجة الفيضان في قلب لندن. وكانت تنبعث رائحة أشبه برائحة الخضروات العفنة. وأخذ «فين» يخلع حذاءه. وما من إنسان واجه نهر «الليفي» liffey ، يمكن أن يتقزز بعد ذلك من أقذار نهر آخر.

قال لفتي: «حذار.. انزل درجات السلّم بانتباه، حتى لا يرانا أحد من الشارع. ولا تتحدث بصوت مرتفع، ولا تغطس. فربما كان حولنا أحد رجال شرطة النهر». ونزع هو الآخر قميصه.

نظرت إلى «ديف» وسألته: «هل تنوي النزول؟».

قال: «بالطبع لا! وأعتقد أنكم جميعاً مجانين». وجلس موليًا ظهره لحاجز المياه.

كان قلبي يدق بعنف. وبدأت في خلع ملابسي أنا أيضاً. وكان «فين» يقف شاحباً عارياً وقد غمس قدميه في الماء. وكان ينحي جانباً بقدمه نفايات النهر، ويهبط درجات السلم متمهلاً، حتى بلغت المياه ركبتيه، ثم ردفيه، وسرعان ما ألقى بنفسه في الماء، على حين أخذت الأخشاب حين ارتدت الأمواج ترتطم بالصخرة.

قال لفتي: «يا لها من ضجة جهنمية تلك التي يحدثها!».

كانت معدتي باردة، وتمشت في جسدي قشعريرة. ونزعت آخر قطعة من ثيابي. على حين كان «لفتي» قد تجرد تماماً من ملابسه.

قال: «الزموا الهدوء.. فأنا لا أريد أن يقبض عليّ من أجل هذا!».

تبادلنا النظرات، وابتسمنا في الظلام. فاستدار صوب النهر وبدأ يهبط مرتبكاً إلى الماء، وجسمه يتصاغر في المياه السوداء. ولمس هواء الليل جسدي لمسةً لم تكن دافئة، ولم تكن باردة، بل ناعمة وغير متوقعة. واهتاج دمي تحت جلدي بإيقاع عصبيّ. ثم شرع «لفتي» يتبع «فين» دون أن يحدث صوتاً. وطوقت المياه كاحليّ بقبضة باردة. وكلما نزلت، استطعت أن أرى «ديف» بطرف عيني، جاثماً فوقي كالنُّصب التذكاري. ولم تلبث المياه أن بلغت عنقي، فمرقت كالسهم في النهر العريض.

كانت السماء رحبة فوق رأسي كالراية المنشورة، زاخرة بالنجوم، بيضاء بالقمر. وكانت أغطية الزوارق البخارية تضفي السواد على المياه من خلفي، والأبراج المعتمة والقباب تنتصب في غير وضوح على الشاطىء الآخر. وسبحتُ جيداً في النهر، وكان يبدو عريضاً بصورة

هائلة. وكلما صَعَّدتُ بصري وخفضته في النهر، أبصرت على أحد جانبيه البحيرات المظلمة القابعة تحت «جسر بلاكفرايرْز» Blackfriars ، وعلى الجانب الآخر أعمدة «جسر سـوثوارك» Southwark تلمع تحت القمر. كانت مساحة المياه الممتدة تسبح كلها في الضوء، وكأنما يعوم المرء في سائل الزئبق. ونظرت باحثاً عن «فين» و«لفتي»، وسرعان ما رأيت راسيهما يهتزان غير بعيد. وأقبلا نحوي، فأخذنا نستحم معاً فترة من الزمن. وكنا قد أدركنا المَد على نحو جميل بعد انحساره، فلم يكن هناك أدنى أثر لتيّار.

كنت ـ بكل سهولة ـ أفضل سباح في الثلاثة، فقد كان «فين» يسبح بقوة، ولكن بلا رشاقة، مبدِّداً قوته في حركات لا داعي لها، ومتقلباً بكثرة من جانب إلى آخر. أما «لفتي» فكان يسبح بانتظام ولكن بلا قوة. وتوقعت أن يصيبه الكلل بسرعة. وكنت أسبح على نحو ممتاز، مُسْلِماً نفسي للماء، بطريقة الزحف (كرول) دون أن أبذل مجهوداً يذكر، ولهذا يمكن أن أستمر وقتاً غير محدد. فللسباحة صلات طبيعية مع الجودو، إذ يعتمد كلا الفنيـن على استعداد المرء للخضوع لارتباط عصبي صارم بالوضع المستقيم، وكلاهما يدفع العضلات جميعاً إلى المشاركة من خلال الجسد كله، وكلاهما يتطلب إلى جانب مشاركة مساحة واسعة استثنائية من النشاط الجسدي، استبعاد الحركة الطائشة التي لا لزوم لها. وكلاهما يشبه دينامية المياه التي تجري في قنوات عديدة لتصل إلى مستواها الخاص. والواقع أن المرء إذا استطاع التحكم في جسده والتغلب على الخوف البدائي من السقوط، وهو خوف عميق جداً في الشعور الإنساني ـ استطاع على كل حال أن يمارس كثيراً من الفنون الجسمانية والرشاقات أو على الأقل كان إتقانه لها أيسر. فأنا ـ على سبيل المثال ـ راقص جيد ولاعب تنس جدير بالثقة. ولو كان من الممكن لأي

شيء أن يعزّيني عن افتقاري إلى الطول، لكانت هذه الأشياء مصدر عزائي.

والآن، عاد الاثنان إلى درجات السلم. أما أنا فسبحت إلى أحد الزوارق البخارية، وتشبثت بسلسلته برهة، ملقياً برأسي إلى الوراء لأتأمل بانوراما من السماء الزرقاء الداكنة، والمياه السوداء والفضية، مثبّتاً جسدي حتى تخلل السكون نفسي في اندفاعة. ثم تسلقت السلسلة حتى أصبحت متحرراً من الماء، والتصقت بها كأنني دودة بيضاء، ثم تخليت عن التحكم في قدميّ، وزحفت إلى أسفل واضعاً إحدى يدي فوق الأخرى، وأنزلت نفسي بلا ضجة في النهر مرة ثانية. وما ان لامَسَتْ رجلاي سطح الماء، حتى أحسست بسَحْبٍ رفيق مستمر. كان المد قد عاد مرة ثانية، فاتجهت صوب درجات السلم.

كان «فين» و «لفتي» يرتديان ملابسهما في حالة من الجَذَل المعتدل. فانضممت إليهما. تحررنا من التوتر، وفرغنا من أداء طَقْسٍ من الطقوس. يطيب لنا الآن أن نصيح ونتعارك، غير أن ضرورة السكون حوّلت طاقتنا إلى ضحك. وعندما ارتديت ثيابي، أحسست بالدفء، وبشيء من الاتزان، وبجوع ضار. فتشت جيوب معطفي فوجدت رقائق البسكويت وشطائر كبد الدجاج التي أخذتها من سادي. فتلقيا مني هذه الأسلاب بتهليل صاخب. جلسنا على درجات السلم التي طالت الآن بعد انسحاب المد، وبعد أن أُودع عند أقدامنا الأقفاص المهشمة وعلب الصفيح، ونفايات متنوعة من الخضروات. وفتحت علب الشطائر بسكين أحمله، وقمت بتوزيع البسكويت. وكانت هناك بقية من البراندي في زجاجات غير زجاجتي؛ غير أن «ديف» قال إنه اكتفى بما شرب، وتنازل عن حقوقه لي. وأعلن «لفتي» انه لا بد له من الانصراف فوراً، حيث ان الحزب كان ينتقل هذا الصباح إلى مكتب «فرع جديد». ومنح بقية

زجاجته لفين، الذي لم يرفضها. أكلنا أكلتنا في مرح، ونحن نمرر العلب من يَدٍ إلى أخرى. وكان البراندي يتزل من حلقي مثل نار إلهية، فيجعل دمائي تتسابق بسرعة الضوء.

أما ما حدث بعد ذلك، فلست على يقين منه تماماً. ذلك أن ما تبقى من تلك الليلة كان يلوح على هيئة بقع من خلال الضباب الذي خيَّم عليها في ذاكرتي، انصرف «لفتي» بعد أن تعاهدنا على صداقة أبدية، وبعد أن نذرت نفسي لقضية الارتياد الإشتراكي. وتبادلت مع «ديف» حديثاً عاطفياً مسهباً عن موضوع أو آخر، لعله كان أوروبا. أما «فين» فكان أشد سُكْراً مني، ومن ثمّ فقد ضل طريقه، إذ تركناه في مكان ما، واضعاً قدميه في الماء. وأخبرنا «ديف» بعد فترة متأخرة أنه يظن أن رأس «فين» هو الذي كان في الماء، وليست قدماه، وهكذا رجعنا على أعقابنا بحثاً عنه، ولكننا لم نعثر له على أثر. وبينما كنا نسير في تلك الشوارع الخالية تحت سماء شاحبة، أخذ يرن في أذنيّ صوتٌ غريب، لعله كان أصوات الأجراس المتلاشية التي انبعثت ذات يوم من كنائس القديسة ماري والقديس ليونارد والقديس فيداست والقديسة آن والقديس نيقولا والقديس يوحنا زاخاري. وكان النهار القادم قد ألقى ذراعاً طويلة في الليل. وبسرعة مذهلة أقبل ضوء النهار كضبابة منتشرة، وبينما كنا نعبر كنيسة القديس أندرو- باي - ذي وورد روب St. Andrew - by - the Wardrobe ، وحينما كدت أُفرغ ما تبقى من البراندي، كان الأفق - بالفعل - مشوباً بخضرة زاهية.

الفصل التاسع

الشيء التالي الذي أتذكره هو أننا كنا في «سوق كوفنت جاردن» نحتسي القهوة. فهناك كُشك للقهوة يُفْتح في الصباح المبكر لخدمة البوّابين، ولكن يبدو أننا كنا زبائنه الوحيدين. وكان النهار قد تقدم الآن، وأظنه كان كذلك منذ فترة. وكنا نقف في ذلك الجزء من السوق المخصص للزهور. ولما نظرت حولي وشاهدتُ زهوراً لا حصر لعددها، تذكرت على الفور «آنّا». وقررت أن أحمل إليها بعض الزهور هذا الصباح بالذات، وأخبرت «ديف» بما اعتزمته. فتجولنا في شارع حافل بصناديق الزهور. وكان الناس من القلة والزهور من الكثرة بحيث كان يبدو أن الشيء الطبيعي الوحيد هو أن نخدم أنفسنا. فعبرت بين جدران من الزهور ذات السيقان الطويلة ما زالت مبتلّة بندى الليل، وجمعت منها زهوراً بيضاء وحمراء وصفراء برتقالية. وفي منعطف أحد الأركان، التقيت بـ «ديـف» مُحَمَّلاً بزهور بيض من عود الصليب وقد اختلطت رؤوسها المتفتحة باللون الأحمر. ووضعنا الزهور معاً بين ذراعينا. ولما لم يكن ثمة سبب يدعونا إلى الوقوف هناك، فقد نقّبْنا في صناديق خشبية ممتلئة بزهور البنفسج وشقائق النعمان، وحشونا جيوبنا بزهور الثالوث، حتّى ابتلّت أكمامنا، وأوشكنا على الاختناق بحبوب اللقاح. ثم خرجنا من «السوق» محتضنين باقاتنا، وجلسنا على عتبة باب في شارع «لونج

آكر» Long Acre .

كان رأسي يدق بعنف، وكنت أبعد ما أكون عن الاتزان. وسمعت «ديف» يقول، وكأنني في حلم: «يا إله السموات، لقد نسيت. إن معي خطاباً لك وصل منذ يومين، وما زلت أحمله في جيبي منذ وقت طويل». وقذف به نحوي، فأخذته متكاسلاً، ثم رأيت أن الخط المكتوب عليه هو خط «آنا».

فتحت المظروف، وكانت أصابعي ترتجف خوفاً وارتباكاً. أخذت الحروف تتراقص وتتواثب أمام عينيّ. وعندما استقرت في نهاية المطاف، قرأت هذه الرسالة المقتضبة: «أريد أن أراك حالاً.. أرجوك تعال إلى المسرح». وضعت راسي بين يديّ، وبدأت أتأوه.

سألني ديف: «ما الخبر؟».

فزمجرت قائلاً له: «أحضر لي سيارة أجرة».

قال ديف: «إن شعوري لا يقلّ سوءاً عن شعورك. أطلب أنت سيارتك اللعينة».

وهكذا قمت ومضيت في طريقي، حاملاً الزهور، وتاركاً «ديف» على عتبة الباب مستنداً إلى الباب مغمض العينين.

وجدت سيارة أجرة في «شارع ستراند»، وطلبت من السائق أن يقلّني إلى «شارع هامرسميث» Hammersmith . وكان قلبي يدق على إيقاع هذه العبارة: «فات الأوان». جلست مشرئباً إلى الأمام طيلة الطريق، وكانت سيقان الزهور تتحطم بين يديّ. ووصلنا تقريباً قبل أن أفطن إلى عمق تطويقي للزهور. ومسحت الدماء بكُمّ قميصي الذي كان لا يزال موحلاً من ليلتي البارحة. غادرت سيارة الأجرة عند «هامرسميث» تاون هول»، وسرت متجهاً صوب النهر. ألفيت نفسي أترنح بين الجدران أثناء

سيري، وفي قلبي استقر ألم كاد يوقف تنفسي. وهناك، كان المسرح؛ غير أن شيئاً غريباً كان يجري هناك.. باب المسرح مفتوح.. أسرعت الخطى، عربتا نقل أو ثلاث تقف في الخارج.. قفزت إلى القاعة، وحين فعلت ذلك، أرسلت قدماي رنيناً على أرضية لا تغطيها سجادة. طرت فوق درجات السلم، وأنا لا أكاد ألمس الألواح، قذفت بنفسي داخل حجرة «آنا».

كانت الحجرة خاوية على عروشها. واستغرقت لحظة قبل أن أتأكد من أن هذه حجرتها حقاً. الفوضى المتعددة الألوان ذهبت كلها، ولم يتبقَّ منها ترترة، أو خيط حريري، جرِّدت الحجرة تماماً ومُسِحت. والنوافذ مفتوحة على النهر على مصراعيها.. وفي ركن بعيد، لم يكن هناك سوى منضدتين صغيرتين تقومان على حوامل، وعليهما كومة من الورق. وقفت هناك مشدوهاً إلى درجة المرض. ثم خطوت عائداً إلى البسطة. كان من الواضح أن هذا التحول قد ترك تأثيره على الدار كلها.. إذ كانت تهمهم وتقرقع وتتردد الأصداء في جنباتها. وكنت أسمع أصواتاً في عديد من الحجرات، وأحذية ثقيلة تخبط على ألواح عارية، والأبواب تصطفق؛ ومن خلال كل نافذة، كانت تتسلل إلى الداخل جلبة الصباح الصيفي الحافلة بالعمل. ثمة أيادٍ عنيفة عبثت بمحتويات المنزل. لقد نُهبت. وبدافع مباغت، اقتربت من باب قاعة المتفرجين. هززت الباب، ولكنه ظل موصداً. وأياً كان السر الذي ضمَّه قلب هذا المبنى الغريب، فهنا يستطيع ـ على الأقل ـ أن يكتمه لفترة أطول.

وأخذت فتاة بشوشة الوجه ترتدي بنطلوناً من الجينز الأزرق ترتقي درجات السلم وهي تصفِّر. وحين لمحتني واقفاً هناك قالت: «أوه، هل أتيت من أجل شراء الأشكال بالقطّاعي؟».

حملقت فيها كالمخبول، وبعد برهة قالت: «آسفة، حسبتك الرجل

الذي أرسلته جماعة بادنجتون».

قلت: «كنت أبحث عن أحد أعضاء المسرح».

قالت الفتاة: «أوه، أخشى أن يكونوا قد رحلوا جميعاً». ودخلت حجرة «آنا».

كنت لا أزال واقفاً هناك، ممسكاً بأعمدة الدرابزين بيد، وباقة الزهور باليد الأخرى، حين مر بي رجلان يرتديان ثياباً قطنية مخملية الزغب ويحملان لوحاً خشبياً كبيراً، وعلى اللوح رُسمت بالطلاء هذه الحروف NISP . (حزب الاشتراكيين المستقلين الجدد).

ألفيت نفسي خارج المسرح، في الشارع. وانضمت سيارتان للنقل إلى السيارات الموجودة. شرعت في المسير بمحاذاة الطريق الموازي للنهر. وعندما كنت في مستوى سيارة النقل الأخيرة، استرعى انتباهي شيء ما داخل إحدى السيارات التي كانت موجودة حين وصلت. توقفت واقتربت منها. وهنا غمرني انفعال غريب. كانت سيارة النقل تحمل محتويات حجرة «آنا». وفي داخل هذا الصندوق الضخم الذي لا يمسكه سوى الباب الخلفي العلوي للسيارة، تكومت بلا ترتيب أو نظام جميع الكنوز التي تذكرتها. ألقيت نظرة خاطفة حولي.. لم يكن هناك مَنْ يراقب. وفي لحظة تسلقت فوق الباب الخلفي وتسللت بالزهور وبكل شيء وسط سيل منهمر من البتلات المتساقطة في كتلة ليِّنة من اللعب والمنسوجات. تلفتُّ حواليّ، فوجدت أصدقائي القدامى جميعاً هناك: الحصان الهزاز، والثعبان المحنَّط، ورقائق الرعد، والأقنعة. ونظرت إليها جميعاً، وملأني الحزن. وحين سطع عليها ضوء الشمس القاسي، بدت في حالة من الفوضى القذرة المحطَّمة.. وذلك النظام الغامض الذي كان سائداً على ما فيها من اضطراب في حجرة المسرح، والذي كان يتدفق رفيقاً طبيعياً من حضور «آنا» بينها. انسحب الآن منها، ورقد

كل منها الآن إلى جوار الآخر أو فوقه عشوائياً، وذهب عنها ما كان فيها من سحر.

وبينما كنت أتأملها، ارتجت السيارة بغتة، وشرعت في المسير. واندفعتُ إلى الأمام، فاصطدم خدي بشيء صلب، على حين دفنني تقريباً في جوف السيارة شلال من أشياء متباينة. رقدت بلا حراك في مكاني برهة من الزمن، وقد التصق وجهي بأحد الأقنعة التي تنظر إليّ شزراً. على حين انغرست فوهة بوق من الصفيح في ظهري. وحينئذٍ، حررت نفسي من هذا الوضع رويداً رويداً. وكانت سيارة النقل تسير في «شارع الملك» King Street . وسألت نفسي: هل هناك أية إمكانية، إذا بقيت فيها، أن تحملني إلى «آنّا». غير أنني بعد إمعان الفكر أيقنت تماماً أنها لن تفعل ذلك. كان الغالب على هذه الأشياء هو طابع الأشياء المهجورة، والأرجح أنها محمولة إلى مخزن أحد تجار المزادات. وبدأت التقط بعضها متمهلاً حزيناً، متعرفاً على كل واحد منها، وباعثاً له بتحيتي، وفي أثناء ذلك هشّمتُ الزهور أيضاً، ونشرت بتلات الزهور وأعواد الصليب على الركام المُبَهْرج، يغمرني إحساسُ مَنْ ينثر زهوراً على قبر مغامرة غريبة.

انحنيت لأخلّص قدمي من عُقْد زجاجي، وحينئذٍ استرعى بصري شيءٌ فوق عنق الحصان الهزاز، الذي كان يرقد على جنبه شبه غارق في الركام. كان هناك ظرف خطاب مربوط في اللجام. وفي لهفة مُجْفلة أمعنت النظر عن كثب، فرأيت حرف J (ج) مسطوراً على الظرف.. انتزعته من مكانه وفتحته بسرعة لاهث الأنفاس، ونشرت الورقة المطوية بداخله، وقرأت: «آسفة لأنني لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك. قُدِّم إليّ عرض شعرت - رغم أنه لا يعجبني - بأنني لا بد من أن أقبله. آنّا» نظرت إلى هذا كله مبهوتاً، وانتقل عبء من التعاسة أخذ يطحن قلبي. ماذا

يعني هذا؟ أوه، لماذا لم أصل قبل ذلك! ما هو هذا العرض؟ لعل «هوجو»... حررت قدميّ من الاشتباكات التي عَلِقت بهما، مبعثراً سيلاً حاداً من الخرز الزجاجي الذي طرقع حولي، ثم غاص أخيراً في جحور الجبل المتأرجح وجيوبه. وبين القصاصات الحريرية نهضت على ركبتي، وشققت طريقي صوب اللوح الخلفي.. وكنا في هذه اللحظة نجتاز «آلبرت هول» Albert Hall .

ألقيت نظرة أخيرة متمهِّلة على حاجيات «آنا». فلمحت الأكليل الموشّى بالذهب الذي توَّجْتُها به ملكةً على مملكتها الصامتة المزدانة بالألوان. وكان نصفه مختفياً تحت وشاح مخطط. دسست يدي في حلقة الأكليل، وسحبتها إلى أعلى ذراعي، ثم تأهبت للوثوب. كانت سيارة النقل تبطىء من سرعتها أمام أنوار المرور عند «جسر الفارس» Kinghts bridge . وعندما نهضت على قدمي في غير اتزان، شاهدت «لوحة الرعد» تتأرجح مضطربة، وقد اندس أحد أركانها عميقاً في الكتلة. وصلت إليها، وهززتها بكل ما في وسعي من قوة. ثم قفزت. وفيما كانت سيارة النقل تعود إلى سرعتها، وتنعطف في «طريق برومتون» Brompton Road ، كان الصوت الغريب تتردد أصداؤه في مفارق الطرق، بحيث جعل كل عابر سبيل، يقف ويحملق، وينصت. ودخلت «هايد بارك» Hyde Park وما برح رنينه يطن في أذنيّ، ثم ارتميت على الحشائش، وفي الحال تقريباً غشيني النعاس.

الفصل العاشر

استيقظت بعد زمن خُيِّل إلي أنه أيام طوال، فوجدت الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة والنصف في واقع الأمر. وانقضى بعض الوقت قبل أن أتذكر لماذا أشعر بأنني تَعِس كل هذه التعاسة، وركّزت بصري على التاج المُوَشّى بالذهب عدة دقائق، وكنتُ أتسبث به في يدي أثناء نومي، ولكنني لم أكن قادراً على تذكر ماهيته أو كيف توصلت إلى الإمساك به. وعندما ثابت إليّ الأحداث المؤسفة التي وقعت في الماضي القريب، أخذت أسائل نفسي عما ينبغي أن أفعله بعد ذلك. وبدا أول ما يجب أفعله هو أن أذهب إلى صيدلية لأتناول شيئاً أخفِّف به من صداعي. وقد فعلت. ثم أطفأت ظمئي العنيف عند إحدى نافورات المياه. وإطفاء الظمأ متعة رائعة بحيث يأسف المرء أسفاً شديداً لأنه لا يستطيع أن يحتال على إطالتها والاستمرار في الشعور بها. وجلست بعد ذلك على «دكة» في «ركن هايد بارك» وأنا أفرك رأسي، في محاولة لوضع خطة.

تبينت الآن في وضوح تام أن نمط حياتي السابق قد ولّى إلى الأبد. وكان من الممكن أن استشف لمحةً من الأقدار. أما عن النمط الجديد الذي سوف ينبثق في الوقت المناسب، فلم يكن في وسعي التنبؤ به. وفي هذه الأثناء، كانت هناك مشاكل معينة لن يهدأ لي بال - بكل تأكد - إن لم أحاول - على الأقل - حلّها. وراودني بين حين وآخر شعور بأن

أتوجه مرة أخرى إلى «جسر هولبورن». ولكنني بعد أن تروّيت في الأمر، قررت أنه من الأفضل أن استجمع شتات ذهني قليلاً قبل أن أحاول مواجهة «هوجو». فما زلت أشعر شعوراً قوياً بالغرابة. وعلى كل حال، لم يكن من المحتمل أن يبقى «هوجو» في المنزل أثناء النهار. وهذه الحجة تسري أيضاً على محاولتي للعثور عليه في الأستديو. من الخير إذن أن أقضي النهار في هدوء، وربما في النوم بعد الظهر، ثم أبدأ مرة أخرى في البحث عن «هوجو». وكنت أوثر كثيراً أن أبحث عن «آنا». غير أنه لم يكن لدي الآن أية فكرة عن المكان الذي أبدأ منه البحث. وكنت أريد أيضاً أن أخمد بسرعة ذلك الشك الرهيب الذي ساورني بأنني حيث أجد «هوجو» الآن، سأجد أيضاً «آنا». هذه الفكرة لم أكن أحتمل التفكير فيها، ومن ثم فقد طردتها تماماً من فكري.

وكان أن شرعت بعد ذلك في تأمل دراما الأيام القلائل الأخيرة تأملاً عميقاً، وفيما أنا مستغرق في هذا التأمل تذكرت في شيء من الضيق أنني في ارتباكي أثناء مغادرتي لشقة سادي، لم أتمكن من اصطحاب نسخة من كتابي «المُسْكِت» The Silencer التي قررت مصادرتها لاستعمالي الخاص. وكلما أمعنت الفكر في هذه المسألة، اشتد انزعاجي. وتبقّى لي أن أعرف هل سأكون قادراً بعد ذلك أبداً على استئناف الحديث مع هوجو؛ ولكن كان يبدو لي على كل حال أن الوقت قد حان لإعادة تقييم الحوار وتقرير ما إذا كان يحتوي على شيء مناسب لإنقاذ الموقف. وأحسست أن المرء لا يمكن أن يكون مسرفاً في ماضيه كل هذا الإسراف. وما زال الإنسان الذي كتب هذا العمل الغريب حيًّا بين جنبيّ، ومن الممكن أن يكتب أشياءً أخرى. وكان من الواضح أن «المسكت» كان جزءاً من عمل لم يكتمل.

أين أستطيع الحصول على نسخة؟ لم يكن من المجدي أن أحاول

ذلك في المكتبات ودور الكتب. وخير وسيلة هي أن أعود إلى شقة «سادي»، فأجد النسخة هناك. ولم أكن أريد أن ألتقي بسادي مرة أخرى. ولكن، من غير المحتمل كثيراً أن تكون في المنزل. أما من حيث دخولي إلى الشقة، فأستطيع أن أدخلها كما دخلها «فين». وعندما قلبت هذه الفكرة على وجوهها، بدت لي خطة رائعة. فسوف أقدم على شيء مُهم ممتع في آن واحد، يشغلني عن التفكير في «آنا» و «هوجو» معاً. وعندما استقر عزمي على ذلك تماماً، أخذت الحافلة رقم ثلاثة وسبعين قاصداً «شارع أكسفورد»، وهناك أودعت تاج «آنا» في «مكتب المتاع المتروك» عند «سيرك أكسفورد»، ثم احتسيت قدراً كبيراً من القهوة السوداء، وابتعت دستة من دبابيس الشعر من «وولورتز» Woolworths .

وأنا من الأشخاص الذين يؤثرون السير عشرين دقيقة على الانتظار خمس دقائق في موقف الحافلات. وحين يساورني القلق على شيء، يتحول السكون والانتظار عندي إلى عذاب. ولكن عندما أكون بسبيل تنفيذ خطة عملية، حتى وإن تكن ميؤوساً منها ـ فإنني أشعر بالرضا، وأغضّ طرفي عما سواها. وهكذا، حين حثثت خطاي الآن في «شارع ولبك» Welbeck ، شعرت بأنني أعمل عملاً نافعاً، ومع أن قلبي كان يدق بشدة كما يدق رأسي ـ إلا أنني لم أكن في حالة اهتياج. انعطفت عند نهاية الشارع، انحدرت إلى الممشى الخلفي، وتعرفت في يسر على منفذ النجاة من الحريق في شقة «سادي». وارتقيت السلم، باحثاً عن دبابيس الشعر. وتمنيت أن يكون الأمر يسيراً.

وما ان تقدمت من باب الشقة، حتى تناهت إليّ أصوات، كانت صادرة ـ بلا شك ـ عن المطبخ. كانت هذه خيبة أمل لم أتوقعها. فوقفت متردداً. وخطر لي أن المتحدثيْن يمكن أن يكونا الخادمة وصديقها، وأنهما قد يقتنعان فيسمحان لي بالدخول. تقدمت خطوة أو خطوتين وخيِّل

إليّ أنني سمعت نبرات من صوت سادي ـ وهممت بالانصراف، حين سمعت شخصاً ينطق باسم «هوجو». وهنا أنبأني هاتف بأن هذا الحديث يتعلق بي. وظننت أنه لا ضير في أن أستمع إلى المزيد. وهكذا واصلت الصعود حتى كـان رأسي ـ وأنا أقف منتصباً على بُعْد خطوات قلائل من بسطة شقة سادي ـ منخفضاً قليلاً عن مستوى الزجاج المضفر للباب. وانبعث من الداخل ضحك رجل وامرأة. ثم سمعت صوت «سادي» يقول: «هؤلاء الذين لا يحرصون على المراسلة أشبه بالشمع في أيدي من يحرصون عليها!». وصدر عنهما مزيد من الضحك، ثم صوت أشبه بصليل الثلج في الكؤوس. ثم أجاب الصوت الرجولي. غير أنني لم أسمع ما قاله، إذ تكهربت تكهرباً شديداً عندما تعرفت عليه. كان صوت «سامي».

جلست على درجات السلم، وعقدت ما بين حاجبيّ. إذن، فقد كان «سامي» صديقاً لسادي، أليس كذلك؟ وكنت أعلم بالغريزة أن التحالف بينهما لا يمكن أن يُسْفر عن خير، وأحسست بخفقة قلق على «مادج». ولم يعد من المجدي ـ على كل حال ـ أن أحاول التفكير في المسألة كلها فوراً، لا سيما بالحال التي عليها رأسي الآن. والشيء الوحيد الذي يمكن أن أفعله هو تسجيل مزيد من الانطباعات القليلة. وسيتسع الوقت فيما بعد للتفكير. ووجدت أنني في موضع الجلوس هـذا لا أستطيع أن أسترق السمع؛ أما الوقوف، فكان مُرْهِقاً. وبخاصة إذا كانت الجلسة بينهما طويلة. ومن ثمّ، فقد زحفت درجات السلَّم الثلاث الأخيرة حتى بلغت «البسطة» أمام شقة «سادي»، وجلست عليها القرفصاء مسنداً ظهري إلى باب الشقة. وهنا كنت على بُعد قدمين من المتحدثيْن، ولكنني في مأمن من الملاحظة إلا إذا فتحا الباب؛ وهذا ما تمنيت ـ بالطبع ـ ألا يُقْدما عليه.

كانت «سادي» تقول: «ينبغي أن ندركه لحظة وصوله إلى لندن. إنه

من ذلك النوع من الأشخاص الذين يحبون أن يُوَاجَهوا بالأمر الواقع fait accompli . والمسألة هي الإمساك بزمام المبادرة».

فأجاب سامي: «أتظنين أنه سوف يتلاعب؟».

قالت سادي: «ربما أقدم على ذلك أو لم يقدم. فإن لم يفعل، لما وقع أي ضرر، أما إذا فعل. . .».

قال سامي: «إذا فعل، فلنتأهب للقمر!».

وضحكا مرة أخرى. ربما كانا مخمورين قليلاً، ولكنهما كانا منفردَيْن بكل تأكيد.

ثم سألها سامي: «أأنت واثقة من أن بلفاوندر لن يثير المتاعب؟».

قالت سادي: «قلت لك إنها اتفاقية جنتلمان».

قال سامي: «ولكنك لستِ جنتلمان!» وكاد جسمه أن يتصدع من الضحك.

كان من الواضح الآن أنني أصبت حين استرقت السمع. فلو أن هناك شخصين يدبران مكيدة، لكانا هما «سادي» و«سامي». ولكن ما جلية الأمر؟ من هو ذلك الشخص الذي يراد إدراكه في لندن؟ ما يجعل لهذا كله معنى هو أن «سادي» كانت متورطة في الكيد لهوجو، وذلك لأنها كانت تغار ـ بلا شك ـ من إيثاره لآنا عليها. وخَطَر لي أن أسمع المزيد، فجلست وقد جحظت عيناي من مآقيهما. وكان ظهر منزل «سادي» ملاصِقاً لظهر منزل آخر في الشارع التالي. ومن الممكن أن يقال في الواقع إن المنزلين يطلان أحدهما على الآخر. وكان للمنزل المقابل باب للنجاة من الحريق يعتبر توأماً لباب الحريق في منزل «سادي»، وبين هذين البناءين تمتد فحسب مسافة مقدارها خمسة عشر قدماً. وكان وضعي الذي أسترق فيه السمع يقتضي أن أسدِّد بصري مباشرة في إحدى

حجرات ذلك المنزل. . أعني أن رأسي التفت في ذلك الاتجاه، قليلاً كان ذلك أو كثيراً، على حين أنني كنت في حالة من الانهماك الشديد تمنعني عن ملاحظة أي شيء حتى تلك اللحظة التي أدركت أن هناك امرأتين تراقبانني عن كثب من الحجرة المقابلة. كانت إحداهما ترتدي مئزراً أحمر، على حين كانت الأخرى تبدو امرأة قوية الشكيمة، تضع قبعة على رأسها. غضضت عينيّ، وردّني بحدة إلى المحادثة الدائرة خلفي استماعي إلى اسمي يُذْكر أثناء الكلام.

أفلتت مني هذه الجملة. . أما الجملة الثانية فكانت صادرة عن «سامي» الذي قال: «بوصفه محظوظاً فإنه يحوي بالتأكيد كل شيء».

قالت سادي: «هذا شيء طيب بالنسبة لمادج! إذ تستطيع أن تلتقط فائزاً».

قال سامي: «من المؤسف حقاً أنها لم تسانده هو أيضاً!»

مزيد من الضحك.

وأردف سامي متسائلاً: «أأنت واثقة من أنه لن يجعل منها قضية؟».

قالت سادي: «لن تكون قضية واضحة. . وهذا هو المهم. ومن المحتمل أنه لا يملك شيئاً مكتوباً، وحتى لو كان لديه، فلا بد أنه أضاعه».

قال سامي: «إنه يستطيع ـ مع ذلك ـ أن يرفض السماح لنا باستخدامه».

قالت سادي: «ولكن، ألا ترى، إن هذا لا يهم. إن كل ما نحتاج هذا الشيء من أجله هو أن نقنع هـ. ك. .H. K بالتوقيع على السطر المنقط».

كان هذا كله شيئاً بالغ الأهمية، وإن لم أتمكن من إدراك معناه.

وفي هذه اللحظة وقع شاغل آخر شتت انتباهي. إذ فتحت المرأتان في المنزل المقابل نافذتهما على مصراعيها، وأخذت كل منهما تنظر إليّ في ارتياب ملحوظ. ومن العسير على المرء أن يتحاشى باستمرار حملقة شخص على بعد خمسة عشر قدماً يحاول أن يلتقي بعينيك، وبخاصة إذا لم يكن هناك شيء مجاور يكون من المعقول أن ينظر إليه المرء. فابتسمت لهما في أدب.

تشاورت كل منهما مع الأخرى، ثم نادت المرأة ذات القبعة قائلة: «أأنت على ما يرام؟».

كان هذا مثيراً للأعصاب إلى أقصى حد. وكان يتطلب مني رباطة جأش حديدية لأمنع نفسي من النهوض والجري. ودعوت الله ألا يكون «سامي» و «سادي» قد سمعا قولها. وفي تلك الأثناء أومأت برأسي بقوة، رسمت ابتسامة سعيدة في اتجاه السيدتين.

سألت مرة أخرى: «أأنت متأكد؟».

أومأت برأسي يائساً، وأضفت إلى ابتسامتي الإشارات التي تنبىء بأنني في أحسن حال، وبمقدار ما سمح لي وضعي الجالس مسنداً ظهري إلى الباب: صافحت نفسي، رفعت إبهامي مع سبابتي على شكل حرف O، وابتسمت ابتسامة أشد توكيداً.

قالت المرأة الأخرى: «لو سألتني، لقلت إنه مجنون هارب». وتراجعت كل منهما قليلاً عن النافذة.

وسمعت إحداهما تقول: «سأذهب لأخبر زوجي».

وما برح «سادي» و «سامي» يتحادثان. وكانت أذناي في هذه اللحظة على وشك الانفصال عن رأسي، والالتصاق بالباب الذي يقع خلفي.

كانت «سادي» تقول: «ما هذا الذي يجعلك عصبياً على هذا النحو؟»

لم يكن هناك شك في الشخص الذي يستخدم الآخر في هذا التواطؤ البغيض. «قدِّم إليه النجمة والمخطوط وعقودك، وستكون لدينا بداية رائعة. أما «بلفاوندر» فلا يملك ضدنا شيئاً من الناحية القانونية؛ وإذا بدأ في تقديم الشكاوى، فإنني أستطيع تقديم كثير من الشكاوى المضادة عن الطريقة التي عوملت بها. وفيما يتعلق بدوناجيو الصغير Danaghue ، فإننا نستطيع أن نشتريه في أي يوم من أيام الأسبوع». غاظني هذا إلى درجة أنني نهضت تقريباً، وكدت أطرق الباب.

غير أن سامي أجاب في الحال: «لست أدري. لهؤلاء الأشخاص شكوك مضحكة».

أحسنت يا «سامي»! واستبدت بي رغبة تشنجية للضحك، وكان لا بد أن أمنع نفسي بأن غطَّيت فمي بعنف.

وظهرت المرأة ذات المئزر من نافذتها مرة ثانية، وفي الوقت نفسه برزت المرأة ذات القبعة التي يبدو جلياً أنها تقطن الشقة العليا، من نافذة أعلى يصحبها رجل.

قالت: «ها هو ذا!» وأشارت إليّ. ثم خرجوا جميعاً إلى مكان النجاة من الحريق.

قالت المرأة ذات المئزر: «ربما كان أبكم أصم».

صاح الرجل الواقف على باب النجاة: «ألا تستطيع أن تقول شيئاً؟».

أصبح الموقف مُحْرِجاً. حملقت فيه، وأشرت إلى داخل فمي، وهززت رأسي بقوة. ولم أكن واثقاً فيما إذا كان الإيماء قد نقل إليه المعنى الذي أريده على نحو أوضح، غير أن إمكانيات سوء الفهم كانت هائلة على كل الأحوال بحيث لم يعد من المهم كثيراً اللجوء إلى هذه الطريقة أو تلك.

قالت المرأة ذات المئزر: «إنه جوعان».

فقالت المرأة ذات القبعة لزوجها بتلك الطريقة النسوية التي تثير الجنون: «لماذا لا تفعل شيئاً؟» وأحسست بالأسف الشديد على هذا الشخص.

قال وهو يهرس رأسه: «لماذا لا نتركه وشأنه؟ إنه لا يؤذي أحداً».

كانت هذه ملحوظة عاقلة بحيث لم أتمالك نفسي فلوّحت له معبراً عن تـهانيّ وتعاطفي مع جنسي من الرجال. ولا بد أن التأثير كان شنيعاً، إذ نكص على عقبيه.

قالت المرأة ذات المئزر: «إنك لا تستطيع أن تتركه هناك». وكانت قد خرجت هي الأخرى إلى باب النجاة «إنه ينظر مباشرة إلى حجراتنا.. افترض أن الأطفال شاهدوه؟».

قالت المرأة من النافذة العليا: «قلت لك إنه هرب من مكان ما!»

وفي هذه اللحظة ظهرت امرأة كان من الجلي أنها خادمة ـ عند باب المطبخ في الشقة السفلى، وطالبت بتفسير الموقف كله. دار هذا كله بينما كنت أتفصد عرقاً بارداً خوفاً من أن تسترعي هذه الضجة انتباه «سادي» و«سامي»؛ ولكن يبدو أنهما كانا في حالة من السُكر أو الاستغراق في مكيدتهما بحيث لم يلاحظا شيئاً حتى الآن.

كانت «سادي» تقول: «أود أن أتصفحه مرة أخرى قبل أن التقي «بـ هـ ك». (H.K)؛ أين هو، بهذه المناسبة؟».

قال سامي: «إنه في شقتي».

فسألته سادي: «أنستطيع أن نتصل هاتفياً لاحضاره على الفور؟».

قال سامي: «لا أحد هناك.. اللهم إلا إذا كان نجمنا الجديد قد

جاء.. ولكن هذا بعيد الاحتمال». وضحك.

قالت سادي: «أعتقد أنها كانت فكرة سيئة جداً منك.. فهذا النص فات عصره تماماً».

قال سامي: «أنتِ غيور.. اسمعي، سأتصل هذا المساء، وسأحضره إلى هنا؛ أينفع هذا؟».

قالت سادي: «فليكن».
قال سامي: «في وقت متأخر!».
فقالت سادي: «فليكن!».

واستأنفا الضحك والصخب. وتمنيت لكل منهما أن يمرح مع الآخر، غير أن أعظم ما تمنيته هو أن أفهم ما يدبرانه، بحق السماء.

قال سامي: «سأترك لك إنصاف دوناجيو».

قالت سادي: «لست على وفاق معه. هل أخبرتك بأنني حاولت استخدامه كحارس شخصي، ولكنه انسحب منها؟».

قال سامي: «مع حالة الهياج التي عليها بلفاوندر سوف تحتاجين إلى حَرَسٍ مسلح. ولكن لماذا تستخدمين حماراً مثل دوناجيو؟ أنت تفتقرين إلى الحس السليم بكل تأكيد».

قالت سادي ببساطة: «الواقع أنني أميل إليه». هذه اللمسة تركت أثراً عميقاً في نفسي.

قال سامي: «إذن، فأنت تحاولين رعايته».

قالت سادي: «أوه، دع القلق، أتراك تفعل ذلك؟ إنها مجرد ترجمة لا تختلف كثيراً عن ترجمة أخرى. فإذا رفض أن نستخدم ترجمته، فإننا نستطيع في غضون أسبوعين أن نبتاع ترجمة أخرى. كل ما نحتاج إليه هو

أن نجعل «هـ. ك.» يراه الآن بالانجليزية. أما فيما يتعلق بالرجل الفرنسي، فإنه سوف يبيع لنا جدته من أجل حفنة دولارات».

أصابني هذا القول بدوار، وكنت على وشك الوصول إلى إجابة فلم يلبث سامي أن أعطانيها، إذا قال: «إن العنوان بديع، أليس كذلك؟ «البلبل الخشبي»».

جلست هناك فاغر الفم.. غير أن الوقت لم يتسع لي للتفكير. واسترعى المشهد المقابل انتباهي مرة أخرى، إذ بدأت الأشياء تتحرك هناك بسرعة فائقة.

قالت الخادمة: «من الأفضل استدعاء الشرطة، هذا إذا سألتموني. من الأفضل أن ندع الشرطة تتعامل مع هذا الصنف من الناس، هذا ما اعتقده دائماً».

كان المنزل المقابل يرتفع على أحد جانبي زقاق ضيق مرصوف بالحصى يؤدي إلى «شارع الملكة آن» Queen Ann Street. وعلى ناصية هذا الزقاق شاهدت الآن حشداً صغيراً من الناس أخذ يتجمع بعد أن استرعى انتباهه مسرحية باب النجاة من الحريق.

قالت الخادمة: «انظروا إليه وهو ينظر إلى أسفل.. إنه يعلم ما يَجري!».

قالت المرأة ذات القبعة لزوجها: «اذهب واطلب رقم تسعة تسعة تسعة».

ثم عادت الخادمة إلى الظهور ـ وكانت قد انسحبت لحظة ـ وقد تسلحت بمنفضة لإزالة العناكب طويلة إلى أقصى حد وتساءلت: «هل أسدد إليه ضربة بمنفضتي لنرى ما هو صانع؟» ثم صعدت قُدُما إلى باب النجاة وأشرعت منفضتها، وسدّدت إلي ضربة حادة على كاحلي.

كان هذا أكثر مما أطيق. وكنت قد استمعت إلى ما فيه الكفاية على كل حال، وأصبح لديّ الآن جميع المواد التي احتاج إليها في حل المشكلة، وكنت في رعب قاتل من أن تخرج «سادي» و «سامي» في أية لحظة.

وفي رشاقة متثلة، وعلى مشهد من العيون الكثيرة المبهورة، بسطت ساقي، وزحفت على بطني درجتين أو ثلاثاً من درجات السلم. ثم نهضت بعد ذلك، ودلّكت أطرافي التي تخشبت، وتمشيت في غير تسرّع إلى باب النجاة.

قالت المرأة ذات المئزر: «قلت لكم إنه مجنون!».

وقالت المرأة ذات القبعة: «إنه يهرب.. افعل شيئاً!».

فقال زوجها: «أوه.. دعوه يذهب، ذلك الشيطان المسكين!».

قالت الخادمة: «أسرعوا!» فهرولوا جميعاً نازلين إلى باب النجاة السفلي لينضموا إلى الحشد الصغير عند القاع.

وعندما وصلت إلى الدرجات الأخيرة ألقيت نظرة سريعة خلفي لأرى إن كان أحد قد خرج من شقة سادي. فلم أشاهد أحداً. والذين يرجون عذابي كانوا يقفون معاً في ممر الزقاق. فتبادلنا النظرات في صمت.

قالت الخادمة: «انقضّوا عليه على مهل».

وقال شخص آخر: «انتبهوا.. فربما كان خَطِراً».

وقفوا مترددين، فألقيت نظرة خلفي، فرأيت الزقاق الذي يؤدي إلى «شارع ولبك» خالياً. وهنا أصدرت فحيحاً حاداً واندفعت قُدماً إلى الأمام على حين غرة؛ فتفرقوا مذعورين، وارتد بعضهم إلى باب النجاة من الحريق، وهرع بعضهم الآخر منحدرين إلى الزقاق. فضاعفت من سرعتي عائداً إلى «شارع ولبك»، وأطلقت ساقيّ للريح.

الفصل الحادي عشر

قصدت أقرب مكان هادىء أعرفه، وتصادف أنه «تجمع وَلاَس» Wallace Collection، لأجلس وألملم شذرات إجابتي. واجتهدت في هذا العمل، جالساً في مواجهة الابتسامة الساخرة المَرتسمة على وجه «فارس فرانس هالس» Frans Hal's Cavalier. وما برح ذهني بعيداً عن العمل بالسرعة المنشودة. كانت ترجمتي لرواية «بروتلي» Breteuil «البلبل الخشبي» Rossignol de Bois التي تركتها مع «مادج»، قد سرقها «سامي». كلا، لم تُسْرق، ولكن قدَّمتها «مادج» لسامي. لماذا؟ ليُصْنع منها فيلم. بمن؟ بشخص يُدْعى .H.K لا يعرف الفرنسية. من المحتمل أن يكون أمريكياً. ولكن ماذا في هذا كله بالنسبة لسادي؟ باع «سامي» هذه الفكرة لذلك الأمريكي، وباعه «سادي» في الوقت نفسه. وماذا عن «باونتي بلفاوندر»؟ «سادي» تتخلَّى عنهما في الوقت المناسب. هل يستطيعان أن يفعلا شيئاً إزاء هذا؟ كلا، كما هو ظاهر، إذ أنهما لم يربطا «سادي» كما ينبغي أن يكون الربط. وماذا عنّي؟ إذا لم أشارك في اللعب، فلن يغيِّر ذلك من الأمر شيئاً مادام هذا الـ «هـ. ك.» .H.K قد اشترى الفكرة. هل سيدافع عني «جان بيير؟» بالطبع لا. سيتعامل مباشرة حيث توجد الدولارات. وعلى كل حال، هل أملك أية حقوق؟ لا شيء البتة. إذن، ما هذا الذي أشكو منه؟ ؟سُرق مخطوطي الذي نسخته على

الآلة الكاتبة. سُرِق؟ كانت مادج تُطْلع سامي عليه، وهذا بدوره أطلع «هـ. ك.» عليه. سُرِق؟ على أي حال، إلام ترمي «مادج»؟ كانت «مادج» ضحية لخداع «سامي»، الذي هجرها من أجل «سادي». «سامي» يستخدم «مادج»، و«سادي» تستخدم «سامي» للانتقام من «هوجو»، والحصول على ثروة من الدولارات في الوقت نفسه. بدأت أرى الصورة كاملة. وكان ما يثير الجنون حقاً هو أن رواية «البلبل الخشبي» يمكن أن يُخْرج منها فيلم رائع في واقع الأمر. كان فيها حقاً كل شيء. وكانت «مادج» - في الأيام التي تخيَّلتْ فيها أن من الممكن إقناعي باكتساب شيء من المال، تطالعها باستمرار. يا لمادج المسكينة! لقد اختارت الفائز، غير أن «سادي» و«سامي» سيأخذان الجائزة.

هتفت لنفسي: «لن يحدث ذلك إذا أمكنني المساعدة!» وتوجهت صوب باب الخروج.

قال الفارس: «قصة مسلية، وأنا احيّي قرارك».

ولكن، ماذا كان قراري؟ لم يكن هناك سبيلان إليه. يجب أن أحاول استرداد مخطوطي في الحال، وأن أفعل ذلك معناه أن أدافع عن مصالحي وعن مصالح «هوجو»، والأهم من ذلك أن أهزم «سادي» و«سامي». وسيكون في ذلك تسديد ضربة إلى «مادج» أيضاً. أين يوجد المنسوخ؟ في شقة سامي. وأين توجد شقة سامي؟ إن الدليل العام للمعلومات الذي رجعت إليه أنبأني أن سامي يقطن في «تشلسي» Chelsea. كان من الواضح أن مهمتي الآن العمل بسرعة. يجب أن أضع يدي على هذا المنسوخ قبل أن يراه هذا الـ«هـ. ك.» والطريقة التي أشارت بها «سادي» إلى المنسوخ توحي بأنه لم يُسْتخرج منه صورٌ بعد. وتضمن حديث «سامي» أنه لن يعود إلى شقته قبل حلول المساء، وقال إنها خالية في أغلب الظن. طلبت رقم الهاتف في شقة «سامي»، فلم يرد عليّ أحد. وهنا قررت أنني في حاجة ملحة إلى «فين».

طلبت رقم «ديف»، وبعد برهة أجابني «فين» بصوت يغشاه النعاس إلى حد ما. قلت له إنني مسرور لأنه لم يغرق، وانني أريده أن يلحق بي بأسرع ما يستطيع. وعندما أدرك أنني المتحدث صب عليّ لعناته لفترة طويلة باللغة الغاليّة Gaelic وقال إنه كان نائماً. هنأته، وسألته متى سيأتي إليّ. وأخيراً وبعد كثير من الزمجرة قال إنه سيلتقي بي في «طريق الملك» Kings Road، وفعلاً التقينا هناك بعد ثلاثة أرباع الساعة تقريباً. وكانت الساعة تشير حينئذ إلى الثالثة إلا الثلث.

كنت قد اتخذت حِذْري بأن طلبت من «فين» إحضار أداة نسميها «المفتاح العمومي» Master Key وهو عبارة عن أداة لفتح الأقفال بسيطة التركيب وضعنا تصميمها معاً على أساس مبادىء علمية. وربما ظننت أن في الأمر شيئاً من الغرابة أن يحرص اثنان من المواطنين العاديين الملتزمين بالقانون مثلي ومثل «فين» بتزويد نفسيهما بأداة من هذا النوع. ولكننا وجدنا بالتجربة أن هناك عدداً مدهشاً من المناسبات تحدث في مجتمع مثل مجتمعنا يحتاج فيها المرء لمجرد الدفاع عن حقوقه ـ كما هو الحال في الموقف الحالي ـ إلى أن يدخل من خلال باب موصد لا يملك له مفتاحاً. بل قد يجد المرء نفسه ـ على كل حال ـ خارج باب بيته الموصد، وليس في استطاعته استدعاء فرقة المطافىء في كل مرة.

اتصلنا هاتفياً مرة ثانية لنتأكد من أن الشقة خالية؛ ثم أخذت أروي لـ «فين» ملخص القصة أثناء سيرنا في الطريق. فوجدها شائقة إلى درجة أنه تغلب على مزاجه المتوعك. وكان من الواضح ـ على كل حال ـ أنه ما برح يعاني من آثار سُكْره الشنيع، فارتسمت على سحنته تلك النظرة الشزراء قليلاً التي تصيبه بعد كل عربدة، كما طفق يهز رأسه باستمرار وهو ماضٍ في سيره. وكثيراً ما سألت «فيـن» لماذا يهز رأسه بعد إغراقه في الشراب، فأخبرني بأنه يفعل ذلك لكي يجعل البقع تتحرك بعيداً من

أمام عينيه. ويدهشني أن «فين» بكل ما تلقاه من تدريب أيرلندي لا يصمد للشراب كما أصمد أنا؛ ومع أنني في هذه المناسبة كان من الممكن، على الرغم من حصولي على كل ما أستطيع مثل الوالروس Walrus، فقد حصل «فين» في الواقع على المزيد، مثل الكاربنتر Carpenter. كانت له القدرة النفسية على الوقوع على الشراب في أية ساعة من ساعات الليل والنهار. وأياً كان السبب، فقد كان في هيئة سيئة، على حين كنتُ أشعر الآن بمزاج رائق، ولا أشكو إلا من ضعف بسيط في المعدة.

لم أكن واثقاً على الاطلاق من أن اقتحام شقة «سامي» سيكون يسيراً. ذلك أن «سامي» شخص من ذلك الصنف الذي يمكنه أن يضع بسهولة قفلاً خاصاً على الباب، أو أسوأ من ذلك، أن يضع إنذاراً باقتراب لص. كما أنه يعيش فضلاً عن ذلك في واحدة من تلك المجموعات الهائلة التي تتألف منها شقق الخدمات حيث يمكن أن يتدخل البواب أو شخص آخر من الشغّالين فيما نعمل. وعندما وصلنا إلى المجموعة، أرسلت «فين» إلى الجانب الآخر من المبنى ليرى إن كان يستطيع العثور على مدخل لأصحاب الحرف اليدوية يمكن أن نلجأ إليه إذا أزعجنا أحد، على حين تجولت أنا في الطريق الأمامي جاعلاً عيني على البوابين. فالتقينا خارج باب «سامي» وكان في الطابق الرابع. وأخبرني «فين» أن هناك مدخلاً محترماً هادئاً لأصحاب الحرف اليدوية. على حين أخبرته أنا بأنني لم ألمح سوى بوّاب واحد كان يجلس في قفص زجاجي على مقربة من الباب الرئيسي، ولم يكن يبدو عليه أنه يريد الحركة. وأخرج «فين» المفتاح العمومي، بينما قمت بمراقبة نهاية الدهليز. وفي دقيقة أو دقيقتين كان باب «سامي» يُفْتح بهدوء، فدخلناه معاً.

ألفينا أنفسنا في دهليز عريض يؤدي إلى القاعة. وكان «سامي» يسكن في إحدى الشقق الواسعة الواقعة في ركن العمارة. وحاولنا فتح باب يؤدي إلى المطبخ.

قلت: «سيكون تركيزنا على حجرة المعيشة وحجرة النوم».

قال فين: «هذه هي حجرة نومه» وشرع يفتح الأدراج. كان يرفع الأشياء ويضعها في أماكن أخرى بسرعة ومهارة عامل في مصنع يؤدي عمله؛ وعلى حد تعبيره، لن يستطيع أن يعرف أن أشياءهم لم يمسها سوى نسيم الربيع إلا شيطان بارع! وكنا ـ بالطبع ـ نلبس قفازات نحن الاثنين، راقبته برهة، ثم اتجهت إلى ما حسبته حجرة المعيشة الرئيسية. وانفتح الباب بما يكفي لدخول حجرة ركنية رحبة، ذات نوافذ على كلا جانبيها. غير أن ما شاهدته حين فتحت الباب جعلني أتوقف كالميت في طريقي.

نظرت إليه برهة، ثم ناديت فين: «تعال، وألق نظرة على هذا!» انضم إليّ وقال: «يا إله السموات!».

كان في منتصف الحجرة بالضبط قفص من الألومينيوم اللامع، يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أقدام، وقاعدته خمسة أقدام مربعة. وفي داخل القفص كان كلب ألزاسي ضخم جداً، لونه أسود ضارب إلى الصفرة، يزمجر في هدوء، ويسدّد إلينا عيناً عصبية برّاقة.

قال فين: «أمن الممكن أن يخرج؟».

اقتربت من القفص، وفيما كنت أفعل ذلك، ارتفعت زمجرة الحيوان، وهو يهز ذيله بقوة في الوقت نفسه على النحو الغامض الذي تهز به الكلاب ذيولها.

قال فين: «احترس من الوحش، فقد يثب عليك خارجاً من القفص».

قلت بعد أن فحصت القفص: «إنه لا يستطيع الخروج».

قال فين: «حسن، حمداً لله»، وبدا عليه ـ بعد أن تأكد من هذه الحقيقة ـ أنه لم يعد يعبأ بتلك الظاهرة في قليل أو كثير. وأردف قائلاً:

«لا تضايقه الآن. . وإلا شرع في نباح يمكن أن يأتي برجال الشرطة إلينا».

نظرت إلى الحيوان في فضول. كان له وجه ذكي عطوف، وعلى الرغم من زمجراته كان يبدو وكأنه يبتسم.

قلت: «هاللو»، ودفعت بيدي من خلال القضبان، وهنا أخلد إلى الصمت، وأخذ يلعقني بسخاء. وشرعت أربت على أنفه الطويل.

قال فين: «ولا تسرف في مداعبته. . فليس أمامنا اليوم كله».

كنت أعلم أن اليوم كله ليس أمامنا. وعاد «فين» إلى حجرة نوم «سامي»، وبدأتُ في دراسة حجرة المعيشة. كنت متلهفاً حقاً للعثور على المنسوخ. وأخذت أتوقف من حين إلى آخر لأتخيل ـ مسروراً ـ غضب «سامي» حين يكتشف أنه ذهب. وفتشت في مكتب «سامي»، وفي خزانة ذات أدراج. ثم بحثت عنه في دولاب موضوع على البسطة. وفتشت الحقائب والمحافظ الجلدية، وتحت الوسائد، وخلف الكتب، بل دسست يدي في جيوب ستراته جميعاً. ولم أجد للمنسوخ أثراً. وعاد «فين» أيضاً بخفَّي حنين. فتشنا الحجرات الأخرى، ولكن دون أمل، إذ كانت تبدو وكأنها لا تُسْتَخدم إلا قليلاً.

سأل فين: «أين يمكن أن نبحث، بحق الجحيم؟».

قلت: «أنا متأكد من أنه يحتفظ بخزانة سرية. ذلك أن عدم إيصاده للمكتب يوحي بهذا. وإذا كنتُ على معرفة بسامي، فأعتقد أن لديه الكثير مما ينبغي أن يخفيه».

قال فين: «ولكن، إذا كانت لديه مثل هذه الخزانة، فلن ينفعنا أن نجدها، لأننا لن نتمكن من فتحها».

خشيت أن يكون على صواب. . ولكننا مشَّطنا المنزل مرة أخرى،

ونقّرنا على ألواح الأرضية، وبحثنا وراء الصور، وتأكدنا من أننا لم نترك درجاً أو دولاباً دون تفتيش.

قال فين: «هيا بنا... فلنذهب إلى حال سبيلنا». وكنا قد قضينا في ذلك المكان ثلاثة أرباع الساعة تقريباً.

وقفت في حجرة المعيشة أصب اللعنات، قلت: «لا بد أن هذا الممسوخ اللعين في مكان ما».

قال فين: «هذا حق بالنسبة لك... ويبدو أنك ستمكث في ذلك المكان». وأشار إلى مينا ساعته.

كان الكلب يراقبنا طيلة الوقت، وذيله الكثيف يتأرجح جيئة وذهاباً بين القضبان. حدَّثه فين قائلاً: «يا لك من كلب رائع للحراسة!».

كان سقف القفص ـ مثل أرضيته ـ مصنوعاً من الألومينيوم الصلب، وكان مرتفعاً بحيث يكفي لوقوف الكلب مستقيماً على قدميه، ولكنه لم يكن يكفي لانتصاب أذنيه أثناء وقوفه.

قلت لفين: «يا للصبيّ المسكين! من الغريب جداً أن يكون هذا الكلب هنا. لم أر في حياتي أحداً يضع كلباً في قفص مثل هذا.. أرأيت أنت؟».

قال فين: «أظن أنه نوع من الكلاب الخاصة»، ثم أطلقت صفيراً، إذ خطر على ذهني بغتة أن «سامي» تحدث عن نجم جديد؛ وفي هذه اللحظة تعرفت على الكلب.

سألت فين: «هل شاهدت «انتقام جودفري الأحمر» أو خمسة في الطوفان؟».

قال فين: «ماذا دهاك؟ هل جننت؟».

ـ «أو مُزرعة المُحملقين في النجوم أو الانغماس في الندى؟».
قال: «إلام ترمي بهذا كله؟».

صحت مشيراً إلى الكلب: «إنه ميستر مارس Mister Mars إنه «ميستر مارس» العجيب، الكلب النجم. ألم تتعرف عليه؟ لا بد أن «سامي» ابتاعه لفيلمه الجديد!» كنت مبهوراً بهذا الكشف بحيث نسيت كل شيء عن المنسوخ. فما من شيء يثيرني مثل التقائي بنجم سينمائي في الحياة الواقعية، وقد كنت من أشد المعجبين بمارس أعواماً عديدة.

قال فين: «أوخ.. يا لك من مخبول.. الكلاب الألزاسية تبدو جميعاً متشابهة. هيا بنا الآن قبل أن يصل إلينا هو بنفسه».

صحت: «ولكنه مارس!» ووجهت كلامي للكلب: «ألست أنت ميستر مارس؟» وطفر الكلب على قدميه مرحاً وهو يهز ذيله بأسرع من ذي قبل، وقلت لفين: «ها أنت ذا!».

قال فين موجِّهاً كلامه إلى الكلب الذي أخذ يهز ذيله بسرعة أكبر: «ألست رن تن تن؟».

قلت: «وما قولك في هذا؟».

إذ نقشت في غير بروز على أعلى القفص هذه الكلمات: ميستر مارس العجيب ـ وعلى الجانب الآخر: مِلْك بلانتا سيفيلمز ليميتد.

قلت: «هذه كتابة قديمة لا تنطبق على الوقت الحالي».

قال فين: «لن أناقشها إذن». ثم أضاف وهو يتجه نحو الباب: «سأنصرف».

قلت: «انتظر» بلهجة شاع فيها من القلق ما جعله يتوقف.

فقد بدأت تعنُّ لي فكرة رائعة، وبينما كانت تتسلل إليّ على مهل

ضغطت بكلتا يدي على عارضيّ، وسددت عيني على «ميستر مارس» الذي نبح نبحة أو نبحتين ناعمتين مشجعتين وكأنه يعرف ما يتوارد على ذهني.

قلت متئداً: «فين، لقد خطرت لي فكرة رائعة للغاية».

قال فين مستريباً: «ماذا؟».

قلت: «سنقوم باختطاف الكلب».

حملق «فين» نحوي، ثم قال: «لأي غرض بحق السماء؟».

صحت: «ألا ترى؟» وما أن أخذت جرأة الخطة المجيدة وبساطتها تتضح لي أكثر فأكثر حتى جعلت أتواثب مرحاً في الحجرة. «سوف نتخذه كرهينة، في مقابل المنسوخ».

وتحولت نظرة «فين» الحائرة إلى نظرة صابرة. فاستند إلى حافة الباب وقال: «لن يلعبوا هذه اللعبة»، وكان يتحدث متمهلاً وكأنه يتحدث إلى طفل أو مجنون، «ولماذا يفعلون ذلك حقاً؟ لن نجلب لأنفسنا غير المتاعب. وأياً كان الأمر، لن يكون هناك ما يكفي من الوقت».

قلت: «لن أخرج من هنا خاوي اليدين!».

كان عنصر الوقت خطيراً بكل تأكيد. غير أنني شعرت برغبة محمومة لكي أصبح ممثلاً في هذه الدراما. وكان الموقف جديراً بخوض هذه المجازفة مع «مارس». وكان وضع «سامي» من حيث سيطرته على المنسوخ مشكوكاً فيه بما فيه الكفاية لكي يحول بينه وبين أن يلجأ إلى الخشونة. فإذا استطعت إحراجه بالتحفظ على مارس، أو حتى إقناعه بأن سلامة «مارس» في خطر، فقد يدفعه ذلك على الأقل إلى المساومة حول المنسوخ. والواقع، أنني لم أكن أحتفظ في ذهني بخطة واضحة تمام الوضوح. فأنا مفكر من الطراز الحدسي السريع. كل ما كنت أعرفه هو أن تحت يدي ورقة للمساومة، وأنني سأكون أحمق إذا لم استغلها.

وحتى لو لم تتمخض المناورة كلها إلا عن مضايقة «سامي» وازعاجه، فهي جديرة بخوضها. شرحت هذا كله لفين وقد شرعت في فحص القفص لأرى كيف ينفتح. أما «فين» الذي رأى الآن أن رأيي قد استقر، فقد هز كتفيه، وأخذ يفحص القفص هو الآخر، على حين كان «مارس» يتابعنا من الداخل، ويراقب حركاتنا بموافقة ظاهرة.

كانت المسألة غامضة. فليس للقفص باب، كما لا يوجد على قدر رؤيتنا أي أثر لأقفال أو مزاليج أو مسامير لولبية، والقضبان مثبتة بإحكام بين السقف والأرضية.

قلت: «ربما كان أحد الجوانب ينفصل عن القفص». ولكن لم تكن هناك أية علامة على تركيب خاص. والقفص كله ناعم كالحصاة.

قال فين: «إنه ملحوم من الداخل».

قلت: «لا يمكن أن يكون كذلك. وبالتأكيد، لم يحمل أحد القفص صاعداً السلم على هذا النحو».

قال فين: «حسن، إنها حيلة عصرية في التركيب». ولم يكن في هذا القول ما يعين، فقال: «لو أن لدينا مطرقة جيدة، وعرفنا من أين ندقه..» ولكن، لم تكن لدينا مطرقة. فأخذت أضرب القفص بحذائي فترة من الزمن، ولكن، لم يحدث شيء.

اقترحت: «ألا نستطيع أن نحطم القضبان؟».

قال فين: «إنها في صلابة جبهة الشيطان».

ذهبت إلى المطبخ بحثاً عن أداة، ولكنني لم أعثر على مفك، وبالطبع لم أجد عتلة. فحاولنا استخدام القضيب المحرِّك للنيران على القضبان، ولكنها ثنته دون أن تتحرك من مكانهان ملليمتراً واحداً. فأصابني ضرب من الهياج. وفكرت في أن أرسل «فين» لشراء مبرد، غير أن الوقت كان

متأخراً. وكان «فين» ينظر في ساعته. كانت الساعة الرابعة وعشر دقائق. وكنت أعلم أنه يتلهف على الانصراف، وإن كنت أعلم أيضاً أننا ما دمنا قد أقدمنا على مغامرة معينة فسوف يقف إلى جانبي طالما أردته. وكان يربض إلى جوار القفص، وينظر إليّ هو و «مارس»، وكان «فين» ينظر إليّ بتلك النظرة الوديعة التي يدخرها في لحظات الشدة.

قال فين: «في كل مرة أسمع جلبة على السلم، يصيبني مرض القلب».

كان يصيبني هذا المرض أيضاً. ولكنني لم أكن لأنصرف بغير «مارس». خلعت قفازي، وأحسست أن الأمور تنتقل إلى مرحلة جديدة.

قلت: «إذن، فسنأخذ القفص أيضاً».

قال فين: «إنه لن يخرج من خلال الباب. ومن المؤكد على كل حال. أن شخصاً ما سيعترض طريقنا أثناء الخروج».

قلت: «سنحاول، وإذا لم يخرج من الباب، فسأعد بالتخلي عن هذه المسألة».

قال فين: «لن يكون لك الخيار».

كنت موقناً أنه سيخرج من الباب. ولكن، لكي يجتاز الباب كان لا بد من أن نوقفه على جنبه. وكانت هناك قصعة من الماء في الداخل موضوعة على أرضية القفص المصنوعة من الألومينيوم.

قال فين: «هذا يثبت ما ذهبتُ إليه، من أنهم قاموا بتجميع القفص هنا. لن نستطيع إخراجه».

تناولت آنية للزهور وسكبت فيها الماء من القصعة بعد أن أمسكت بها قريبةً من القضبان. ثم بدأنا في تغيير وَضْع القفص برفق شديد. وهنا

بدأ «مارس» الذي كان يراقبنا باهتمام شديد ـ في الانفعال انفعالاً مثيراً.

قال فين: «كن حذراً، وإلا عـض يدك». حركنا القفص حتى رقد تماماً على جانبه، وفي أثناء ذلك، انزلق «مارس» إلى أسفل القفص حتى وقف على القضبان التي استقرت الآن على الأرض.. وعندئذ شرع ينبح بعصبية.

قلت له: «الزم الهدوء.. وتذكر الأغلال التي كنت فيها في «خمسة في الطوفان» ثم انتهى الأمر كله على خير!».

قال فين: «عندما نرفع القفص، ستتدلى قدماه من القضبان، وقد يكسر ساقاً في مناضلته».

كانت هذه فكرة معقولة، فتوقفنا وبحثنا المشكلة. وكنا قد اجتزنا الشعور بالقلق على الزمن، إذ كنا على استعداد للمضي في المغامرة حتى لو استغرقت ساعتين أخريين.

قلت: «يجب أن نمد شيئاً عبر القضبان». وأمسكت بغطاء للمائدة، ودسسته في القفص، ثم حاولت أن أفرشه تحت قدمي «مارس». ولكنه شرع على الفور في تمزيقه ونبشه بمخالبه.

قال فين: «عليك بتثبيته بطريقة أو بأخرى.. وإلا فسوف يجعله كالمنخـل بقدميه».

قلت: «سلك».

قال فين: «سينزلق. إن ما تحتاجه شيء طويل بما يكفي للفِّه حول القفص وربطه إلى نفسه تحت الغطاء».

وغاب لحظة، ثم عاد حاملاً ملاءة، قمنا بقياسها على حافة القفص.

قال فين: «إنها ليست طويلة بما يكفي لالتقاء طرفيها تحت القفص».

وشرعت أحاول ربط طرفيْ الملاءة بالقضبان، ولكنها كانت مشدودة بحيث انفكت عقدُها في الحال. . وتلفتنا حولنا يائسينْ.

اقترحت قائلاً: «ماذا عن هذه الستائر؟».

قال فين: «نحتاج إلى سلّم لإنزالها».

قلت: «لن يستغرق ذلك وقتاً». وشددتها شدة حادة، انخلعت من جرائها التركيبة من الجدار، وهبطت الستائر على رؤوسنا وقد أحدثت حلقاتها صليلاً مدوياً. انتزعنا ستاراً منها، وكان غاية في الطول، ثم فرشناه داخل القفص، بعد أن جعلنا مارس يرفع قدميه ويقف عليه. وبقي من الستار ما يكفي للبروز من طرفي القفص ليلتقي بنفسه إذا ازدوج لوضعه تحت الجانب السفلي من القضبان. ولكننا لم نكن نملك وسيلة للوصول إلى الجانب السفلي.

قال فين: «نحن في حاجة إلى رافعة».

تناولت مقعدين ووضعت واحداً منهما عند كل طرف من طرفي القفص، وقلت: «ارفع القفص عليهما».

وبدأنا نرفع القفص، وفيما نفعل ذلك، انزلقت مخالب «مارس» من خلال القضبان حين انفصل القفص عن الأرضية، فجذبت الستار في كتلة متشابكة، وفي الوقت نفسه أخذ ينبح نباحاً عالياً. فأنزلنا القفص مرة أخرى.

نظرت إلى «فين». كان يتصبب عرقاً. ونظر إليّ.

قال في هدوء: «فكّرت الآن فحسب في شيء آخر».

سألته: «وما هو؟».

قال فين: «حتى لو افترضت أننا تمكّنا من ربط طرفي الستار تحت القفص، فإن العقدة سوف تسحب الستار على هيئة حبل داخل القضبان، ومن ثمّ لن تكون حينذاك منبسطة تحت قدميك. أترى ما أعنيه؟».

أدركت ما يعنيه، استند كل منا ـ متفكّراً ـ إلى أحد طرفي القفص.

قال فين: «ربما كان من الأفضل ـ على كل حال ـ أن نحاول التضفير. فلو أننا حاولنا أن نصنع جديلة في حلقات الستار عند كل طرف، ثم نجعل هناك ثقبين....».

صحت: «إلى الجحيم بهذا التدبير.. لن نحاول أكثر من ذلك». وشرعت أسحب الستار من تحت قدميْ «مارس». ولكنه قبض على أحد طرفيها بفمه، دون أن يتخلى عنه.

قلت لفين: «انتزعته منه!».

قال فين: «افعل أنت هذا، وسأسحب أنا».

وبصعوبة أرغمت «مارس» على أن يفتح فمه، وأنقذنا ما تبقى من الستار. جلست بعد ذلك على الأرض، مستنداً برأسي إلى القضبان، وطفقت أضحك ضحكاً هستيرياً.

قلت لفين: «وأنا أيضاً فكّرت في شيء ما».

ـ «وما هو؟».

ـ «ربما لن يخرج من الباب بعد كل هذا!».

كنت أضحك بشدة إلى درجة أنني لم أنطق هذه العبارة إلا بصعوبة. ثم شرع «فين» في الضحك هو أيضاً... استلقى كل منا على الأرض ونحن نضحك كالمجانين حتى لم نعد نستطيع أن نفعل شيئاً أكثر من التأوه.

وبدأنا بعد ذلك في البحث عن المكان الذي يحفظ فيه «سامي» زجاجات الويسكي، وعندما وجدنا شربنا كأسين من الويسكي القراح. وأبدى «فين» من العلامات ما يدل على رغبته في الاستقرار على هذا الأمر، غير أنني جررته إلى القفص مرة ثانية.

قلت لفين مسرعاً: «تعال هنا.. ودعه يصنع ما يريد بقدميه!».

ورفعنا القفص المقلوب على جنبه من الأرض، ممسكين به من كِلا طرفيه بواسطة القضبان. وفي البداية أخذ «ميستر مارس» في الانزلاق والتزحلق، ولكن سرعان ما بدا لنا جلياً أننا في لهفتنا على راحته تصرفنا متجاهلين ذكاءه الخاص. فما ان أدرك أنه لا يستطيع الوقوف على شيء سوى القضبان، حتى ثنى ساقيه ورقد ممدداً على جانب القفص، وقد بدا عليه شيء من عدم الارتياح، ولكنه كان هادئاً تماماً. وعندما رأينا هذا منه، بدأنا نضحك من جديد إلى درجة أرغمتنا على إنزال القفص.

قلت أخيراً: «بحق السموات!» وأكملنا سيرنا نحو الباب.

كان القفص نفسه خفيفاً، ومعظم الوزن يأتي من «مارس». ولم يكن من العسير حمله. وكتمت أنفاسي، ذلك أن القفص سد فتحة الباب.

قلت لفين: «اثبت!» وكان يتقدمني. كان يواجهني، ويمشي القهقرى، وكنت أستطيع أن أرى عينيه وقد اتسعتا كطبق الفنجان. عدّلنا من وضعه وسويناه في صمت، ثم خطا «فين» إلى الوراء داخل دهليز القاعة، وكان القفص ينزلق من خلال الباب كما ينزلق مكبس داخل أسطوانة، بحيث لم تكن هناك نصف بوصة بينه وبين الباب.

صاح فين: «لقد فعلناها!».
قلت: «انتظر.. هناك الباب الآخر».

فتحنا الباب المؤدي إلى الدهليز، وانزلق القفص من خلاله كأنه مدهون بالفازلين. أنزلناه في الخارج، وتصافحنا، ثم رجعت إلى شقة سامي، وألقيت نظرة على حجرة المعيشة؛ كانت تبدو أشبه بساحة معركة، ولكنني لم أر أنني أستطيع أن أفعل شيئاً في هذه الفوضى.

وكنت على وشك إغلاق باب «سامي» الأمامي، حين قال فين:

«انظر. حتى لو استطعنا الخروج من المبنى، فكيف يمكن أن تبتعد حاملين هذا الشيء؟ ستسألنا الشرطة عما نصنع».

قلت: «سنستقل سيارة أجرة».

قال فين: «لن يدخل هذا في سيارة أجرة عادية. وعلينا أن نعثر على سيارة بغطاء ينسدل على ما فيها».

قلت له: «إذن، فسوف نستأجر سيارة نقل».

قال فين: «ولكن أين سنضعه حتى ذلك الحين؟».

أخذت نَفَساً عميقاً، ثم قلت: «انظر، أنت على حق بالطبع. اخرج وابحث عن سيارة أجرة لعينة يتدلى غطاؤها، أو سيارة نقل، أو ما تشاء، إن كنت تستطيع أن تفعل ذلك في عشر دقائق. فإذا لم تستطع، عد إليَّ، وسنحمله، وليحدث ما يحدث، سأنتظرك هنا».

قال فين: «أليس من الأفضل أن تنتظر في الداخل؟».

نظر كلٌّ منا نظرة عميقة في عينيْ الآخر. ثم التقطنا القفص وحملناه عائدين به إلى شقة «سامي».

قلت: «سأنتظرك في الدهليز. وإذا ظهر سامي، فسأختفي ببساطة. وإذا لم أكن هنا حين تعود، فاعلم أننا وقعنا».

تصافحنا مرة أخرى، وانصرف «فين». وقفت في الدهليز أعض على أصابعي، وأُرهِف سمعي لكل صوت. وكانت فكرة أن «مارس» يمكن أن يفلت من خلال أصابعي، حتى في هذه اللحظة المتأخرة، كانت هذه الفكرة تعذبني وتدفعني إلى الهياج. ذهبت، ونظرت إليه، وتحدثت إليه من خلال القضبان. ثم توجهت بعد ذلك إلى مطبخ «سامي»، فوجدت شريحتين من لحم الخنزير قدمتهما إليه، رجعت بعد ذلك إلى موقعي من الدهليز.

وبعد حوالي خمس دقائق تناهى إلى سمعي وقع أقدام على درجات السلم، فتأهبت للفرار، ولكنه كان «فين». وكان يبدو بارداً بدرجة تبعث على الدهشة. قال: «تمكنت من الحصول على سيارة أجرة ذات غطاء».

رفعنا القفص، وأخرجناه مرة أخرى إلى الممر، ثم أغلقت باب سامي، وتوجهنا صوب السلّم.

قلت: «سنخرج من الطريق الخلفي لنتجنب البواب».

قال فين: «سيارة الأجرة عند الباب الأمامي».

- «إذن فسنحمل الشيء اللعين حول المبنى من الخارج!».

وهنا أسقط «مارس» إحدى الشريحتين، فدست عليها وكدنا نسقط على المجموعة الأولى من درجات السلّم. غير أنني كنت شديد الحذر. وعندما بلغنا الطابق الأرضي، انعطفنا بحدة صوب مدخل أصحاب الحِرَف اليدوية، يقودني «فين».

وحين وصلنا إلى ذلك الباب، ألفيناه موصداً. وما كدنا نصل إلى هذا الكشف حتى سمعنا صوتاً خلفنا يقول: «هيْ!»، فوثبنا كأنما أصابتنا رصاصة. كان الصوت صوت البواب. وكان رجلاً متين البنيان، بطيء النظرة، يرتسم على سحنته تعبير عنيد.

قال: «لا تستطيعان الخروج من هذا الطريق، ألا تريان؟».

فسألته: «ولِم لا؟».

قال: «لأنه يُغلق في الساعة الرابعة والنصف».

قلت له: «حسن، إذن سنخرج من الطريق الآخر». وكنت على استعداد لكسر عنقه في هذه اللحظة لأخرج «مارس» من هذا المبنى.

قلت لفين: «ارفعه!» ورفعناه.

قال البواب معترضاً طريقنا: «هي! ليس بهذه السرعة!» وكان يمضغ

قطعة من اللادن.

قلت له: «نحن في عجلة من أمرنا..» ثم خاطبت فين قائلاً: «إلى الأمام سر!» ومضينا في طريقنا إلى المدخل الرئيسي، بعد أن نحّيت البواب جانباً. وكنت أستطيع أن ألمح الآن من خلال الأبواب الزجاجية، سيارة الأجرة في انتظارنا، وكذلك السائق، فكأنني أبصرت أرض الميعاد.

تقدمنا البواب، ووضع يده على الباب قائلاً: «قلت لكما ليس بهذه السرعة».

فقلت: «وقلتُ أنا اننا في عـجلة من أمرنا».

قال البواب: «من واجبي أن أعرف ماذا تصنعان، وما هي السلطة التي تنتميان إليها».

قلت: «نحن ننقل هذا الحيوان من المبنى، وسلطتنا هي السيد ستارفيلد. ألديك أي اعتراض؟».

تدبر البواب هذا الكلام، ثم قال أخيراً: «اعتراض؟ لا أظن أن هناك شيئاً من ذلك. وقد أخبرت السيد ستارفيلد مراراً وتكراراً أن هذا مخالف للقواعد، أن يحتفظ بالحيوانات المستأنسة في هذه الشقق. فقال لي إن هذا الكلب ليس حيواناً مستأنساً، ولكنه كلب يؤدي أدواراً.. كلب استعراضي! قلت له إن من الأفضل أن يؤدي أدواره في غير هذا المكان، وإلا لجأت إلى المشرفين. قلت لكما إن هذا مخالف للقواعد. وقلت، إن أردت، استطيع أن أطردكما.. وليس من الخير إعطائي نقوداً أيضاً، فأنا لا أريد أن أفقد وظيفتي، أليس كذلك؟ من واجبي أن أقوم بوظيفتي، أليس كذلك؟ ليس من أجل نفسي أفعل ذلك، هذا ما أخبرته به. ماذا يعنيني إذا أحضرتَ كلباً هنا، هذا ما قلته له. لا يعنيني إن كان كلباً أو

امرأة، قلت له هذا.. ولكنها القواعد..».

وبينا كان يهرف بهذا الكلام، أخرجنا «مارس» إلى الشارع. وبدأ السائق الذي كان قد أسدل غطاء السيـارة في المساعدة على رفع القفص إلى السيارة. وكان أن احتل الجزء الخلفي كله منها، إذ رقد مائلاً بأحد طرفيه تقريباً على أرضية السيارة، على حين برز الطرف الآخر من فوق الغطاء عند المؤخرة. وعاد الآن «مارس» المسكين العجوز إلى أرضيته الألومنيوم، ولأنه كان مائلاً بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، فقد انزلق مصطدماً بالقضبان، هو وقصعته المخصصة للماء والتي أخذت تصلصل بجنون ونحن نقوم بتعديلِ وضع القفص. وتشبث الكلب متجهاً بما تبقى من شريحة لحم الخنزير، ومنعه ذلك من النباح، رحمةً بنا.

قال السائق: «يا له من صبيّ مسكين!» وكان يأخذ المسألة كلها مأخذاً فلسفياً. «إنه ليس في وضع مريح جداً.. فلنحاول هذه الطريقة». وأراد أن يعود إلى القفص مرة أخرى.

صحت به: «اتركه.. إنه على خير ما يرام!».

قال سائق السيارة: «ولكن لم يعد لكما الآن مكان أنتما الاثنين»،

قلت له: «هناك متسع من المكان». ونفحت البواب نصف جنيه. وجلس «فين» في المقدمة إلى جانب السائق، على حين تسلقتُ أنا قمة القفص وقبعتُ في الزاوية التي بينه وبين ظهر مقعد السائق.

قال السائق: «ليس هذا بالوضع السليم. والآن، لو أنك وضعتَ نفسك...».

صحت: «ألا تفضلت بالمسير!» لم يبق إلا أن تفشل السيارة في القيام.. ولكنها قامت. ولوَّح لنا البواب مودِّعاً، وكان أن اتجهنا صوب «طريق الملك» King's Rood.

التفت «فين» إلى الخلف ونظر إليّ، فضحكنا صامتين كلٌ إلى الآخر ضحكة انتصار وإنجاز، طويلة طويلة.

قال السائق: «لم تقولا لي إلى أين أذهب». وتوقف عند «طريق الملك».

قلت له: «إمض صوب فولهام Fulham وسنخبرك بأكثر من ذلك بعد دقيقة!» لم أكن أريد أن أجازف بلقاء «سامي» عائداً بسيارته بعد زيارته لسادي. ولا بد أن منظرنا كان يبعث على الريبة، إذ كان الناس يلتفتون ويحملقون فينا على طول الطريق.

قلت مخاطباً فين: «انظر، أول ما ينبغي أن نفعله هو أن نبتاع مبرداً وأن نطلق سراح هذا الحيوان».

قال فين: «الحوانيت مغلقة».

قلت له: «فليكن، سنطرق أبوابها مرة أخرى».

ثم قلت للسائق: «توقف عند محل تاجر الحديد والأدوات المعدنيّة»، ولم يكن قد اهتز له جفن، فما من شيء يمكن أن يثير دهشة سائق أجرة في لندن. توقف أمام حانوت لتاجر حديد في طريق قصر فولهام Fulham Palace Rood، وبعد شيء من الطرق على الباب، وشيء من المناقشة ابتعنا مبرداً.

قلت للسائق: «والآن، خذنا إلى مكان هادىء قريب من هنا حيث نستطيع أن نصنع هذا الشيء دون إزعاج».

قادنا السائق الذي يعرف عاصمته لندن إلى فناء للأخشاب غير مطروق بالقرب من «جسر هامر سميث» Hammersmith Bridge، وعاونا على إنزال القفص. وكنت أود أن أصرفه هنا والآن، غير أننا لم نكن نملك ما يكفي من المال لدفع أجرته. كان «فين» يملك ـ كالمعتاد ـ ثلاثة جنيهات

وثمانية بنسات. أما ما كان يعتقد السائق أننا نذبره، فلا يعلمه إلا الله وحده. وأياً كان تفكيره، فإنه لم يعـلّق بشيء. وربما كان يظن أنه كلما كان ما ندبره مريباً، كان «البقشيش» أكبر.

ونزلنا من السيارة للعمل بالمبرد، الذي تناوبناه واحداً بعد الآخر. ومع أننا بذلنا ما في وسعنا من جهد شاق، إلا أننا لم نفلح في إطلاق سراح «ميستر مارس» إلا بعد نصف ساعة بالتمام والكمال. ورفضت القضبان أن تنثني حتى بعد أن فصلناها من طرف واحد، ومن ثم كان لا بد من فصلها من الطرفين. وكان «مارس» يلعق أيدينا أثناء العمل، وهو يعوي في لهفة. كان يعلم جيداً ما يدور حوله. ونجحنا أخيراً في إزالة ثلاثة من القضبان، وبينما كان المبرد يضرب الجزء الأخير من المعدن، وسقط القضيب الثالث، كان مارس يناضل فعلاً للخروج من خلال الفجوة. وتلقيت الحيوان الضخم الأملس بين ذراعـيّ وفي لحظة كنا نتواثب جميعاً حول الفناء: الكلب نابحاً والحشد صائحاً، وأنا وفين نحتفل بتحريره.
قال فين: «تذكّر أنه لم يهرب».

لم أكن أعتقد أن «مارس» يمكن أن يكون من الجحود بحيث يتركنا بعد كل هذا العناء الذي تجشمناه من أجله، غير أنني تنفست الصعداء مع كل هذا حين استجاب طائعاً لدعوتي: «تعال هنا، يا سيدي!».

تناقشنا بعد ذلك في مشكلة القفص وما نصنع به. اقترح «فين» أن نطوّح به في النهر، ولكني اعترضت على ذلك. لم تكن شرطة لندن تمقت شيئاً مثل أن ترى الناس يلقون بأشيائهم في النهر. ومن ثمّ، قررنا أن نتركه حيث كان. ولم يكن الأمر وكأنما نعنى حقاً بطمس آثارنا، أو كأنما كان هذا ممكناً على كل حال.

وبينا كنا نتحدث، كان السائق ينظر إلى القفص متأملاً. قال: «لا ثقة فيها. هذه الأقفال الوهمية. تتعطل دائماً، أليس كذلك؟». ووضع يده

خلال القضبان وضغط على لولب على الجانب السفلي للسقف. فانفتح في الحال أحد جوانب القفص في نعومة زيتية. ووضع هذا حداً للمناقشة. وتفحص كل منا ـ فين وأنا ـ وجه السائق الذي أثار إلينا النظر في سذاجة. فأحسسنا بأننا لا نملك أي تعقيب.

* * *

قال فين: «سأخبرك بشيء.. أنا مرهَق، فهل نستطيع أن نذهب إلى مكان ما ونستريح الآن؟».

لم تكن عندي نيَّة للراحة، ولكن رأيت من الخير أن أدع «فين» ينصرف. كما راودتني أيضاً رغبة مباغتة في أن أخلو إلى «مارس». أعطيت «فين» خمسة شلنات، وكانت هي كل ما أستطيع أن أتنازل عنه، وطلبت منه أن يستقل سيارة الأجرة إلى «طريق جولد هوك» Goldhawk Road ، وأن يقترض الباقي من «ديف». ولكنه كان متردداً في تركي، وأضعت بعض الوقت في إقناعه بأن هذا هو حقاً ما أريده. وأخيراً مضت سيارة الأجرة في طريقها، ومضينا «ميستر مارس» وأنا على أقدامنا صوب «هامر سميث برودواي» Hammersmith Brodway .

وحين أخذت أتجول و«مارس» إلى جانبي أحسست بأنني أشبه بملك. وجعلنا نتبادل النظرات بين الحين والحين، ولم يكن في وسعي إلا أن أشعر بأنه راض عني كما أنني راضٍ عنه. وقد تأثرت بما أبداه من طاعة. ودائماً ما تنتابني الدهشة حين أرى مخلوقاً آخر يفعل ما آمره به. وبدا لي في هذه اللحظة أن اختطاف «مارس» هو أعظم أفعال حياتي إلهاماً. لم تكن المسألة أنني أفكر في استغلال «مارس» لغرض معين بالذات. ولم يكن ثمة شيء أبعد عن ذهني في هذه الآونة من «سادي» و«سامي». كل ما في الأمر أنني كنت مسروراً للحصول على «مارس» بعد كل هذه المشقة للحصول عليه. كنا نسير شامخيْ الرأس، ودخلنا معاً

إلى «حانة ديفونشاير آرمز» Devonshire Arms في «هامر سميث برودواي».

استرعى «مارس» كثيراً من الانتباه. قال لي أحدهم: «يا له من كلب بديع ذلك الذي تملكه!». وفيما أنا أطلب ما أريد، التقطت صحيفة مسائية كانت على طاولة المشرب. وخطر لي أنه قد حان الآن الوقت الذي أبحث فيه عن مفتاح لهوية «هـ. ك.» وربما أوضح ذلك أيضاً الجدول الزمني الذي تضعه «سادي» و «سامي». بدأت أتصفح الجريدة، ولم أبتعد كثيراً إذ كان العنوان الرئيسي كالآتي: القطب السينمائي الكبير يبحث على ظهر السفينة Q. E. (الملكة إليزابيث)، وتحته هذا العنوان الفرعي: «صانع الملوك في هوليوود يبحث عن أفكار في بريطانيا:

في واحدة من أفخر قمرات السفينة «الملكة اليزابيث» الراسية هنا لوقت قصير، يجلس رجل هادىء ضئيل الجسم يحتسي الكوكا كولا. واسمه الذي لا تعرفه إلا قلة من الجمهور هنا، واحد من الأسماء الساحرة في هوليوود. وهؤلاء العالمون حقاً بصناعة السينما يعرفون أن هومر ك. برنجشايم Homer K. Pringsheim هو القوة التي تقف وراء كثير من العروش، وهو الصانع للعديد من الشخصيات السينمائية ومحطمها. والسيد برنجشايم الذي يحيا حياة بسيطة ويتجنب الدعاية، أعلن في مؤتمر صحفي عقد في نيويورك أنه ذهب إلى أوروبا «أساساً بوصفه سائحاً» ولكن من المعروف على كل حال أن هـ. ك. H. K. - كما تدعى هذه الشخصية الفذة في لوس أنجيليس على سبيل الاعجاب - في طريقه للبحث عن نجوم جديدة وأفكار جديدة. ولما سئل عما إذا كان يحبذ قيام تعاون أوثق بين صناعتي الأفلام البريطانية والأمريكية، قال السيد برنجشايم، «حسن... ربما».

كان هذا كافياً لتوضيح ما شغلني على كل حال. وتساءلت عن الوسائل

التي اتخذتها سادي للوصول إلى «هـ. ك.» وكم سوف تستغرق من الوقت لوضع توقيعه على السطر المنقّط. ولم أكن أشك في أن «سادي» تعلم بالضبط ما هي فاعلته. ومن المحتمل أنها فتنت هذا الرجل الهادىء الضئيل في زيارة سابقة. وما عليّ الآن إلا أن أعمل بسرعة. وبقي أن اكتشف متى ترسو «الملكة إليزابيث» على وجه التحديد.

وكنت أتصفح بقية الجريدة لأرى إن كان هذا قد أعلن في مكان ما حين لاحظت خبراً صغيراً في أسفل إحدى الصفحات جاء فيه:

آنا كوينتين في طريقها إلى هوليوود

خبراء الأغنية سوف يألفون اسم «آنّا كوينتين» مغنية البلوز blues (أغاني الزنوج الحزينة) الممتازة والمطربة المتعددة القدرات. أما المعجبون بالآنسة كوينتين الذين أسفوا على انسحابها الأخير من أضواء المسرح، فسوف يسمعون بمزيج من المشاعر خبر تعاقدها مع هوليوود. وفي رحيلها إلى باريس لفترة وجيزة، رفضت الآنسة كوينتين أن تؤكد أو تنكر على السواء الإشاعة القائلة بأنها وقّعت عقداً طويل الأجل للعمل في أمريكا وبأنها سوف تبحر قريباً في الباخرة «الحرية» (ليبرتي). و «الآنسة كوينتين» هي شقيقة ممثلة الشاشة الشهيرة «سادي كوينتين».

درست هذا الخبر حوالي عشر دقائق، محاولاً القراءة بين السطور، وكالمعجبين الآخرين «بالآنسة كوينتين» انتابتني مشاعر مختلطة. وفي مجمل الأمر، أحسست بارتياح عميق. كان عقد هوليوود هذا هو بلا شك العرض الذي قبلته «آنا» في شيء من التردد. ومن المحتمل أنها قررت أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع تصرفات «هوجو» المزعجة هي الفرار. وكنت أعرف ـ من ناحية أخرى ـ أن «آنّا» سوف تأسف على مغادرة أوروبا. أما بالنسبة لي، فكان شعوري المباشر هو أنني أوثر ان تأخذها مني هوليوود

على أن يأخذها مني «هوجو». فقد تعود من هوليوود؛ ولا يزال من الممكن على كل حال ـ ألا تكون قد حزمت أمرها نهائياً. وتوحي إليّ معرفتي بشخصية «آنّا» بأنها إذا استقر عزمها نهائياً على أن تفعل شيئاً تراودها في أمره هواجس خطيرة، فإنها تريد أن يعرف كل إنسان عنه في الحال.

كانت هذه هي ردود أفعالي الأولى. وفي غضون خمس دقائق تقريباً من تخلصي من أكبر مخاوفي، بدأت ـ على كل حال ـ كما يبدأ شخص تماثل للشفاء من الحمى فأصابه وجع في أسنانه ـ أن أحزن على حالة الأشياء البديلة من أجلها. فالحق أنني لم أشعر بدافع لا يقاوم للرجوع إلى المسرح وإزعاج «آنا» بمجاملاتي. غير أنني كنت أعلم أن «آنا» هناك، وكنت واثقاً من أنها سوف تدعوني قبل أن يمضي وقت طويل. ولأنها فعلت هذا بالتأكيد، تذكرته بشيء من الألم. أما وجود «آنا» في الولايات المتحدة الأمريكية، فكان غذاء مختلفاً كل الاختلاف للفكر. وخطر لي حينئذٍ أنني لو رحلت فوراً، فقد أدركها في باريس وأقنعها بالعدول عن الذهاب بتاتاً.

كانت هذه الفكرة شديدة الجاذبية لفترة قصيرة. وقَطَع عليّ «مارس» تأملي هذا، وكان يضع كفاً ضخمة جافة فوق ركبتي. حدثته قائلاً: «أجل، لقد نسيتك». بالطبع، أستطيع دائماً أن أعيد «مارس» إلى «سامي». وإذا كنت لا أريد أن أرى السحنة التي سيلقاني بها «سامي»، فإنني أستطيع أن أحضر «مارس» إلى تشيلسي» وأن أربطه خارج الباب، أو أستطيع أن أعيده إلى مركز للشرطة إذا استدعى الأمر ذلك. ماذا يعنيني حقاً من رواية «البلبل الخشبي»؟ فليأخذوا هذا الشيء اللعين إذا شاءوا. وحينئذٍ بدا لي أن اختطاف «مارس» كان أحمق شيء ارتكبته في حياتي. ولو لم أقترف هذا الخطأ لكان من الممكن أن اتخذ خطاً أخلاقياً رفيعاً مع «سادي»

و «سامي» بشأن «المنسوخ» ـ فسامي على كل حال يؤنبه ضميره على فعلته تلك، وربما أرهقتهما بمبلغ كبير من المال. كما أنني مقيد بهذا الحيوان، ولو لم يكن الأمر متعلقاً به، لتخليت عن هذه المسألة المتعبة كلها، وتعقبت «آنا».

ومع هذا، أمعنت الفكر مرة أخرى، فرأيت أنه من الخطورة بمكان أن أرحل الآن. وما ينبغي أن أفعله بكل تأكيد هو أن أحذّر «هوجو» من خطة «سادي». لا لأنه من المحتمل أن يكون «هوجو» قادراً على أن يفعل شيئاً في مواجهتها؛ ولكن، لأنني لن يستريح لي ضمير حتى يعرف. أما فيما يتعلق بغريزتي للاشتباك في معركة مع «سامي» و «سادي»، فقد كانت غريزة سليمة بما فيه الكفاية. ثمة شيء غير متوقع ـ على أقل تقدير ـ قد استولى على هذين الأفعوانين؛ وعندما فكّرت في الطريقة التي عامل بها «سامي» «مادج»، وددت لو أنني سدَّدت إليه صدمة أكبر من ذلك. ولم يتبق إلا أن أرى القيمة العليا التي يمكن أن أضعها لمارس من وجهة نظر الابتزاز. أكلت فطيرة باللحم، وأكل «مارس» مثلها، ونظرت في ساعتي. كانت تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق. كلما أسرعت في العثور على «هوجو»، كان ذلك أفضل؛ والواقع أنني ما إن استحضرت صورته الضخمة الشبيهة بالدب حتى ملأني شوق عظيم إلى رؤيته، ولا سيما حين شعرت بأن ثمة قَدَراً معاكساً يحاول التفريق بيننا. كان من الضروري ـ روحياً ـ أن أعثر على «هوجو».

وفي الدقائق القلائل التالية، كنت أتصل هاتفياً بشركة «لويدز». فعلمت أن السفينة «الملكة اليزابث» سترسو بعد غد. لم يكن هذا سيئاً كل السوء. ثم أدرت رقم «هوجو» في شارع هولبورن، فلم أتلق جواباً، فاتصلت باستديو «باونتي بلفاوندر». فقد حسبت أنَّ من الممكن أن يكون «هوجو» ما زال هناك. ورد عليّ الأستوديو وأخبرني أن الأشخاص جميعاً

ما برحوا في مواقعهم. أما إذا كان «السيد بلفاوندر» ما زال هناك، فهذا ما لم يكونوا متأكدين منه، فقد كان هناك في ساعة مبكرة من المساء، ولكنه ربما انصرف الآن. كانت هذه أنباء طيبة بما فيه الكفاية. وقررت أن أذهب إلى الأستوديو.

الفصل الثاني عشر

يقع استديو «باونتي بلفاوندر» في إحدى ضواحي جنوب لندن حيث تصل المصادفات العارضة إلى درجة الغثيان. ذهبت إلى أبعد ما تستطيع أن تحملني نقودي في سيارة أجرة، وأكملت بقية الطريق في حافلة. تركني هذا مفلساً، غير أن أفكاري لم تكن تتجاوز اللحظة التي أنا فيها. ولو كنت ممن شاهدوا استديو للأفلام فسوف تعرف كيف يمتزج في ديكورها ـ امتزاجاً غريباً ـ الرياش المتألق وسقط المتاع. وكان «باونتي بلفاوندر» يؤثر الأخير نوعاً ما. ويحتل الأستوديو منطقة واسعة تمتد بين خط حديدي والطريق الرئيسي، ويحيط بها من ناحية الطريق سور شديد الارتفاع من الألواح الحديدية المموَّجه. أما الباب الرئيسي الذي كان في المركز من شريط من المباني المنخفضة المؤقتة، فكان يبدو أشبه بمدخل حديقة للحيوان؛ وفوقه اسم «باونتي بلفاوندر» الذي يسطع باستمرار بأنوار النيون، والذي يثير التنهدات في صدور الفتيات اللواتي يمررن به يومياً في طريقهن إلى العمل في «طريق أولد كنت» **Old Kent Road** ، أو حوله.

نزلنا «مارس» وأنا من الحافلة. ولو حاولت مرة أن تدخل إلى استديو للأفلام فستعرف أن فرص اعتبارك شخصاً غير مستند إلى سلطة كثيرة حقاً. وأنا نفسي صنف من الأشخاص المهنيين الذين لا يستندون إلى

سلطة؛ وأنا على ثقة من أنني مُنِعت من دخول أماكن أكثر من أي عضو آخر من أعضاء الأنتلجنسيا الانجليزية. وخطر لي وأنا أقف ناظراً الآن إلى الأستديو أنني قد أجد صعوبة في الدخول. إذ كان المدخل الرئيسي يتألف من بوابتين حديديتين لم تكونا مغلقتين فحسب، بل كان يحرسهما لا أقل من ثلاثة رجال يجلسون في مكتب صغير يطل على الطريق، مهمتهم ومتعتهم بالطبع هي أن يرشدوا المشهورين إلى طريقهم، ويطردوا المساكين عن الأبواب. وكنت أعرف أنه لا جدوى من الاقتراب منهم وسؤالهم عن «هوجو» . ومن ثمَّ قررت أن أقوم بجولة خارج المكان لأتبين إن كانت هناك طريقة أكثر ترحيباً للدخول. وكنت قد استرعيت فعلاً انتباه هؤلاء السيربيروسيين(*) Cerberi ، وكانت نظراتهم تدينني بالتسكع. كما خطر لي أيضاً، وبخاصة في هذا الوَسَط - أنهم قد يتعرفون على «مارس». وكنت أميل حقاً إلى رأي «فين» من أن الكلاب الألزاسية تتشابه؛ ولكن هناك بعض الأشخاص الذين يستطيعون التمييز بين الكتاكيت التي لا يزيد عمرها على يوم واحد، والتمييز بين الصينيين أيضاً. وهكذا ابتعدنا متظاهرين باللامبالاة.

تتبعنا السور الحديدي حتى بلغنا خط السكك الحديدية. وكانت تغطيه دعاية للفيلم القادم الذي يُنْتج حالياً في الداخل. وتذكرت الآن أنني رأيت شيئاً عنه في الصحف. كان فيلماً يدور عن مؤامرة كاتيلينا(*) Catiline والذي كان من المنتظر أن يكون فيلماً عظيماً نظراً للمشقة المضنية التي بُذِلت لتقديم هذه القصة التي احتدم حولها النقاش وأسيء عرضها بلا

(*) نسبة إلى سيربيروس Cerberus وهو كلب ذو ثلاثة رؤوس تقول عنه الأساطير اليونانية انه يحرس باب الجحيم. (المترجم).

(*) كان كاتيلينا نبيلاً من نبلاء روما. ثم شغل منصب البرايتور Praetor أي القائم على السلطة التنفيذية (٦٨ ق. م)، وأصبح فيما بعد حاكماً على أفريقيا. قاد ثورة في روما باءت بالفشل فلاذ بالفرار وقتل. (المترجم).

أدنى شك. كانت الإعلانات تعلن لسكان لندن الحيارى: «أخيراً! الحقيقة عن كاتيلينا!» ولا أقل من ثلاثة من المؤرخين البارزين القدامى على جدول المكافآت. وكانت سادي تؤدي دور أورستيللا Orestilla زوجة كاتيلينا والتي قال عنها «سالوست» Sallust ان ما من إنسان صالح أثنى عليها إلا من أجل جمالها فحسب، كما أفصح «شيشرون» عن اعتقاده بأنها ليست زوج «كاتيلينا» فحسب، ولكنها ابنته أيضاً. وعن هذا التلميح الأخير، لم يذكر الفيلم شيئاً؛ ولكن عن القول الأول سواء اقتضاه البحث أو ضروريات النص، فإنه يفنده بتقديم «أورستيللا» بوصفها امرأة ذات قلب من ذهب وصاحبة مبادىء إصلاحية معتدلة.

يبدو أن المكان غير قابل للاختراق. وربما كانت هناك طريقة للدخول من جانب الخط الحديدي. غير أنني ادخرت هذه الطريقة كملجأ أخير؛ ذلك أنني وإن كنت لا أخشى السيارات، إلا أن القطارات تثير أعصابي. وكنت أعرف أن هذا شيء لا منطقي، ما دامت القطارات تجري على قضبان ـ فيما عدا لحظات الكوارث، ولا يمكنها أن تتعقبك عبر الأرصفة والمحلات كما تستطيع السيارات. ومهما يكن من أمر، فقد تضاعفت مخاوفي الطبيعية في هذه المناسبة بسبب وجود «مارش». وقد تصورته ـ في صورة حية متجسدة ـ والقطار يجري عليه، وكانت هذه الصورة تبدو لخيالي المحموم نتيجة محتومة لمخاطرتنا بالسير فوق القضبان. وهكذا قفلت عائداً صوب البوابة الرئيسية.

وهنا لاحظت أن الرجال الثلاثة الذين نظروا إليّ بوصفي متسكعاً مشبوهاً قد انصرفوا، وأن رجلاً واحداً فحسب هو الذي يجلس الآن داخل إطار النافذة. نظرت إلى البوابة، وما ان فعلت ذلك حتى شاهدت في داخلها، واقفة في فناء الاستوديو، السيارة «آلفيس» Alvis السوداء الضخمة التي رأيتها تنساب من «مسرح ريفرسايد» Riverside Theatre . وكنت واثقاً من أنها السيارة نفسها. وكان في هذا انعقاد لعزمي. ففي

مكان ما على الجانب الآخر من هذه البوابات كان يوجد «هوجو». ودون أية فكرة في رأسي، اقتربت من النافذة. نظر إليّ الرجل متسائلاً. فانحنيت نحوه.

همست له قائلاً: «أنا صديق جورج»، وسددت نظرتي في عينيه. وتمتمت بالاسم في شيء من الغموض بحيث يمكن أن يؤخذ على أنه «جو» أو «جيميس» أو «جاك». ويبدو أن واحداً من هذه السهام قد أصاب هدفه؛ إذ أومأ الرجل برأسه على نحو فيه شيء من الازدراء، ولمس رافعة، ففتحت الأبواب.

قال: «في خط مستقيم عبر الفناء، ثم انْعَطِفْ على اليسار». ودخلت.

لم أكن أريد أن ألفت الانتباه إلى «مارس» بأن أناديه، وإنما تمنيت أن يكون على إحساس كافٍ فيتبعني على الفور. وعندما استمعت إلى البوابات وهي تبدأ في الانغلاق خلفي، لم أتمالك نفسي من الالتفات قليلاً لأرى ما حدث له. غير أن كل شيء كان على ما يرام. فهو لم يتبعني ـ محاذراً ـ في أعقابي فحسب، بل لقد خَفَض ذيله وهو يجتاز المسافة تحت نافذة المكتب. ودون أن أنظر خلفي مرة أخرى، أسرعت عبر الفناء، فتجاوزت سيارة «هوجو»، ودخلت في متاهة من المباني على الجانب الآخر .وعن شمالي، كان ثمة باب كتبت على أعلاه كلمة «خصوصي» Extras . كان هذا بلا شك هو المقصد المنشود لصديق «جو»، وتساءلت لحظة هل من المفيد لي أن أستمر في هذا الدور. ولكني قررت أنه لم يعد ثمة ما يدعو أن أتخذ ثوب الروماني القديم لأعثر على «هوجو» وبخاصة أن هذا يعني تسليم سراويلي لشخص آخر، وهذا فعل أشعر نحوه برعب بدائي. ومن ثمّ مضيت في طريقي مباشرة، وفيما كنت أفعل ذلك، خلعت رباط رقبتي، وعقدتُ أحد طرفيه بطوق «مارس»... وعندئذٍ أحسست بأنني على استعداد لأي شيء.

ومن مسافة بعيدة، كنت أستطيع الآن أن أسمع صوتاً يجأر بطريقة خطابية حارة. وكان الصوت يشق في وضوح هواء المساء المرهف. واتجهت صوب مصدر الصوت، ذلك أنني لم أكن أشك في أنني لو عثرت على مركز العمليات، فسوف أكتشف «هوجو». لم يكن حولي مخلوق، ولم يكن هناك صوت آخر. ومن الجليّ أن موظفي المكتب قد انصرفوا إلى بيوتهم. وأخذت أنحدر من طريق ضيق تقوم على جانبيه الأبنية الخرسانية، و «مارس» يسير إلى جانبي، إلى زقاق ضيق آخر. وفي مكان ما أمامي، انبعثت كمية كبيرة من الأنوار. فدلفت إلى ركن، وهناك انفتح أمامي مشهد من أغرب المشاهد.

إذ قامت في خلفية المشهد قطعة من روما القديمة كانفجار للألوان والأشكال. وعلى الجدران المنتصبة من الطوب الأحمر والأقواس والأعمدة الرخامية والدعائم كان يسقط الإشعاع الأبيض الساطع للمصابيح الكاشفة جاعلاً المباني تبرز بروزاً أعنف من بروزها في الطبيعة، ومضفياً الظلمة ـ في مضاد ذلك ـ على الهواء المحيط فيحيله إلى ضباب شفقيّ. وعلى مقربة مني، امتدت غابة من الصقالات الخشبية مزينة بأسلاك غليظة تتدلى منها هذه المصابيح الضخمة نفسها؛ وفي المسافات بينها، ركِّبت على ركائز من الصلب، ووضعت على الروافع آلات التصوير التي لا تعد ولا تحصى، وكلها عيون. وأغرب من هذا كله، وفي الساحة المكشوفة أمام المدينة، وقف حشد يتألف من حوالي ألف شخص تقريباً في صمت تام لا تصدر عنهم نأمة. وكانت ظهورهم متجهة نحوي، ويبدو عليهم أنهم ينصتون مأخوذين بصوت يتموج لشخص واحد يقف في عربة عالية فوقهم، يهتز ويأتي بحركات في بؤرة الضوء المتوهج.

لم يكن من شك أن هذا هو «كاتيلينا» يلهب مشاعر الغوغاء. وكان البياض غير الطبيعي الذي اتسم به الضوء قد جعل الألوان تحترق في عينيّ، ومن ثم كان لا بد أن أدير رأسي بعيداً. وربما كان من الممكن أن

أتابع مفتوناً ما يجري تحت ناظري، لو كان ذلك في وقت آخر. أما في هذه اللحظة، فلم يكن في ذهني ـ على كل حال ـ سوى فكرة واحدة، وهي يقيني من أنه لا تفصلني عن «هوجو» الآن غير مسافة قصيرة. أخذت أتحرك حولي وراء الصقالة، سائراً خلف أشعة الضوء كما يسير المرء خلف شلال من المياه. لم أكن أريد أن يكون «هوجو» هو البادىء برؤيتي. وكلما مشيت، بدت المدينة وكأنها تفشي ما انطوى من أسرارها، كاشفة ـ بحيلة من حيل المشهد ـ أفقاً إثر أفق من الطرقات والمعابد والأسواق ذات الأعمدة. مضيت في طريقي مذهولاً، خارج دائرة اللون، وشلال الضوء على جانب، والغسق على جانب آخر. وحتى «مارس» كان يبدو مأخوذاً، واقعاً تحت تأثير السحر، كلباً ينزلق تتأرجح ساقاه المضمومتان جيئة وذهاباً دون أن تلمسا الأرض. واستمر الصوت الحار في تدفقه، يصب فيضاً لا ينتهي من الاحتجاج الحماسي والنداء. وبدأت بعض الألفاظ التي يتفوه بها تجد الآن طريقها إلى أذني. كانت تقول: «وهذه ـ أيها الرفاق ـ هي الطريقة التي نتخلص بها من النظام الرأسمالي. لا أقول إن هذه هي الطريقة الوحيدة، ولكني أقول إنها أفضل طريقة». وتوقفت. إذ كنت أعلم أن الماركسية يمكن أن تقوم بسرعة بتحويل دراسة التاريخ القديم؛ ومع ذلك بدا قوله هذا غريباً إلى حد ما. وفي ومضة أدركت أن المتحدث لم يكن «كاتيلينا»، بل كان «لفتي» Lefty.

انقطع الصوت، وشرع الحشد في الخروج من سكونه. وفي همهمة ارتفعت إلى هدير ترددت أصداؤه بين واجهات المدينة الاصطناعية، صفّقت الجماهير وتعالت هتافاتها، وتحركت واهتزت والتفت كل واحد منهم إلى الآخر. وهنا وهناك كنت ألمح بينهم رومانيين يرتدون الثياب الرومانية الفضفاضة، غير أن الغالبية العظمى من الرجال كانوا بالطبع مهندسين وفنيين في «الأوفراولز» Overalls والقمصان ذات الأكمام

القصيرة. وفي الجانب البعيد عنهم، كنت أستطيع ان أرى الآن راية طويلة ـ كانت تكتمل رؤيتها رويداً رويداً كلما اقترب حاملوها ـ تمتد بين قطبين، وقد طُبعت عليها بأحرف هائلة هذه العبارة: «الإمكانية الاشتراكية». وفي تلك اللحظــة وقع بصري على «هوجو».

كان يقف نائياً بنفسه قليلاً عن الحشد، ولكن وسط وهج الضوء الكامل. وقف على درجات السلّم في معبد يقع على حافة المدينة ناظراً صوب «لِفْتي» فوق رؤوس الناس. وفي الإشعاع المتعدد الزوايا لم يكن له ظل، وفي بياض النور كان يبدو شاحباً شحوباً غريباً، وكأن جسده مغطى بالطباشير. وكان يضم يديه ثم يباعد بينهما في حركة متفكرة، وكأن ذلك أثر من آثار التصفيق. كان يقف بطريقة مُمَيَّزة له أتذكرها جيداً، كتفاه محنيتان، ورأسه مُلْقى إلى الأمام، وعيناه تتحركان بحدة، محدودب الظهر قليلاً، وشفتاه تتحركان حركة طفيفة. . ثم أخذ يقضم أصابعه. وقفت متسمراً في مكاني. وشرع «لفتي» يتحدث مرة أخرى، فأحاط بصوته في الحال صمتٌ عميق.

أحس «هوجو» بنظرتي فاستدار قليلاً. . لم يكن يفصل بيننا سوى خمس عشرة ياردة فحسب. وانتقلت من الظل إلى النور، فرآني. نظر كل منا إلى الآخر لحظة من الزمن. لم أشعر بدافع إلى الابتسام أو حتى إلى الحركة. أحسست وكأنني أنظر إلى «هوجو» من عالم آخر. انسدل الوقار والحزن بيننا كما ينسدل حجاب، وكدت أشعر ـ لحظة ـ أنه لا يستطيع أن يراني، إذ كانت رؤيتي له شديدة التركيز. . ولم يلبث «هوجو» أن ابتسم ورفع يده، وبـدأ «مارس» يجرني إلى الأمام نحوه. وهنا غمرني شعور عميق بالأسى. بعد مهابة الصمت والغياب، سيأتي ابتذال الكلام. ابتسمت ابتسامة آلية، وأخذت أدرس وجه هوجو؛ عمَّ يعبِّر؟ الصداقة، الاحتقار، اللامبالاة، الغضب؟ كان التعبير فيهما لا يبين. ارتقيت درجات السلم، ووقفت إلى جانبه.

أكمل «هوجو» ابتسامته وتحيته، لم يكن متمهلاً ولم يكن متعجلاً، ثم التفت مرة أخرى إلى الاجتماع. وفيما كان يفعل ذلك، أتى بإشارة صوب «لفتي» وكأنها تعني: «ما عليك إلا أن تنصت إلى هذا!».

همست: «هوجو!»
فقال هوجو: «صه!».

قلت: «هوجو، استمع إليّ.. لا بد أن أتحدث إليك في الحال. أنستطيع أن نذهب إلى مكان هادىء؟».
قال هوجو: «صه، فيما بعد، أريد أن أسمع هذا.. إنه شيء هائل». وحدجني بنظرة جانبية حادة ولوّح بيديه في حركة استهجان. وأكمل «لفتي» فقرة أخرى، فاجتاحت الحشد همهمة ناعمة من الاستحسان.

قلت بصوت مرتفع وبإلحاح شديد: «هوجو، لا بد أن أحذرك...».

أطبق الصمت ثانية. وهز «هوجو» رأسه نحوي، ووضع إصبعه على شفتيه، وانصرف بانتباهه إلى «لفتي».

واصلت كلامي بصوت خفيض، محاولاً أن أسوق كلماتي إلى أذنيه: «سادي تخدعك، وهي...».

قال هوجو: «إنها دائماً كذلك. اصمت، يا جيك، هلا فعلت؟ نستطيع أن نتحدث فيما بعد».

غلبني اليأس على أمري. فجلست على درجات السلم عند قدمي «هوجو»، وجلس «مارس» إلى جواري. كان وهج المصابيح الكاشفة يصب في عيني اليسرى، وكان صوت «لفتي» يثقب رأسي كالسفّود. كان «لفتي» يقول: «اسألوا أنفسكم: ما قيمتكم الحقيقية. أنتم تعلمون ما تقوله: حيثما يكون كنزك، يكون قلبك». أحسست أن كل ما فعلته مؤخراً كان عبثاً ـ «آنا» ذاهبة إلى أمريكا، «سادي» و «سامي» يفعلان ما يحلو لهما

ولن يمنعهما شيء، «مادج» كانت ضحية للخداع، وها أنذا أعثر على «هوجو»، ولكنه لا يتحدث إليّ. لم يتبق لي سوى أن يُلْقى القبض عليّ وأن أوضع في السجن لأنني سرقت «مارس». طوقت بذراعي عنق «مارس»، فلعقني خلف أذني بحنان.

وبدا «لفتي» بارعاً ساعة أخرى. والحق أنه كان متحدثاً ملحوظ المكانة. وكان يتحدث ببساطة ولكن دون تردد، وحديثه غزير المعلومات، ومع ذلك كان حسن الترتيب أيضاً؛ وإن كانت تعوزه الزهور، إلا أنه لا يفتقر إلى القوة. وعلى الرغم من أن كل ما تذكرته من حديثه فيما بعد لم يكن سوى بعض الجمل القلائل الأخاذة، فقد كان انطباعي حينذاك أنه عرض على الناس حججاً مُحْكمة التعقل. إذ مزج على نحو ما النبرة الحميمة للداعية الشعبي بالأسلوب الدرامي الملتهب للزعيم المحرِّك للدهماء. ولما كان حديثه مجنّحاً بالإخلاص والعاطفة المتقدة فقد سقط كما يسقط السهم من فوق، نظيفاً نفّاذاً. وكان الألف من الرجال المستمعين إليه واقعين تحت تأثير سحره، إذ توقفت أنفاسهم، وشخصت إليه أبصارهم بشدة. وجعلت أراقبهم برهة وهم على هذه الحال. ثم حدثت رجفة خفيفة عند حافة الجمهور. وكان في مقابلنا وخلف المتحدث عدد من الألواح كُتبت عليها شعارات. هذه الألواح أخذت تتأرجح بخفة جيئة وذهاباً كقطع من الفلين فوق بحيرة اضطرب ماؤها فجأة. ولاحظت شجاراً أو شجارين يتطوران على الجانب القريب من المدخل الرئيسي. غير أن أحداً لم يكن في وسعه أن يلتفت حوله، إذ كـان «لفتي» قد استغرقهم جميعاً.

صعّدت بصري إلى «هوجو». كان يقف مثل رجل اجتاحته نشوة.

أخذت أجوس خلال المكان، مولّياً ظهري للاجتماع، وناظراً خلفي إلى شوارع المدينة العجيبة التي جعلها إفراطها في الأنوار تتوهج بألوان

مسرفة. وورائي، كان كل شيء يبدو مظلماً. تنهدت، ثم نظرت مرة أخرى إلى «هوجو». وبدأ يأسي يفسح مكانه للسخط، وشعرت بذلك الدافع العصبي للفعل بأي ثمن يجتاحني، وهو دافع سرعان ما يستبدّ بي في فترات الإحباط. أطلقت سراح «مارس». وكان خلْفنا زوج من الأبواب يفضيان إلى المعبد. أقنعت نفسي بلمحة بأنهما بابان حقيقيان، وبأن للمعبد داخلاً حقيقياً. ثم شرعت أدرس وقفة «هوجو»، هذه الدراسات المبدئية السريعة يمكن أن تكون ذات أهمية بالغة في لعبة الجودو. لاحظ أين يوضع ثقل خصمك، وفي أي نقطة يمكن أن يخلّ الضغط بتوازنه في أسرع وقت. استعرضت عدة حركات في ذهني، وقررت أن أنسب حركة يمكن أن تكون نسخة من رمية أو سوتو- جاري O Soto - Gari ، كما نسميها. ونهضت على قدميّ في تؤدة.

وقفت إلى جواره على درجة السلّم العليا. قلت له بحدة: «هوجو!» فاستدار نحوي نصف استدارة. وبينا هو يفعل ذلك، قبضت على ذراعه اليمنى بين الرسغ والكوع، ودفعتها بقوة نحو يساري، وهكذا سحبته لمواجهتي. وفي الوقت نفسه وضعت ساقي اليمنى كالخطّاف وراء ثنية ركبته اليمنى. وكوحدة متماسكة التف جسدي في رفق حول مفصل فخذي الأيسر، على حين تشبثت يدي اليمنى بحزام «هوجو»، وسَحَبْته داخل دائرة حركتي، دافعاً إياه ورافعاً له في الوقت نفسه. وحين بدأ ينهار خطوت خطوتين أو ثلاثاً إلى الوراء، فسقطنا معاً خلال الأبواب المزدوجة، وأخذنا نتدحرج داخل المعبد. وأُغلقت الأبواب خلفنا، ولكن ليس قبل أن ينفلت «مارس» من خلالها، ويقعي أمامها وكأنه يحرسها.

ونهضنا «هوجو» وأنا من سقطتنا، وقد جعل «هوجو» يدلِّك تلك الأجزاء من جسمه التي عانت من تلك النقلة. كان داخل المعبد معتماً، لا يضيئه سوى النور الذي يترشح خلال نافذة ضيقة ذات قضبان تقع

تحت زاوية السقف. وكان المعبد خالياً، فيما عدا صندوق خشبي جلس عليه «هوجو» بعد لحظة أو لحظتين. وانضممت إلى «مارس» عند الباب حيث جلست القرفصاء. نظرنا إلى «هوجو»، وكان من الواضح أن «مارس» لا يثق تمام الثقة في الموقف الذي ينبغي أن يتخذه تجاهه، وظل ينظر إليّ من حين إلى آخر بحثاً عن إشارة ترشده. وكان يزمجر برفق المرة بعد الأخرى وكأنه يحاول السيطرة على الموقف دون أن يسيء إساءة خطيرة إلى أحد. أخرجت علبة سجائري، وانتقيت لفافة وأشعلتها. وانتظرت حتى يقول «هوجو» شيئاً.

قال هوجو: «لماذا فعلت هذا، يا جيك؟».

قلت: «قلت لك إنني أريد أن أتحدث إليك».

قال هوجو: «حسن، إذن لم تكن بك حاجة إلى كل هذه الخشونة... لقد كدت تكسر عنقي».

قلت: «هراء.. كنت أعلم ما أفعله تماماً».

قال هوجو: «ماذا أردت أن تخبرني به؟» وكان يبدو مستسلماً تماماً للاحتفاظ به سجيناً.

قلت: «أموراً كثيرة جداً.. ولكن أولاً وقبل كل شيء هذا». وأخبرته بسرعة عما عرفته من خطط «سادي».

قال هوجو: «أشكرك لأنك أنبأتني بذلك». ولم يكن يبدو عليه أنه مندهش جداً، أو حتى مهتمّ حق الاهتمام.

ثم أردف قائلاً: «أرى أنك اصطحبت ميستر مارس معك» ولم تبدُ الدهشة عليه لذلك أيضاً.

وكنت على وشك الإجابة عليه، حين انطلقت خلفنا ضجة هائلة.

واختلط صوت الأقدام المذعورة بالصيحات المضطربة والصرخات. واهتزت الأرض تحت أقدامنا. وارتعد المبنى حولنا.

سألت: «ما الخبر؟» وشرع «مارس» في النباح.

قال هوجو: «أعلن القوميون المتحدون أنهم سيفضّون الاجتماع.. ومن المحتمل أن هذه الضجة بسبب وصولهم. والشيء التالي سيكون الشرطة».

وفيما هو يتحدث، سمعنا صوت صفارة ينطلق على مبعدة منا. قال هوجو: «هيا بنا نخرج لننظر».

خرجنا معاً، فالتقت عيوننا بمشهد وحشي. فالحشد الذي كان منذ دقائق منظّماً كل هذا التنظيم تصدّع إلى فوضى الجماعات المتصارعة. وفي كل مكان، أبصرنا معركة قائمةً على قدم وساق. وكان الحشد كله يتأرجح جيئة وذهاباً وكأنه يلعب مباراة رجبي تخلو من كل نظام، مباراة يقفز فيها من حين إلى آخر رجل من فوق الصقالة أو من إحدى رافعات آلات التصوير، وتبعثر الأصدقاء والأعداء على السواء. ومن هذا الركام المائج من التلاكم والرفس والبشرية المتصارعة، كان ينبعث هدير منتظم تمتزج فيه صيحات الألم والغضب امتزاجاً كاملاً. وفوق هذا المشهد كانت المصابيح تصب وهجها بوحشية لا هوادة فيها، وتكلف «شركة باونتي بلفاوندر» مبالغ طائلة في كل ساعة، وتَعْرض علينا في وضوح مدهش وجوه المتقاتلين الغاضبة. وعلى البُعد، كنا نستطيع أن نرى «لفتي»، وهو ما برح ممتطياً عربته، دون أن يكف عن التلويح بيديه، وعن فتح فمه وإغلاقه، على حين كان القتال يدور حوله على أشده، كما كان يدور حول جسر هيكتور(*) Hector. وعلى مقربة منه، كانت الراية

(*) ابن بريام وزوج أندروماك، وقائد قوات طروادة خلال الحصار الذي وصفه هوميروس في الألياذة ـ الملحمة الاغريقية الشهيرة. (المترجم).

الطويلة التي تحمل عبارة: «الإمكانية الاشتراكية» ترتفع وتهوي فوق المعمعة. ونزل الآن أحد طرفيها حين سقط حاملها، ثم هوى الطرف الآخر، غير أن الأيدي المتلهفة ما لبثت أن رفعتها مرة أخرى لتخفق برسالتها العميقة فوق المشهد.

كانت صفارات الشرطة تدوي الآن عند مدخل الأستوديو. لم يعد ثمة وقت لإضاعته. وحتى حين لا أعرف الجانب الذي أنحاز إليه، كنت أكره أن أراقب معركة دون الاشتراك فيها؛ ولكنني في هذه المناسبة لم أكن في شك من تعاطفاتي، كما لم يخطر لي أن أتساءل عن تعاطفات «هوجو».

سألت هوجو: «من هم الأنصار، ومن هم الأعداء؟».
قال هوجو: «أخشى أنه لا سبيل إلى التمييز بينهم».

وما دامت الحالة بهذا الوضوح، فقد كان أحكم ما نفعله هو أن نتقدم للدفاع عن الشخص الوحيد الذي نوقن بهويته، وهو «لفتي». قلت هذا لهوجو، ومضينا للتنفيذ، وأنا أشدُّ قبضتي على «مارس» الذي بدا عليه أنه يريد أن يعقر أحداً. وتبعني «هوجو» فشققنا طريقنا بصعوبة خلال المعركة متجهين صوب العربة. كانت الجلبة مروِّعة؛ ومن ورائنا، وفي مضاد الليل المتكاثف، امتدت سماء المدينة الأبدية (روما) ساطعة الإضاءة، تتأرجح برفق جيئة وذهاباً كلما ارتجفت الأرض تحت آلاف الأقدام التي تطؤها بقوة.

استغرقنا بعض الوقت في الوصول إلى «لفتي». ولقد كان من الضروري أكثر من مرة أن نتعامل بعنف دفاعاً عن حقنا في التقدم ـ مع شخص أو أشخاص يعترضون على هذا الحق. ومن ثمّ، فقد جعلنا نضرب خبط عشواء، آملين أن تصيب ضرباتنا القوم الأشرار. وخرجت من هذا الخضم سالماً إلى حد كبير، غير أن «هوجو» تلقى ضربة في عينه، يبدو أنها أثارت ثائرته على نحو ملحوظ. وفي أثناء اقترابنا من العربة، قفز

«لفتي» بغتة وهو يطلق صرخة غضب على رأس أحد أعدائه، وكان يقاوم من قبل محاولات العدو لجرّه إلى أسفل ـ فتدحرج الاثنان معاً على الأرض. وفي الوقت نفسه، اقترب منهما فتوّتان كان من الواضح أنهما من أصدقاء خصوم «لفتي» ـ وكان من الممكن أن يشق الأمر على «لفتي»، لو لم يندفع «هوجو» وأنا إلى الأمام، حيث ألقينا بأنفسنا على كومة اللحم المتشابكة، كما يرمي السباحون بأنفسهم في بحر الصيف، وطفق «مارس» الذي أطلقت سراحه منذ فترة ـ يتواثب خارج دائرة القتال ـ لاعقاً سيقان هذا الشخص أو ذاك دون تمييز. ولم يستغرق الصراع الذي لجأت فيه بالطبع إلى حركة أو حركتين من الحركات النادرة الممتازة في الإمساك بالساق ـ لم يستغرق سوى دقائق قليلة. وكان «لفتي» يقاتل كالقطة المتوحشة. بينما كان «هوجو» ـ الذي بدا في هذه اللحظة أشبه بالدب منه في أي وقت آخر ـ يقف منتصباً، مباعداً ما بين قدميه، ومطوّحاً بذراعيه كطاحونة الرياح. أما بالنسبة لي، فكنت أوثر أن أطرح خصمي على الأرض بأسرع ما يمكن. ولاذ العدوّ بالفرار. فأنهضنا «لفتي» الذي بدا منهك القوى.

قال «لفتي»: «شكراً! أهلاً بك يا دوناجيو، من الجميل أن أراك. لم أكن أعرف أنك هنا».

قال «هوجو»: «لم أكن أعلم أنك تعرف لفتي».

قلت: «لم أكن أعلم أنك تعرف لفتي».

ولم يكن ثمة وقت لمناقشة هذه الكشوف المهمة. قال «لفتي»: «انظروا!». فاستدرنا صوب مدخل الأستوديو، وهناك كانت تتقدم قوة كبيرة من الشرطة إلى ساحة المعركة التي ما برحت مائجة بغضب لم تخفّ حدته ـ وكان بعض رجال الشرطة من المشاة، وبعضهم يمتطي الخيل.

قال لفتي: «يا للعنة! سيلقون القبض الآن على كل من تقع عليه أبصارهم، وبخاصة أنا ـ وفي هذا ما فيه من الازعاج في الوقت الحاضر. هل هناك طريق للخروج من الخلف؟».

تراجعنا إلى شوارع روما التي غزتها الآن حفنة ضئيلة من المتقاتلين الذين كانوا أشد اهتماماً بالهجوم المتبادل والاعتداء منهم بإمكانية الفرار. وعَبَرنا تحت قوس من الطوب الأحمر.

قال هوجو: «لا أظن أن هناك منفذاً للخروج. . إذ تنتهي السبل جميعاً عند الجوار».

كانت المدينة في الواقع أصغر كثيراً مما بدت لي من أول وهلة. وفي دقيقة أو دقيقتين، بلغنا حائط المدينة، وكان عبارة عن بناء شاهق من الطوب الأحمر الزائف تحيط به على مسافات متباعدة أبراج للحراسة بحيث يعطي انطباعاً بأنه سميك سُمكاً هائلاً .وكان يطوق المباني من الخلف في شبه دائرة متصلة. فخبطه «لفتي» بقبضته.

قال هوجو: «لا جدوى!» فقد كان ناعماً كقشرة الكستناء وشاهقاً بحيث لا سبيل إلى ارتقائه.

قال لفتي: «وقعنا في الفخ!» وكانت الجلبة في الساحة قد تحولت إلى نغمة جديدة، وكنا نستطيع أن نسمع رجال الشرطة يصيحون بتعليماتهم خلال مكبرات الصوت. نظرنا حولنا في اهتياج شديد.

قلت مخاطباً هوجو: «ماذا نحن صانعون؟».

كان يقف هناك بعينين براقتين. فاستدار برأسه الضخم نحوي متباطئاً. وكانت الضجة تدنو منا أكثر فأكثر، فكان من الممكن أن نلمح ـ فعْلاً ـ شرطياً أو شرطيين يهرولان تحت القوس.

قال هوجو: «دع لي هذا الأمر!» ثم فتش في جيبه وأخرج شيئاً صغيراً.

قال: «مفجّر بلفاوندر المنزلي، النفيس في نقل جذور الأشجار، وتطهير مآرب (ج. مأربة) الأرانب». وكان هذا الشيء ينتهي بطرف مدبب غرسه هوجو في قاعدة الجدار، ثم أحضر علبة أعواد الثقاب. وفي لحظة انبعث أزيز عنيف.

قال هوجو: «تراجعوا إلى الوراء!» وأعقب ذلك انفجار حاد، وكالسحر، ظهرت في الجدار فجوة قطرها خمسة أقدام، استطعنا أن نتبين من خلالها في العتمة المبكرة، ساحة مهملة تناثرت فيها ألواح الحديد المموج يحوطها سور منخفض وإعلان عن بوفريل Boveril . وفيما وراءها يقع خط السكة الحديدية. وما أن أحاط بصري بهذا كله، حتى كان «لفتي» قد تجاوزنا فعلاً، ودخل برشاقة من خلال الفجوة ككلب من كلاب السيرك، وبعد دقيقة أخرى كنا نستطيع أن نراه وهو يقفز على السور، ويتضاءل عبر خطوط السكك الحديدية تحت الأنوار الحمراء والخضراء المتألقة.

قال لي هوجو: «أسرع!» غير أن شيئاً آخر كان يحدث. فلا بد أن صدمة الانفجار قد زعزعت شيئاً ما في تركيب المدينة. إذ أخذ البناء كله يهتز الآن ويتداعى بغتة على نحو ينذر بالخطر. رفعت بصري ورأيت كأنني في حلم سماء المدينة المصنوعة من الطوب الأحمر والرخام تترنح كما يترنح السكّير، على حين تعالى كريشندو بطيء من القرقعة والتصدع والتمزق.

قال هوجو: «عليه اللعنة، لقد مزقها شر ممزق!» وأردف قائلاً: «فليكن.. إنها ليست مصنوعة إلا من البلاستيك وخشب إسكس Essex ».

بدا أننا محاطون برجال الشرطة الصائحين. وعلى مسافة، كنت أستطيع أن أرى الأعمدة وهي تميل ببطء على الجانبين، وأقواس النصر تتهاوى وتتدلى ثم تنهار في النهاية مثل قبعات الأوبرا. وانبعث صوت منذر أشبه بحركة زلزال. راقبت هذا كله مبهوتاً، لحظة من الزمن؛ ثم استدرت صوب الفجوة التي في الجدار. غير أن الأوان كان قد فات. إذ بدأ الجدار المقام فوقنا مباشرة يميل إلى الداخل. وأن ترى ما يشبه خمسين قدماً من الطوب الأحمر الجامد تهبط عليك، فلا شك أن ذلك سيكون مشهداً مثيراً للأعصاب، حتى لو قيل لك إنه مصنوع من البلاستيك وخشب إسكس. وشرع الجدار في السقوط محدثاً هديراً مخيفاً. فألقيت «مارس» على الأرض، وانبطحت بقوة، وقد تشبث أحد ذراعيّ بالكلب، وحمى الآخر قفاي. وفي اللحظة التالية، كان الجدار كله يهوى فوق رؤوسنا، في قرقعة أخروية.

أسودت الدنيا في عينيّ، وخبطني شيء بعنف فوق كتفي. وكنت قد انبطحت تماماً بحيث كدت أغوص في الأرض. وفي مكان ما، استمر الصياح والتصدع. حاولت النهوض، غير أن شيئاً ما كان يسمرني في مكاني. استولى عليّ الفزع، فناضلت بجنون، وحينئذٍ ألفيت نفسي جالساً مع بقايا الجدار، وسط شظايا متفاوتة الأحجام تناثرت حولي. بحثت في ضراوة عن «مارس»، وسرعان ما رأيته يزحف خارجاً من تحت كوم من الحطام. نفض نفسه، وأقبل نحوي في غير مبالاة. فلا شك أن مهنته السينمائية جعلته على ألفة بأمثال هذه الأحداث. وأخذنا نستعرض المشهد:

كان كل شيء قد أصابه التغيير. أصبحت روما كلها الآن أفقية وقد سوِّيت بالأرض، ومن أطلالها تصاعدت سحابة هائلة من الغبار، كثيفة كضبابة في وهج المصابيح. وفي الساحة، وقف جمهور من الشخصيات المجللة بالسواد، كصورة رسمية لمعركة ووترلو Waterloo ـ بعضهم

يمتطي الجياد، والبعض الآخر يقف فوق قمة السيارات، وآخرون يسيرون على الأقدام في جماعات منظَّمة. وثمة صوت يقول شيئاً مطموساً من خلال مكبر للصوت. وكانت مقدمة المنظر هي التي تشبه ـ أكثر من أي مكان آخر ـ اللحظة التي تعقب المعركة. كانت الأرض مغطاة بجذوع بشرية بلا أرجل، وأنصاف رجال، وآخرين قطعوا عند الأكتاف، وكانوا جميعاً منهمكين ـ على كل حال ـ في استعادة تكاملهم بأن يسحبوا أجزاءهم المخفية من تشريحهم من تحت مضارب المشهد المسطحة التي ترقد الآن كحزمة ضخمة من أوراق اللعب، وكانت بعض القطع ما زالت تحمل آثار الطوب الأحمر والرخام، على حين كان بعضها الآخر يكشف على ظهورها المقلوبةأسماء المؤسسات التجارية وتعليمات محوِّل المناظر. وعندما حررت نفسي من الحطام، لمحت «هوجو» ينهض كالحوت إلى السطح، ملقياً بكتفيه العملاقين خلال الأنقاض وكأنها من الورق المقوى. استقام على قدميه، مزيحاً للشظايا يميناً وشمالا. وتحددت ملامحه لحظة في خلفية من السماء، ولم يلبث أن اندفع متجهاً صوب الخط الحديدي، فكان من الممكن أن يُرى في الضوء المعتم. ثم قفز عبر الخطوط كثور هارب، واختفى في الأفق البعيد.

ترنحت أثناء قيامي، وهممت بمتابعته، عندما اخترع «مارس» ما شغلني ـ انشغالاً منحوساً ـ عن هذه المتابعة. ففي كل مكان حولنا، كان رجال الشرطة ـ كعش للزنابير المزعجة ـ يزحفون خارجين من تحت القطع الخشبية. هل أثار هذا المشهد شيئاً من الذكريات في ذهن «مارس» البسيط؟ هذا شيء لم أعرفه؛ ولكن كان من الجليّ أن فعلاً منعكساً قوياً تحرك في نفسه. وكان قد اعتاد ـ بلا شك ـ على إنقاذ الناس من محن كهذه المحن إلى درجة أن الرؤية التلقائية لهذه الكثرة من الانقاذات كانت شديدة الوطأة على نفسه. فاندفع إلى أقرب شرطي وأمسك به من كتفه وأخذ يجره بقوة إلى الساحة. هذه الحركة التي اعترف بأنني ربما أسأت فهمها، حُملت

على محمل سيِّىء من جانب الشرطي الذي تخيل أن «مارس» يهاجمه، فقاتل بوحشية ردًا على هذا الهجوم. راقبت المعركة برهة قصيرة، ثم بدأت أخشى أن يصاب «مارس» بأذى. وهنا تدخلت، وسحبته وأنا أشرح للشرطي أثناء ذلك أن مقاصد «مارس» ـ في رأيي ـ كانت بدافع الشفقة، ولم تكن عدوانية، كما ظن الآخر. وأجابني الشرطي إجابة غير مهذبة، وبدلاً من أن أطيل المناقشة، استدرت، وأنا أُحكم قبضتي على رباط عنقي الذي ما زال يتدلى من طوق «مارس»* وتأهبت لاقتفاء خطوات «هوجو»، سواء كانت هناك قطارات أو لم تكن.

تخيل خيبة أملي حين شاهدت بيني وبين خط السكة الحديدية، وعبر قطعة الأرض الخراب التي تنبسط من جانب الخط إلى الجانب الآخر، أن نطاقاً رفيعاً، وإن يكن منتظماً ـ انتشر الآن من رجال الشرطة. إذ ان مجازفتي باختراق درع الشرطة والقطارات معاً كانت فوق ما أطيق. وكان المطلب الفوري هو أن أبتعد ـ على كل حال ـ من مجاورة الشرطي الذي هاجمه «مارس»، ومن ثم فقد أخذت أركض مع «مارس»، ملتفاً حول حافة الاستوديو، على أمل العثور على فجوة حيث ينتهي جدار الأستوديو قبل أن تبدأ الشرطة. ولكن، لم تكن هناك مثل هذه الفجوة، وألفيتني عائداً على أعقابي صوب مقدمة الأستوديو، حيث كان المقاتلون سابقاً يقفون الآن في جماعات، وديعة، وثمة كتلة من الملابس الرسمية تسد باب الخروج، وصوت فائق على البشرية superhuman يقول: «لا يغادِرَنَّ المكان أحد». وخطر لي حينئذٍ أن الشرطة لا تريد حقاً إلقاء القبض على أحد. ولما لم يكن هناك ما يثقل ضميري، فمن الممكن أن أنتظر في هدوء الأمر بالانصراف بدلاً من أن أندفع في جوف المشهد وأجتذب الانتباه إليّ. وحين نظرت إلى «مارس»، تبينت بوضوح بعد أن أمعنت الفكر أن «الآن» لم يكن هو اللحظة المثالية للوقوع بين براثن القانون.

توقفت عن الجري، وشرعت في التفكير. وفيما أنا أفكر، واصلت السير في اتجاه المدخل الأمامي، حيث تجمعت أكتف كتلة للشرطة إلى جانب متاهة أبنية الإدارة.

خاطبت «مارس» قائلاً: «أنت الذي ورطتني هذه الورطة.. وفي إمكانك أن تخرجني منها». سحبت «مارس» إلى ظل بناء من تلك الأبنية، ونظرتُ حولي. كنت من هذه النقطة أستطيع أن أرى من أحد الأزقة الجانبية أبواب المدخل الرئيسي. وكانت مفتوحة، وكتيبة من فرسان الشرطة تدخل في هذه اللحظة إلى الفناء. ومن خلال البوابات، كنت أستطيع أن ألمح حشداً في الخارج يُنْعم النظر، وومضات آلات التصوير التي يحملها الصحفيون. وبين هؤلاء، وعند البوابة نفسها، كانت هناك جماعة صغيرة من الشرطة كانت ساحة المعركة لا مرئية بالنسبة إليها بسبب المباني، ومن ثمّ، كنت أستطيع أن أفترض أنهم لم يكونوا شهوداً على تحركاتي الأخيرة. والتفتّ إلى «مارس». ها قد حانت اللحظة الحاسمة!.

ربُتُّ عليه، ونظرت في عينيه لأسترعي انتباهه إلى شيء بالغ الخطورة. ورد على نظرتي في شيء من التوقع.

قلت: «تظاهر بأنك ميت، ميت! كلب ميت!» وكنت أرجو أن تكون هذه الكلمة ضمن مفرداته. وقد كانت. وفي لحظة كانت رِجْلا «مارس» قد ارتختا، وترنح جسده، وانزلق على الأرض، وانسحب إنسان عينيه، ورقد فاغر الفم. كان منظره مقنعاً على نحو شنيع، بحيث ساورني القلق عليه، وحينئذٍ استجمعت شتات فكري، وألقيت نظرة سريعة على البوابة. لم يكن قد رآنا أحد. ركعت على الأرض، وحملت مارس، ثم رفعته على كتفي. خيل إليّ أنه يزن طناً. ويبدو أن همود جسمه ألصقه بالأرض. أسندت يدي إلى الجدار، ونهضت متمهلاً على قدمي. وكان

رأس «مارس»، بلسانه المتدلي إلى الخارج، يرقد متأرجحاً على صدري، وكانت ثلاثة أرباع مؤخرته ترتطم بالجزء الأعلى من ظهري. وشرعت في التحرك.

وما أن اقتربت من البوابة الرئيسية، حتى دخلت في بؤرة الانتباه، لا بالنسبة للشرطة التي كانت تقوم على حراسة البوابة، بل كذلك من الحشد الواقف في الخارج. وما أن استقر بنا الأمر جيداً في مجال الرؤية، حتى انبعثت من الحشد همهمة تعاطف. «أوه، يا للكلب المسكين!» كان هذا ما سمعته من نساء كثيرات. والحق أن منظر «مارس» كان مثيراً للشفقة. أسرعت الخطى بأقصى ما وسعني. غير أن الشرطة سدّت عليّ الطريق. كانت الأوامر التي صدرت إليهم هي أن يحولوا دون خروج أحد.

قال أحدهم: «والآن، ماذا بعدُ!».

واصلت سيري بعزم وإصرار، وحين دنوتُ منهم صحت بنبرات ملحة: «الكلب مصاب! لا بد من العثور على طبيب بيطري! هناك واحد في هذا الطريق».

كنت في رعب قاتل طيلة هذا الوقت خوفاً من أن يسأم «مارس» اللعبة. ولا بد أنه كان في وضع غير مريح وقد تعلّق فوق عظام كتفي التي كانت تضغط على معدته. ولكنه صمد. وتردد الشرطي.

رددت قولي: «ينبغي أن يُعالج حالاً!».

وارتفعت من صفوف الجماهير زمجرة غاضبة، فقال أحدهم: «دع الرجل المسكين يخرج ليعالج كلبه». ويبدو أن قوله هذا كان يعبِّر عن الشعور العام.

قال الشرطي: «حسن. فلتخرج إذن!».

اجتزت البوابة، فأفسح الجمهور الطريق وهو يدلي بملاحظات يشيع

فيها الاحترام والتعاطف. وما أن تخطيته حتى شاهدت أمامي الامتداد الرحب المفتوح «لطريق الصليب الجديد» New Cross Road ، خالياً، وغير مغلق بواسطة الشرطة، فلم أعد أحتمل أكثر من ذلك.

قلت لمارس: «استيقظ! عد إلى الحياة أيها الكلب!»؛ وما أن ركعت على الأرض، حتى وثب من كتفي، فانطلقنا معاً ننهب الطريق بسرعة وعزم. وخلفنا، ارتفع هدير هائل من الضحك، أخذ يتخافت رويداً رويداً، كلما ابتعدنا.

الفصل الثالث عشر

انقضت عدة ساعات، أو هكذا بدا الأمر لقدميّ، وما برحنا نسير في «طريق أولد كِنْت» Old Kent Road . وكان بعض الوقت قد مضى الآن منذ أن أفسح انتصاري بهروبي على ذلك النحو من الذكاء الألمعي - أفسح مكانه للاكتئاب حين وجدت نفسي بلا نقود، وأنه لم يعد أمامي ما أفعله من أجل ذلك سوى أن أواصل السير متجهاً إلى الشمال. ومرّت لحظة فكّرت فيها أن أستقل سيارة أجرة وأن أجعل «ديف» يدفع الأجرة في نهاية المشوار، ولم تكن فكرة أن «ديف» قد دفع لي أجرة سيارة فعلاً هذا المساء وأنه ربما أصبح لا يملك شيئاً من النقود الجاهزة - لم تكن هذه الفكرة كفيلة بإعاقتي لو كنت قادراً على العثور على سيارة أجرة؛ غير أن سيارات الأجرة لم تكن تأتي أبداً إلى هذه الأراضي الجنوبية الخراب، ولهذا استبعدت منذ أمد طويل هذه الفكرة بوصفها رؤية لا رجاء منها. وكان من الممكن أن اتصل بالهاتف طلباً للنجدة، ولكنني كنت قد أنفقت بحماقة آخر ما أملك من بنسات في شراء نسخة من صحيفة «الاشتراكي المستقل»، وكانت في طبعة اليوم التالي التي تباع فعلاً للجماهير الخارجة من السينما. وكانت الصحيفة تتضمن تقريراً عن الاجتماع الذي عقد في «باونتي بلفاوندر»، وبعض الصور عن المعركة. كما نشرت صورة لي ولمارس ونحن نخرج من البوابة الرئيسية وتحتها هذه العبارة: «ضحية

كلبية لوحشية الشرطة» وكانت الحانات قد أُغْلقت منذ فترة ملحوظة، والطريق مهجوراً. وكان جمهور السينما هو آخر علامات الحياة. وحتى «مارس» كان يبدو عليه الاكتئاب: رأسه وذيله متدليان، وكان يسير في أعقابي مهتدياً بالرائحة وحدها، دون أن يرفع عينيه أبداً.. لعله كان جائعاً.. أما أنا فكنت جائعاً بكل تأكيد. وتذكرت في أسى شريحة لحم الخنزير التي تركناها وراءنا على درجات السلم في منزل «سامي». وصية: لا تطأ تحت قدمك الطعام الذي يمكن أن تضعه في جيبك.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين أخذنا نجر أقدامنا عبر «جسر وترلو». وكان انطباعي هو أنني أمضيت يوماً مسرفاً في الطول؛ وعندما بلغنا الجانب الشمالي من الجسر، تبينت في وضوح أننا لن نستطيع المضي إلى أبعد من ذلك. وكانت هذه ليلة أخرى خالية من السحب، ذات نسائم أشبه باللبن الدافىء، فوقفنا لحظة نتأمل النهر، لا من أجل الإعجاب بجماله، ولكن للضرورة التي ترغمنا على الوقوف ساكنيْن. وشعرتْ قدماي وكأنهما عانتا قروناً من الإنهاك، وكان جسمي حاضراً بالنسبة لي في أحاسيس متنوعة من الوخزات والآلام كانت تجعل من العالم الخارجي شيئاً يكاد يكون لا مرئياً. ونزلنا «مارس» وأنا متثاقليْن على درجات السلّم.

ولو أنك حاولت ذات مرة أن تنام على شاطىء فيكتوريا، فسوف تعلم أن الصعوبة الرئيسية هي أن المقاعد مقسومة في منتصفها. إذ أن وجود ذراع حديدي للاتكاء يجعل من المحال أن يتمدد المرء فوقها. ولست على يقين من أن هذه الظاهرة جاءت مصادفة أو أنها جزء من حملة الحكومة ضد البطالة. ومهما يكن من أمر، فإنها شيء غاية في الإزعاج. ولكن ثمة طرق أخرى ممكنة، إذ يستطيع المرء أن يستعمل ذلك المتكأ بوصفه وسادة، أو من الممكن أن يرفع ركبتيه فوقه وقدميه على الجانب

الأخر. كما يستطيع أيضاً أن يكتفي بالالتفاف حول نفسه في نصف المقعد. وهذا وضع شديد العسر حتى للأشخاص قصار القامة من أمثالي؛ ولكن، إذا كان المرء نائماً لا يقر له قرار ـ على شاكلتي، فربما كانت هذه أفضل طريقة، ولهذا اخترتها. وقبل أن استريح، لففت صفحات «الاشتراكي المستقل» بعناية حول ساقيّ، وربطتها في وضع يتلاءم مع رباط عنقي ومنديلي. فالصحيفة عازل جيد، كما يعرف ذلك كل متشرد. كل ما تمنيته هو أن تكون لدي نسختان. ثم رقدت، على حين قفز «مارس» إلى النصف الآخر من المقعد. واستسلمنا للنوم.

استيقظت وكان الوقت لا يزال ليلاً.. وكان يبدو أن النجوم قد قطعت شوطاً طويلاً، وكنت أشعر أنني تجمدت من البرد. وعندئذٍ دقت ساعة «بيج بن» الثالثة. الثالثة فحسب! زمجرت. ورقدت فترة أعاني من آلام التخشب. حاولت تدليك أطرافي التماساً للدفء، غير أن الجهد الذي بذلته لهذا كان مؤلماً إلى درجة لا تكاد تبرر النتائج. جلست يغمرني شعور تام بالتعاسة. ثم فكّرت في «مارس». كان لا يزال هناك، مستغرقاً في النوم، ينبعث منه شخير هادىء أثناء نومه.. أخذت أتأمله، مرتعداً وحيداً، على حين كانت الأرصفة المهجورة على جانبي الطريق تمتد تحت مصابيح الشارع العالية التي كانت تلقي ضوءها على خضرة شاحبة تغشى الأوراق الساكنة للأشجار الملساء، لتكشف تحتها عن صفوف من المقاعد الخالية التي تتماثل كلها في قلة الراحة. وكان «جسر ووترلو» الذي يبدو عارياً كجسر في صورة لن يطأه إنسان أبداً، كان يحتضن النهر محلقاً فوقه. نهضت من مكاني، فجرى الدم كثيفاً مؤلماً في قدميّ.

كان «مارس» صورة للنوم. وأحسست لأول وهلة بالضيق لأنه ينام بكل هذه السكينة، على حين كنتُ يقظاً شاعراً بالبرد. ثم بدأت أتذكرْ قصصاً عن رجال في زوارق النجاة أنقذهم كلاب أوفياء لأنهم بعثوا فيهم شيئاً من

الدفء. ولست واثقاً بكل تأكيد من أنني لم استخلص هذه الفكرة من أحد أفلام «مارس». أيقظته في شيء من الصعوبة، وجعلته يتحرك بحيث يفسح لي مكاناً كافياً للرقاد إلى جانبه. وكان ما ذهبت إليه حقاً. كان جسده يشع دفئاً من أنفه إلى ذيله. وظللنا برهة نتبادل الأماكن، محاولَيْن أن نجد وضعاً يلائمنا نحن الاثنين. وأخيراً استقر بنا الوضع بأن دسست وجهي في الفراء المتدلي من رقبة «مارس»، وبعد أن قرفص ساقيه الخلفيتين في بطني. وكان يلعق أنفي.. ولا بد أنها كانت أشبه بمن يلعق كتلة من الثلج. وبسطت يداً عشوائية وسحبتها فوق رأسه. ومن أذنيه، لن يكون في الأمر مشقة إذا صنعت منهما محافظ حريرية. وبينما كنت أدخل في النوم، تذكرت كيف تمنيت بحرارة في طفولتي أن يكون لدي كلب، وكيف جعلني مَنْ هم أكبر مني سناً أشعر بأن هذه الرغبة مسرفة غير لائقة حتى خفتت في أسى وتحولت إلى حلم مستسر، وحل مكانها وأنا في حوالي التاسعة من عمري حنين لا يقل عمقاً إلى أن أكون مالكاً لـ «آستون مارتن» Aston Martin.

ودفعنا الشرطي إلى التحرك حوالي الساعة السادسة صباحاً. وكانت هذه هي الساعة التي يبدأ فيها المرء ـ لسبب ما ـ في أن يكون تهديداً للقانون والنظام. هذه الأشياء تعلمتها في الأيام التي كنت فيها أقل نجاحاً، حتى من وقتنا الحاضر. وبعد استراحة في ميدان الطرف الأغر، وهو مكان آخر لا يحب الشرطة أن يرقد فيه أحد، قدمنا أنفسنا ـ «مارس» وأنا ـ إلى حانوت السيدة تينكهام في اللحظة التي هَمَّت فيها بفتحه. وهناك، تحت الأنظار المرتاعة لنصف دستة من القطط الحانقة المقوسة الظهر، استهلك بطل «خمسة في الطوفان» قصعة كبيرة من اللبن، أما أنا فقد اقترضت جنيهاً. وفتح «فين» الباب لي في «طريق جولد هوك» Goldhauk Road، وقادني مباشرة إلى السرير الذي أخلاه. فنمتُ مرةً أخرى وقتاً طويلاً.

* * *

استيقظت، وكان ذلك بعد الظهر. استيقظت يغمرني شعور بالتبلد والانقباض، وأشبه بما يشعر به المرء حين تنقضي العطلة وهناك كوم مكدس من العمل ينتظر الإنجاز. انتزعت نفسي من الفراش، وكانت السماء ممطرة. حدقت برهة في هذه الظاهرة. ذلك أن تغيرات الطقس تأخذني دائماً على حين غرة. كما لم أكن أستطيع مطلقاً حين يتخذ الطقس حالاً معينة ـ أن أستحضر إلى خيالي ما يمكن أن تكون هيئته حين يتخذ حالاً أخرى. كنت قد نسيت تماماً كل شيء عن المطر، ففتحت النافذة. وجعلت أتنفس لمدة أربع دقائق تقريباً ـ تنفساً بطنياً (عن طريق الحجاب الحاجز). ولكي يفعل المرء ذلك، عليه أن يفتح رئتيه إلى أقصى مداهما، واضعاً يديه على الضلوع السفلى، وأن يبسط متمهلاً الحجاب الحاجز، ثم يتوقف عن التنفس أثناء عدّه «ثمانية» بسرعة معتدلة؛ ثم يطلقه بهدوء من خلال الفم بصوت هامس منخفض. ولس من الحكمة أن يفعل المرء ذلك فترة طويلة، فقد يؤدي هذا إلى الغيبوبة. وقد تعلمت هذا التنفس البطني على يد ياباني كان يزعم أن هذا التنفس قد قام بتغيير حياته، ومع أنني لا أستطيع أن أقول إنه قد غيّر حياتي، إلا أنني أستطيع أن أوصي به بوصفه لا ضرر منه، وبأنه مفيد، وبخاصة للأشخاص الذين يتأثرون بالإيحاء، مثلي.

ارتديت ثيابي، وأخرجت رأسي من الباب بحذر باحثاً عن «فين». لم أكن أتعجل مواجهة «ديف» الذي كنت أخشى أن تكون له بعض الملاحظات الثقيلة حول حكاية «مارس». وكان «فين» الذي أحس باستيقاظي ـ يجوس خلال الدار، فهرع إليّ في الحال. فسألته إن كان يستطيع أن يَخرج ليبتاع شيئاً من لحم الخيل لمارس، ولكنني تبينت أنه قد صنع ذلك فعلاً. ولم يكن «فين» يحب الكلاب، ولكنه شخص يراعي الآخرين. ثم ناولني رزمة من الخطابات. وكان الخطاب الوحيد الذي يهمني من وجهة نظر القصة الحالية خطاباً يحتوي على إذن صرف

(شيك) قيمته ستمائة وثلاثة وثلاثون جنيهاً. أخذت أحملق في هذا الإذن لحظة أو لحظتين وأنا في حيرة من أمري، وأتساءل عمن يكون قد ارتكب هذا الخطأ الغريب، ثم سحبت من الغلاف قصاصة مكتوبة بالآلة الكاتبة تذكر هذه الأسماء: جرانج الصغير، بيتر آوف آلكس، هال آدير، داجنهام، سانت كروس، كونيز روك. كانت أشبه بأسماء مستقاة من التاريخ. وفي ذيل هذه القائمة كتب «سامي»: «ضعها ثم التقطها! أظن أنك ستراهن على لايربيرد **Lyrebird** في المرة القادمة». وصعدت الدماء إلى وجهي. وحين رأى «فين» احمرار وجهي، انسحب من الحجرة. لعله ظن أنني تلقيت رسالة من «آنا». ولكن، لم تكن هناك رسالة من «آنا».

وضعني موقف «سامي» المشرِّف في حُمَّى لتسوية موضوع «مارس». اقتحمت فوراً حجرة المعيشة، حيث كان «ديف» جالساً إلى الآلة الكاتبة، وكان «فين» مستنداً إلى الباب ممعناً في التفكير. كان «ديف» يكتب مقالة لمجلة «العقل» Mind، عن تنافر النسختين المتطابقتين. وقد ظل يعمل بعض الوقت في هذه المقالة، التي كان يكتبها جالساً أمام مرآة، متناوباً النظر إلى صورته المنعكسة ثم إلى فحص يديه. وقد حاول مراراً عديدة أن يشرح لي الحل الذي اهتدى إليه، ولكنني لم أكن قد بلغت إلى أبعد من فهم المشكلة. توقف عن الكتابة حين دخلت، ونظر إليّ من تحت حاجبيه، بينما جلس «فين» دون أن يلفت إليه الأنظار، كشخص يتخذ مكانه في مؤخرة المحكمة. أما «مارس» الذي كان رابضاً على السجادة، فقد رحب بي ترحيباً منتشياً. فما ان انتهى هذا كله حتى دخلت في الموضوع بسرعة.

قلت: «لعلها كانت فكرة سيئة، غير أن المسألة هي ماذا نصنع الآن. أريد منكما أنت و«فين» أن تساعداني على كتابة رسالة».

مدَّ «ديف» ساقيه. وكان في وسعي أن أرى أنه لن يسمح لأحد باستعجاله إلى أن يفوته شيء. قال: «أنت هاوٍ، يا جيك!».

رأيت أن هذه العبارة جائرة قليلاً، فقلت: «فلنكن عمليين، أول شيء ـ على ما أظن ـ هو أن نجعل ستارفيلد يعلم الأيدي التي وضع فيها «مارس»، ولأي غرض أُخذ. إذ يبدو من العبث أن نُخْفي هويتنا. وسوف يتعرف عليها «سامي» على كل حال حالما نعلق شروطنا».

قال ديف: «لديّ ملاحظتان، رداً على ذلك، الأولى: أنني لا أحب هذا الاستخدام للضمير نحن. فلست سارقاً لهذا الكلب؛ ثانياً: من الطبيعي أن يكون «فين» وأنا قد أخطرنا ستارفيلد فعلاً عن طريق الهاتف بهوية الخاطف».

سألته، مندهشاً: «ولماذا؟».

قال ديف: «لأنه من المستحسن، كما ينبغي أن يكون ذلك جلياً لشخص يبتز الأموال، ولا يمتلك حتى سوى قدرة متوسطة ـ أن يمْنع ستارفيلد ـ إذا كان ذلك ممكناً ـ من إخطار الشرطة. ومما يثبت أن إخطارنا هذا قد منعه في الواقع عن ذلك الفعل ـ هو أنك مازلت مطلق السراح. وقد لاحظت أنك حرصت على أن تظهر صورتك في جميع الصحف».

جلست. وحين تبينت إلى أي حد كان «ديف» مهتماً بمحنتي، تخليت عن هواجسي التي بدأت تساورني عن إزعاجي له بتصرفاتي.

قلت بفتور: «أقدِّر اهتمامك بي.. ولكنك تغاضيت عن هذه الحقيقة وهي أن الانكشاف السابق لأوانه يجعل من العبث بالنسبة لي أن أنقضّ على سامي باقتراحي عن استبدال مارس بمنسوخي. ولا بد أن سامي قد استطاع الآنَ تصوير الترجمة مائة مرة».

قال ديف: «أنت ساذج. أتستطيع أن تتخيل أنه لم يفعل ذلك فعلاً من قبل؟ ذلك أن شخصاً مثل ستارفيلد عنده آلاف النساخ على الآلة الكاتبة الذين يكدحون من أجله ليل نهار. ولن يدع وثيقة هامة يقتصر وجودها على نسخة واحدة أكثر من دقيقة».

قلت: «أنا متأكد من الطريقة التي تحدث بها أنه لم تكن هناك سوى نسخة واحدة حتى ذلك العصر على كل حال».

قال ديف: «ليس في مقدورك أن تعرف، وعلى أي حال، الشيء المؤكد هو أن الشرطة تستطيع أن تضع يدها عليك وهي مغمضة العينين. متى ستتعلم أنه لا ينبغي السفر بسيارة أجرة؟».

لم أكن أعتقد أن من اليسير حقاً إلقاء القبض عليّ، ولكني تغاضيت عن هذا، وقلت: «إذن، فعلينا كنتيجة لحركتك ذات المغزى أن نقوم بتعديل اقتراحنا. والاقتراح الآن هو ألا نستبدل «مارس» مقابل المنسوخ، وإنما مقابل وثيقة تضمن لي تعويضاً مناسباً عن استخدامه».

قال ديف: «أنت تهرف؛ ومن الواضح أنك لم تفكر في الأمر ملياً على الاطلاق». ودفع آلته الكاتبة جلنباً وأفسح مكاناً أمامة على المنضدة.

قال: «ينبغي أولاً أن نقوم بتحليل الموقف.. دعنا ننظر إليه تحت عنوانين: الأول: ما هي قواك، والثاني: كيف ستستخدمها. ومن غير المجدي البحث في الثاني قبل أن تبحث في الأول، أليس كذلك؟ ينبغي أن تكون منطقياً يا جيك. موافق؟».

قلت: «موافق». وأحسست كما لا بد أن ضحايا سقراط قد أحسوا. كان من المحال استعجال (كلفتة) هذا الرجل.

قال ديف: «تحت العنوان الأول، أميِّز بين سؤالين: (أ) إلى أي مدى مُلح يحتاج هذا الستارفيلد إلى هذا الكلب، و (ب) إلى أي مدى يقع هذا الستارفيلد في الخطأ من الناحية القانونية فيما يتعلق بترجمتك. والآن، لعلك تستطيع أن تخبرنا عما تعرف عن السؤال (أ)؟» ونظر إليّ «ديف» متظاهراً بأنه يتوقع أن تكون لدي معلومات خاصة عن هذا السؤال.

قلت: «ليست لدي أية فكرة».

صاح «ديف» متظاهراً بالدهشة: «أية فكرة! إذن، فكل ما تعرفه هو أن

هذا الستارفيلد قد لا يحتاج إلى الكلب لمدة أسابيع أو شهور؟ أو لعله ليس واثقاً من أنه سيستخدم الكلب على الاطلاق؟».

قال فين: «قرأت في إحصاء لمعهد جالوب أن الجمهور قد سئم من أفلامْ الحيوانات».

قال ديف: «وعلى أي حال، ليس من الواضح أن ستارفيلد سيكون في عجلة من أمره. وفي هذه الأثناء يمكن أن يترك لك مسألة الاحتفاظ بالكلب. فكّـر في المال الذي سيوفره له ذلك! كم من أرطال اللحم سوف يحتاجها الكلب يومياً، على حد قولك يا فين؟».

قال فين: «رطل ونصف يومياً».

قال ديف: «أي عشرة أرطال ونصف من اللحم كل أسبوع... دون حساب الاضافات».

والتفتنا جميعاً ونظرنا إلى آكل اللحوم العملاق. كان مستغرقاً في النوم. قال فين: «وقد التهم اليوم رطلين».

قلت: «ولكنه سيقلـق على الأقل فيما يتعلق برفاهية الحيوان. سيريد أن يسترده سالماً».

نظر إليّ ديف مشفقاً: «ماذا ستفعل لإخافته؟ هل ستقطع ذيله؟ وحتى لو لم تكن ذلك الشخص المكتوبة شخصيته على وجهه، فإن عزيزتك سادي تعرفك بما يكفي أن تتأكد من أنك لن تؤذي دودة، فما بالك بكلب ضخم».

كان ذلك حقاً. وبدأت أشعر الآن أن أول محاولة ابتزاز لي تمر بمرحلة سيئة.

قال ديف: «من الممكن بالطبع أن يريدوا استرداد الكلب على وجه

السرعة. غير أن هذا ليس مؤكداً. يكفينا هذا عن السؤال (أ). والآن، لعلك تستطيع أن تقدّم توضيحاً عن (ب). هل تملك شخصياً حقوق ترجمة كتب بروتـايْ Breteuil؟».

قلت: «كلا، بالطبع لا. كل ما في الأمر أنني أبرمت عقداً منفصلاً مع الناشر عن كل كتاب».

قال ديف: «إذن، إذا كانت هناك مصالح مهدّدة، فهي هنا مصالح الناشر وليست مصالحك. ولكن، دعنا نرى ما هو هذا التهديد. ما هو؟».

هرشت رأسي. وأحسست أن أي شيء أقوله الآن سيبدو على شيء كبير من السذاجة. قلت: «انظر يـا ديف، إن ما حدث هو أنهم سرقوا ترجمتي، وهم يطلعون السيد برنجشايم عليها لإقناعه بانتاج فيلم من الكتاب».

قال ديف: «بالضبط. ولكنهم حتي الآن لـم يستخدموا الترجمة أي استخدام آخر. . وما دام العمل منشوراً، فإنهم يستطيعون شراء نسخة من المحلات».

قلت: «ولكنه ليس منشوراً، وقد سرقوا منسوخي».

قال ديف: «الجريمة مسألة أخرى. وعلى كل حال، لا يوجد حتى الآن انتهاك لحقوق النشر. هذا الأمريكي الذي لا يعرف الفرنسية يتصفح ترجمتك؛ هذا كل ما في الأمر. ولو أنهم قرروا انتاج فيلم، فسوف يتفاوضون في التفاصيل مع من يملك حقوق الفيلم أياً كان، وأعتقد أنه المؤلف».

قلت يائساً: «على كل حال، هناك سرقة».

قال ديف: «ليس هذا الأمر واضحاً كل الوضوح؛ أخلاقياً. . أجل، ولكن أمن الممكن إثبات ذلك؟ إن صديقتك «مادج» أعطت هذا الشيء

لستارفيلد. وسيقول ستارفيلد إنه لم تكن لديه أدنى فكرة في أنك ستهتم بهذا الأمر، وستقول «مادج» هذا القول نفسه في قفص الشهادة، مع أية تفصيلات عن مدى معرفتها بك يمكن أن يستخلصها الدفاع منها».

وكنت أتخيل ذلك، قلت: «فليكن.. نعم، نعم، نعم، فليكن».

قال ديف: «هل أقوم بالتلخيص؟».

قلت بمرارة: «استمر!».

قال ديف: «من غير المحتمل أن يحتاجوا إلى الكلب ـ على كل حال ـ في الأيام القليلة القادمة. وبعد هذه الأيام، وبعد أن يكون الأمريكي قد تصفح الكتاب، فسوف يعيدون إليك المنسوخ بأدب، ويطلبون الكلب. فإذا رفضت تسليمه إليهم، فسوف يلجأون إلى الشرطة. فما هي التهمة التي يمكن أن توجهها إليهم؟ وهذا الأمريكي لن يهتم بصاحب الترجمة التي اطلع عليها. فإذا تعجلت المسألة، فسوف تجد نفسك ضائعاً في متاهة. وكل ما هو واضح هو أنك سرقت الكلب».

قلت: «ولكن، إذا كانوا لا يخشون أن تكون أفعالهم موضع المساءلة، فلماذا لم يلجأوا إلى الشرطة فعلاً؟ هذا إذا سلّمنا جدلاً أنك على حق في تفكيرك اننا سنكون على علم بذلك الآن إذا هم فعلوا ذلك».

قال ديف بازدراء: «ألا تستطيع أن تفهم ذلك؟ كل ما في الأمر أنهم مشفقون عليك. وكان من الممكن أن يبعث ستارفيلد الشرطة في أثرك. غير أن صديقتك «سادي» سوف تضحك حينذاك، وتقول إنك شخص لطيف، وهكذا يُطْلق سراحك».

هذا التخمين أثارني، وبالأخص لأنني أدركت في الحال أنه من المحتمل جداً أن يكون صحيحاً. قلت: «لقد نجحت في إثبات أنني أحمق.. فلنترك المسألة عند هذا الحد. سأخرج للتريض».

قال ديف: «ولكن، كلا، يا جيك. إننا لم نناقش المسألة الثانية».

قلت: «تخيلت أنه ما دمنا قد تبيَّنا أنني لا أملك قوة على المساومة، فإن مسألة ماذا سأفعل بهذه القوة لا داعي لأن تثار».

قال ديف: «ليس من المؤكد أنك لا تملك أية قوة على المساومة، وإن كنت أعتقد أن من المحتمل أنك لا تملك أية قوة. ولكن لديك الكلب. وماذا تقترح أن تصنع به؟ أن تعيده إلى ستارفيلد؟».

صحت: «مطلقاً!. طالما كان هناك أي بديل!».

قال ديف: «إذن دعنا نناقش المسألة رقم (٢)». وجلس هناك، مسترخياً مستغرقاً في التفكير، وكأنه في حلقة بحث، فيما عدا بريق حاد جداً من الاستمتاع كان يلوح في عينيه.

قال ديف: «ما زلتَ قادراً على محاولة المساومة». كان الآن بصدد تغيير المسألة لكي يجعل أسوأ ما فيها، هو أفضل ما فيها. «من المتصور أنهم قد يحتاجون إلى الكلب في الحال، أو ربما ساورهم القلق على رفاهيته، فيقدمون إليك عرضاً لاسترداده بسرعة. وتقديم عرض قد يكون هو أفضل وسيلة إذا كانوا غير مطمئنين لمسألة الجريمة. وعدم اطمئنانهم هذا يتوقف على عامل مجهول هو سلوك صديقتك مادج وحالتها العقلية».

وكنت أشعر أنني أشد تشاؤماً من «ديف» في هذه النقطة.

قلت: «لا أمل في ذلك. كل ما أريده الآن هو أن أمنعهم من استخدام المنسوخ. ولما كان هذ مستحيلاً، فمن الأفضل أن أبدأ في التفكير عما سأقوله في المحكمة!».

قال ديف: «هراء!. حاول أن تساوم، حتى وإن كان ذلك لانقاذ ماء وجهك فحسب. وهنا تستطيع أن تناشد الروح الرياضية التي يتحلى بها ستارفيلد».

جعلني هذا أجفل. إذ لم أكن أرغب مطلقاً أن أكون مديناً لروح «سامي» الرياضية. قلت: «الأوْلى أن أتعامل مع سادي».

قال ديف: «حسن، اكتب إليها... وسنكتب الرسالة معاً. ولكن ينبغي أن نقرر أولاً على لسان أية شخصية Persona ستكتب إليها؛ كطرف أسيء إليه، أو مجرد مبتزٍّ للأموال». وأردف قائلاً: «وتذكر من التي نُعاملها. وفي رأيي أن هؤلاء الناس لو أرادوا في أية لحظة أن يستردوا كلبهم، فإنهم لن يزعجوا أنفسهم بالمساومات أو بالشرطة، بل سوف يكتشفون أين هو، ويرسلون أربعة من الرجال الأشداء في سيارة للحصول عليه».

قاطعنا عند هذه النقطة طَرْقٌ كالرعد على الباب الأمامي.

قال فين: «الشرطة!» على حين خطر لي أن الأقرب إلى الاحتمال أن يكونوا رجال «سامي» الأشداء. تبادلنا النظرات، وزمجر «مارس»، وقد انتصب فراؤه. وتكرر الطرق.

قال فين هامساً: «فلنتظاهر بأننا لسنا هنا». وأطلق «مارس» نباحين يصمان الآذان.

قال ديف: «لم يعد في الأمر حيلة!».
قلت: «فلنذهب، وننظر إليهم من زجاج الباب، لنرى عددهم».

كنت على أهبة الاستعداد للقتال من أجل «مارس»، إلا إذا تبينت أنهم رجال الشرطة. مشينا برفق إلى القاعة. وأعطانا الزجاج الملون على باب «ديف» الأمامي صورة مطموسة لما كان وراءه. ويبدو أنه لم يكن هناك سوى شخص واحد فحسب.

قال فين: «الباقون ينتظرون على درجات السلّم».
قلت: «عليهم اللعنة!» وفتحت الباب.

قال الصبي العامل في مصلحة البرق! «برقيتـان لدوناجيو».

تناولتهما، فلم يلبث أن اختفى نازلاً من السلّم. وكان «فين» و «ديف» مستغرقين في الضحك، ولكنني ارتعدت خوفاً وأنا أفتح البرقية الأولى. في هذه اللحظة، كان كل شيء ينذر بالخطر. أعدت قراءة البرقية عدة مرات، ثم رجعت إلى حجرة الجلوس. كان فحواها: **تعال باريس فندق الأمير دي كليف في الحال بالطائرة لحديث هام قف جميع النفقات مدفوعة قف ثلاثون جنيهاً مصاريف مباشرة تحت بند منفصل ـ مادج.**

قال «فين» و «ديف» وهما يتابعانني: «ما هذا؟» فناولتها لهما ليقرآه. وكانت البرقية الأخرى أمراً بصرف الجنيهات الثلاثين.

جلسنا جميعاً، وسأل «ديف»: «من أجل ماذا سيكون هذا المبلغ؟».

قلت: «ليست لدي أدنى فكرة». ترى ماذا تدبّر «مادج» الآن؟ كان كل شيء يبدو غير حقيقي على نحو غريب.. باستثناء الجنيهات الثلاثين. كانت هذه حقيقية؛ كموضوع الصباح التالي الذي ثبت أنه لم يكن حلماً. ماذا تصنع «مادج» في باريس؟ كانت حُمّى الفضول تغلي فعلاً في دمائي. وفي لحظة استعرضت دستة من الامكانيات دون أن أجد واحدة منها معقولة.

قلت وأنا أفكّر ملياً للاثنين الآخرين: «سأرحل بالطبع». كانت برقية «مادج» تطوراً أرحب به كل الترحيب من جهة كل نظر. لم يكن ذلك لأنني مللت بالضبط من خطتي لابتزاز المال؛ ولكنها تحولت إلى شيء مخيب للآمال، كما أن المراحل النهائية منها من المحتمل أن تكون مُحْبطة وآلية. ولعل أفضل شيء حقاً هو التخلي عنها كلّية. ولم أكن في حاجة إلى الاقتناع بالرحيل إلى باريس في أي وقت، ولا سيما الآن، حيث توجد «آنّا»، أو بالأحرى أن «آنا» ربما كانت هناك. ولكن كلا.. إنها لا بد أن تكون هناك. وأحسست أن صورة تلك المدينة التي تمثلت

الآن أمامي ـ مشحونة بحضورها إلى أقصى حد؛ وتراءى لذهني فعلاً أنني أسير مع «آنا» في الشانزليزيه، بينما كان النسيم الدافىء للربيع الباريسي الأبدي يهب على وجهينا كزهور متدفقة تحمل وعوداً بغبطة مقبلة.

«وتتركنا للعناية بالطفل؟» وكان «ديف» يقول كلاماً غير متسق بتأثير الحنق، «ترتكب السرقة وابتزاز الأموال وحين يختلط كل شيء ترحل إلى باريس وتترك هنا ما سرقت لتعثر عليه الشرطة، كلا؟».

قال فين: «النفقات كلها مدفوعة».

قلت: «انظرا.. لن أمكث طويلاً، نصف يوم فحسب إذا اقتضى الأمر. مجرد أن أرى ما تريده مادج. فإذا حدثت المتاعب هنا، تستطيعان أن تُبْرقا إليّ، وسأعود في ساعات قلائل».

وهدأ «ديف» قليلاً، فقال: «ألا تستطيع أن تنتظر؟».

قلت له: «إن الأمر يبدو ملحاً، وقد تكون هناك نقود». كانت مسألة النفقات المدفوعة جميعاً قد أوحت إليّ بهذا على نحو غاية في القوة.

جعل هذا القول «ديف» يفكّر ملياً قال: «فليكن»، بعد مزيد قليل من المناقشة، «وربما استطعت أيضاً أن تكسب كفالتك. ولكن ينبغي أن نقرر أولاً أي خطاب سوف نكتب، وثانياً، يجب أن تترك لنا ما يكفي من النقود لإطعام الحيوان، وفي حالة وقوع أزمة...».

قلت له: «لا صعوبة بشأن المال» إذ كنت أشعر بالأمان بسبب إذْن الصرف (الشيك) الذي أرسله «سامي».

غير أن فكرة شنيعة جعلتني ألتف حول نفسي كرصاصة استقرت في الكتف. فبالطبع حين يسمع «سامي» عن الشخص الذي اختطف «مارس» فسيوقف صرف الإذن. وقفزت من مقعدي.

قال ديف: «ماذا جرى الآن؟ إنك تثير أعصابي».

إلى أي مـدى يمكن أن تتسع غرائز «سامي» الرياضية؟ ليس إلى ذلك الحد، أنا على تمام الثقة من ذلك. أو ربما يتوقف الأمر على طبيعة غضبه؟ وتمثلت أمامي صورة ذهنية لحجرة الجلوس في شقته كما شهدتها آخر مرة، فزمجرت. الإمكانية الوحيدة هي أنه ربما نسي كل شيء عن هذا الإذن.

سألت ديف: «أتحدثت إلى سامي شخصياً في الهاتف؟».

قال: «أجل، من صندوق عام، بالطبع».

ـ «وهل كان غاضباً؟».

قال ديف: «كان على استعداد لارتكاب جريمة قتل».

سألت: «هل قال شيئاً خاصاً بالذات؟».

قال ديف: «دعني أفكر الآن. نعم، لقد فعل. وكنت أعتزم أن أخبرك بذلك مبكراً. قال، اخبر دوناجيو أنه يستطيع الحصول على الفتاة، وأنا احتفظ بالنقود».

كدت أبكي. وحينئذ كان لا بد أن أخبرهما طبعاً بكل شيء. ذهبت وأحضرت «الشيك»، وأخذنا نحملق فيه معاً. كان أشبه بالنظر إلى جثة شخص محبوب. قال فين: إنه لم ير في حياته شيكاً بهذا المبلغ من المال. وحتى «ديف» كان متأثراً.

قلت: «والآن، ينبغي أن أذهب إلى باريس!» فإذا كان العالم مديناً لي بمثل هذا المبلغ من المال، فلا بد أن يُصْنع شيء جذري في الحال.

كان «فين» يدرس الصيغة التي كتب بها «سامي» إقرار حسابه، قال: «مازال هناك لايربيرد Lyrebird. إنه لا يستطيع أن يسترد ذلك».

قال ديف: «كل ما في الأمر أنه لم يربح بعد!».

قلت: «عليكما بمراقبة الصحف. وأنا أمتلك ستين جنيهاً في البنك. ما مقدار المبلغ الذي تستطيع أن تراهن به يا فين؟».

قال: «عشرة جنيهات».
سألت: «وأنت يا ديف؟».
قال ديف: «لا تكن أحمق!».

وأخيراً اتفقنا على أن نضع على الحصان رهاناً مقداره خمسون جنيهاً نشترك فيه نحن الثلاثة. وكنا لانزال جميعاً قلقين على خسارة الستمائة والثلاثة والثلاثين جنيهاً.

ناقشنا بعد ذلك مسألة الخطاب، فتمسكت برأيي في أن يكون تعاملنا مع «سادي». وكنت ما أزال مجروحاً بالافتراض الذي افترضه «ديف»، وتذكرت في شيء من الأسى كيف قالت «سادي» إنها تميل إليّ. ولو أتيح لي مزيد من الوقت، لبحثت فيما إذا كان لهذا تأثير على قراري. لم تكن هذه اللحظة ملائمة على كل حال ـ للإغراق في تحليل الدافع. وإذا كان للمرء أسبابه الحسنة للقيام بفعل معين، فلا ينبغي أن يحول بينه وبين هذا الفعل أن لديه أسباباً أخرى رديئة. وقررت أن الشكوك لا مكان لها هنا. كانت «سادي» أذكى من «سامي»، وفيما يتعلق بهذه المغامرة، كانت «سادي» هي الرئيس. كما أن ستائرها لم تنتزع من الجدار، ولم تُقلب حجرة جلوسها رأساً على عقب. أما مسألة أن «سادي» مازالت تميل إليّ، فلم تكن ذات وزن. لم أكن أميل إليها مع هذا، وكنت نافد الصبر للرحيل.

اتفقنا أخيراً على أن يكتب «ديف» خطاباً بسيطاً فوق توقيعي إلى «سادي» مقترحاً استبدال «مارس» نظير اعتراف رسمي بوضعي في مسألة الترجمة، ودفع التعويض المناسب لاستخدامها. وتجادلنا بعض الوقت عن قيمة التعويض الذي ينبغي أن نطلبه. فقال ديف: «إلام تسعى:

استرجاع ملكية، أو خسائر، أو الانتقام؟» أما «فين» فكان يعتقد أن نجعلها عملية ابتزاز صريحة وأن نطلب أقصى ما يمكن الحصول عليه بالاحتفاظ بمارس، مع تلميحات مستترة إلى تدهور ممكن في صحته، واقترح أن يكون المبلغ خمسمائة من الجنيهات. وذهب «ديف» إلى أنه لا ينبغي أن نطلب أكثر من المكافأة التي تستحقها الترجمة، وقال إنه ليست لديه فكرة عن مقدار هذه المكافأة، وانها من حق الناشر وليست من حقي، ولكن نظراً لهذه الظروف، وللمحافظة على كرامتي أستطيع أن أطالب بخمسين من الجنيهات. وكان رأيي أنني لا أحتاج إلى تلقي المكافأة المعتادة فحسب، بل أيضاً تعويض عن سرقة المنسوخ، فاقترحت في تواضع مبلغ مائتين من الجنيهات.

وفي نهاية الأمر، حددنا المبلغ بمائة من الجنيهات. وشعرت أنه مبلغ معتدل جداً؛ غير أن فكرة الرحيل إلى باريس كانت قد استولت عليّ الآن، فكان من الممكن أن أوافق على أي شيء. ووقّعت باسمي في أسفل عدد من الأوراق، وكان على «ديف» أن يكتب الرسالة على إحداها على الآلة الكاتبة بعد أن يكتب لها مسودة وفقاً للشروط التي اتفقنا عليها. وأراد «ديف» أن اقترح كلمات الإعزاز أو اللمسات الشخصية التي يمكن إضافتها حتى تبدو الرسالة أقرب إلى الحقيقة، غير أنني أصررت على أن تبقى لا شخصية تماماً وأشبه بخطابات العمل. وفي كثير من التردد أعطيت «ديف» شيكاً على بياض. ثم توجهت إلى محطة فيكتوريا لألحق بالعبّارة الليلية لكي أوفّر شيئاً من النقود، ولأن السفر بالطائرات يثير أعصابي.

الفصل الرابع عشر

ألفيت أن رحلات البحر تساعد على التأمل. لا أعني بذلك أن ركوب العبّارة يمكن أن يسمى رحلة بحرية بالمعنى المألوف. ثمة عنصر ضروري في تجربة السفر بالمركب هي الشّم؛ على حين أن إحدى السمات الخاصة للعبّارة الليلية هي أن المرء يلتقي بالاحساسات الحركية الناشئة عن المركب ممتزجة بالاحساسات الشمّية المتولدة عن القطار. وفي وسط مثل هذا الاختلاط للحواس جميعاً، رقدت الآن أفكر في «هوجو».

كان التقائي بهوجو أبعد من أن يوصف بالنجاح، كما أنه لا يمكن أن يوصم تماماً بالفشل. لقد أطلعت «هوجو» على شيء كان يحتاج إلى معرفته. كما أننا لم نتبادل ألفاظاً تخلو من الود. وفضلاً عن ذلك اشتركنا معاً في مغامرة برّأت نفسي منها على الأقل في غير خزي. من الممكن أن يقال إذن بمعنى من المعاني إن الجليد قد تكسر بيننا. ولكن من الممكن تكسير الجليد دون دفن الفأس. ولما كنت قد انشغلت إلى حد ما منذ لقائي بهوجو، لم يتح لي الوقت بعد لتأمل انطباعاتي. جمعتُها الآن معاً وأخذت أقلبها واحدة فواحدة. تذكرت بصورة حية رؤيتي الأولى لهوجو، عندما كان يقف هناك على أعلى السلّم، كأنه قيصر روسيا. وبدا لي الآن وأنا مستلقٍ فوق وسادتي المجعدة، بدا لي صورة للغموض والقوة.

وأحسست أنني على يقين أكثر من أي وقت مضى بأن الأمر لم ينته بيننا. وأياً كانت النهاية التي نُسِجت من أجلها خيوط مصيري بخيوطه، فلا بد من فك هذا التشابك.. هبط عليّ هذا الإحساس بقوة بحيث وجدت نفسي نادماً على رحيلي إلى باريس، والتنازل ـ ولو ليوم واحد ـ عن إمكانية رؤيته مرة أخرى.

أما الشيء الذي لم يتضح أبداً نتيجة للقائنا، والذي يمكن أن يقال عن لقائنا من وجهة هذه النظر أنه كان فاشلاً، فهو مشاعر «هوجو» الحالية نحوي. فمن الحق أنه لم يظهر أية عداوة صريحة، وكان سلوكه ـ إذا أمكن وصفه بشيء ـ أميل إلى اللامبالاة. ولكن، هل كانت هذه علامة طيبة، أم سيئة؟ تذكرت في شيء من التفصيل التعبير الذي ارتسم على وجهه، نبرة صوته، وحتى حركاته، وقارنتها بذكريات مبكرة، ولكن دون أن أصل إلى أية نتيجة. كان لايزال عليّ أن أرى إلى أي حد بلغت ملالة «هوجو» نحوي. فكّرت بعد ذلك عن كتاب «المُسْكِت» The Silencer، ولم أتمالك نفسي من أن أتمنى أن تكون «سادي» و«سامي» قد اختارا مكاناً آخر غير مطبخ «سادي» لحديثهما المتآمر. وكنت أوثر ـ مع وضع الأشياء جميعاً موضع الاعتبار ـ أن استرد الكتاب دون العلم بهذه المؤامرة، وبالتالي أكون قد وفرت على نفسي في الماضي والمستقبل قدراً كبيراً من المتاعب؛ إذ لم أكن أتخيل بجدية أن تحذيري لهوجو كانت له أية أهمية سوى أنه كان لفتة صادرة عن حسن النية. أما فيما يتعلق بالكتاب نفسه، فقد كان يتمثل لذهني لا بوصفه «ذريعة» لإعلان الحرب بيني وبين «هوجو» فحسب، ولكن بوصفه أيضاً كوكبة من الأفكار لا أستطيع أن أكون من الجحود بحيث أتظاهر بأنها منفصلة عن بقية عالَمي. ينبغي أن أعيد النظر فيما قلت. ولكن، أين يمكن أن أجد الآن نسخة أخرى؟ خطر لي أنني ربما أخذت نسخة «جان بيير» إن كان لايزال محتفظاً بها، النسخة التي أرسلتها إليه عقب النشر، والتي أعتقد عن يقين

أنه لم يفتحها أبداً. وساقتني فكرتي عن «جان بيير» إلى أفكار شتى عن باريس، المدينة الفاتنة القاسية، الحنون، المثيرة، الساحرة، وعلى هذه الأفكار نمت وحلمت بـ «آنا».

وصولي إلى باريس يؤلمني دائماً، حتى حين أبتعد عنها فترة قصيرة من الزمن. إنها مدينة لا أقترب منها أبداً إلا بإحساس من التوقع، ولا أفارقها إلا بشعور الأمل الخائب. هناك سؤال لا يسعني إلا أن أسأله، ولا تجيب عليه إلا باريس وحدها؛ غير أن هذا السؤال شيء لم أقدر بعدُ على صياغته. تعلمت هنا حقاً أشياءً معينة، منها مثلاً أن لسعادتي وجهاً حزيناً، بلغ من حزنه أنني رأيت فيه تعاستي أعواماً طويلة، فنبذته. غير أن باريس مازالت بالنسبة لي انسجاماً لا سبيل إلى حله. إنها المدينة الوحيدة التي أستطيع تشخيصها personify. أعرف لندن معرفة جيدة جداً، والمدن الأخرى لا أحبها بما فيه الكفاية. أما باريس فألقاها، ولكن كما يلقى المرء معشوقاً، في النهاية، فيقف كالأبكم لا يكاد ينطق بكلمة: «إذن، باريس، ماذا تقولين، أنت؟ قولي إنك أنت ماذا أحبّ»(*). ولكن، ما من إجابة، اللهم إلا الصدى الحزين الذي ترده الجدران المتداعية، باريس.

عندما وصلت، لم أشعر بأية لهفة عنيفة لرؤية «مادج». كنت أترك نفسي على سجيتها حتى يقيِّدها السحر المعتاد؛ إذ لا تملك الحياة سوى لحظات قلائل تُعلن عن نفسها بوصفها لحظات مقدسة. وفي الزمان الآتي ما يكفي للتفكير ملياً في الأفكار ـ أياً كانت ـ التي قد يرغمني لقائي بمادج على التفكير فيها؛ وفيما كنت أتجول متجهاً صوب نهر السين، أيقنت أنه أينما كان الخط الذي يمكن وضعه بين المظهر والحقيقة، فإن

(*) بالفرنسية في النص على النحو التالي: Alors, Paris, qu'est-ce que tu dis, toi Paris, dis-moi ce que j'aime.

ما أختبره الآن كان بالنسبة لي هو الحقيقي. وشحب مشروع «مادج» كما تشحب الشمعة. كان الصباح في الوقت الذي تتدفق فيه الأنهار الغامضة تقودها خِرق من الأكياس القديمة ـ حول طَرقات باريس العتيقة. وسحب الضوء الذي لا تشوبه سحابة مسحة من اللون على واجهات الأرضية الرمادية فجعلها تبدو ناعمة عميقة كالسكر المذرور. ثمة تفاصيل قد تسيء عرضها حتى أشد الذاكرات رفقاً. المنازل التي تضفي عليها مصاريع النوافذ نعومة خاصة، بجباهها العالية. انحنيت زمناً طويلاً، متأملاً في مرآة «الجسر الجديد» Pont Neuf الذي كان يؤلف بأقواسه المستديرة وانعكاساتها حرف O كاملاً، بحيث لا يستطيع المرء أن يحدد المنعكس من غير المنعكس؛ بهذا السكون الزجاجي كان نهر السين، وهو سكون يستحيل على نهر التيمس أن يحاكيه بمده وجزره. انحنيت هناك وفكَّرت في «آنا» التي جَعَلت هذه المدينة موجودة بالنسبة إليّ في تكاثر جديد للتفاصيل، حين فرجتها عليها لأول مرة، رغم معرفتي بها أعواماً عديدة.

وأخيراً بدأت في طلب إفطاري، فشرعت في المسير صوب فندق «مادج»، وجلست أثناء الطريق في مقهى لا يبعد كثيراً عن الأوبرا. وهنا بدأت ألاحظ التفاصيل الأكثر دنيوية للمدينة الزاخرة بالعمل والحيوية، وبعد أن جلست هناك برهة، حدث نوع من الإثارة على الرصيف المجاور للمقهى استرعى نظري. كان عدة رجال يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام يقفون على مقربة وكأنما يتوقعون شيئاً ما. نظرت إليهم في اهتمام مبهم؛ وسرعان ما خمنت أنهم انبعثوا من حانوت للكتب مجاور للمقهى. وساءلت نفسي هنيهة عن الشيء الذي ينتظرونه. ظلوا واقفين في أماكنهم، وهم يتطلعون إلى الشارع، ثم عادوا إلى حانوت الكتب، وخرجوا مرة أخرى، وانتظروا على أحر من الجمر. وبعد فترة، تحولت إلى دراسة الحانوت، وهناك شاهدت شيئاً فسَّر لي هذا المشهد. كانت

النافذة الرئيسية خالية تماماً، وعليها بحروف ضخمة كتبت هاتان الكلمتان: «جائزة جونكور». ذلك أن الجوائز الأدبية الكبرى حين تُمْنح كل عام يقف ناشرو الكتب الذين يأملون في الترشيح لهذه الجوائز على أهمية الاستعداد لتقديم طبعة جديدة ضخمة للكتاب الفائز بعد لحظات من إعلان النتيجة. وهذا العمل (الفائز) الذي يعاد طبعه بعشرات الآلاف من النسخ، يُحْمل إلى حوانيت الكتب بعجلة شديدة، وذلك حتى يستطيع الجمهور قبل أن تفقد الأنباء مذاقها الساخن أن يشبع نهمه من هذه الرائعة الأدبية المرموقة. وتمهيداً لهذا الحدث تُخْلى جميع حوانيت الكتب التي لها إدعاءات ثقافية أفضل واجهاتها، وتقف على استعداد للترحيب بالكتاب الفائز حين يصل بسرعة فائقة في طبعته الجديدة.

جلست أحتسي قهوتي، وأراقب هذا المشهد مفكِّراً في الفَرْق بين التقاليد الأدبية الفرنسية والانجليزية، حين صدرت صرخة عن فرامل، وتوقفت سيارة نقل بحدة عند حافة الطريق، فهرع إليها الرجال ذوو القمصان، وفي لحظة كانوا قد شكلوا سلسلة أخذت لفائف تتناقل بسرعة بين أفرادها من يد إلى أخرى. وفي داخل الحانوت، كنت أستطيع أن أرى رجالاً آخرين يضعون في لهفة صناديق الكتب في الواجهة الخالية التي ملأها في لحظات قلائل من أولها إلى آخرها اسم الفائز في تكرار رتيب ظافر. اكتملت القصة كلها في دقة متسرعة كأنها كبسة من كبسات الشرطة. راقبت سيارة النقل التي أُفْرغت في كثير من الاستمتاع والتسلية، على حين كانت الواجهة التي خلفي تتحول إلى اللون الأبيض بعد امتلائها بالكتب. استدرت لأفحصها؛ وهناك رأيت شيئاً توقفت منه ابتسامتي بغتة.

بعرض الواجهة كلها، وبالاصرار العاطفي الذي تتسم به صيحة متكررة، شاهدت اسم «جان بيير بروتاي» Jean Pierre Breteuil،

وتحته في تكرار موازٍ «نحـن المنتصرين» «نحن المنتصرين» «نحن المنتصرين». وثبتُ من مقعدي، ونظرت مرة أخرى إلى العبارة التي تقول: جائزة جونكور. لم يعد ثمة شك في ذلك. دفعت حسابي، وذهبت ووقفت أمام الواجهة، على حين كانت الرسالة تتكرر تحت ناظريّ عشـر، مائة، خمسمائة مرة. جان بيير بروتاي ـ نحن المنتصرين. وارتفع جبل الكتب ببطء أمامي؛ لم يكن هناك صوت منشق واحد. ارتفع إلى الذروة. ووضع الكتاب الأخير في مكان على القمة، ثم خرج مساعدو الحانوت متزاحمين ليشاهدوا كيف يبدو الكتاب من الخارج. وأخذ الاسم والعنوان يسبحـان أمام عينيّ، فاستدرت مبتعداً.

وحينئذ فحسب غمرني إحساس كان لي بمثابة الصدمة، وهو أن عاطفتي السائدة كانت هي الحزن. كان كذلك حزناً تغلغل في الأعماق حتى احترت لأول وهلة في فهمه. مضيت خبط عشواء في طريقي محاولاً تحليل المسألة، كنت بالطبع مندهشاً أن أجد «جان بيير» في دور الفائز بجائزة جونكور. إن المحلفين لجائزة جونكور ـ وهم كوكبة من الأسماء المجيدة ـ قد يخطئون أحياناً، ولكنهم لا يرتكبون أبداً خطـأ فاحشاً أو خرافياً، وأن يمثل تتويجهم لجان بيير لحظة من لحظات الجنون كان نظرية أستطيع أن أنحيها جانباً. ولم أكن قد قرأت الكتاب، فمازال البديل قائماً، وكلما أمعنت في التفكير، بدا لي أنه البديل الوحيد، وهو أن «جان بيير» قد كتب أخيراً رواية جيدة.

وقفت ساكناً في منتصف الرصيف. لماذا كان هذا الأمر لا يطاق على الاطلاق؟ لماذا يهمني كثيراً على هذا النحو أن «جان بيير» استطاع انتزاع الجائزة؟ ذهبت إلى مقهى وطلبت كأساً من الكونياك. أن أقول إنني غيور معناه أن أضع المسألة ببساطة شديدة. كنت أشعر بفزع ناقم وكأنما أواجه نقضاً وحشياً لنظام الطبيعة: أو كما يشعر إنسان بأن رأيه الأثير قد تحول

بغتة في تفاصيله على يد شمبانزي، وكنت قد صنفت «جان بيير» في رتبته مرة واحدة وإلى الأبد. أما أن يعمل خفية على تغيير مواقعه، وعلى صقل أسلوبه سراً، وتهذيب أفكاره، وتنقية عواطفه.. فهذا كله حقاً شيء سيّىء للغاية. وفي خيالي، كنت أخلع على الكتاب فعلاً كل فضيلة ممكنة. وكلما أمعنت في هذا أحسست بمزيج من الغضب والحزن كان يطرد كل فكرة أخرى من ذهني. وطلبت كأساً أخرى من الكونياك. لم يكن من حق «جان بيير» أن يحوّل نفسه سراً إلى كاتب مُجيد. واستولى عليّ إحساس بأنني كنت ضحية غش وخداع. اشتغلت من أجل هذا الرجل سنوات عدة، مستخدماً معرفتي وحساسيتي لإحالة تفاهاته إلى اللغة الانجليزية العذبة؛ والآن، ودون أن ينذرني يجعل من نفسه كاتباً كبيراً. وتمثلت في ذهني صورة «جان بيير» بيديه المكتنزتين وشعره الرمادي القصير. كيف أستطيع أن أقحم في هذه الصورة التي عرفتها جيداً كل هذا الزمان الطويل، فكرة روائي جيد؟ كان ذلك يهزني بعنف كتغيير مقولة أساسية. رجل نظرت إليه باعتباره شريك عمل انقلب الآن إلى خصم في الحب. شيء واحد كان واضحاً. ما دمت لا أستطيع الآن معاملة «جان بيير» باستهزاء، فقد أصبح من المستحيل معاملته على الاطلاق. لماذا أبدد وقتي بترجمة كتاباته بدلاً من انتاج كتاباتي الخاصة؟ لن أترجم أبداً «نحن المنتصرين»، أبداً، أبداً، أبداً.

كانت تدق العاشرة حين تذكرت «مادج». استقللت سيارة أجرة إلى الفندق الذي تنزل فيه، وكلما مضت بي السيارة، كان الغضب يختمر في داخلي ويتحول إلى نوع من العرامة المندفعة التي أضفت الصلابة على أعصابي، ورفعت رأسي. لم أتسلل إلى «فندق الأمير دوكليف» كما كان من الممكن أن أفعل عادة، وإنما اقتحمت المكان بحيث دفعت رجال الاستقبال والبوابين إلى الانكماش. ولم تكن بهم حاجة إلى التظاهر بالتجاهل، إذ اعتقد أنهم لم يلمحوا حقاً الرقع الجلدية فوق مرفقيّ، هذه

هي قوة العين الانسانية حين تقذف بنارها إلى الأمام. أمرتهم أن يقودوني إلى «مادج»؛ وفي دقيقة أو دقيقتين كنت عند بابها. وانفتح الباب، ورأيت «مادج» متكئة على مقعد طويل (شيزلونج) في وضع كان من الواضح أنها اتخذته منذ فترة توقعاً لوصولي. وأُغْلِق الباب ورائي في هدوء كما يغلق وراء أمير. ألقيت ببصري على «مادج»؛ وخطر لي أنني أشد سعادة لرؤيتها من أي وقت مضى. وتحت وطأة نظرتي ذاب وقارها، واستطعت أن أرى - في غيلاً محاولة لكتمان مشاعرها - عمق تأثرها، وارتياحها، وسرورها برؤيتي. وبشهقة ارتميت عليها.

* * *

كان من الضروري - بعد فترة - الشروع في الكلام. كنت مأخوذاً حين دخلت، بيد أن هذا الانطباع احتجب في الحال بتغيير جديد طرأ على «مادج». والآن وهي تضع البودرة على أنفها، جلست وتأملت ما حدث. كانت ثيابها أهدأ، وأكثر أناقة، وأكمل تفصيلاً، كما أن تسريحة شعرها تغيّرت تماماً. التموجات الإنجليزية الدائمة ذهبت، وأصبح شعرها مناسباً لها الآن كالقبعة المروحية. وكانت تبدو أنحف وأشد إثارة؛ وحتى حركاتها كانت أكثر رشاقة. من الواضح أن شخصاً جديداً قد أخذ «مادج» بين قبضته، شخصاً أكثر خبرة من «سامي». راقبتني من طرف عينها وهي تزم ثغرها الفخور الرقيق، ثغر المرأة التي تعرف أنها مشتهاة؛ وعندما هممت بتقبيلها، التفتت برأسها، وقدّمت إلي بحركة ملكية خدَّها المعطر المتورد اصطناعياً. كان من المثير أن يرى المرء شخصاً تحوّل بهذه السرعة: كما يرى النجوم تتحرك، أو العالم يدور.

قلت: «مادج، أنت فاتنة». وجلسنا.

قالت مادج: «جاكي.. لا أستطيع أن أخبرك بمدى سروري برؤيتك.. لا أستطيع حقاً.. أنت أول وجه إنساني رأيته منذ أجيال».

وبدأت أسائل نفسي فعلاً أي نوع من الوجوه ذلك الذي كانت «مادج» تراه مؤخراً؛ سيتاح من الوقت ما يكفي - على كل حال - لاستخلاص ذلك منها. وكان لدى كل منا الكثير ليخبر به الآخر.

سألت: «من أين نبدأ؟».

قالت مادج: «أوه، يا عزيزي!» وطوقتني بذراعيها. فأرجأنا البدء فترة أخرى.

قلت أخيراً: «انظري.. فلنبدأ بتقرير ما نعرفه نحن الاثنين: أن سامي وغد، على سبيل المثال».

قالت مادج: «أوه يا عزيزي، كنت تعسة كل التعاسة بشأن سامي!».

سألت: «ماذا حدث؟».

كان من الواضح أن «مادج» لن تخبرني بشيء. وكنت أستطيع أن ألمح بحثها عن مَهْرب. قالت مادج: «إنك لا تفهم سامي، إنه نوع تعس مُشوَّش من الأشخاص». هذه ملحوظة نمطية موّحدة يدلي بها النسوة عن الرجال الذين هجروهن.

سألت: «أهذا هو السبب الذي جعلك تُهْدين إليه ترجمتي؟».

قالت: «أوه، هذا الموضوع! فعلتُ ذلك من أجلك، يا جاكي». ووضعتني في موقف حرج بعينيها الواسعتين. «اعتقدت لو أن شيئاً تمخض عنه هذا، فسيكون في استطاعة سامي أن يساعدك. ولكن كيف علمت أنه حصل عليه؟».

وهنا عرضت عليها نسخة منتقاة أرفع انتقاء من مغامراتي الأخيرة. وكنت أرى بوضوح أن «مادج» تبغض كل ما يأتي من «سامي» و «سادي».

قالت: «يا لهما من شخصين محتالَيْن!».

سألتها: «من المؤكد أنك كنت تعلمين بخطة سامي؟».
قالت مادج: «لم تكن لدي أية فكرة حتى علمت بها منذ يومين».

كان من الواضح أنها تكذب، إذ لا بد أنها كانت تعلم ما يدبره «سامي» بشكل أو بآخر حين أعطته منسوخي؛ ولكنها كانت بلا شك في هذا الوقت خاضعة لانطباع بأنها ستكون هي المرأة المعنية في هذه القضية، وليست «سادي». ولعل «سامي» اعتقد ذلك أيضاً، بادىء ذي بدء. فمن المؤكد أنه أحس ـ بمناسبة الأصيل الرياضي الذي قضيناه معاً ـ بما بدا أنه اهتمام حقيقي بمادج. أما أن يكون «سامي» مشوشاً، فهذا شيء ممكن على كل حال. أما أن يكون تعساً، فهذا ما لم أكن أعرفه، كما لم يكن يعنيني في شيء.

قلت: «والآن، ماذا لو أفضيت إليّ بأشياء قلائل؟ ما هو هذا الحديث المهم الذي تريدينه؟».

قالت مادج: «إنها حكاية طويلة، يا جيك». وصبّت لي شراباً، ثم وقفت تنظر إليّ ممعنة في التفكير. كانت لها تلك النظرة الماكرة المترفعة لامرأة تشعر بسلطانها وترى نفسها على أنها كليوباترة. «أتحب أن تكسب ثلاثمائة من الجنيهات في الحال ومائة وخمسين شهرياً لأجل غير مسمى؟».

وبينا كنت أتروى في هذا العرض، جعلت أتأمل «مادج» في دورها الجديد. قلت: «إذا تساوت الأشياء، فالجواب بنعم. ولكن من السيد الذي سيدفع؟».

أخذت «مادج» تذرع الحجرة على مهل. وكان حسها الدرامى من الحدة بحيث كهرب الجو كله. واستدارت هادئة لتواجهني، بهدوء الشخص الذي يعرف كيف تكون الاستدارة هادئة.

قلت: «أوه، احزمي أمرك، وصارحيني بأمانة. . ليس هذا اختباراً للشاشة».

قالت «مادج» وهي تنتقي عباراتها بعناية: «شخص جمع ثروة طائلة من المال في صناعة السفن أو من شيء ما في الهند الصينية يقترح وضع هذا المال في إنشاء شركة أفلام إنجليزية ـ فرنسية. وسيكون مشروعاً ضخماً للغاية. ويبحث الأشخاص المشرفون عليه عن مواهب». وأردفت قائلة: «بالطبع، إن كل ما أخبرك به الآن سري تماماً».

حلقت في «مادج». من المؤكد أنها التحقت بمدرسة منذ آخر مرة رأيتها. من أين يمكن أن تلتقط مثل هذه الكلمات: «مشروع» enterprice و «سري» in confidence؟

قلت: «هذا شائق جداً، وأرجو أن تكون عين الباحث عن المواهب قد سقط ضوؤها عليك؛ ولكن بأية صفة دخلت أنا في المشروع؟».

قالت مادج: «لقد دخلت بصفتك كاتب سيناريو». وصبّت لنفسها شراباً. كان التوقيت كاملاً.

قلت: «انظري يا مادج، أنا أقدّر هذا. . أقدر كل جهودك الكريمة من أجلي. غير أن المرء لا يستطيع أن يدخل وظيفة على هذا النحو. إن كتابة السيناريو عمل غاية في التقنية ـ وينبغي عليّ أن أتعلمه قبل أن يدفع لي أي شخص منهم في وعيه المبلغ الذي ذكرته». ثم قلت: «على كل حال، لست على ثقة من أنها وظيفة من النوع الذي أسعى إليه، ليس هذا نوعي»(*).

قالت مادج: «كف عن التمثيل، يا جيك». وكان من الواضح أن

(*) قالها بالفرنسية في النص: Ce n'est pas mon genre.

ملحوظتي التي قلتها مبكراً قد لدغتها. «إنك تلهث من أجل هذا المال. دعني أخبرك بما ينبغي أن تفعل للحصول عليه».

من الحق أنني لم أكن غير متأثر، فقلت: «أعطيني جرعة أخرى من الشراب، واخبريني كيف تقترحين سحبي إلى هذا المشروع».

قالت مادج: «لست في حاجة إلى السحب. ستأتي بصورة طبيعية جداً بسبب جان بيير».

قلت: «يا إلهي! ما علاقة جان بيير بهذا كله؟» يبدو أنني متورطٌ حتى كاحليّ في جان بيير ذلك الصباح.

قالت مادج: «إنه عضو في مجلس الإدارة.. أو سيكون كذلك بعد توقيع كل شيء. وخمِّن ما هو أول إنتاج لنا». قالت ذلك بلهجة شخص يلقي بحجة ختامية «فيلم انجليزي مؤسس على كتابه الأخير!».

أحسست بدوار، فقلت: «تعنين كتابه: نحن المنتصرين؟».

قالت مادج: «هذا ما أعنيه.. الكتاب الذي نال الجائزة التي لا أعرف ماذا تسمّى».

قلت: «أنا أعرفها.. جائزة جونكور، شاهدت ذلك في حانوت للكتب أثناء مجيئي».

قالت مادج: «سيكون فيلماً رائعاً، أليس كذلك؟».

قلت: «لا أدري، فأنا لم أقرأه» جلست ناظراً إلى السجادة. وأحسست أنني على وشك البكاء أكثر من أي وقت مضى.

راقبتني «مادج» وأنا أجلس هناك مطرقِ الرأس. صاحت: «ماذا جرى لك، يا جيك؟ ألست على ما يرام؟».

قلت: «أنا على خير ما يرام.. امضي في إخباري بالأشياء».

قالت مادج: «جيك، كل شيء يسير على أروع نحو. . كل ما في الأمر أنك لم تر شيئاً بعد. هذا أفضل من أي شيء حلمنا به في «طريق إيرلز كورت» Earls Court Road. . أن يكون هو جان بيير! لقد حدث هذا كله وفقاً لنموذج بديع».

وكنت أستطيع أن أرى أنه تم وفقاً لنموذج. قلت: «مادج، لستُ كاتب سيناريو، ولا أعرف شيئاً عن السينما».

قالتْ مادج: «عزيزي. . ليست هذه هي المسألة. . ولا أهمية لذلك».

قلت: «كنت أعتقد أن هذا ليس هو المسألة».

قالت مادج: «إنك لم تفهم. لقد تحدد كل شيء. . هذه الوظيفة أصبحت لك».

سألت: «أهذه الوظيفة ضمن هديتك؟».

قالت مادج: «ماذا تعني؟».

ـ «أعني هل تستطيعين أن تعطيها إلى أي شخص تحبينه؟».

نظر كل منا إلى الآخر. قلت: «فهمت». وعدت للاستقرار في مقعدي: «املأي كأسي، أرجوك؟».

قالت مادج: «جيك، كف عن أن تكون صعباً».

قلت: «أريد أن أرى الأشياء واضحة. . أنت تعرضين عليّ وظيفة عاطلة».

قالت مادج: «لست واثقة من معرفتي بهذا الذي تقول، ولكنّي أتوقع أن تكون كذلك».

قلت: «الوظيفة العاطلة هي أن يتقاضى المرء مالاً دون أن يفعل شيئاً».

قالت مادج: «ولكن، أليس ذلك هو ما أردتَه دائماً على وجه التحديد؟».

حدَّقت في الأعماق العنبرية لكأسي وقلت: «ربما، ولكني لا أريدها الآن». لم أكن على يقين من أن هذا القول كان صادقاً. ويبقى أن أتبيّن فيما بعد إن كان صادقاً أم لا.

قالت مادج: «على أي حال، لن يكون من أجل ألا تفعل شيئاً. فربما كلِّفت بعمل كل صنوف الأشياء. هناك ترجمة الكتاب التي ستقوم بها على كل حال».

قلت لها: «أنت تعلمين جيداً أن هذه مسألة أخرى».

قالت مادج: «يجب أن تكون في غاية من السعادة لأنه كَتَبَ أخيراً كتاباً محترماً. والناس جميعاً يقولون إنه رائع، ولا سيما منذ أن حصل على تلك الجائزة التي لا أعرف اسمها».

قلت: «لن أترجم مزيداً من الكتب لجان بيير».

حملقت إليّ مادج كأنني مجنون. قالت: «ماذا تقصد؟ كنتَ في «إيرلزكورت رود» تشكو دائماً من أنك تضيِّع وقتك في ترجمة مثل هذه المادة الرديئة».

قلت لها: «هذا حق. غير أن منطق الموقف هنا غريب. إذ لا يلزم عن ذلك أن ترجمة مادة أفضل أقل مضيعة للوقت».

نهضت وذهبت للنظر من النافذة. وكنت أستطيع أن أسمع «مادج» وهي تتبعني عبر السجادة السميكة.

قالت وهي قريبة خلف أذني: «جيك، كف عن هذا. لقد أتيحت لك الآن فرصة العمر. ربما لم يكن لك من قبل الكثير لتفعله، أما فيما بعد

فالأمر يختلف. ولا بد لك من أن تطرح جانباً هذا الهراء عن جان بيير».

قلت: «إنك لن تفهمي». واستدرنا لكي يواجه كل منا الآخر.

قالت «مادج» بعد لحظة صمت: «إن صديقتك قد رحلت إلى هوليوود».

أمسكت براحة «مادج» المرتخية غير المستجيبة وقلت: «ليست المسألة على هذا النحو. وبالمناسبة، أرجو ألا تشيري إلى «آنّا» بوصفها صديقتي. إننا لم نلتق منذ سنين، فيما عدا بعض الوقت في الأسبوع الماضي».

قالت «مادج» في شيء من الشك: «أوه!».

فأردفت قائلاً: «على كل حال، إنها لم ترحل إلى هوليوود» لم أكن حتى هذه اللحظة واثقاً تمام الثقة من ذلك. «أنت لا تعلمين أنها رحلت، أليس كذلك؟».

قالت مادج: «كلا، لا أعلم تماماً، ولكنني أُخبرت بانها رحلت. وكل الناس يذهبون إلى هوليوود، من استطاع إلى ذلك سبيلاً».

وأتيت بحركة تعبر عن احتقاري لعالم تسير فيه الأمور على هذا النحو. غير أنني كنت قد أبديت فعلاً كثيراً من الانفعال، وأردت أن أغيِّر الموضوع. فسألت: «كيف ستكون العلاقة التي تربط بين شركتكم هذه وبين «باونتي بلفاوندر؟».

قالت مادج: «العلاقة التي تربط؟ إنها سوف تمحوها من على وجه الأرض». وكانت تتحدث في ارتياح تشيع فيه القسوة، فهززت كتفيّ.

قالت مادج: «ولا تتظاهر بأنك لا تعبأ بهذه المسألة. والواقع، أنك ستؤدي خدمة جليلة لصديقك بلفاوندر. فما من شيء يتمناه حقاً أكثر من

أن يبدد كل أمواله».

أجفلت من قولها هذا. وكان من الجليّ أن «مادج» تتحرك في أوساط تتخذ من شخصية «هوجو» موضوعاً للمناقشة. قلت وأنا أبتعد عنها: «يستطيع أن يفعل ذلك دون معونتي».

أحسست بضرب من التعب المضطرب. يُعْرض عليّ الآن مبلغ كبير من المال؛ دون أن يكون واضحاً لي لماذا أرفضه: إذا كان ما أفعله الآن يُعَدُّ رفضاً له. والأهم من ذلك أنه قد عُرِض عليّ أيضاً مفتاح العالم الذي يأتي فيه المال بسهولة، وحيث ينتج نفس القدْر من المجهود نتائج تنطوي على ثراء هائل: كأنما ينقل المرء ثقلاً من عنصر إلى آخر. أما فيما يتعلق بضميري، فسوف أتصالح معه خلال أشهر قلائل. وكل ما عليّ أن أفعله هو أن أغمض عينيّ، وأدخل ذلك العالَم. لِماذَا يبدو الطريق الذي يؤدي إلى الداخل عسيراً كل هذا العسر؟ كنت في حالة من القلق. وكان يبدو أنني ألقي بالجوهر في سبيل الظل (العَرَض). وكان ما أوثره خواءً لا أستطيع أن أقدِّم عنه تفسيراً معقولاً.

راقبتني «مادج» في حزن متزايد.

قلتُ رغبةً في أن أقول شيئاً: «مادج، ماذا سيحدث لرواية «البلبل؟»».

قالت مادج: «أوه، كل خير. هناك أشخاص من طرف «سادي» يتفاوضون مع «جان بيير» عنها، ولكنه صدَّهم. وحصلت الآن شركتنا على حقوق انتاج جميع كتبه للسينما».

كان هذا مهدئاً للموقف. فابتسمت لمادج، ورأيتها تبتسم هي أيضاً في ارتياح. قلت: «إذن، فقد نجحت «سادي» و «سامي» في الحصول على ما يريدان».

قالت مادج: «لقد حصلا على ما يريدان».

وبدأت أتذكر كيف شعرت بالأسف من أجل «مادج»، ثم خطر لي أن «مادج» شرعت في خداع سامي حتى قبل أن تعرف أن «سامي» كان يخدعها. إنه لا بد من وقت طويل لكي يكون الفندق هو «فندق الأمير دوكليف». كان الأمر فكها بحيث أخذت في الضحك، وكلما أمعنت الفكر فيه، تماديت في الضحك حتى لم يكن بد من الجلوس على الأرض. وفي البداية، اشتركت معي «مادج» في الضحك، ولكنها لم تلبث أن توقفت وقالت بحدة: «جيك!» فعدت إلى صوابي.

قلت: «إذن، فسوف ينتجُ «سامي» أفلاماً عن الحيوانات، قبل كل شيء».

قالت مادج: «أما بخصوص هذا الأمر، فقد ابتاع سامي حانة هناك أيضاً. او الأحرى أنه لم يبتع حانة».

سألت: «ماذا تعنين؟».

قالت مادج: «قامت شركة فانتاز فيلمز Phantasfilms بالاحتيال على سامي. أتدري كم يبلغ «ميستر مارس» من العمر؟».

لمس إصبع حزين وتراً في قلبي. قلت: «لست أدري.. كم يبلغ من العمر؟».

قالت مادج: «أربعة عشر عاماً. إنه يقف الآن على ساقيه الأخيرتين. وخرج من آخر أفلامه بمشقة. وكانت شركة «فانتاز فيلمز» قد قررت تقاعده، على كلٍ حال. ثم حدث أن اهتم به سامي، فباعوه إليه دون الكشف عن سنه. وكان ينبغي على سامي أن يفحص أسنانه».

قلت: «ليس في إمكانك أن تستدلي على سن كلب بفحص أسنانه».

قالت مادج: «وهكذا انخدع سامي هذه المرة أيضاً».

لم أكن أعبأ بشيء من ذلك. كنت أفكر في «مارس». كان «مارس» عجوزاً، ولم يعد في إمكانه أن يقوم بأي عمل. لن يسبح بعدُ في فيضانات الأنهار، ولن يقفز فوق الأسوار العالية، ولن يتقاتل مع الدببة في الأماكن الموحشة. كانت قوته تذوي، ولم يعد ذكاؤه ينفعه شيئاً. ولن يلبث أن توافيه المنية. اكتملت دائرة حزني بهذا الكشف، ومع هذا الكشف تبلورت عزيمتي.

قلت: «لن أستطيع القيام بهذا العمل».

قالت مادج: «أنت مجنون! لماذا، يا جيك، لماذا؟».

قلت: «لا أعرف الأسباب بوضوح تام، كل ما أعرفه هو أن في هذا القبول موتي».

أقبلت «مادج» نحوي. وكانت عيناها في صلابة العقيق، قالت: «هذه هي الحياة الحقيقية، يا جيك. خير لك أن تصحو». وضربتني بشدة فوق فمي. فتراجعت قليلاً من جراء الألم المباغت الذي أحدثته اللطمة. وقفنا لحظة في هذا الوضع، وصمدت لنظرتي على حين كانت الدموع تتجمع ببطء في عينيها. وعندئذٍ، تلقيتها بين ذراعيّ.

قالت «مادج» وقد دفنت رأسها بين كتفي: «جيك، لا تتركني».

وحملتها تقريباً إلى مقعدها. كنت أحس بالهدوء والعزم. ركعت إلى جانبها، وأخذت رأسها وأنا أمشط شعرها إلى الوراء بيدي. وارتفع وجهها نحوي كزهرة متصاعدة.

قالت مادج: «جيك، لا بد أن آخذك معي. هذا هو كل ما كنت أسعى إليه. ألا ترى ذلك؟».

أومأت برأسي. وسحبت يدي مرة أخرى على شعرها الأملس وأنزلتها حتى بلغت دفء عنقها.

قالت مادج: «جيك، قل شيئاً».

قلت: «لا أستطيع أن ألقي بنفسي إلى التهلكة». وأجفلت «مادج» كأنها تلقت صدمة عنيفة تجل عن الوصف. ولم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله من أجلها. قلت: «ليس في وسعي أن أفعل شيئاً من أجلك».

قالت مادج: «تستطيع أن تمكث على مقربة مني. يمكن أن يكون هذا هو كل شيء».

هززت رأسي.

قلت: «انظري يا مادج، اسمحي لي أن أكون بسيطاً. لعلي أخبرك بأنني أهتم بك إلى درجة أنني لست على استعداد للوقوف جانباً بينما تذهبين إلى الفراش مع الرجال الذين باستطاعتهم أن يعاونوك لتصبحي نجمة. ولكن، قد لا يكون هذا صحيحاً. إذ أنني لو اهتممت بك أكثر من ذلك، فربما أردت أن أفعل ذلك بالضبط. الحقيقة هي أنني لا بد أن أحيا حياتي الخاصة.. وهي ببساطة لا تكمن في هذا الاتجاه».

نظرت إليَّ «مادج» من خلال دموع حقيقية. وأرادت أن تلعب بورقتها الأخيرة، فقالت: «إذا كان الأمر يتعلق بآنّا، فأنت تعلم أنني لا أكترث. أعني، ربما اكترثت، ولكن، لن يغيِّر هذا من الأمر شيئاً. كل ما أريده هو أن تبقى بجانبي».

قلت: «لا جدوى من ذلك، يا مادج» ونهضت. وفي هذه اللحظة أحببتها حباً عميقاً. وبعد لحظات قلائل، كنت أهبط السلّم.

الفصل الخامس عشر

اجتزت الطريق ومشيت بحركة آليّة صوب النهر. وكنت أصطدم بالناس على الأرصفة وكادت تدهمني السيارات عدة مرات. كانت ساقاي ترتجفان تحتي. وعندما بلغت «السين» جلست على مقعد، وخلعت سترتي، فوجدت قميصي منقوعاً في العرق. ففككت أزراره، ومرّرت يدي فوق صدري وتحت ذراعيّ. لم أكن موقناً بحال من الأحوال بذلك الذي فعلته، ولكنني كنت أعرف أنه شيء مهم. وحينئذٍ أحسست بإحساس من اقترف جريمة قتل أثناء سُكْره. وحين نظرت حولي، كانت باريس تعيد تكوين نفسها كانعكاس يتوقف عن الاهتزاز حين يثوب الماء إلى السكون. وأخيراً سكنت حركته فاستحال إلى زجاج. ماذا فعلت؟.

رفضت مبلغاً صافياً، وعلى افتراض أن استغرق ستة أشهر على الأقل قبل الفصل، فمن الممكن أن يصل إلى اثني عشرة ألفاً من الجنيهات. رفضت خطوة سهلة للخروج من عالم العَوَز المستمر والدخول في عالم المال الدائم. ومن أجل ماذا؟ من أجل لا شيء. في هذه اللحظة تبدت لي فعلتي على أنها عبث من العبث. كان يبدو لي وأنا في حجرة «مادج» - أنني أرى سبباً يجعلها ضرورية. أما الآن فإنني لا أستطيع أن أتبين أبداً ماذا يمكن أن يكون ذلك السبب. قمت من مكاني وسرت عبر الجسر الحديدي. وقالت ساعة المعهد إننا في الثانية عشرة وعشر دقائق. وفي

أثناء سيري لاحت لي حقيقة كبرى. لا شيء في هذا العالم أهم من المال. لماذا لم أفهم هذا من قبل؟ كانت «مادج» على حق عندما قالت إنه الحياة الحقة. كان هو الشيء الذي نحتاج إليه؛ وقد أنكرته. وأحسست أنني أشبه بيهوذا.

توقفت لأتأمل باريس.. ألوانها اللطيفة استيقظت من أجلي، صافية ولكنها ليست عنيفة تحت شمس يوليو. وكان الصيادون يصطادون الأسماك، والمتسكعون يتسكعون، والكلاب تنبح على درجات السلّم حيث يحاول الناس تحريضها على السباحة في «السين». ما أغرب انفعال الناس حين يشاهدون كلابهم وهي تسبح في النهر! ووراء الأشجار الخضر كانت أبراج «نوتردام» ترتفع في رفق، كما ينهض العشاق من العشب. قلت بصوت مرتفع: «باريس!» مرة أخرى يفلت شيء من بين أصابعي. غير أنني في هذه المرة أعرفه حق المعرفة. المال. قلب الواقع. وإنكار الواقع هو الجريمة الوحيدة. كنت حالماً، مجرماً. واعتصرت يديّ المتشابكتين توجّعاً.

وحين بلغت الضفة اليسرى تلهفت على الشُّرب بجنون؛ وادركت في اللحظة عينها أنني لا أكاد أملك نقوداً، إذ كنت قد دسست في جيبي حين رحيلي وريقات مالية قليلة تبقت من رحلتي الأخيرة. وكنت أنوي الاقتراض من «مادج». غير أن ما من شخص يتمتع بأية حساسية جمالية يمكن أن يحاول اقتراض خمسة آلاف فرنك من شخص رفض لتوه أن يقبل منه عرضاً بألف ومائتين من الجنيهات. وعلى أي حال، لم أكن أفكر في ذلك. وأخذت أصب اللعنات. ومضيت في طريقي حتى «بولفار سان جيرمان» Boulevard Saint - Germain متسائلاً عما سأفعل. ثم بدأت أشعر بحاجة ثانية، مكلِّفة هي أيضاً: حاجتي إلى توصيل حزني إلى شخص آخر. ووازنت هاتين الحاجتين بالقياس إلى مواردي،

وبالمقارنة بينهما. كانت حاجتي إلى الاتصال أشد عمقاً. فاتجهت إلى مكتب البريد في «شارع دو فور» Rue du Four ، وأرسلت برقية إلى السيدين جلمان وأوفيني Messrs Gellman and O'Finney كانت كالآتي: «رفضت نهائياً منذ لحظة مبلغاً حده الأدنى ألف ومائتان من الجنيهات. جيك». وذهبت بعدئذٍ إلى «المملكة البيضاء» Reine Blanche وطلبت كأساً من البرنو، الذي وإن لم يكن أرخص أنواع المشهيات، إلا أنه كان أكثرها احتواء على الكحول.

جلست هناك زمناً طويلاً. وفي البداية انصبَّ تفكيري على المال. فتأملت كل مظهر من مظاهره، فحولته إلى فرنكات، وحوّلته إلى دولارات، ونَقَلْته من عاصمة أوروبية إلى أخرى، واستثمرّته في كثير من الشح إلى نِسَبٍ مرتفعة من الفوائد، وأنفقت منه ببذخ على صنوف الخمور من ماركة شاتو Château ، وصنوف النساء من الماركة نفسها، واشتريت أحدث منتجات «آستون مارتن» Aston Martin . واستأجرت شقة تطل على «الهايد بارك»، وملأتها بأعمال كبار الفنانين الهولنديين الأقل شهرة. واضطجعت على أريكة مخططة إلى جوار هاتف باهت الخضرة بينما كان أساطين عالم السينما يصبون تزلفهم وتوسلهم، وثناءهم من خلال الهاتف. وتحت قدمي، كانت تربض كالفهد النجمة الفاتنة، معبودة القارات الثلاث، تصب لي كأساً أخرى من الشمبانيا. وهمست في أذنيها: «إنه هـ. ك.» واضعاً يدي فوق بوق الهاتف؛ «يا له من شخص ممل إلى أقصى حد!» وألقيت عليها زهرة من زهور الأوركيد الملقاة على المائدة؛ ثم تشبثت بجسدي بيديها الرقيقتين، وشرعت تسحب نفسها لترقد إلى جواري، على حين كنت أخبر «هـ. ك.» بأنني في مؤتمر، وأنه إذا اتصل بسكرتيرتي بعد يوم أو يومين، فلا شك أن اجتماعاً بيننا قد يتم ترتيبه.

وعندما أرهقتني هذه الخواطر، أخذت أفكِّر في مادج، وأسائل نفسي

عن الشخص الذي أسكنها «فندق الأمير دوكليف»، والذي كان حضوره اللامرئي يحوّم في خلفية لقائنا. هل كان هو الرجل الذي يمتلك السفن أو شيئاً آخر في الهند الصينية؟ وصوّرته لنفسي: رجلاً أبيض الشعر ثقيلاً، لطمته الرياح، ولوّحته الشمس الشرقية، والقوة والذكاء يلوحان من غضون وجهه، وجه رجل فرنسي عجوز شاهد في زمانه كثيراً من الأشياء. أحببتُه. فقد كان ثرياً بحيث يتجاوز أحلام البخل. والأعوام التي مضت منذ أن كان يسعى إلى المال في لهفة شديدة أصبحت تُعَد الآن بالعشرات. لقد نال ملء كفايته من المال: كان يعشقه، ويتصارع معه، ويتعذب من أجله، ويجعل الآخرين يتعذبون؛ وقد استحم فيه حتى أترع رأسه وعينيه بالذهب، وأخيراً سئم منه، وأخذ يبعثره ثروة بعد أخرى. غير أن المال لا يترك أبداً رجلاً عانى ما فيه الكفاية من أجله. لقد أصبح مجهداً، فآثر الإذعان، وهو يعيش معه الآن كما يعيش مع زوجة عجوز. ورجع إلى فرنسا مرهقاً زاهداً، زُهْد شخص أشبع كل رغبة، فوجد أن كل إشباع عابر كغيره. وسيراقب في لامبالاة لطيفة افتتاح شركته السينمائية في مشهد يندفع فيه كل ممثل ـ فيما عداه ـ كالمجنون الذي تثيره رائحة المال.

أو لعل من فرض حمايته على «مادج» رجل انجليزي حاد الطباع؛ تمثّلته رجلاً في أوسط العمر، يتمتع بخبرة طويلة في صناعة الأفلام. وربما كان مخرجاً فاشلاً تحوّل بمواهبه الفنية إلى الجانب التجاري من هذه الصناعة، معزّياً نفسه بجمع الأموال عن فقدانه لرؤية للجمال سوف تطارده ـ مع ذلك ـ طيلة حياته بحيث تجعله حاد المزاج أينما اقترب من الجهاز وشاهد رجالاً آخرين يجاهدون المشكلات التي منحته النشوة حين كان في الخامسة والثلاثين، وأرّقت لياليه وهو في الثلاثين، وأفضت به أخيراً إلى اليأس. أين التقت به «مادج»؟ أغلب الظن في إحدى تلك الحفلات التي يقيمها «رجال السينما» والتي قال عنها «سامي» إن «مادج»

تتردد عليها، بمناسبة تحذيره لي من أن الطريقة الوحيدة هي ألا أدعهم يغيبون عن نظري.

أو لعل صديق «مادج» ـ وهذه الفكرة المدمرة خطرت لي أخيراً ـ أن يكون «جان بيير» نفسه؟ وكرهت هذه الفكرة كراهية مطلقة. ولم أكن قد قدَّمت «مادج» لجان بيير أبداً، رغم أنها قد سألتني مراراً أن أفعل ذلك. منعتني غريزة الحيطة من تصعيد هذا التجاور الخاص. هناك نساء إنجليزيات يروين أن الرجال الفرنسيين رومانسيون، بحكم وضعهم ex officio ، وأظن أن «مادج» واحدة من هؤلاء النسوة. ولقد كانت «مادج» على كل حال قادرة على تقديم نفسها لجان بيير دون أن تخبرني. وتذكرت اللهجة المألوفة التي أشارت بها إليه باسمه الأول في حديثنا الأخير؛ ومع أنها من الممكن أن تكون قد التقطت هذا مني ببساطة، أو من وسطها الجديد، فإن من الممكن أيضاً أن تكون قد عهدت إلى «جان بيير» في الواقع بدور صانع ثروتها. إذ لم يكن متفقاً عن فكرتي عن ساحرٍ للنساء، غير أن للنساء أطواراً غريبة.

تدبرت هذه الفكرة زمناً أطول قليلاً، ثم قررت أنها بعيدة عن الاحتمال على كل حال. ومن افتراضاتي الثلاثة كان ثانيها هو أكثرها احتمالاً بلا ريب. وبعد برهة أحسست بأنني لا أعبأ بهذا الأمر على كل حال. كأس من البرنو قطعت بي شوطاً بعيداً، وحملتني كأس أخرى إلى أبعد من ذلك. وبدأت الشمس تتصاعد فوق مشهدي الذهني، فأبصرت أخيراً في دفقة من الوضوح الشكل الحقيقي للشيء الذي دفعني من قبل على نحو غامض إلى ما بدا لي أنه قرار لا معنى له. لم يكن الأمر أنني لا أريد أن أدخل عالم «مادج» وأن أشارك في لعبة «مادج»، فقد فرشت حياتي فعلاً بالمصالحات وأنصاف الحقائق، فلن يضيرني أن أشق طريقي خلال المزيد منها. وتلال الزيف الملتوية لم تكف مطلقاً عن أن تكون موضع نفوري، ومع ذلك ولجتها باستمرار؛ وربما كان ذلك لأنني أراها سراديب

قصيرة لا تلبث أن تفضي بي إلى الشمس مرة أخرى: ولعلها كانت الكذبة القاتلة الوحيدة. لم أكن أحفل بدور «وصيف العواطف» Valet de sentiment الذي أعدته لي «مادج»، ولكنني ربما احتملت هذا الدور لأنني أميل حقاً إلى «مادج» وبسبب الجوائز المالية، إن لم يكن هناك شيء آخر أجازف به. وقد قلت لمادج إن ذلك لم يكن بسبب «آنا»، وأعتقد أن ما قلته كان حقاً. أما ما يمكن أن تدفعني إليه علاقاتي بآنا في المستقبل، فمسألة رهن الانتظار. وشعرت حقاً أنني أكاد أكون قَدَريًّا بشأنها. فإذا كانت «آنا» قوية بما يكفي لاجتذابي نحوها رغم كل العقبات، فسوف تكون قوية بما يكفي لاجتذابي، وستتغلب على العقبات في الوقت المناسب. وفي هذه الأثناء، لن تكون «مادج» في وضع يدعوها إلى الشكوى. بيد أن الأمر لم يكن على هذا النحو.

وحين سألتُ نفسي: ما هو إذن، ارتفعت أمامي في شيء من السلطة نافذة الحانوت التي رأيتها مبكراً ذلك الصباح وقد غطتها عبارة «جائزة جونكور». أما فيما يتعلق بجائزة جونكور نفسها، فإنني لا أبالي، هذه مجرد لافتة، وإنما الذي يعنيني حقاً هو ما صنعه «جان بيير». بل الأحرى أنه حتى هذا لا يهم. وحتى لو ظهر أن «نحن المنتصرين» لا تقل سوءاً عن كتب «جان بيير» الأخرى، فلن يكون لذلك أية أهمية أيضاً. المهم حقاً هو تلك الرؤية التي أملكها عن مصيري الخاص والتي فرضت نفسها عليّ كأنها أمر. ما شأني أنا بكتابة السيناريو؟ عندما قلت لمادج إن هذا العمل ليس من «نوعي»، لم أكن أعي ما أقول، ولكنه كان قولاً حقًّا مع ذلك. إن عمل حياتي يقع في مكان آخر. هناك سبيلٌ ينتظرني، فإن أخفقت في سلوكه، سيظل إلى الأبد دون أن يطأه إنسان. إلى متى أتأخر؟ كان هذا هو الجوهر، وما عدا ذلك من الأشياء فقد كانت ظلالاً، لا تصلح إلا للهو والخداع. ماذا يعنيني من المال؟ لم يكن شيئاً في نظري. ففي ضوء هذه الرؤية يذبل المال كأوراق الخريف التي يتحول

ذهبها إلى اللون البني ثم تصبح هشيماً تذروه الرياح. وحينما عبرت بي هذه الخواطر أفعمني رضاً عميق، وعزمت في هذه اللحظة نفسها أن أذهب للبحث عن «آنا».

كانت هناك ـ على كل حال ـ صعوبة فورية هي أنني لم أكن أملك من النقود ما يكفي لدفع الحساب. ويبدو أنني استهلكت أربع كؤوس من البرنو قيمتها عدة مئات من الفرنكات. وحتى دون حساب البقشيش، كان ما معي يقل خمسين فرنكاً عن المطلوب. وكنت أفكر في أن أسأل صاحب الحانوت أن يضيفها إلى حساب «جان بيير»، وكان ذائع الصيت في حانة «الملكة البيضاء»، حين لاح في الأفق طفيلي ذو سمعة عالمية من معارفي القدماء. وقد انقض عليّ بعينين براقتين؛ وبعد بضع دقائق أرضيت نفسي بانتزاع ورقة مالية منه من فئة الألف فرنك، وقد منعه الخزي وذكرى مئات الكؤوس التي تجرعها على حسابي في ثلاث عواصم على الأقل ـ منعه ذلك أن يسمح لنفسه بالتراجع. وتركته شخصاً أفقر، ولكنه أفضل.

كان اقتناعي بأن «آنا» ما زالت في باريس غير معقول إلى حد كبير. ومع ذلك كان قوياً غاية في القوة. وعندما انثنيت إلى أحد الأركان، بحثت عن هاتف، فاتصلت أول الأمر «بنادي المجانين» Club des Fous وهو علبة مرحة من علب الليل، ولكنها مستنيرة بدأت فيها «آنا» عملها في باريس منذ أعوام خلت. ولكن، لم يكن هناك من يعلم شيئاً من أنبائها. كانوا يعرفون أنها كانت في باريس، ولكن أحداً لا يعلم إن كانت ما زالت هناك، أو أين يجدها المرء. ثم اتصلت بمجموعة متباينة من الأفراد يمكن أن يكون أحدهم قد صادفها في الطريق، ولكنهم أجمعوا جميعاً على شيء واحد، فيما عدا شخص منهم أنبأني بإنه يظن أنها قد أبحرت في اليوم السابق، إلا إذا كانت إديت بياف Edith Piaf هي التي أبحرت، فهو

غير واثق من ذاكرته. شرعت بعد ذلك في الاتصال بالفنادق، بدأت أولاً بالفنادق التي نزلتُ فيها مع «آنا»، فلعل العاطفة أن تكون قد ساقتها إلى أحدها، وثنيت بعد ذلك بالفنادق الفاخرة التي أعلم أن «آنا» تعرفها، في حالة انتصار الترف على العاطفة، أو أن تكون العاطفة قد تطورت بطريقة عكسية. لم أخرج بطائل من هذه المكالمات جميعاً، فلم يرها أحد، ولا يعرف أحد أين هي. أعلنت هزيمتي، وأخذت أسير بلا عزاء. وكان الجو شديد الحرارة.

لو كانت «آنا» في باريس، فما تُراها تفعل؟ لعلها مع شخص ما. فإذا كانت مع شخص ما، لكان أمري منتهياً على كل حال. ينبغي أن أتصرف مفترضاً أنها وحدها. فلو لم تكن مع واحد من رجال الغناء أو المسرح، فماذا يمكن أن تصنع هنا وحدها؟ الإجابة - على أساس معرفتي بشخصية آنا - كانت واضحة. سوف تجلس في مكان ترى أنه جميل باعث على التأمل؛ أو ربما تهادت بتؤدة شديدة في طريق من طرق الدائرة الخامسة أو السادسة. وبالطبع يمكن أن تكون قد ذهبت إلى مونمارتر؛ ولكنها كانت تشكو دائماً مر الشكوى من درجات السلّم. أو لعلها قصدت «بير لاشيز» Père Lachaise؛ بيد أنني لم أكن أريد التفكير في الموت. ولو قمت بجولة في مقابرنا الرابضة على الضفة اليسرى، فربما أتيحت لي فرصة ضئيلة للعثور عليها. أما البديل، فكان أن أغرق نفسي في الشراب. فاشتريت شطيرة، ووليت وجهي شطر حدائق لوكسمبورج.

قصدت مباشرة إلى نافورة آل ميديسيس fontaine des Médecis لم يكن ثمة أحد؛ غير أن روح المكان استولت عليّ في الحال، فلم أستطع التحول عنه. وعندما كنت مع «آنا» في باريس منذ زمن طويل، اعتدنا أن نأتي يومياً إلى هذا المكان؛ والآن، عندما وقفت صامتاً برهة من الزمن، لم يسعني إلا أن أعتقد أنني لو انتظرت، فلا بد أن تأتي. ثمة شيء يفرض نفسه في خرير نافورة ينبعث في مكان مهجور. إنها تهمس بما

تفعله الأشياء حين لا يراقبها أحد. إنها الاستماع إلى صوت غير مسموع .وفي هذا تفنيد لطيف لمذهب باركلي(*). وكانت الأشجار الملساء المتعددة الألوان تحاصر المكان. دنوت متمهلاً. لم يكن هناك اليوم مجرى واحد من المياه يسيل على درجات السلّم الخضراء، والكهف الشاهق تتأرجح صورته المنعكسة برقة في المياه التي تطفو فوقها أوراق قلائل شبيهة باللوتس. وعلى الدرجات كانت الحمائم ذات الذيول المروحية تخوض للشرب بعمق. وفوقها كان العاشقان يستلقيان بلا حراك، هي في وضع الخجل المستسلم عارضة جسداً فاتناً، على حين كان هو يحتضن رأسها حانياً عليه في حركة مفعمة بالاهتمام بحيث لا يمكن أن توصف بأنها شهوانية. على هذا النحو استلقيا، متحجرين في هذا الوضع الثابت بنظرة من بوليفيموس Polyphemus(**)، ذي العين الواحدة الذي تركت عليه الأمطار خطوطها، والرياح آثارها، والحمائم أوساخها، بوليفيموس الأخضر القاتم الذي يتكيء على الصخرة من علٍ ويراهما. وقفت هناك زمناً طويلاً، مستنداً إلى جرّة مرمرية متأملاً انحناءة ردفها. . كيف سحبت ساقها اليمنى تحتها، وساقها اليسرى العارية ممدودة في ذلك التموج الخالص الذي يستطيع أن يتصاعد بالتأمل والشهوة معاً تقريباً إلى أعلى نقطة من الوعي. . كيف يمكن أن يفعل ذلك منحنى ردف امرأة مستلقية! ها هي ذي مستلقية نشطة، ومع ذلك مسترخية، عارية عرياً رائعاً ومبتسمة ابتسامة خفيفة بعينين مغمضتين. انتظرت زمناً طويلاً، ولكن «آنا» لم تحضر.

(*) George Berkeley (١٦٨٥ - ١٧٥٣) فيلسوف أيرلندي قال بأن الأشياء المادية ليس لها وجود مستقل، فهو يعد من أوائل المثاليين الأنجليز. (المترجم).

(**) هو من جنس السيكلوب Cyclops في الأساطير اليونانية، وتمثله الأوديسية سليلاً للعمالقة المتوحشين العور الذين يقومون برعي الماشية والماعز في جزيرة صقلية (المترجم).

استرجعت بعد ذلك في ذهني جميع الأشياء والأماكن التي تحبها «آنّا» في باريس حباً جما، كانت تحب الحرباوات في «حديقة النباتات» Jardin des Plantes . ذهبت بعد ذلك وتأملت الحرباوات. كانت تتسلق قفصها في بطء شديد جداً، وكانت ذيولها الطويلة تلتف وتنبسط في تدبير صامت، وبحركة تكاد تكون غير ملحوظة تمد يداً من أياديها لتمسك فرعاً آخر. وبعيونها المنحرفة شبه المغمضة كانت تحدق برهة في هدوء حتى تتحول إحداها بلطف إلى زاوية أخرى. كنت أحبها كثيراً. هذا هو الإيقاع الحقيقي للعالم - كما أنبأتني - إذ كانت تشرك في الحركة طرفاً آخر في بطء لا يطاق، ثم تسترخي في سكون صارم. وفي أثناء مراقبتي لها كان إحساسي بالمدة يتباطأ حتى يوشك أن يتوقف؛ ولهذا مكثت هنا أيضاً زمناً طويلاً، حيث كانت كل ثانية تطول إلى دقيقة، والحركة والسكون متصالحين تمام المصالحة. ولم تحضر «آنّا».

غادرت «الحديقة» مسرعاً، وعدوت على رصيف النهر، واندفعت داخل الكنائس، واحدة إثر أخرى: «سان جوليان»، «سان سيفيران»، «سان جرمان»، «سان سولبيس»، على أمل العثور على «آنا» هناك، ملقية برأسها إلى الوراء، مستجيبة لرغبة حزينة. لا أحد. وذهبت إلى الحديقة الكائنة وراء «نوتردام» حيث كانت الكنيسة تميل للانحدار كأنها سفينة، وهناك نطعم العصافير في كثير من الأحيان. وعبرت الطريق إلى الضفة اليمنى، واتجهت إلى الحديقة ذات الشلال، ووراء «القصر الكبير» Grand Palais المفتوح طوال الليل. لا أحد، ثم ذهبت إلى «سان أوستاش» Saint Eustache وتجولت في غابة من الأعمدة المتعددة الأشكال. وعند هذا الحد، استسلمت لليأس. وكان العصر في أواخره. وخارج أسواق الخُضَر، كانوا يقومون بتنظيف الأرصفة بالخراطيم، والفاكهة والخضروات على العربات تسير في الطرقات المخصصة لها على جوانب الأرصفة. ابتعت شيئاً من الخبز وقطعة من جبن الكامَمْبير،

ومن خلال حشود النسوة الدينات اللواتي يقرضن أطراف الأرغفة الطويلة التي يحملنها إلى منازلهن، بدأت قدماي تحملاني ـ بطريقة آلية ـ صوب «حي» سان جرمان مرة أخرى. وكلما مضيت في طريقي، ورؤية «آنّا» تتلاشى رويداً رويداً من عينيّ، لاحظت أن المدينة قد زينت أكثر من المعتاد بالألوان الثلاثية Tricolores ، وفي الشوارع الجانبية شاهدت خيوطاً صغيرة من الأعلام تمتد من منزل إلى آخر عبر الطريق. ثمة عيد يحتفلون به، وحينئذٍ تذكرت أن اليوم هو الرابع عشر من يوليو.

وما أن بلغت «براسيري ليب» Brasserie Lipp (مطعم ومشرب ليب) حتى ألفيت نفسي مهيـأ للجلوس، فجلست وطلبت كأساً من القرموت. كانت أحداث الصباح تبدو بعيدة كل البعد، وكذلك كانت بعيدة أيضاً لحظة البصيرة التي أعقبت تلك الأحداث. ولم يتبق الآن من شعوري بهذه الأشياء سوى نـوع من الألم المتبلد الباهت الذي ربما كان أسفاً على المال، أو لعله مجرد الآثار البعدية after - effects لكمية البرنو الكبيرة التي تجرعتها ساعة الغداء. غير أن حاجتي إلى «آنا» لم تفقد حدتها. أين تُراها في هذه اللحظة؟ ربما لم تكن أبعد من نصف ميل، جالسة على فراشها في حجرة من حجرات الفنادق، ناظرة إلى حقيبة لم يكتمل إعدادها. وما ان تمثلت زاوية رأسها الحزينة، حتى ألفيت هذه الفكرة غير محتَمَلة. كلا، إنها بلا شك فوق عباب البحر، تتكيء على حاجز الباخرة، وعيناها مفعمتان فعلاً بأمريكا. ولم أكن أستطيع أن أحدد أي الفكرتين أسوأ من الأخرى.

لم أكد أجلس في مطعم «ليب» أكثر من دقائق قليلة، حتى سمعت واحداً من النُدل ينادي: «السيد دوناجو، السيد دوناجو». وكان اسمي قد نودي عليه من شرفات المقاهي في أرجاء أوروبا كلها، ومن ثمّ، فقد كنت مهيـأ لهذا. لوحت بيدي. فاقترب مني النادل ممسكاً ببرقية. كانت

الفكرة اللامعقولة الأولى هي أن هذه البرقية من «آنا» في نيويورك. أمسكت بها، ولكنها كانت من إنجلترا؛ من «ديف» الذي كان يعلم تحيزي لمطعم ليب، ومن ثم فقد بعث هذه البرقية عليه على أمل وجودي فيه. جاء فيها: «لا تبتئس، ربح لايربيرد **lyrebird** اليوم بعشرين مقابل واحد».

كانت باريس قد بدأت ترتعش انفعالاً «بالرابع عشر». وشرعت أتمشى في بولفار سان ـ جرمان. كنت أرتدي قميصي ذي الأكمام القصيرة، ومع ذلك كنت أشعر بالقيظ الشديد، رغم أن النهار قد خفف من حدته بولوجه في المساء. مشيت على مهل، مجتازاً ديدرو Diderot(*) حيث كان يجلس وسط أشجار الأكاسيا ناظراً بشك زاخر بالفهم صوب «مقهى فلور» Café de Flore . وكان حشد كبير من الناس يروحون ويغدون، وهمهمة مختلطة من الأصوات والضحكات تعلو على ضجة المرور. كانت باريس كلها في الخارج. وعندما وصلت إلى «الأوديون» Odéon ، رأيت أن المقاهي قد مدّت نفسها فوق نصف الطريق، وفي شارع «الكوميديا القديمة» Rue de l'Ancienne Comédie ، كان الناس يرقصون فعلاً على نغمات الأكورديون. وفوق رؤوسهم حبال من المصابيح الملونة تنير غبش المساء.

فإذا كنت مثلي ذوّاقة للعزلة، فإني أوصيك بتجربة أن تكون وحيداً في باريس يوم الرابع عشر من يوليو. ففي ذلك اليوم ترسل المدينة جدائل شعرها المائج التي دهنها هجير الصيف بالدفء والعطور. لكل رجل في باريس فتاته، أما في ذلك اليوم فكل رجل يصبح سلطاناً. وحينئذٍ يحتشد الناس أفواجاً ويجتاحون المدينة وهم يتلاغون كطيور زاهية الألوان تحلّق

(*) يقصد بالطبع تمثال دنيس ديدرو (١٧١٣ـ ١٧٨٤) وهو فيلسوف فرنسي كبير شارك في تحرير «الموسوعة الفرنسية». (المترجم).

في الشوارع. وبين انتشار الأعلام المثلثة الذي لا ينقطع، وتفجير الصواريخ، وإطلاق الحمائم، وفرقعة السدادات، تصير وحدة الابتهاج، مع تقدم المساء ـ أضخم فأضخم. لا يترك شخص واحد في خارج هذه الموجة من البهجة، حتى تتحول المدينة كلها إلى حفل هائل واحد. فالبقاء وحيداً في مثل هذا الكرنفال يعد تجربة غريبة. وقررت الامتناع عن معاقرة الخمر. إذ كنت أعلم أن شعوراً بالوحدة العاطفية سوف يفسد عزلتي بعد كؤوس قلائل. على حين أن يكون المرء متفرجاً بارداً واعياً لمشاهدة العربدة المجنونة، رجلاً منعزلاً يدفع جانباً بابتسامة فاترة النسوة اللواتي يتهافتن عليه والأعلام الملونة التي يسارع أعداء العزلة بإيقاعه في خيوطها. . . كانت هذه هي المتعة التي وعدت بها نفسي ذلك المساء، ولم أكن أفكر في التخلي عن مثل هذه اللحظات النادرة المعقدة من التأمل لتحطمها أشواق تعسة من أجل امرأة لا أستطيع العثور عليها.

بهذه العزيمة القوية، تلمست طريقي خلال الراقصين، وبدأت السير في «شارع دوفين» Rue Dauphine . كنت أريد أن أكون مع النهر. وعندما دنوت منه، ازداد الحشد، وحامت أصوات الناس حولي كأنها خفافيش تحلّق في هواء المساء الكثيف. وغمرني شعور بالتوقع. وكأن شيئاً يقود قدميّ. سرت حتى «الجسر الجديد» Pont Neuf . لم يكن الظلام قد وقب بعد، غير أن الأنوار الكشافة كانت قد سلّطت فعلاً. فانتصب «برج سان ـ جاك» Tour Saint - Jacques سابحاً في الذهب كأنه برج مطرّز، كما ارتفع الأصبع النحيل للكنيسة المقدسة Sainte Chapelle خارجاً في استسرار من قصر العدالة Palais de Justice ، بكل نقوشه البارزة وأزهارها المتفتحة ظاهرة بوضوح عليه. وشاهقاً في الفضاء كان «برج إيفل» يلقى شعاعاً دوّاراً. وفي أسفله عند «الفير جالان» Vert Galant كانت تتعالى الصيحات والضحكات، وقذف الأشياء في النهر. أعرضت عن هذا؛ فقد كنت في حاجة إلى رؤية «نوتردام». اجتزت

«ميدان دوفين» Place Dauphine ، وعدت مرة أخرى إلى المنطقة الرئيسية عند «جسر سان ـ ميشيل» Pont Saint - Michel . كنت أريد أن أشاهد حبيبتي عبر النهر. ولما كان المعربدون يدفعونني بالمناكب، فقد لَزِمت الجدار، وأخذت أتأمل أبراجها اللؤلؤية التي بدأ الليل يتكاثف وراءها. ما أعجب أن تتقازم هذه الكنيسة بفعل جالها كما يحدث لبعض النساء! جعلت أشق طريقي نحوها حتى استطعت أن أرى في صفحة النهر الصقيلة تحتها انعكاساً لنوتردام شيطانيّة، رُسم تخطيط لها لا تهدأ حركته أبداً تمام الهدوء، فهو أشبه بجمجمة تبدو في مرآة كأنها انعكاس رأس. وفي كثير من الرفق انتفخت الصورة المضيئة ثم تمزقت إلى شظايا، ما لبث أن امتصها إيقاعها الهادىء نفسه، متجاهلاً الجموع التي أخذت تتدفق الآن عبر الجسور جميعاً وفي كلا الاتجاهين.

كنت متكئاً على حاجز الجسر. لم تخف حدة الحرارة، ولكن كانت الظلمة قادمة في موجات من الزرقة التي تزداد عمقاً رويداً رويداً. وعبرت بي عربة تستقلها فرقة أكورديون، ويجري في أعقابها جمهور من الناس. وهرول نحوي رجل يضع على رأسه قبعة من الورق وقذف في وجهي بنثار من قصاصات الورق الملون. وعلى «جسر سان ـ ميشيل» كان بعض الطلبة ينشدون، وثمة حشد صغير يسير بخطوات منتظمة خلف راية. وخطر على بالي أنه ينبغي عليّ قبل كل شيء أن أتناول كأساً من الشراب. هكذا كانت العزلة هشّة لا تصمد. وعلى حين غرة، انفجر شيء من الفضاء العالي صدر عنه أزيز ولم يلبث أن أعقبه ما يشبه الخرير، صعّدت بصري إلى السماء. لقد بدأت الألعاب النارية. وما ان أخذت الكوكبة الأولى تطفو ببطء هابطة إلى الأرض، متلاشية تدريجياً، حتى ارتفعت «آآآه» من آلاف الحناجر، ووقف الجميع بلا حراك. وأعقب ذلك صاروخ آخر، ثم ثالث. وكنت أستطيع أن أشعر بالجمهور يتلاحم تدريجياً ورائي، حين بدأ الناس يخرجون إلى أرصفة النهر جرياً وراء

رؤية أفضل. وسحقني الناس على الحاجز.

اعتراني الخوف من الجماهير، فأحببت أن أفلت بجلدي، غير أن التحرك كان الآن مستحيلاً. فهدّأت نفسي، وجعلت أراقب الألعاب النارية. كان عرضاً رائعاً. . . وكانت الصواريخ تصعد منفردة أحياناً، وفي مجموعات أحياناً أخرى. وكان بعضها يتفجر في قرقعة تصم الآذان ويتناثر مطراً من النجوم الذهبية الدقيقة، وبعضها الآخر كان ينفتح بتنهيدة ناعمة وينشر في الهواء ـ بلا حركة تقريباً ـ شكلاً مؤلفاً من أنوار ضخمة ملونة تغوص ببطء شديد وكأنها مترابطة معاً. ثم تأتي بعد ذلك ستة أو سبعة صواريخ تشق الفضاء، وفي لحظة يتناثر في صفحة السماء من أقصاها إلى أقصاها غبار ذهبي، وزهور متساقطة في فوضى شبيهة بالفوضى التي تشيع على أرضية دار للحضانة. أصيب عنقي بشيء من التصلب، فدلكته برفق، تاركاً رأسي يستأنف زاويته المعتادة، وأخذت أتأمل الحشد في تكاسل. وهنا أبصرت «آنا».

كانت على الضفة الأخرى من النهر، واقفة عند ركن «الجسر الصغير» Petit Pont ، بالضبط فوق قمة الدرجات التي تؤدي إلى الماء. وفوقها مباشرة كان مصباح الشارع، ومن ثمّ استطعت أن أرى وجهها في وضوح تام. ما من شك في أنها «آنا». وعندما نظرت إليها، بدا وجهها مشرقاً على نحو مفاجىء، وكأنه وجه قديس في صورة، على حين أظلمت الوجوه الأخرى المحيطة بها. ولم أستطع أن أتخيل لماذا لم ألمحها في الحال. حملقت لحظة كالمشلول؛ ثم حاولت أن أكافح للخروج من هذا الزحام. غير أن ذلك كان محالاً تماماً، إذ كنت في أكثف جزء من الحشد، وقد تسمرت بإحكام في الجدار، فلم أكن أستطيع حتى أن أدير جسمي، فما بالك بالكفاح خلال هذه الكتلة المتلاحمة من البشر! لم يعد ثمة مفر غير الانتظار حتى نهاية الألعاب النارية. وضغطت بيدي على

قلبي الذي كان يحاول الإفلات مني بخفقانه، و«برشمت» عينيّ على «آنا».

تساءلت عما إذا كانت وحدها. لم يكن في الإمكان معرفة ذلك. وقررت بعد برهة من مراقبتها أنها كانت وحدها. ذلك أنها لبثت في مكانها بلا حراك، شاخصة البصر إلى السماء، وأياً كانت صيحة السرور التي تتعالى من الجمهور عميقة على أثر إطلاق هذا الصاروخ الاستثنائي الرائع أو ذاك، فإنها لم تكن تلتفت ليشاطرها في سرورها أي شخص من الأشخاص الواقفين حولها. كانت وحدها بكل تأكيد. وكاد الفرح يستخفني . غير أن القلق ساورني أيضاً خوفاً من أن أفقدها حين يتشتت الجمهور. وددت لو أناديها، غير أن جلبة الأصوات حولنا كانت من القوة والانتشار بحيث لن يبلغها ندائي مطلقاً. ركّزت نظراتي المحترقة عليها، وناديت عليها بكل ما أملك من قوة في حنجرتي.

وعندئذٍ بدأت تتحرك. وكان الزحام على الضفة الأخرى أقل كثافة. خطت خطوتين، ثم ترددت. راقبتها في فزع. ثم تنفست الصعداء حين أخذت تهبط الدرجات إلى ممر النهر المقابل لي مباشرة. وحين فعلت ذلك، أصبحت في مجال رؤيتي تماماً. كانت ترتدي تنورة طويلة زرقاء، وبلوزة بيضاء، ولم تكن تحمل سترة أو حقيبة يد. انفعلت إلى درجة الاهتياج، وناديت باسمها. غير أن ذلك كان أشبه بإطلاق سهم في عاصفة. إذ طغت آلاف وعشرات الآلاف من الأصوات على صيحتي. وكانت الدرجات مغطاة بالبشر القاعدين والواقفين عليها للفرجة على الألعاب النارية، وكانت «آنا» تجد عناءً شديداً في شق طريقها للنزول. وتوقفت في منتصف الطريق، وبحركة رشيقة مميزة تجل عن الوصف، حركة أتذكرها جيداً ـ لملمت قيمصها من خلف، وواصلت هبوطها.

وجدت مكاناً خالياً على حافة النهر تماماً، فجلست وثنت قدمها

تحتها. ثم نظرت إلى السماء مرة أخرى لتتفرج على الصواريخ. كان النهر الآن متشحاً بالسواد تحت سماء الليل، وكانت صفحته زجاجية أشبه بالمرآة السوداء يرفع فيها كل مصباح عموداً من النور، واللهيب المتفجر في السماء من فوق يساقط من حين إلى آخر سبيكة من الذهب. وكان صف الناس على الضفة الأخرى منعكساً بوضوح على صفحته. وما برحت صورة «آنّا» تحتها تماماً. وساءلت نفسي إذا كان من الممكن أن يظهر انعكاسي الخاص في النهر الذي التقى عند هذه النقطة ـ على الضفة اليسرى بالجدار القائم على الطريق. فحركت يديّ آملاً أن استرعى انتباه آنا بنفسي أو بصورتي. وتناولت بعدئذٍ صندوقاً من أعواد الثقاب وأشعلت واحداً أو اثنين بالقرب من وجهي. غير أن ضوئي الصغير في هذه المجرة من الأضواء لم يستطع أن يلفت إليه كثيراً من الأنظار. واستمرت «آنا» شاخصة البصر إلى السماء. وبينما كنت أشاور وألوّح وأحرك الجزء الأعلى من جسدي كأنني دمية مضحكة، جلست كما تجلس أميرة مسحورة، ملقية برأسها إلى الوراء وحاضنة ركبتها بيدها؛ ونهر من النجوم يكاد يساقط من السماء في حجرها. وبعد لحظة سقط شيء بصليل حاد على الحاجز بجوار يدي. فالتقطته بطريقة تلقائية، كان قضيب أحد الصواريخ، فرفعته في ضوء الانفجار التالي، وقرأت الاسم المكتوب عليه: بلفاوندر.

أمسكت به لحظة في شيء من الاندهاش. ثم اخترت هدفاً بعناية، وقذفت به في الماء بحيث يسقط مباشرة في صورة «آنا» المنعكسة، وفي الوقت نفسه، لوّحت بيدي وناديت. تبعثرت الصورة وتعكرت الصحفة الزجاجية مسافة طويلة بين الجسرين. فأطرقت «آنّا» برأسها؛ وبينما كنت منحنياً حتى أوشك رأسي أن يهوي في النهر، ركّزت «آنّا» عينيها على قضيب الصاروخ الذي كان يتحرك الآن ببطء شديد في اتجاه البحر، بحيث يقدِّم دليلاً محسوساً على أن المياه المتحركة يمكن أن تعطي

انعكاساً لا تشوبه شائبة. ومن خلفي قال شخص ما «انتهت اللعبة!»، وأحسست أن الضغط بدأ يخف عن ظهري.

استعدت وضعي الطبيعي، وراقبت «آنا» لأرى ما عساها فاعلة. وشرع الناس الذين غصّت بهم الضفة الأخرى يصعدون الدرجات المؤدية إلى الجسرين. ونهضت «آنا» على مهل، ونفضت تنورتها، وانحنت إلى أسفل لتدليك أحد قدميها. ثم عادت إلى أعقابها صوب «الجسر الصغير» Petit Pont. وكافحت متخذاً نفس الاتجاه. وكنت أستطيع أن أراها وهي تصعد الدرجات. ثم فقدت رؤيتي لها. عبرت الجسر ضد تيار متدفق من البشر. الأصوات والضحكات تهب كالعاصفة. وتحت الأضواء الساطعة، كانت الوجوه تتضاغط عليّ برهة فينفجر كل وجه عن ابتسامة، ثم يختفي في الزحام. وصلت إلى الجانب الآخر، ثم بدأت أتحرك صوب «جسر سان ميشيل». وهناك لمحت إكليلاً ذهبياً من الشعر يسبقني بخطوات، فتبعته. وبينما كنت أجتاز «بولفار القصر» Boulevard du Palais، تبينت أنها «آنا» حقاً تلك التي كانت تتقدمني في الزحام. زايلني القلق الآن، إذ كنت أستطيع أن أدركها إذا اجتهدت في النضال، غير أنني تركت الزحام يحملنا معاً إلى الأمام، وانتظرت حتى يخف قليلاً. وفي هذا الطريق قطعنا الجزيرة بطولها.

عبرت «آنا» «الجسر الجديد» Pont Neuf، متجهة إلى الضفة اليمنى، وهكذا وصلنا إلى الأرصفة الممتدة إلى جانب اللوفر حيث كان الزحام أقل كثافة؛ وحين تجاوزنا حشداً تجمع عند «جسر الفنون» Pont des Arts كانت لا تسبقني بأكثر من ستين ياردة، وقد ظهرت ملامحها واضحة كالنهار في أنوار الواجهة الباهرة. كنت أرى أنها تعرج قليلاً، ربما لأن حذاءها كان يؤذيها، ولكنها كانت تسير مع ذلك بقوة وعزم، فخطر لي عندئذٍ لأول وهلة أنها لا تمشي دون هدف. وكنت أستطيع الآن أن ألحق

بها في سهولة. غير أن شيئاً جعلني أتوقف. لن يضيرني شيء أن أرى إلى أين هي ذاهبة. وهكذا واصلت سيري وراءها حتى انعطفت عند «الجسر الملكي» Pont Royal إلى الداخل.

ماذا كانت «آنا» ترى؟ ماذا كان يشغل رأسها في هذه اللحظة؟ أي صورة من الحزن أو الوعد أفسدت في عينيها المشهد الذي كانت تتحرك في مركزه بخطوات الحالمة؟ أتراها كانت تفكِّر فيَّ؟ أكانت باريس ممتلئة بي بالنسبة لها، كما كانت ممتلئة بها بالنسبة لي؟ كان ما جعلني أمنع نفسي من اللحاق بها يقوم في شطر منه على أمل أن أتلقى علامة تشير إلى أنها تنظر إلى باريس على ذلك النحو. ومن الأشياء التي اعتدنا أن نفعلها «آنا» وأنا، أن نذهب إلى «حدائق التويلري» Tuileries gardins أثناء الليل. لم يكن من سبيل يؤدي إلى التويلري من أرصفة النهر، أو من الكونكورد Concorde ، أو من «شارع ريفولي» Rue de Rivoli ، ولكنك إذا اقتربت منها عن طريق «شارع بول ـ ديروليد» Rue Paul - Deroulède فلن تجدها محروسة إلا بخندق تنمو فيه الأعشاب، وبسور منخفض. وفي الأيام العادية يوجد رجال الشرطة الذين من مهامهم حراسة هذه المنطقة الحساسة: وهي مصادفة تضفي على التويلري أثناء الليل ذلك السحر الخطر الذي يجعل منها حديقة مسحورة. وكان من المحتمل في هذه الليلة ـ على كل حال ـ أن تتراخى القواعد المعتادة. وما أن شاهدت «آنا» تنثني صوب الحدائق حتى وثب قلبي كما وثب قلبُ إنياس(*) Aeneas حين رأى ديدو(*) Dido تتجه صوب الكهف. وأسرعتُ خطاي.

كان الطريق متألقاً بالأضواء. وعلى أحد الجانبين كان «قوس

(*) بطل «إنيادة» فرجيل وهو من سلالة الفرع الأصغر للأسرة المالكة في طروادة؛ أما ديدو فهو في الأصل اسم إلاهة فينيقية: وهي في أسطورة أخرى ابنة ملك صور. (المترجم).

كاروسيل» Arc du Carrousel ينتصب كأنه قنطرة خيالية، منعزلاً عن المكان بنسبة لا يشوبها عيب؛ ومن ورائه كان بناء اللوفر الهائل يحاصر المشهد، تضيئه الأنوار بوحشية، ويتوهج بكل تفاصيله. وعلى الجانب الآخر كانت تبدأ الحديقة غير الطبيعية، بحشائشها المعدنية الخضراء تحت المصابيح الصُّفْر، وبزهورها الواعية بنفسها باللون والهدوء كأنها زهور الأحلام التي تستطيع أن تتفتح وأن تكون ساكنة في اللحظة نفسها. وعلى مسافة قصيرة وراء السياج، كانت الحديقة تتحول إلى أشجار، ووراء الأشجار أعلن انفجار النور أن ها هنا «ميدان الكونكورد» Place de la Concorde ، وفوقه وفيما وراءه ارتفع على هضبته «قوس النصر» Arc de Triomphe السابح في فيض من الأضواء، والقائم أمام خلفية من العتمة، تخفق فوقه راية ضخمة مثلثة الألوان tricolore تصل إلى أعلى القوس كله، لترفرف داخل القوس المركزي.

كانت «آنا» تسير فعلاً فوق الحشائش، وما برحت تعرج عرجاً خفيفاً، وهي تمر وسط التماثيل البيضاء التي تشغل تلك الممرات بجباهها المكلّلة بالغار، وبأردافها المرمرية في أوضاع متباينة تتسم بعدم التماثل الأنيق. ووصلت «آنا» إلى الأسوار الحديدية، خلف الفهود البرونزية تماماً، عند النقطة التي كثيراً ما تسلقناها. وكانت قد ارتقت الضفة المعشوشبة، ورفعت تنورتها الواسعة، وكنت حينئذٍ أقرب إليها إلى درجة أنها حين همت باجتياز السور لمحت ومضة ساقها الطويلة حتى الردف. وعندما تخطيته كانت تتقدمني بثلاثين خطوة، وهي تمشي بين أحواض الزهور. شاهدت خطوط قوامها أمام خلفية الغابة كفتاة وحيدة في قصة خيالية. وهنا توقفت عن المسير، فتوقفت أنا أيضاً. كنت أبغي إطالة السحر الذي يغلف تلك اللحظات.

انحنت «آنا»، وخلعت فردة من حذائها، ثم خلعت الأخرى أيضاً.

وقفت تحت ظل أجمة، وأشفقت على قدميها المسكينتين. لماذا تنتعل الطفلة الحمقاء أحذية أصغر كثيراً من قدميها؟ وفيما كنت واقفاً أراقبها، تصاعدت عطور الليل من الأرض، وطافت حولي في سحابة. وداست «آنّا» على الحشائش الباردة بقدميها البيضاوين. لم تكن تلبس جورباً. ثم بدأت تمشي ببطء شديد على حافة العشب حاملة حذاءها. وكما يتحرك المرء بحبل مشدود إلى مقطورة، سرت في أعقابها. وبعد لحظة، سنكون داخليْن في الغابة. كانت تمتد أمامنا الآن عن كثب، وصفوفها التي تتلو صفوفاً من أشجار الكستناء، والأوراق تبدو واضحة في النور المنتشر، تلك الأوراق البالغة الصغر التي تتسم بها أشجار الكستناء في باريس والمرسومة بوضوح والتي تتحول مبكرة إلى اللون البني الذهبي عند أطرافها في شهر يوليو. ودخلت «آنّا» الغابة.

هنا كانت تنتهي الحشائش، وتحت الأقدام تربة رملية هشة. وخطت «آنا» فوق هذا السطح دون أي تردد. تبعتها في الظلام. فتقدمت مسافة قصيرة في أحد الطرق، ثم توقفت مرة أخرى. نظرت حولها إلى الأشجار؛ وقصدت واحدة منها، وألقت بفردتي حذائها الصغيرتين في فجوة عند جذرها. وسارت بعد ذلك دون أن يعوقها عائق. هذا الذي صنعته أثَّر في نفسي تأثيراً شديداً. فابتسمت لنفسي في العتمة، وكدت أضحك تقريباً، وأصفق بيديّ. وعندما بلغت المكان الذي يضم فردتي حذاء «آنا»، لم يسعني إلا أن أتوقف، وأنظر إليهما وهما يرقدان كزوج من الأرانب الصغيرة. نظرت إليهما برهة، وإذعاناً لدافع لا سبيل إلى مقاومته، تناولتهما.

لست فتشياً(*) fetishist ، وأوثر أن أحتضن امرأة في أي يوم على

(*) مصطلح مستخدم في علم الاجتماع وعلم النفس، وفي هذا العلم الأخير ـ وهو

احتضان حذائها، ولكن ما أن أمسكت بهما حتى ارتعدت. وعندئذٍ مضيت في طريقي، قابضاً على كل فردة منهما في إحدى يديَّ، وفي الطريق الرملي، لم تكن قدماي تحدثان صوتاً. وفي اللحظة التي توقفت لالتقاط الحذاء، دلفت «آنا» جانباً إلى طريق آخر. كنت أستطيع الآن من خلال الأشجار وفي خط مائل أن أرى بلوزتها البيضاء كراية باهتة أمامي. وكنا الآن في أكثف جزء من الغابة. حثثت خطاي. أن تفكِّر فيَّ الآن، وأن تكون مهيأةً لي، ذلك شيء لم أعد أشك فيه بعد هذه المطاردة الطويلة. كان هذا موعداً للقاء. وشدتني حاجتي إليها قُدُماً إلى الأمام كأنها قوة من قوى الطبيعة. وستغلق معانقتنا دائرة السنين ويبدأ العصر الذهبي. وكما ينجذب الصلب إلى المغناطيس، أسرعت إلى الأمام.

أدركتها، وبسطت ذراعي. «وإذن، يا عزيزتي؟»(*) قيلت هذه العبارة بصوت ناعم. لم تكن المرأة التي استدارت لمواجهتي هي «آنا». تراجعت كإنسان جريح. لقد غررت بي البلوزة البيضاء. نظر كل منّا إلى الآخر لحظة، ثم استدرت مبتعداً. استندت إلى شجرة. ثم انطلقت أعدو عشوائياً في أحد الطرق، وأنا أتلفت يميناً وشمالاً. لن تكون بعيدة عن هذا المكان. غير أن الظلام كان حالكاً في الغابة. وبعد لحظة أخرى، ألفيت نفسي إلى جوار درجات Jeu de Paume . وفيما وراء الحاجز الحديدي كانت أنوار الكونكورد المتوهجة تسطع فوق آلاف الناس الذين يرقصون في هدير اختلطت فيه الموسيقى بالأصوات. وغمرتني الضجة على حين غرة، فادرت رأسي بعيداً عنها، وكأن شخصاً ما قد رمى بحفنة من الفلفل في عينيّ، واقتحمت الأشجار مرة ثانية.

= الذي يهمنا في هذا السياق ـ معناه الشذوذ الذي يتمثل في تركيز الشهوة الجنسية على جزء من الجسد كالقدم مثلاً، أو على حذاء أو جورب. (المترجم).

(*) قيلت هذه العبارة بالفرنسية على هذا النحو: «Alors, Chérie» ولهذا ترجمتها بالمؤنث. (المترجم).

ركضت هاتفاً باسم «آنا». غير أن الغابة بدت الآن فجأة ممتلئة بالتماثيل والعشاق. ازدهرت كل شجرة بهمس عاشقَيْن، وسخر مني كل ممشى بين الأشجار بتمثال من الحجر. وكانت أطياف نحيلة تتهادى في طرقات الغابة، ووجوه بيضاوية شاحبة تلتقط الضوء الخافت الذي يتسلل إليها. وكان القصف الذي يصدر عن الكونكورد يتردد صداه على ذرى الأشجار. اصطدمت بجذع شجرة فآذيت كتفي. هرولت مسرعاً بين صفوف الأعمدة صوب شكل لا يريم، واجهني بعينين رخاميتين. تلفت حولي، وناديت مرة أخرى، غير أن صوتي سقط في مخمل الليل، كما تسقط رمية سكين في عباءة سميكة. كان كل ما فعلته بلا جدوى. اجتزت الشارع الرئيسي، معتقداً أن «آنا» ربما ذهبت إلى النصف الآخر من الغابة. وحملق وجه رجل في وجهي، فتعثرت في قدم شخص ما. وعدوت جيئة وذهاباً برهة من الزمن كالكلب الضائع.

وعندما توقفت أخيراً بسبب الإجهاد واليأس، أدركت أنني ما زلت ممسكاً بحذاء «آنا»، تلفت حواليّ، وبأمل متجدد عدت على عقبيّ مقتحماً الغابة صوب المكان الذي دخلنا فيه في البدء طُرُق الأشجار. كان من العسير تحديد المكان، إذ كان كل طريق يشبه الآخر تماماً. وحينما ظننت أنني وجدت المكان، بدأت أبحث عن الشجرة ذات الفجوة عند جذرها. غير أن كل شجرة كانت لها فجوة عند جذرها، ومع ذلك لم تكن واحدة منها تشبه الفجوة التي تركت فيها «آنا» حذاءها. وبدأت أعتقد أنني قد أخطأت نقطة الدخول. رجعت إلى منطقة الحشائش وحاولت مرة أخرى، ولكن في غير يقين أكبر. وقررت بعد هنيهة أن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أنتظر وأرجو رجوع «آنا»، وقفت هناك مستنداً إلى شجرة، على حين كانت أزواج العشاق الهامسين تعبرني في الظلام، فكنت أنادي على اسم «آنا» حيناً بعد آخر في نبرات متزايدة الحزن. بدأت أشعر بالتعب، فجلست عند قدم شجرة، وما زلت متشبثاً بالحذاء. ومضى زمن

غير محدود؛ وفيما هو ماضٍ هبط عليّ سكون غاية في الأسى كما يسقط الندى. انقطعت عن النداء وانتظرت في صمت. وكان الليل يشتد في برودته. وعرفت الآن أن «آنا» لن تأتي.

وأخيراً نهضت، ودلكت أطرافي المتصلبة. وغادرت حدائق التويلري. وكانت الشوارع مغطاة بلُعب المساء المطروحة؛ وخلال بحر من الأوراق الملونة كان الناس المتعبون يمضون في طريقهم عائدين إلى بيوتهم. إنتهى الحفل. فانضممت إلى الموكب، وفيما أنا سائر معهم في اتجاه «السين»، ساءلت نفسي: تُرى بأية أفكار وفي أية شوارع، ـ ربما لم تكن بعيدة عن هنا ـ كانت «آنا» تتجه إلى مسكنها حافية القدمين؟

الفصل السادس عشر

كنت أنتظر مغرب الشمس. وكنت قد رجعت الآن إلى «طريق جولد هوك» منذ عدة أيام. تحرك ضوء الشمس متباطئاً أشد البطء على جدار المستشفى الأبيض، ملقياً ظلّاً طويلاً من رف موضوع في منتصف الجدار. وأخذ الظل يطول ويطول، ومع حركة الظل كنت أنقُل رأسي على الوسادة. وعند الظهيرة كان الجدار متوهجاً بالبياض، غير أن هذا التوهج تراجع في المساء، وتألق مكانه ضوء أكثر نعومة كأنما ينبعث من داخل الأسمنت، مبدياً بعض الانحرافات الصغيرة في الحجر. وتصادف أن حلّق طائر بين النوافذ والجدار. ولكنه كان يبدو دائماً أشبه بطائر زائف على خيط منه بطائر حقيقي يمكن أن يطير بعيداً في مكان آخر حين يعبر المستشفى وربما ذَهَب وحطّ على شجرة. لم يكن هناك شيء ينمو على جدار المستشفى. وحاولت أحياناً أن أتخيل شيئاً من النبات ينمو على الرف: نباتات رطبة بأوراق طويلة كالأنامل، تتدلى من الشقوق وتتفتح إلى أزهار منقَّطة. ولكن لم يكن هناك في الواقع شيء، وحتى في الخيال، كان الحائط يقاومني، وظل أملس أبيض. وسوف تغرب الشمس في غضون ساعتين.

وربما غشيني النوم عندما تغرب الشمس، فما كنت أدع نفسي تنام أثناء النهار. ذلك أن نوم النهار سبات ملعون. يصحو منه المرء في حالة

قنوط. وهذا ما لا تحتمله الشمس، ولو استطاعت لتسللت تحت جفنيك وأبعدت أحدهما بقوة عن الآخر. ولو علّقت ستائر سوداً على نوافذك، فسوف تحاصر حجرتك حتى تصبح خانقة إلى درجة أن تترنح في النهاية بعينين محملقتين إلى النافذة لتزيح الستائر وتشهد أبشع المناظر: ضوء النهار العريض خارج حجرة كنت فيها نائماً. وهناك كوابيس خاصة للنائم أثناء النهار: أضغاث أحلام عصبية قصيرة تتقاذفها لحظات من اللاوعي قلقة مقتضبة، تطفو إلى سطح العقل لتختلط في الحال بفزع تثيره رؤية تستيقظ. على هذا النحو تكون ضروب اليقظة هاتيك، كأنها استيقاظ في القبر، حين يفتح المرء عينيه، ممدداً في تصلب، بيدين مطبقتين في انتظار عذاب ما يعلن عن مقدمه؛ غير أنه يرقد فترة طويلة على صدره موشكاً على الاختناق دون أن ينطق بكلمة.

كنت أخشى الذهاب إلى النوم. وكلما شعرت بالنعاس انتقلت إلى وضع أقل راحة؛ ولم يكن هذا بالأمر العسير، إذ كنت أرقد على سرير المعسكر الذي يملكه «ديف»، ويتميز بإمكانيات لا حصر لها لقلة الراحة. كان واحداً من تلك الأسِرَّة التي يُشد قماشها السميك (الكانفاس) في مستطيل من القضبان الصلبة، وتحمله سيقان أربع من الصلب على هيئة حرف W . وفي نقطة اتصال السيقان بالمستطيل هناك مفصلات ناتئة تلج فيها القضبان التي تحمل القماش السميك. وحين أحرّك جسدي أستطيع أن أغرز واحداً أو أكثر من هذه المفصلات في ضلوعي أو في ظهري. . وهكذا أستطيع أن أرقد فترة متوجعاً، حتى تتبدد غاشية النعاس، ويحل محلها خدر مؤلم أعرف من تجربتي أنه يمكن أن يستمر إلى غير حد دون التحول إلى ظلمة اللاشعور. وكانت وسادتي مستندة على «جربندية» يملكها «ديف»، وتحتوي على كتلة متماسكة من الأحذية ذوات الرقبة، والثياب القديمة التي لم تخرج منها منذ سنين؛ وكانت الوسادة تسقط أحياناً، فتتركني مسنوداً على الجربندية، مستحماً

في زخم عرقها الذي تراكم على مرِّ الزمان. كنت في حاجة إلى رؤية النافذة. وكانت الشمس ما فتئت تتحرك.

كان «مارس» في مكان ما من الحجرة. قد يرقد صامتاً فترات طويلة حتى ليخيل إليّ أنه هرب، فأشرع في البحث عنه بعينيّ، فإذا بي أجده على كثب مني، متطلعاً إليّ. ومن حين إلى آخر كان يحاول أن يستلقي على السرير جواري، غير أنني لم أكن أشجعه على ذلك، إذ كانت تفوح من فرائه الدافىء رائحة نوم يخيفني. وعندئذٍ كان يتمدد على الأرض قريباً مني، فكنت أربِّت بيدي على رقبته برهة. وتراه فيما بعد يجوس خلال الحجرة بطريقة مضجرة حتى يلقي بنفسه مزمجراً في ركن بعيد. وقد أسمعه بعد ذلك ينبش بمخالبه أرضية الحجرة، ثم يأتي إليّ ليدس أنفه الطويلة في وجهي ويلقي عليّ نظرة يشيع فيها القلق بحيث تكاد تعلو على طبيعته، فلا يسعني إلا أن أدفع وجهه بعيداً عني، وأنفش فراء ظهره لأقنع نفسي أنه لم يكن إلا كلباً.

كان يزعجني أنه لا يتلقى أي تدريب أو رياضة. ومن الحق أن «ديف» كان يصحبه كل صباح ومساء حتى «أجمة الراعي الخضراء» Shepherd's Bush Green ، وهناك كان يتسابق كالمجنون حتى يحين موعد العودة إلى المنزل. بهذا كان يخبرني «ديف». غير أن هذا لم يكن كافياً بالنسبة لمثل هذا الكلب الضخم. وفضلاً عن ذلك، لن يجد «ديف» ـ الذي ينبغي عليه أن يبدأ التدريس في إحدى المدارس الصيفيـة بعد يوم أو اثنين ـ سوى وقت أقل يكرسه له. وساءلت نفسي هل يمكن أن يكون «مارس» شقياً؛ ثم مضيت في سؤال نفسي : على فَرْض أننا لا نستطيع أن نقول إنه يعرف أنه شقي، أمن الممكن أن يقال عنه بحق إنه شقي؟ وقررت أن أسأل «ديف» عن هذا ذات مرة.

كان «ديف» لا يغادر شقته خلال النهار، وكنت أستطيع أن أسمع

الصوت البعيد الذي يصدر عن آلته الكاتبة. ثم يسود السكون. وكان يحمل إليّ وجبة في منتصف النهار وأخرى في المساء. ولكننا لم نكن نتجاذب أطراف الحديث. وفي العصر، كان يفتح الباب أحياناً ويطل عليّ برهة. كنت أراه كما يرى المرء شخصاً من خلال الطرف الخاطىء من منظار مكبر (تلسكوب). وقد أتذكر بعد فترة طويلة أن الباب قد أغلق، وأنه قد انصرف. وكان «ديف» قد رآني على مثل هذه الحالة من قبل. وأرمل السرير صريراً وارتجف وأنا أتقلب عليه غير مستقر على حال. وكنت أرتدي قميصي وسروالي؛ ومع أن اليوم كان مشمساً إلا أنني كنت ألتحف ببطانيتين. كنت أشعر بالبرد يسري في نخاع عظامي. واستردت وسادتي وأصلحت وضعها فوق الجربندية. وأشحت بوجهي عن النافذة. لم تكن الشمس تزور هذه الحجرة، غير أن كل شيء كان يبدو ظاهراً في وضوح غير مألوف في الضوء المنعكس من جدار المستشفى، وكأن بعداً زائداً قد أضيف إلى المكان، إذ تُعْرض الأشياء وتتراجع في حدة تجعلها حاضرة على نحو يكاد أن يكون مما لا يطاق. استلقيت ناظراً إلى حذائي، أسائل نفسي ترى ماذا حدث لفين.

عدت من باريس صباح الخامس عشر، فوجدت «ديف» و «مارس» في «جولد هوك رود»، واستمعت من «ديف» إلى حكاية ذهابه هو و «فين» في عصر اليوم السابق إلى «متنزه سانداون» Sandoun Park حيث تفضل «لايربيرد» Lyrebird علينا جميعاً بفوزه بتلك المراهنات الخيالية. وكانا قد وضعا الرهان أثناء السباق، وما أن جمع «ديف» النقود، حتى أعطى لفين نصيبه الذي بلغ مائتين وعشرة من الجنيهات. وعبأ «فين» هذا المبلغ - الذي كان معظمه في أوراق مالية من فئة الجنيهات الخمسة - في جيوب عجيبة تشمل ثيابه جميعاً. فعل ذلك صامتاً، بهيئة رجل يعد مظلة لقفزة خطِرَة. ثم صافح «ديف» دون أن ينبس بكلمة فترة من الزمن، وحينئذ استدار واختفى في الزحام. ولم يعد تلك الليلة إلى «جولدهوك رود»،

وظن «ديف» أنه ذهب ليلحق بي، حتى وصلت صباح اليوم التالي؛ وبعد أن بحثت عن «فين»، سألت عن أخباره. ومنذ ذلك الحين لم يظهر مرة أخرى. لم أكن قلقاً بصورة جدية. فالأرجح أنه يعب الخمر عبًّا. رأيته ذات مرة يغيب غيبة دامت ثلاثة أيام، عاد بعدها محمولاً في سيارة إسعاف. ولهذا لم أتخيل أن يكون قد حدث له أي شيء خطير. ومع هذا كله، كنت أرغب بشدة أن يعود.

بعد وصولي، كتبت في الحال إلى شخص أعرفه في «نادي المجانين» Club des Fous أطلب منه أن يحاول العثور على عنوان «آنا» وأن يخطرني بذلك. ولكنني لم أتلق أي رد. كما حاولت عبثاً أن أتصل بـ «هوجو». فلم يجبني أحد في شقته، كما أخبرني الأستوديو أنه ذهب إلى الريف. وأطلعني «ديف» على نسخة من الخطاب الذي أرسله إلى «سادي» عن «مارس»، وكان مزيجاً بارعاً من الجدل الودي والتهديد. غير أن سادي لم تظهر كذلك أية علامة على الحياة. وكتبت إلى «جان بيير» مهنئاً على نجاحه. ورقدت بعد ذلك على سرير ـ المعسكر. وحان يوم موعدي مع «لفتي» Lefty، ثم ولّى، ومنذ ذلك الحين اتصل هاتفياً مرتين وسأل عني؛ فأخبره «ديف» أنني مريض، وأظن أنه لم يقل غير الحق.

كان حائط المستشفى غارقاً كله في الظلال. لم يكن هناك سوى مثلث ذهبي على قمة النافذة حيث كنت أستطيع أن أرى أنها ما برحت تتلقى لمسة من شمس المساء. فتح «ديف» الباب، ونادى على «مارس»، وكنت أستطيع أن أسمعه راقصاً ونابحاً في القاعة متوقعاً نزهة المساء. وعندما يرجع «ديف» بمارس، فربما أفكر في النوم. . ولكن، قد يكون الوقت ما زال مبكراً جداً، ومن ثم قد أنام وأصحو ثانية قبل أن يبدأ الليل حقًّا. كان الفزع يستولي عليّ من هذه الفكرة. فنهضت وسوَّيت فراشي لأوقظ نفسي قليلاً. وأنزلت نفسي ببطء شديد من على السرير، ورقدت

ساكناً حتى كفَّ عن الارتجاف. عاد «مارس»، وهو ينظر عن كثب إلى وجهي، حاملاً معه انتعاشاً مثيراً من العالم الخارجي. وكان أنفه المبلل وعيناه تلمعان، وأضفت عليه العلامات البنّية الخفيفة على جبينه نظرة توقع دائمة. نبح مرة واحدة، فخاطبته قائلاً: «اهدأ!»، إذ أخذ الصوت المزعج يرن في أذني فترة طويلة فيما بعد، حتى تمكن هيكل الصمت من إعادة تركيب نفسه.

وفي صباح اليوم التالي كنت أنتظر الاستماع إلى مجيء رجل البريد. وهذا ما كنت أفعله الآن كل صباح. وكانت ساعتي قد توقفت، غير أنني كنت أستطيع أن أعرف الوقت من حائط المستشفى. فأقول لنفسي: أوشك موعده أن يحين ـ حان موعده ـ ثم أسمع وقع أقدامه على درجات السلم، وقعقعة صندوق الخطابات، وبعد لحظة أخرى ارتطام ثقيل. لا بد أن مجموعة كبيرة من الرسائل وصلت هذا الصباح، وسمعت «ديف» في ذهابه إلى القاعة. كانت هذه هي اللحظة الحقيقية في اليوم كله. وساد الصمت. والآن، كان «ديف» يقترب من بابي.

قال: «لا شيء لك، يا جيك».

فأطرقت برأسي، وأعرضت عنه. وكنت أرى أن «ديف» ما زال واقفاً في مدخل الباب. ومَرَق «مارس» متجاوزاً إياه إلى القاعة.

قال «ديف»: «جيك، بحق الإله، انهض وافعل شيئاً، أي شيء على الإطلاق. إنني أشعر بأني حطام عصبي حين أفكر فيك راقداً هناك طول الوقت. لا أستطيع أن أكتب فلسفة حين تجعلني أشعر بكل هذه العصبية». فلم أقل شيئاً.

وانتظر «ديف» قليلاً، ثم قال: «لا تعبأ بي، يا جيك. من أنا حتى أتكلم على هذا النحو؟ ولكن ينبغي أن تقوم من أجل مصلحتك».

أغمضت عينيّ، وبعد برهة، سمعت الباب وهو يغلق. ثم سمعت

«ديف» يخرج مع «مارس». وفيما بعد، عاد «مارس» إلى الحجرة مرة أخرى، أما «ديف» فلعله ذهب إلى مدرسته الصيفية. وقررت النهوض.

لم أستطع أن أجد ثيابي لأول مرة. كانت الحجرة تبدو فوضى مكونة من أشياء لا ارتباط بينها. وألفيت نفسي أشرع آلياً في فك جربندية «ديف». ثم رفستها بعيداً. ثم أبصرت سروالي في كومة عند الركن حيث كان «مارس» يستخدمها كفراش لنومه، إذ كانت مغطاة بشعيرات قصيرة سوداء. نفضت الملابس وارتديها، ثم فتحت النافذة على مصراعيها، وأديت بعض تمارين التنفس. كانت موجة الحر قد انحسرت، وكان يوماً خفيفاً سريعاً تهب فيه ريح الصيف. أطللت على الخارج، ورفعت بصري إلى السماء، بعيداً فوق قمة جدار المستشفى، وشاهدت السحب الصغيرة في تسرعها الأزرق والأبيض. وكان «مارس» يطوف حول المكان ويعوي مسروراً وهو يتواثب عليَّ بكفيه الخشنتين، وعندما وقف على رجليه الخلفيتين كان طوله يماثل طولي تقريباً. غير أنني ـ كما سبق أن ذكرت ـ لم أكن طويلاً جداً. رتبت الحجرة ترتيباً بسيطاً، ثم عثرت على سترتي، وغادرت المنزل مصطحباً «مارس».

كان «طريق جولد هوك» بشعاً. يصدر عن المرور فيه هدير خشن مستمر، والأرصفة غاصة بالناس الذين يتدافعون بالمناكب ليسبق كل منهم الآخر أمام واجهات المحال الممتلئة بالأواني الفخارية الرخيصة وعلب الصفيح. وأفلحت في الوصول أنا و«مارس» إلى المتنزة الأخضر The Green ؛ فجلست تحت شجرة فوق الأرض الصلبة التي حاولتْ إنتاج قليل من الحشائش، ولكنها باءت بالفشل. وأخذ «مارس» يركض هنا وهناك، ويلعب مع بعض الكلاب الأخرى. ركَّزت عيني على رقعة السماء فوق «إمبراطورية أجمة الراعي» Shepherd's Bush Empire . وبسرعة مذهلة كانت تكتلات السحب البيضاء المتكاتفة تتهاوى خلف

السقوف. وكانت السماء كلها قد اتخذت سرعة هائلة منسجمة جعلت تدافع الناس في الشوارع من حولي يبدو عصبياً سخيفاً. قمت وتمشيت مرات عدة حول المتنزه، يحرسني «مارس». ثم عدت به إلى الشقة. والواقع أنني كنت شديد القلق لأنني اصطحبته معي وسط هذا المرور المزدحم، وكنت قد نسيت ٢٨٣ بطه في مِقْوده. واتصلت هاتفياً بشقة «هوجو» وبالأستوديو، ولكنني لم أحصل إلا على النتائج السلبية التي حصلت عليها من قبل. وبعد ذلك خرجت مرة أخرى وسرت وحدي حتى فتحت الحانات أبوابها.

وفيما كنت عائداً صوب شقة «ديف»، وجدت نفسي ماراً بواجهة المستشفى، فتوقفت، والمستشفى عبارة عن مبنى أبيض ضخم من الاسمنت بنوافذ مربّعة منتظمة، وسقف مستوٍ. ولم يكن قد شيِد منذ زمن بعيد، وكانت صوره تظهر في المجلات المعمارية. وهناك عدد من الأجنحة أو الملاحق التي تبرز في مختلف الاتجاهات من المبنى الرئيسي، وتُلْهي العين على نحو ماكر عن رتابة خطوطها. وفي الأماكن المنخفضة أو الأخاديد الناجمة عن هذه الملاحق زرعوا حدائق ذات مروج تنمو فيها الحشائش والشجيرات التي ستصبح يوماً أشجاراً باسقة. وعن المحافظة على هذه الشجيرات سوف تدور المناقشة إلى ما لا نهاية بين لجان المستشفى الممزّقة بين المنافع العلاجية لمباهج الطبيعة وبين الحاجة إلى السماح لمزيد من النور بالدخول إلى العنابر الموجودة في الطوابق السفلى. وقفت برهة أراقب السيارات القادمة والذاهبة في الفناء المربع الذي يقع أمام المدخل الرئيسي، ثم اجتزت الطريق ودخلت، وسألت عن وظيفة.

الفصل السابع عشر

أدهشتني ـ كلما رجعت بذاكرتي إلى الوراء ـ السرعة التي التحقت بها في هذا العمل! لم تُوجَّه إلي أية أسئلة، ولم تُطْلب مني أية جهات للرجوع إليها. لعلني أوحي بالثقة. ولم أكن قد حاولت طيلة حياتي كلها الحصول على وظيفة. وكان الحصول على وظيفة شيئاً حاوله أصدقائي من حين إلى آخر، ويبدو دائماً عرضة لتفاوض بطيء صعب، بل عرضة للمكائد في كثير من الأحيان. ولا ريب أن تعثرهم في هذه المحاولات، بالإضافة إلى مزاجي الخاص، منعاني أساساً من بذل أية محاولات في هذا الاتجاه. ولم يخطر لي قط أنه قد يكون من الممكن الحصول على وظيفة بمجرد الذهاب والسؤال عنها، ولم يكن من الممكن ـ في حالتي العقلية السوية ـ أن أقوم بمثل هذه المحاولة. وربما لاحظت، وستكون في هذا على حق تماماً ـ أن الوظيفة التي التحقت بها بهذا اليسر من الفئة التي لا تحتاج إلى مهارة فنية فحسب، بل إنها أيضاً من الوظائف المكروهة التي قد تكون قلة إقبال المتقدمين إليها كفيلة بضمان التعيين الفوري لأي شخص إلا إذا كان مشلولاً شللاً شاملاً، على حين أن ما كان أصدقائي يجدون مشقة في الحصول عليه أن يكونوا موظفين في الأعمال المدنية العليا، أو كتاباً للأعمدة في صحف لندن اليومية، أو موظفين في المجلس البريطاني، أو زملاء في الكليات، أو مديرين في هيئة الاذاعة

البريطانية. هذا حق. ومع ذلك لم يكن يسعني إلا أن أشعر بالتأثر، عند النقطة التي وصلت عندها الآن قصتنا، لا لأنني حصلت على الوظيفة فحسب، ولكن أيضاً بالطريقة الكفء التي أثبت بها أنني قادر على أدائها.

كنتُ ـ بالمصطلح الشائع ـ ممرِّضاً. وكانت ساعات عملي تبدأ من الثامنة صباحاً وتنتهي في السادسة مساءً مع ثلاثة أرباع الساعة للغداء، ويوم للراحة كل أسبوع. وقد أُلحقت بعنبر تخصص في إصابات الرأس، وكان يسمّى «كوريللي» Correlli تمشياً مع عادة المستشفى في تسمية عنـابره بأسماء المحسنين الأثرياء: وقد كان السيد «كوريللي» صاحب مصانع للصابون جاء من صقلية، وأصيب ابنه ذات مرة بكسر في الجمجمة أثناء قيادته لسيارته «اللانسيا» Lancia وهو واقع تحت تأثير الخمر في طريق «أوكسبريدج» Uxbridge Road. وحين استرد الابن صحته، تصرف كوريللي الأكبر بالكرم المناسب. ومن هنا كان اسم العنبر الذي اشتغلت فيه حتى الآن أربعة أيام.

كانت واجباتي بسيطة. عند وصولي في الساعة الثامنة صباحاً، آخذ ممسحة وجردلاً وأقوم بتنظيف ثلاثة دهاليز وثلاث مجموعات متواصلة من درجات السلَّم. وقد كانت هذه المسطحات أيسر ما تكون للتنظيف، وأنجزت تغييرات مشهودة في اللون مستعيناً بقطعة صغيرة من الصابون. فإذا انتهيت من هذا قمت بغسل الأواني الفخارية التي يتناول فيها المرضى إفطارهم وتكون مكدسة في انتظاري حينذاك في عنبر المطبخ. وكان عنبر كوريللي يحتل ثلاثة دهاليز، واحد منها في الطابق الأرضي ويسمى «كوريللي ١». واثنان في الطابق الأول ويسميان «كوريللي ٢ و٣»، وكان عنبر المطبخ يقع في «كوريللي ٣» وهنا كان مركز نشاطي، وفي فجوة مكعبة ملحقة بالمطبخ أترك سترتي، وانسحب إليها لأجلس وأقرأ الصحف إن كانت هناك لحظة فراغ. وبعد عملية الغسيل أذهب

وأبحث عن علب اللبن في المطبخ الرئيسي الذي كان يعرف باسم «مطبخ الجناح»، فأحملها إلى «كوريللي ٣» على «ترولل» أحضرته من أجل خدمة خاصة بالمصعد. وكنت أستمتع بهذا العمل كثيراً؛ فلكي أصل إلى «مطبخ الجناح» كنت أقطع طريقاً طويلاً خلال دهاليز العنابر الأخرى ذات الأسماء العجيبة؛ وحين أسير بسرعة ماراً على أشخاص غير مألوفين يرتدون سترات بيضاء، يؤدون واجباتهم كما أؤدي واجبي، أشعر شعور رجل عُهدت إليه رسالة مهمة. فإذا عدت إلى «كوريللي»، كان يُسْمح لي بأداء عملية تكاد تكون ذات دلالة إكلينيكية، وهي أن أقوم بتسخين اللبن على فرن كهربائي ضخم، ثم أصبه في أباريق تحملها الممرضات إلى أولئك المرضى الذين يسمح لهم بتناوله. ثم أقوم بعد ذلك بقطع الخبز والزبد، وغسل الأباريق والفناجين، وتنظيف المطبخ.

وكنت لاأزال على شيء غير قليل من العصبية في التعامل مع زملائي ورؤسائي الذين أحرص كل الحرص على إرضائهم. أما فيما يتعلق بالممرضات اللواتي كان معظمهن فتيات أيرلنديات دون أية فكرة تعمر رؤوسهن، إلا إذا كان من الممكن أن نسمي الأمومة المسيطرة عليهن فكرة، فقد سارت أموري معهن في الحال على خير ما يرام. أطلقن اسم «جاكي» عليّ في اليوم الثاني، وكن يعاملنني بنوع من الاستبداد العاطفي المعذِّب. ولاحظتُ في شيء من الاهتمام أن ما من واحدة منهن كانت تأخذني بصورة جدية على أنني ذكر. وكنت أحيط نفسي بهالة - وإن كانت علاقتي بهن رائعة للغاية - تبعدهن عني على نحو ما، ربما كانت هناك غريزة غامضة تحذرهن من أنني مثقف. وكانت علاقتي برئيسة العنبر حسنة أيضاً، وإن يكن ذلك على نحو مختلف. إذ كانت رئيسة العنبر إنسانة مهيبة، وكانت في سن الكهولة، صارمة وعلى وعي رفيع بكرامتها إلى درجة أن إمكانية حدوث أية احتكاكات بها كانت مستبعدة تماماً بسبب المسافة الاجتماعية التي تفصل بيننا. لم تكن تصرفاتي الشخصية الغريبة

يمكن أن تسيء إليها لأنها لم تكن معنية على الاطلاق بادعاءاتي على أنني شخص. والسؤال الوحيد الذي كنت أثيره هو: هل أقوم أو لا أقوم بعملي على أحسن وجه وهل أحرص على ألا أعوق طريق أحد؟ ولما كنت أحرص على هذه الأمور، فإنها كانت تبدي رضاها بتجاهلي، فيما عدا أنه في أول مناسبة تعرض كل يوم حين نلتقي في الدهليز، كانت تدير رأسها قليلاً نحوي بتشديد طفيف في التعبير الذي ـ إن أصدرته في غير تحديد تقريباً ـ يمكن أن يتحول إلى ابتسامة.

ولم تكن رؤيتي ـ في جو الترتيب الوظيفي للمستشفى ـ تمتد إلى أبعد من «رئيسة العنبر». وفي الأجزاء الوسطى من مجتمعي الصغير، كانت علاقاتي أبعد ما تكون عن اليسر. إذ كانت تعمل تحت إشراف الرئيسة أخوات ثلاث Sisters ـ تتولى كل واحدة منهن الإشراف على عنبر من عنابر كوريللي، ومن هذه المخلوقات كنت أتلقى معظم أوامري مباشرة. وكانت حياة هاته النسوة، اللواتي تقدمت بهن السن فعلاً ـ تعسة حقاً، بواسطة «الرئيسة» من ناحية، التي كانت تعاملهن بدكتاتورية لا هوادة فيها، وبالممرضات من ناحية أخرى، اللواتي كن يثأرن منهن بالسخرية المستمرة المقنّعة نظير الآلام التي كانت الأخوات يشعرن بأنهن ملتزمات بصبها على رؤوس من يعملن تحتهن، على سبيل الاحتفاظ بكرامتهن. وكانت الأخوات ينني صعب الفهم، وكن يرتبن في أنني أريد أن أتخطاهن، لا بسبب علاقاتي الودية بأعدائهن الممرضات فحسب، ولكن لأنهن وصلن إلى تخمين شيء من طبيعتي الحقيقية، أكثر من أي شخص آخر اتصلت به في المستشفى. كنت أشكّل بالنسبة إليهن مشكلة تجعلهن عصبيات؛ وبالنسبة إليهن وحدهن، دون جميع النسوة اللواتي أعمل معهن في ذلك المكان ـ كنت موجوداً ـ بلا شك ـ بوصفي رجلاً. هناك تيار كهربائي يمر بيننا، وكنّ يتحاشين النظر في عيني باستمرار، فإذا أصدرن إليّ الأوامر، كانت أصواتهن الحادة. ترتفع إلى أعلى السلّم

الموسيقى نصف نغمة.

كنت مغرماً بوجه خاص بالأخت التي تعمل في «كوريللي ٣» وهي الأخت التي كان معظم عملي يتصل بها، وتسمَّى «الأخت بيدنجهام» Sister Piddinghm والمعروفة عند الممرضات باسم «البيد» The Pid. كانت «البيد» في حوالي الخمسين من عمرها، أو ربما ما يزيد عن ذلك، ولا بد أنها بدأت في صبغ شعرها الرمادي الطويل باللون الأسود منذ أعوام كثيرة. وكان صوتها وعيناها اللذان اكتسبا حدة بسبب الحرب اللفظية والعادات المهنية الناشئة عن التدقيق النقدي ـ كانا يلاحقانني باستمرار أثناء عملي في المطبخ. وكان حرصها على انتقادي سبباً في إنشاء رابطة بيننا؛ وكم كنت أحب أن أصنع شيئاً خاصاً غير متوقع لإرضائها، كأن أحضر لها زهوراً على سبيل المثال، ولكنني كنت أعلم أنها تأخذني مأخذ الجد بما يكفي لأن تكون قادرة على اعتبار هذا فعلاً من أفعال التنازل (من ناحيتي)، ومن ثمّ على أن تبغضني من أجله. وكنت أشعر تجاه طريقتها المستسرة الحزينة في الوجود باحترام يصل إلى درجة الرعب. ومن موظفي المستشفى الآخرين، لم أكن أرى أحداً سوى رجل يدعى «ستيتش» Stitch، كانت وظيفته شيئاً كرئيس مقيم للبوابين، وكان شديد الغباء، ويكرهني من صميم قلبه؛ وواحدة أو اثنتين من خدم العنبر كانتا شبه قاصرتين من الناحية العقلية.

وفي كل يوم، كنت أشتري في وقت الغداء شطائر من مطعم الجناح، ثم أذهب لأصطحب «مارس» من شقة «ديف». وأحياناً كنت ألمح «ديف» الذي لم تخفت بعد من وجهه تلك الدهشة التي ارتسمت حين أخبرته أول مرة بوظيفتي؛ وكنت أقول لنفسي أحياناً إن الأمر كله كان خليقاً بأن أفعله إن لم يكن فيه إلا تلك الصدمة التي سببتها لديف. وكنت أعود بعدئذ بمارس لنجلس في الحديقة التي تقع خارج «كوريللي»، فأتناول

شطائري. الحديقة هنا تتألف من مرجة طويلة ملساء على جانبيها صفّان من أشجار الكرز زرعت بين الحشائش. وكنت أعرف أنها أشجار كرز لأن الممرضات كن يتساءلن دائماً عن المنظر الذي تبدو عليه الحديقة في الربيع. اعتدت أن أجلس تحت شجرة من تلك الأشجار، بينما يأخذ «مارس» في التواثب على كثب مني، منتبهاً إلى هذه الشجرة تارة، وإلى تلك الشجرة تارة أخرى، وحينئذ تقبل عليّ ممرضات كوريللي ويتحلقن حولي كالحوريات، ويضحكن مني ويُعْلِنَّ إنني أبدو أشبه برجل حكيم وأنا جالس القرفصاء تحت شجرتي، ويبدين إعجابهن بمارس، ويجعلن منه شيئاً، ويدافعن عني ضد «ستيتش» الذي كان يود أن يمنعني بتاتاً من اصطحاب «مارس» في الحديقة. والحق أنني كنت استمتع بفترات الغداء هذه.

وفي العصر، كنت أتمكن أخيراً من رؤية شؤون المرضى. غير أن هذا لم يكن يحدث إلا في الهزيع الأخير من العصر. وكنت أتطلع إلى هذا طيلة اليوم. وفي فهمي لهذا، أن المستشفى كـان ينزل خلال ميزان إلى درجات منخفضة من الواقع وفقاً للمسافة التي يبتعد بها عن المرضى. فهؤلاء هم المركز الذي يصير كل ما عداهم محيطاً له. وكان المرضى في «كوريللي» جميعاً من الرجال، وكلهم في أحوال متفاوتة من ضربات تلقوها على الرأس. فبعضهم يعاني من ارتجاج في المخ مع كسر في الجمجمة أو بدون كسر، وبعضهم الآخر يعاني من آلام شديدة أشد غموضاً. كانوا يرقدون هناك بعمامات من الضمادات البيضاء، وقد ضاقت عيونهم من الصداع، وجعلوا يراقبونني وأنا أمسح البلاط؛ فأشعر نحوهم بمزيج من الشفقة والرهبة، كما يشعر أحد الهنود إزاء حيوان مقدس. وكنت أود لو أنني تحدثت إليهم، وفي مرة أو مرتين بدأت معهم محادثة، ولكن، كانت «الأوات» يأتين في كل مناسبة فيوقفونها. إذ لم يكن من المناسب أن يخاطب الممرضون المرضى.

وكان أكثر من ذلك إسهاماً في الهالة المقدسة التي تحيط بهؤلاء المرضى هو أنني على الرغم من وجودي على مقربة منهم طيلة النهار، لم أكن أشاهدهم أبداً إلا في مهابتهم الكاملة بوصفهم مرضى، يرقدون هناك متوحدين صامدين بأيد خاملة، متواصلين في خلوتهم مع آلامهم. أما أنهم كانوا في أوقات أخرى يغتسلون ويأكلون، ويستخدمون أوعية السرير، وتزال عن رؤوسهم الحليقة أربطة ملطخة بالدم والصديد... فشيء لم أكن أعلمه إلا عن طريق الاستنتاج من الصحون القذرة، ومن أشياء أخرى أقل قذارة، كانت تدخل على نحو أكثر مباشرة في عملي اليومي. وعندما تكون الممرضات والأطباء منهمكين في أداء واجباتهم الشبيهة بالمراسم الكهنوتية، كانت أبواب الحجرات تُغْلق بوقار ديني، وتعلَّق عليها اللافتات التي تمنع من الدخول. ولا ألتقي بمريض إلا عرضاً في الدهليز، تحمله العربة من سريره أو إليه؛ وكلما سمعت القرقعة المكتومة الصادرة عن عجلات العربة، مع ذلك الصوت الثقيل من احتكاك المطاط بالمطاط، كنت أتحايل على الخورج من حيثما أكون لألقي نظرة خاطفة: قد تكون على قادم جديد، يقنعني وجهه ورأسه المضمد حديثاً والذي ما زالت على دهشته الحية من العالم الخارجي ـ يقنعني هذا بأن المرضى بشر مثلي قبل كل شيء.

بعد أن أقوم بتنظيف الحجرات، تتاح لي فترة استراحة من عملي، أنسحب أثناءها إلى جحري الصغير حيث لا يتسع المكان إلا للجلوس وقراءة صحف المساء في ضوء كهربائي معتم.. ولم يكن في هذا الجحر الصغير نافذة، ولما كانت الجدران كلها مغطاة بسترات الناس المعلقة على مشاجب، فقد كانت أشبه بدولاب ملابس من الداخل. لم أكن أعبأ بهذا، إذ كانت للدواليب من الداخل دائماً جاذبية خاصة بالنسبة لي منذ الطفولة، ولهذا بلا شك أسباب يعرفها علماء التحليل النفسي. غير أنني كنت أنفر ـ على كل حال ـ من الضوء المعتم، ولهذا أحضرت

في اليوم التالي لمبة كهربائية أقوى على حسابي الخاص، صادرها «ستيتش» في اليوم الثالث، وأعاد مكانها اللمبة الخافتة مرة أخرى. هناك كنت أجلس متمعناً في قراءة الإيفننج ستاندارد Evening Standard، وفي أثناء قراءتي، كانت جلبة العالم الخارجي تأتي إليّ كصيحات بعيدة أو كأصوات معارك دارت في أمكنة وأزمنة غابرة. وكان اسم «لفتي» يتردد في كثير من الأحيان؛ وذات مرة كرِّست له مقالة افتتاحية بأكملها مصوغة في ألفاظ توحي في آن معاً بأنه خطر يتهدد الجماهير بصورة جدية، وبأنه مهيِّج وضيع على نواصي الشوارع ـ أقل من مستوى الازدراء. ولاحظت أن هناك اجتماعاً كبيراً يقوم بتنظيمه الاشتراكيون المستقلون في غرب لندن West London في غضون يوم أو يومين، وبهذه المناسبة كان المحرر يستعدي «الأخيار» لممارسة ذلك المزيج العجيب من التغاضي والاجراءات القوية. كما عقد «هومر ك. برنجشايم» مؤتمراً صحفياً في لندن قال فيه إن صناعتيْ الفيلم الأمريكية والبريطانية يمكن أن تتعلم كل منهما الكثير من الأخرى، وجاء في الصحيفة أنه رحل بعد ذلك إلى الريفييرا الايطالية. أما الأسماء الأخرى التي بحثت عنها، فلم تكن هناك.

كنت أستمتع أيضاً بهذا الشطر من اليوم. ففي هذا الوقت كنت أستطيع أن أجمع بين شعور ملحوظ بالتعب وبين شعور يكاد يكون جديداً كل الجدة بالنسبة إليّ. وهو أنني «فعلتُ» شيئاً. فالعمل الذهني ـ أياً كان ما أنجزته فيه ـ كان يتركني دائماً بإحساس من لم ينجز شيئاً: فالمرء يعيد النظر خلال ما فعل كما ينظر خلال صَدَفة فارغة. ولكن، هل كان هذا بسبب طبيعة العمل الذهني نفسه من حيث هو كذلك؟ أم أن ذلك لأنني لم أكن أصلح له؟ هذا أمر لم أكن قادراً على البت فيه. فإذا لم يعد المرء يشعر بالاتصال الحي مع ما يحتويه العمل من فكر أياً كان، فإن العمل يبدو جافاً في أفضل الحالات، مقززاً في أسوأها؛ أما إذا كان المرء

لايزال يشعر بهذا الاتصال، فإن العمل يصاب من خلاله بعدوى الخواء المتحول الذي يتسم به الفكر الحاضر. هذا، وإن يكن الأمر أن الإنسان إذا كان لديه أية أفكار حاضرة ذات وزن، فإن هذه الأفكار لن تتصف بصفة الخواء هاتيك. وتساءلت: هل قال «كانت» لنفسه من حين إلى آخر أثناء تصوره للثورة الكوبرنيكية ـ «ولكن، هذا لا شيء، لا شيء»؟ ويطيب لي أن أفكر أنه فعل هذا.

اعتزمت أن أنتظر عطلة أسبوع أخرى قبل أن أحاول الاتصال بـ «هوجو». ذلك أن الإحساس بمصيري الذي هجرني على ذلك النحو العجيب خلال الأيام التي رقدت فيها على سرير ـ المعسكر الخاص بديف، هذا الإحساس عاودني الآن، وكنت على يقين من أنه مهما يكن المصير الذي يدبره الله لي ولهوجو بأن يكون لكل منا تأثير عميق على الآخر ـ فإنه لن يترك عمله دون أن يكمله. وعن هذه المسألة، كنت أشعر في هذه اللحظة بشيء من الهدوء. وكنت أشد قلقاً على الخطابات التي أنتظرها من فرنسا، ولعل قلقي بلغ أقصى مداه فيما يتعلق بفين الذي لم أسمع عنه حتى الآن حِساً أو خبراً. وقال «ديف» إنه لا بد الآن من البدء في القيام بتحريات. غير أن هذا كان مستحيلاً لسبب بسيط وهو أنه ليس هناك مكان نستطيع أن نتحرى فيه. إذ لم يكن لفين أصدقاء في لندن، على حد علمنا ـ فيما عدانا نحن الاثنين. وفيما يتعلق بالأماكن الحاضرة التي يمكن أن يوجد فيها الآن. لم نكن نستطيع أن نصل حتى إلى تخطيط نظرية. واقترح «ديف» أن نلجأ إلى الشرطة، ولكنني كنت أعارض هذا. فلو أن «فين» قد أغرق نفسه في الشراب حتى الموت في مكان ما، فهذا من شأنه، وستكون هذه فعلتي الحزينة الأخيرة في صداقتنا، أن أتركه وشأنه. غير أن هذا أيضاً لم يخلصني من القلق، وهكذا كنت أفكر كثيراً عن «فين» خلال تلك الأيام.

وكانت المشكلة الأخرى التي بين يديّ ولا أجد لها حلاً هي مشكلة

«مارس»، وعن هذه المشكلة كان القلق يساورني - في غير انتظام - حيناً بعد حين ولم تكن «سادي» و «سامي» قد أبديا حتى الآن أية حركة، وبدأ صمتهما يثير أعصابي. وراودني أحياناً شعور بالذهاب ورؤية «سادي» والتحدث معها في الأمر كله. غير أنني كنت أخشى هذا أيضاً، أولاً، لأنني كنت في قرارة نفسي خائفاً إلى حد ما من «سادي»، ولا سيما الآن بعد أن وضعت نفسي في هذا الموقف المخطىء؛ وثانياً لأنني لم أكن أتصور فكرة انتزاع «مارس» مني. لم أكن أريد أن يقع «مارس» - في شيخوخته - بين يدي شخص آخر، مثل «سامي» الذي أشك في أنه يُكنّ ولو قليلاً من الاحترام الكافي لحياة غير مُسْتَغلَّة، حتى لو كانت حياةً إنسانية. ولهذا لم أفعل شيئاً، وآثرت الانتظار.

مر يوم أو يومان، وكان العصر في أواخره. . بعد حوالي نصف ساعة ينتهي عملي اليومي. ونظراً لاجتهادي الاستثنائي، فإنه كان قد انتهى فعلاً؛ ومع أنه لم يكن أمامي الآن ما أفعله، إلا أنني لم أكن أستطيع مغادرة المبنى حتى تدق الساعة السادسة. وحدَّثتُ نفسي قائلاً: في خلال دقائق قليلة، من المستحسن أن أذهب لأمسح أرضية المطبخ؛ إذ لا يستطيع المرء أن يمسح أرضية ذلك المطبخ في كثير من الأحيان. وفي هذه اللحظة، لم أكن في عجلة من أمري، وكنت أشعر بأنني مرهق أشد الارهاق، وأصبح من الواضح لي أن هذا حقاً هو العيب الرئيسي في هذه الوظيفة الجذابة في جوانبها الأخرى؛ وهو أنها مُتْعبة إلى أقصى حد. وقررت أن أرتب العمل - في وقت ما من المستقبل، على أن يكون نصف الوقت فحسب، سواء في هذا المكان أو في غيره. وعندئذ أستطيع في النصف الآخر من الوقت أن أكتب شيئاً. وخطر لي أن إنفاق نصف يوم في العمل اليدوي قد يكون مهدئاً جداً لأعصاب شخص ينفق النصف الآخر في القيام بعمل ذهني، ولم أتخيل لماذا لم أفكِّر من قبل في هذه الطريقة للمعيشة التي تضمن ألا يمر يوم دون أن يُصْنع فيه «شيء ما»، وبهذا

أطرح بعيداً عني ذلك الإحساس باللاجدوى الذي ينمو في فترات العقم المتطاولة. غير أن هذا كله كان من أجل المستقبل. أما الآن فلم تكن لدي أية فكرة سوى أن استمر في أداء واجباتي، وأنتظر أن يلحق بي مصيري؛ وكنت على ثقة من أنه سيفعل ذلك؛ وإن كنت لا أعلم ـ وأنا أقلب صفحات «الإيفننج ستاندارد» في تكاسل، واقفاً لأن الضوء كان خافتاً ـ إلى أي حد كان مصيري يرمح بسرعة في هذه اللحظة بالذات ليلحق بي.

تبينت من الصحيفة أن اجتماع «لفتي» الكبير قد انعقد في ساعة مبكرة من ذلك اليوم، وصحبه شغب ملحوظ، انتهى بتدخل رجال الشرطة. واحتوت الصحيفة على عدة صور لرجال الشرطة الخيّالة وهم يسيطرون على المتجمهرين. وقد ألقى شخص ما مفرقعات من المغنيسيوم، وأصيبت امرأتان بإغماء. وألقى «لفتي» كلمة كانت زاخرة ـ كما استطعت أن أتبين ـ بملاحظات مضجرة لا ضرر فيها عن الوسائل الفنية الكفيلة بارتباط المنظمات اليسارية بعضها إلى البعض الآخر. وألقى زعيم شهير لإحدى النقابات كان عضواً في حزب «لفتي» كلمة أخرى، وكذلك فعلت امرأة من أعضاء البرلمان، وإن لم تكن عضواً في الحزب ولكنها كانت غاية في الجمال.

وفيما كنت أمعن النظر في هذا كله، سمعت انفتاح الأبواب الدّوارة المؤدية إلى الدهليز الرئيسي، أعقبته قعقعة عجلات الترولّلي. كانوا يدخلون مريضاً جديداً. ومن خلال الباب الزجاجي لجحري الصغير رأيت «البيد» وهي تمر، وسمعت كعبيها الأسودين وهما يقرقعان أثناء نزولها إلى دهليز العنبر. فتحت الباب، وتركته مواربأ، ومازلت واقفاً في الداخل. وكان «ستيتش» يدفع نحوي تلك العربة (الترولّلي) التي تحمل شخصاً منبطحاً تحت بطانية حمراء. ولمح «ستيتش» نظرتي، فازورّ برأسه غاضباً ليبيِّن أنه ليس من شأني أن أحوم حول المكان وأتفرج. لم يتحدث

إليّ، تمشياً مع قاعدة غير مكتوبة تقضي بألا يتحدث خدم المستشفى أثناء دفعهم لعربات المرضى في الدهاليز، غير أن عينيه تحدثتا بما يملأ مجلدات. رددتُ إليه نظرته بكل ما في وسعي من وقاحة. ثم أنزلت عينيّ على وجه الشخص الراقد على العربة وكان يمر هذه اللحظة أمامي. وكان الرجل المحمول على العربة هو «هوجو».

كان وجهه أبيض كالأموات، وعيناه مغمضتين، وقد أحاطت برأسه ضمادة ملطخة داكنة اللون، وقفت هناك متصلباً. وعندئذ مضى التروللي في سبيله. تراجعت داخل الجحر الصغير، وأغلقت الباب واستندت إليه. أُفعمتْ نفسي بصراع من الانفعالان وكان شعوري المباشر هو الإحساس بالذنب، وكأنني «هاملت» حين واجه شبح أبيه. استولى عليّ إحساس عجيب بأن «هوجو» قد أصيب بسبب إهمال ارتكبتُه. وبمصاحبة هذا الشعور، راودني في الحال شعور آخر بالرضا حين خطر لي أنني عندما كففت عن البحث عن «هوجو»، ضُرِب على رأسه، وحُمِل إليّ. وكنت لا أزال متألماً طفيفاً من فتوره نحوي في الاستوديو. ولكن ما أن تشكلت هذه الفكرة حتى غمرني الندم، ولم أعد أحفل بشيء إلا بمسألة إصابة هوجو تلك الإصابة الخطيرة. وخرجت إلى الدهليز.

كانوا قد وضعوا «هوجو» في حجرة منفردة في أقصى الدهليز. وشاهدت «البيد» تخرج، وتعود على عقبيها. فتبعتها إلى حجرة الجراحة.

سألت: «ماذا أصاب الرجل الكبير؟ أهي إصابة سيئة؟» لم يكن في هذا السؤال شيء غير مألوف؛ وكنت أسأله عن كل مريض جديد يفد إلى العنبر.

قالت «البيد»: «قلت لك من قبل ألا تأتي إلى هذه الغرفة». ولم تكن تدعوني قط باسمي.

قلت: «آسف. سأذهب حالاً. ولكن هل الحالة سيئة؟».

قالت «البيد». «كان ينبغي أن تؤدي عملك. سأطلب من «ستيتش» أن ينظر في تكليفك بالمزيد من العمل». وشرعت في الانصراف. وعندما بلغت منتصف المسافة إلى الخروج أردفت قائلة: «قُذِف عليه قالب من الطوب الأحمر في ذلك الاجتماع. فأصيب بارتجاج في المخ. وسيمكث هنا حوالى خمسة أيام».

قلت: «أشكرك!» وتسللت خارجاً في نعومة السمكة. ها قد تم تنازل عظيم!

ذهبت إلى المطبخ وشرعت في مسح الأرضية. ودخل «ستيتش» وأدلى بعدد من الملاحظات لم أسمعها تقريباً. كنت أسائل نفسي ماذا أفعل؟ يجب أن أرى «هوجو». كانت حيلة عجيبة من حيل القدر أننا حين نجتمع معاً في مكان واحد يكون هذا الاجتماع في ظروف تجعل من الاتصال بيننا أمراً مستحيلاً. لقد وضعنا ها هنا في العلاقة الوحيدة التي تحول تماماً دون أي تبادل بيننا. استعرضت مئات الإمكانيات. وشاء سوء المصادفة أن يكون غد هو يوم إجازتي؛ وعلى هذا إن كنت أريد أن أرى «هوجو» في أثناء تأدية واجباتي المعتادة، فلا مناص من الانتظار حتى يحين وقت تنظيفي لحجرته في اليوم التالي بعد غد. وحتى في هذا الوقت لن أتمكن من البقاء معه ـ على أكثر تقدير ـ سوى خمس عشرة دقيقة؛ وعلى أي حال، كان الانتظار حتى يحين ذلك الوقت طويلاً جداً. ومن الممكن إذا تبين أن إصابات «هوجو» طفيفة، أن يكون قد غادر المستشفى؛ وبغض النظر عن هذا، لم أكن أحتمل فكرة ذلك الانتظار الطويل. لقد أُحضر «هوجو» إليّ، ولا بد أن أراه في الحال: ولكن كيف؟ وهنا طرأت على بالي صعوبة أخرى وهي أن «هوجو» في غيبوبة.

كنت أسب وألعن لنفسي وأنا أدس الممسحة بوحشية تحت الدواليب.

كان «ستيتش» قد انصرف. وتساءلت أمن الممكن أن أبدِّل يوم أجازتي، أو أن أتقدم للعمل غداً على أي الأحوال؛ ثم أتسلل إلى حجرة «هوجو» أثناء الصباح. سيكون هذا أمراً عسيراً كل العسر، مع وجود الممرضات والأطباء باستمرار في نوباتهم. وهل يُسْمح لي بالعمل غداً، حتى لو تطوعت لذلك؟ ستحال المسألة إلى «ستيتش» الذي سيخمِّن بالطبع أنني أريدها، ومن ثم سيعلن أن هذا محال. ولو أتيح لي مزيد ولو قليل جداً من الوقت، لدبرت طريقة تدفعه إلى فرض ذلك اليوم عليّ كعقوبة؛ غير أن الأوان لمثل هذا العمل قد فات الآن. وفيما كنت أناقش نفسي دخلت إحدى الممرضات. وكانت أكثر الممرضات اصطباغاً بالطابع الأيرلندي، وذات صوت يذكِّرني دائماً بفين.

سألت: «كيف حال الرجل الكبير؟».

فأجابت الممرضة: «إنه يصيح طالباً وجبة!».

عندما استمعت إلى هذا القول، استقر عزمي على ما ينبغي أن أفعله، ولم يكن هناك بالتأكيد سوى شيء واحد ممكن، ألا وهو أن أحضر إلى المستشفى في منتصف الليل. هذه الفكرة ملأتني بنوع من الفزع الديني، كما أنها أغرتني إغراءً شديداً في الوقت نفسه. لم أكن قد شاهدت المستشفى أثناء الليل قط، وإن كنت أتمثله لذهني في كثير من الأحيان. وإلى صنوف الرعب الناجمة عن صمتها المتخيَّل وعزلتها الموحشة أضيف الإحساس بأن حضوري هناك في مثل تلك الساعة سيكون ضرباً من التدنيس. ولو اكتشفوا أمري، فسأُرْدى قتيلاً حين رؤيتي، بكل تأكيد، لن تأخذهم بي رحمة. ومع ذلك، كان من الضروري أن أذهب. وكان وجود «هوجو» على مقربة مني قد أطلق في نفسي إعصاراً لن يهدأ إلا بحضوره. لا بد لي من أن أراه.

أزحت الممسحة جانباً، وخلعت معطفي الأبيض، وأنا أفكِّر بسرعة.

كانت الساعة الآن قد تجاوزت السادسة. وعليّ أن أضع تفاصيل خطتي في الحال، إذ لو كانت هناك خطوات تمهيدية ينبغي أن تتخذ، فلا مناص من اتخاذها الآن. كيف أحتال لدخول المستشفى؟ تصورت المكان، فبدا في مخيلتي قلعة حصينة لا سبيل إلى اقتحامها. وكان المدخل الرئيسي مفتوحاً طيلة الليل، ولكنه كان مُضاءً إضاءة باهرة، وهذا ما علمته أثناء مروري منه في كل الساعات حين ذهابي إلى شقة «ديف». ومن المؤكد وجود بواب ليلي قائم بالعمل، وسيوقفني ويسألني عما أريد. اخترعت عدة أكاذيب يمكن أن أسوقها إليه، غير أن ما من أكذوبة فيها كانت تبدو معقولة بما فيه الكفاية بحيث تضمن السماح لي بالدخول دون أن يسير في أعقابي شخص آخر. ثم هناك أيضاً باب خلفي يفضي إلى خارج «كوريللي ١» إلى فناء يُحْفَظ فيه الفحم والدراجات. وهذا هو الباب الذي أستخدمه عادة. غير أنني كنت أعلم من شيء قاله «ستيش» أن هذا الباب يوصد في الساعة العاشرة، ولا ريب أن هذا ينطبق أيضاً على الأبواب الخلفية الأخرى التي يمكن أن تكون في ذلك المكان. وكان هناك دائماً بالطبع المدخل الخاص بعنابر استقبال الحوادث، الذي تدخل منه حالات الطوارىء. وهذا المدخل ستكون عليه حراسة أيضاً، ومن ثمّ ستكون هناك فرصة ضئيلة ثمينة للتسلل من خلاله دون أن يلحظ أحد، وخطأ واحد كفيل بأن يكون فيه هلاكي. والإمكانية الوحيدة هي الدخول من نافذة، فإن أقدمت على مثل هذا الفعل، فلا بد أن أقرر أي النوافذ أستعمل، وأن أذهب لفتحها في الحال.

ارتديت سترتي، وأخذت أسير متباطئاً، هابطاً على الدرجات الرئيسية. كان رأسي في دوامة، وكان جانب المبنى المواجه لفناء الدراجات قد سلِّطت عليه الأضواء التي تستمر طيلة الليل. وكل من يحاول الدخول من الفناء يمكن رؤيته بوضوح من الشارع. وكانت نهايات الملاحق تدخل في مجال مصابيح الشارع، كما كان للمبنى الرئيسي

صفُّه الخاصّ من أعمدة المصابيح التي تطوّق الفناء الرئيسي. لم تـبـقَ سوى حدائق الملاحق التي كانت عبارة عن جب من الظلمات. وكانت معظم النوافذ التي تطل على هذه الحدائق نوافذ لحجرات المرضى، ومن المستحيل التفكير في الدخول من إحداها، وحتى لو كنت أملك من الجرأة ما يسمح لي بالدخول الآن وإرضاء نفسي بأن إحدى هذه النوافذ كانت مفتوحة، فلن تكون لي ـ بكل تأكيد ـ شجاعة دخولها مرة أخرى في الساعة الثانية صباحاً والمخاطرة بأن تلاحقني صرخات نزيل عصبي. هناك إمكانيات أخرى مثل نافذة حجرة غسيل الأطباق في «كوريللي ١». غير أن هذه النافذة تقع تحت عين أخت النوبة الليلية في «كوريللي ١» التي تقع حجرتها إلى جوار حجرة الأطباق؛ وينطبق هذا الاعتراض نفسه على النوافذ الأخرى التي تؤدي من الحديقة إلى الغرف الإدارية الخاصة بالعنبر. وكان أملي الوحيد يتمثل في الأجزاء الأكثر عمومية والتي لا تحمل اسماً من الملحق، حول مطبخ الملحق. ومن الحق أن الاحتمال كبير في وجود شخص ما في المطبخ أو حوله طوال الليل، ولكن هناك عدد من حجرات إيداع المعاطف ومن المخازن التي يبدو المكان المحيط بها مهجوراً لا يغشاه إنسان حتى أثناء النهار، وتقع نوافذها عند الطرف الأقصى من الحديقة، حيث يكون الظلام حالكاً.

وعند وصولي إلى الدرجات السفلى، التفتّ متظاهراً بأنها التفاتة عارضة صوب مطبخ الملحق. وعندما أدبّر شيئاً أجد صعوبة شديدة في إدراك أنني أبدو غير مختلف عن الهيئة التي أبدو عليها في المناسبات الأخرى. كنت موقناً بأن التعبير المرتسم على وجهي يخونني، وكلما مررت بأحد في الدهليز أشحت بوجهي هذا الذي يفشي السر في اتجاه آخر. واجتزت في عزم باب المطبخ. كان النصف الأعلى من الباب مصنوعاً من الزجاج العادي، ومن طرف عيني، كنت ألمح الأشخاص وهم يتحركون في الداخل، اخترت الباب الثاني أو الثالث بعد ذلك،

وَدلفت داخلاً فيه بزاوية حادة. كان تذكري صائباً، إذ كانت حجرة مخزن، وعلى كل جدار استندت الأطر الحديدية لهياكل الأسِرَّة. أغلقت الباب خلفي بهدوء، ومشيت في الممشى الخالي حتى منتصف الحجرة. وفي مربَّع من الشمس والظل، تكشفت الحديقة وصفوف أشجار الكرز. وكان الظل من جناح كوريللي يسقط بحدة عبر المرجة، ويقطعها إلى مثلثين من الخضرة المتغايرة. وقفت لحظة مترقِّباً. ثم فتحت مزلاج النافذة.

كانت نافذة بابية بسيطة بمقبض واحد في منتصف الإطار، وبقضيب مثقوب في القاع يقوم بتنظيم الفتحة. نزعت النافذة وسحبت المِزلاج، لتنفتح النافذة بوصة أو بوصتين، بحيث يستقر المزلاج على الزجاج في الخارج، فلم أكن أريد أن تبدو النافذة كأنها فُتحت؛ كما أردت ـ من ناحية أخرى ـ أن أتمكن من سَحْبها لتنفتح من الخارج عندما يحين الوقت. واستغرق ذلك مني عدة دقائق لأطمئن نفسي بتحقيق هذين الشرطين. ثم حدَّدت موقع النافذة بعناية في علاقتها بصفوف الأشجار. وعندئذ رجعت على عقبيّ وأنصتّ عند الباب حتى تأكدت من أنه لا يوجد أحد في الدهليز، ثم خرجت، وأغلقت الباب، وعدت صوب كوريللي. لم يلمحني أحد. وفي اللحظة التالية كنت أغادر المبنى.

الفصل الثامن عشر

كان أول ما فعلته بعد ذلك هو أنني تناولت شراباً قوياً. كان قلبي يدق كجيش أثناء مسيرته. لن أشارك في مؤامرة قط. عدتُ بعد ذلك إلى الشقة. وبحثت عن «مارس»، ثم اصطحبته في حافلة إلى «بارنز» Barnes، واحتسيت شيئاً من الجعة، وتناولت بعض الشطائر في حانة «الأسد الأحمر» Red Lion. وتمشيت معه في «المتنزه العام» حتى مال الضوء إلى الخفوت، وحين رجعنا إلى «طريق جولدهوك» كان الظلام قد حلَّ تقريباً. تركت «مارس» في الشقة، ولم يكن ثمة أثر لديف. كان قد خرج لحضور اجتماع ما. أخذت أسير بعد ذلك عشوائياً في اتجاه «هامرسميث» Hammersmith. لم أكن أبتغي سوى أن تمر الساعات، وأن أسارع إلى تنفيذ ما أريد. كانت الحانات قد أغلقت أبوابها منذ لحظة، فتجرعت من الويسكي بقدر ما أستطيع في الدقائق العشر الأخيرة. مضيت في طريقي حتى بلغت النهر. ولم أكن أفكِّر في شيء بالذات خلال هذه الفترة، غير أن «هوجو» كان مسيطراً على ذهني.. وكأنه كان يقبض من سريره في المستشفى على نهاية حبل رُبطت بـه، ومن حين إلى آخر كنت أشعر به يحز في جسدي؛ أو كأنما كان «هوجو» يحوم فوق رأسي كطائر عملاق؛ ولم أجد أية متعة في احتمال لقائنا الوشيك، اللهم إلا نوعاً من الرضا الأعمى بوقوع المحتوم.

نظرت في ساعتي. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكنت واقفاً فوق «جسر هامرسميث»، غير بعيد عن المكان الذي أطلقنا فيه سراح «مارس» من قفصه. رفعت بصري عن النهر وحاولت أن أحدد مكان المسرح الإيمائي، وسط كتلة المباني الجاثمة على الضفة الشمالية. غير أن الظلام كان دامساً، فلم أستطع أن أرى شيئاً. واستبد بي الهلع خوفاً أن أصل إلى المستشفى متأخراً. هرولت مسرعاً وأوقفت سيارة أجرة عند «هامرسميث برودواي» حملتني مرة أخرى إلى «طريق جولدهوك». ولكن الآن، كان الوقت مازال مبكراً جداً. أخذت أذرع الشارع جيئة وذهاباً أمام المستشفى. لم تكن الساعة الواحدة بعد، وكنت قد قررت ألا أدخل قبل الثانية. واصلت السير بعيداً عن المستشفى، غير أن شيئاً كان يردني إليها باستمرار. كلفت نفسي بواجبات صغيرة: هذه المرة سوف أمشي حتى «النجوم السبعة» Seven Stars قبل أن أعود على آثاري؛ وتلك المرة سوف أقف تحت جسر السكك الحديدية حتى أنتهي من تدخين سيجارة. كنت في أشد حالات القلق.

وفي حوالي الساعة الواحدة والثلث، لم أكن أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. فعزمت على الدخول. غير أنني عندما اقتربت في هذه المرة، كان المشهد كله مكشوفاً تماماً. إذ كانت مصابيح الشارع ساطعة، وكان المبنى يبدو سابحاً في الأضواء. وما أن دنوت حتى شاهدت الناس واقفين في قاعة الدخول، وكانت هناك أنوار في نوافذ السلالم جميعاً، وفي بعض العنابر أيضاً. ولم أكن أتوقع هذه الدرجة من الإنارة الليلية. ومن الحق، أن حدائق الملحق كانت غارقة في الظلام؛ وإلى الحد الذي كنت أستطيع رؤيته، لم تكن ثمة أنوار في «كوريللي»، فيما عدا وميض واحد كان يأتي بلا شك من حجرة «أخت النوبة الليلية». وعلى أي حال، كان الوصول إلى حدائق الملحق معناه عبور الممشى العريض المفروش بالحصباء وكذلك المرجة المنبسطة بطول المستشفى كلها على جانبي

الفناء، وكانت هذه المنطقة كلها مضاءة بمصابيح الشارع التي لا تعرف الكلل. وهناك أعمدة منخفضة تربطها سلاسل تتأرجح بينها ـ تفصل الممشى المفروش بالحصى عن الشارع. فكانت الظلمة تبدو على مسافة بعيدة.

اخترت نقطة أبعد ما تكون عن المدخل الرئيسي، وفحصت بعناية كلتا الاتجاهين على طول الطريق. كان المشهد مهجوراً. عدوت بسرعة ثم قفزت فوق السلاسل، ومرقت مباشرة عبر الحصباء، واجتزت في خط عمودي المرجة الرئيسية. كنت أركض بخفة شديدة، لا تكاد أطراف أصابعي تلمس الأرض؛ وفي لحظة وصلت إلى الظلمة المحيطة بحديقة الملحق. وتوقفت عن الجري، ووقفت بلا حراك على الحشائش لألتقط أنفاسي. نظرت خلفي. لا أحد، ثمة صمت عميق يحيط بي. تطلعت إلى «كوريللي». لم يكن هناك سوى ذلك الضوء الواحد المتوهج في الطابق الأول. شرعت في المشي على الحشائش، وأنا ألمس أشجار الكرز واحدة فواحدة أثناء عبوري. والآن، وقد أصبحت بعيداً عن وهج مصابيح الشارع خطر لي أنها ليلة خفيفة. فمن الشارع كانت الحديقة تلوح سوداء قاتمة؛ ولكن في الحديقة نفسها لم تكن الظلمة كثيفة ولكنها منتشرة، وبينما كنت أسير بهدوء، أحسست بأنني لا بد أن أكون مرئياً بوضوح من النوافذ، وتوقعت في كل لحظة أن أسمع صوتاً يتحداني من علٍ. ولكن، ما من أحد تكلم.

أما من الخارج، فكان كل شيء يبدو مختلفاً أشد الاختلاف، واستغرقت بعض الوقت لتحديد نافذة حجرة المخزن. وعندما وجدتها، أدهشني أن اكتشف شدة ارتفاعها عن الأرض. جذبت النافذة برفق شديد، كاتماً أنفاسي. ومن حسن حظي أنها انفتحت دون مقاومة، وبلا أدنى صوت. تلفت حولي. كانت الحديقة خالية لا حركة فيها، وأشجار

الكرز تلتفت نحوي، كأنها راقصات في لوحة. وما برح الطريق خاليا تماماً. فتحت إطار النافذة على مصراعيه، ثم غرزت أصابعي بإحكام كالخطاف على الإطار الصلب عند الفتحة على كلا الجانبين. غير أن قدم النافذة كان من الارتفاع بحيث لا سبيل إلى الوصول إليه بركبتي. ولم تكن للنافذة عتبة في الخارج. ثم ظننت أنني أسمع وقع أقدام تقترب على الطريق. وبسرعة الومضة، وضعت يداً في الفتحة، وقفزت. فأمسكت بي حافة الإطار الصلبة من فخذي، وفي اللحظة التالية، كنت أنحني برفق فوق العتبة من الداخل، ساحباً رجليّ من بعدي. ووقفت ساكناً تماماً فوق أرضيه حجرة المخزن. وكان الصمت من العمق بحيث خيِّل إلي أنني أطلقت كمية هائلة من الصوت. غير أن الصمت استمر في صمته.

سحبت النافذة أيضاً، وتركتها كما كانت من قبل دون أن أغلق المزلاج، ثم مشيت إلى منتصف الحجرة، وأنا أحس أكثر مما أرى في الظلمة أجسام هياكل الأسرَّة الحديدية على كلا الجانبين. كان السواد هنا قاتماً حقاً، صادراً عن ظلمة كثيفة تكاد تلتف حول مقلة العين. تحسست بيدي باحثاً عن مقبض الباب، وأرهفت سمعي لحظة، ثم خطوت إلى الدهليز. نفذت الأضواء الباهرة، والجدران البيض خلال الباب، فأعشت عينيّ. وعيناي اللتان كانتا مفتوحتين في الظلام، أجفلتا من هذه الدفقة العنيفة للنور، فغطيتهما. ثم استدرت في اتجاه «كوريللي»، وقدماي تسيران بخطى مكتومة على الأرضية المغطاة بالمطاط. وهنا كانت محاولة التخفّي مستحيلة. ولم يكن في وسعي إلا أن آمل في رب رحيم يشفق عليّ فلا ألتقي بأحد.

كان المستشفى مهجوراً، ومع ذلك كان يموج بالحياة على نحو غريب. كنت أسمع شخيره وخريره كأنه حيوان نائم، وحتى حين تسود

أحياناً موجة من الصمت، لم يكن يفارقني الإحساس بأن في جوفه قلباً لا يكف عن الخفقان. وعندما مررت بمطبخ الملحق، أشحت برأسي؛ إذ كنت أخشى أنني لو التقيت بأي عين إنسانية، فإن ذنبي سوف يكتب بوضوح على وجهي وكأنه يصيح: «يا للعار!» عليه من تلقاء نفسه. بلغت الدرجات الرئيسية؛ كانت لامعة، مهجورة، عريضة. وكان الصوت الخافت المنبعث من وطء أقدامي يتردد صداه بعيداً فوق رأسي في الجُب الهائل للسلَّم، وحين صعّدت بصري شاهدت مستطيلات الدرابزين المركّبة تتضاءل حتى تتحول إلى نقطة بعد كثير من الطوابق العليا. ولم يكن في رأسي حتى الآن أية فكرة عن «هوجو» على الإطلاق، حتى ولو كانت عامة جداً، ولو أوقفني أحد لتهتهت كالأبله. ووصلت إلى باب «كوريللي ٣».

وهنا توقفت. لم يكن لدي تصور واضح تمام الوضوح عن شكل العنبر أثناء الليل. فلو كانت هناك ممرضات ينمن في العنبر، فلا بد أن يكون ذلك في الطابق الأرضي. ففي «كوريللي ٣» ينبغي ألا يكون أحد فوق أو أعلى من المرضى، فيما عدا «أخت النوبة الليلية». وعن هذه الأخت لم أكن أعرف شيئاً إلا بالسماع، وقد تمثلتها في ذهني، حتى قبل أن أخطط لهذه المغامرة ـ نوعاً من الإلاهة الليلية، «بيدينجهام» العالم السفلي. وفيما أنا أفكّر فيها الآن، ويدي على الباب، استولت عليّ نوبة من الارتعاد، مثل رهينة تقترب من كهف العرّافة. فتحت الباب في هدوء، وخطوت داخل دهليز العنبر المألوف.

كان في الدهليز مصباح أو مصباحان يتوهجان، بينما كانت حجرات المرضى جميعاً في الظلام. وكان المطبخ وحجرات الإدارة مظلمة أيضاً، فيما عدا حجرة «الأخت»، ومن هذه الحجرة كان النور يتدفق من خلال الباب، الذي كان نصفهُ الأعلى من الزجاج الخشن. ومن خلال هذا

الوسط شبه الشفاف، كنت أخشى أن تراني «الأخت الليلية» أثناء عبوري، وهي التي خلعتُ عليها فعلاً قوى خارقة للطبيعة؛ ومن ثمّ اجتزت الشطر الأول من الدهليز زاحفاً على يديّ وركبتي. وما أن اجتزت بابها تماماً حتى نهضت وانسللت ماضياً في طريقي دون أن أسمع لنفسي صوتاً. كان نوع من السكون الغريب يتشربني. كنت الآن عند باب حجرة «هوجو». أمسكت بالمقبض الذي يتألف من قضيب مائل من الصلب لا بدّ من الضغط عليه لكي يُفْتح الباب. لففت عليه يدي بإحكام حتى أغمره في السكون، وضغطت عليه بحركة قوية رفيقة. احتفظت به في هذا الوضع المنخفض، ودفعت الباب، فانفتح في هدوء كأنه باب الأحلام يستسلم لفكري. وظللت ممسكاً بالمقبض حتى دخلت إلى الحجرة فأمسكت بالمقبض الداخلي بيدي الأخرى. ثم أغلقت الباب بإحكام خلفي، وتخليت عن المقبض، دون أن تحدث أية ضجة.

كنت في العتمة - وفي الباب الذي يرتفع إلى مستوى الرأس الإنساني، كانت هناك نافذة صغيرة مستطيلة مساحتها حوالى ثماني عشرة بوصة ينفذ من خلالها شيء من النور صادراً عن الدهليز. وكنت أستطيع أن أرى حمرة البطاطين، وشكلاً محدَّباً فوق السرير المرتفع. وجعلتني غريزة الحذر أركع على ركبة واحدة. وحينئذ تحرك الشكل، وقال صوت «هوجو» بحدة: «من هناك؟».

قلت: «هس» وأردفت: «إنه جيك دوناجيو».

سادت لحظة من الصمت، قال بعدها هوجو! «يا إلَهي!».

وأردت الخروج من دائرة الضوء. فدرت على نفسي متخذاً وضع الجلوس، ودفعت نفسي فوق ردفي إلى ما تحت سرير «هوجو». وكنت قد قمت بتنظيف أرضية هذه الحجرة تنظيفاً تاماً عصر اليوم السابق قبل وصول «هوجو». وانزلقت الآن فوقها كما ينزلق صبي فوق الجليد. ثم

استرحت على الجانب الآخر من السرير حيث جلست مستنداً على الحائط محتضناً ركبتيّ وكنت أشعر بهدوء تام.

بحثت عينا «هوجو» عني في العتمة ووجدتني. ابتسمت، مُحنياً رأسي.

قال هوجو: «هذا كثير! كنت نائماً».

قلت له: «لا تتحدث بهذا الصوت المرتفع، وإلا سمعتنا الأخت الليلية».

خفض من صوته حتى تحول إلى همسة: «كنت أود لو لم تتعقبني على هذا النحو!».

ضايقني هذا منه، فهمست رداً عليه: «أنا لا أتعقبك! إنني أعمل هنا. وكان آخر شيء أتوقعه أن يحضروك إلى هذا المكان».

قال هوجو: «تعمل هنا؟ ماذا تعمل؟».

- «أنا ممرض».

قال هوجو: «يا للسموات! ومع ذلك، كنت تستطيع أن تنتظر حتى غد».

قلت: «سيكون من الصعب جداً أن أراك أثناء النهار حين أكون قائماً بالعمل».

قال هوجو: «إذن، فأنت لا تؤدي عملك الآن؟»..

- «بلى».

- «إذن، فأنت تتعقبني».

قلت له: «اذهب إلى الجحيم! انظر يا هوجو، إنني أريد أن أتحدث إليك عن عدد من الأشياء».

قال: «حسن، لا أستطيع أن أفلت منك الآن، أليس كذلك؟»

أراح ظهره على مسند السرير، وأخذنا نتبادل النظرات لحظات قلائل على النحو الذي يتبادل به الناس النظرات حين لا يستطيعون النظر في عيون بعضهم بعضاً.

سأل هوجو: «ما هذا الذي يزعجك، يا جيك؟ أحسست بذلك في الاستوديو. لم تبذل أية محاولة لرؤيتي منذ سنين، وفجأة تبدأ في مطاردتي كشخص مخبول».

أحسست بأنه لا مناص من أن أكون صادقاً، قلت: «لقد التقيت بسادي «وآنا»، فذكّرني هذا بك».

وكنت أستطيع أن أرى أنه يغلق على نفسه كشقائق البحر، فسألني بصوت يشيع فيه الحذر: «وكيف التقيت بهاتين الاثنتين مرة أخرى؟».

أحسست بأنه لا مندوحة لي عن أن أكون صادقاً إلى درجة اليأس: «الفتاة التي كنت أقيم معها طردتني، ومن ثم بحثت عن «آنا» التي أحالتني إلى سادي».

رأيت أن «هوجو» يرتجف، وسأل: «هل قالت سادي أي شيء عني؟»

قلـت، وأنا أنطق بالكذبة الأولى: «لا شيء بالذات. ولكني تلقيت بعض الأخبار عنك من آنا». كنت أريد العودة إلى موضوع «آنا».

قال هوجو: «أجل. أخبرتني آنا أنها قد رأتك. فقد جئتَ إلى المسرح ذات ليلة، ألم تفعل ذلك؟ وأردت أن أراك بعد ذلك. وأسفت لأن آنا قالت لي إنك رحلت. لم تكن متلهفاً على رؤيتي حينذاك».

لم أكن قادراً على التعليق على هذا التفصيل فقلت: «كنت أخشى أن أراك يا هوجو».

قال هوجو: «لا أستطيع أن أفهمك يا جيك. ولا أدري كيف يمكن لأي شخص أن يخاف مني. ولم استطع أن أفهم أبداً لماذا اختفيت على هذا النحو من قبل. كنت أريد أن أتحدث إليك كثيراً وقتذاك. ولم يكن هنـاك شخص أستطيع أن أتناقش معه مثلك. وربما ناقشنا موضوعك».

سألت: «أي موضوع؟».

قال هوجو: «كتابك ذاك، لقد نسيت متى ظهر، ولكن لا بد أن ذلك كان بعد أن اختفيت من «باترسي» Battersea بفترة، وإلا كنا تحدثنا عنه، فأنا لا أتذكر أنني تحدثت عنه معك».

أرجعت رأسي إلى الوراء، وضغطت عليها بشدة على الجدار، مثلما يفعل شخص للتخفيف من أزمة إفراط في الشراب.

سألت: «أتعني «المسكت»؟».

قال هوجو: «نعم، ذلك الشيء. بالطبع وجدته عسيراً بفظاعة في بعض الأجزاء. من أين أتيت بكل هذه الأفكار؟».

قلت في شيء من الوهن: «منك، يا هوجو».

قال هوجو: «حسن، أستطيع أن أرى بالطبع أنه يدور عن بعض الأشياء التي تحدثنا عنها.. ولكنها كانت تبدو مختلفة أشد الاختلاف».

قلت: «أعرف ذلك!».

قال هوجو: «أعني، أفضل كثيراً. والواقع أنني نسيت ما كنا نتحدث عنه حينذاك، ولكنه كان مشوَّشاً بفظاعة، ألم يكن كذلك؟ أما ما كتبته، فقد كان واضحاً كل الوضوح. وقد تعلمت الكثير جداً منه».

حملقت في وجه «هوجو». كان رأسه الملفوف في الضمادات كالظل لا تتضح معالمه في الضوء المنبعث من النافذة الصغيرة؛ فلم استطع أن

أتبين تعبير وجهه. قلت: «كنت خجلان من ذلك الشيء يا هوجو».

قال هوجو: «أعتقد أن المرء يكون كذلك دائماً، عما يكتبه. ولم تكن لدي الشجاعة مطلقاً لأكتب أي شيء. وأرجو أن تكون قد كسبت منه شيئاً من المال، على كل حال. أيبيع جيداً؟».

قلت: «ليس كثيراً». وتساءلت لحظة، أتراه يسخر مني؛ غير أن ذلك كان مستحيلاً، إذ كان «هوجو» عاجزاً عن السخرية.

قال هوجو: «أظن أنه مكتوب لأصحاب الجباه العالية جداً. والناس لا يعجبون مطلقاً بالمادة الأصيلة حين يرونها لأول وهلة. أرجو ألا تكون قد شعرت بالإحباط. هل تكتب الآن حواراً آخر؟».

قلت: «كلا!» وأردفت، حتى أحتفظ بمواصلة الحديث إلى حين استجماع أفكاري، «فكرت في مراجعة مادة الكتاب مؤخراً وتطوير فكرة أو فكرتين، ولكني لم أتمكن من الحصول على نسخة».

قال هوجو: «واأسفاه! كنت تستطيع استعارة نسختي. فأنا احتفظ بواحدة في درج مكتبي، ألقي نظرة عليها من حين إلى آخر. فهي تذكرني قليلاً بأحاديثنا. وقد كنت استمتع بها كل الاستمتاع. وقد توقف عقلي عن الازدهار منذ ذلك الحين».

قلت: «ذهبت إلى شقتك ذات ليلة في الأسبوع الماضي، وكنت قد تركتَ ورقة تقول فيها: «ذهب إلى الحانة»، وطفت بالحانات بحثاً عنك».

قال هوجو: «لا بد أنك لم تذهب بعيداً. كنت في «الملك لود»، King Lud».

قلت: «ذهبت شرقاً، والتقيت «بلفتي تود» تلك الليلة».

قال هوجو: «بالطبع، أنت تعرف لفتي، أليس كذلك؟ رأيته اليوم في الاجتماع، قبل أن يرميني شخص ما بذلك القالب من الطوب».

سألت: «كيف حال رأسك، بهذه المناسبة؟».

قال هوجو: «أوه، على ما يرام. كل ما في الأمر أنني أحسست بصداع شنيع، وكنت ـ لولاك ـ مهتاجاً في نومي أشد الاهتياج. ولكنك لم تخبرني يا جيك، لماذا اختفيت، هل ارتكبت شيئاً أساء إليك؟».

قلت في شيء من الصبر: «كلا.. أنا الذي أتيتُ شيئاً يسيء إليك. ولكني أرى الآن أنه كان سوء تفاهم. فلنصرف النظر عنه».

كان «هوجو» ينظر إليّ ملياً. وكانت الضمادة الضخمة تمنحه رأساً هائلاً. قال هوجو: «آفتك يا جيك أنك تتأثر إلى أبعد حد بالناس. ولقد تأثرت بي تأثراً عميقاً».

أصابتني الدهشة فقلت: «كنت متأثراً، ولكنني لم أكن أعرف أنك تعرف».

قال هوجو: «لا بد لكل إنسان من أن يسلك طريقه. والأشياء ليست بهذه الأهمية التي تظنها».

شعرت بالحنق على هوجو فقلت: «لست أدري ما تعنيه. كنت تعتقد أن شيئاً ما، يهم بما يكفي لتتحمل متاعب كثيرة بسبب ذلك المسرح في هامرسميث». كنت أبغي جرّه إلى موضوع «آنا».

قال هوجو: «أوه، ذلك...» والتزم الصمت برهة. «فعلت ذلك لأسُرّ «آنا»، ولكنه كان شيئاً أحمق».

كتمت أنفاسي. كان لا بد أن أخطو الآن بحذر إذا أردت أن أنتزع منه

الاعتراف الكامل الذي كنت متعطشاً إليه؛ وإنما استعدت أنفاسي ببطء، كنت أستطيع أن أشم أفكار «هوجو».

سألته ملاطفاً: «تعني، أنه لم يسرها حقاً».

قال هوجو: «حسن، لقد سرَّها، بالطبع - أجل. ولكن ما جدوى ذلك؟ الأكاذيب لا تصل إلى شيء. ليس لأن ذلك كان كذبة بالضبط. وعلى كل حال، كنا نحن الاثنين نفهم الموقف. ومع ذلك كان ضرباً من الأكذوبة».

أحسست أنني خرجت هنا قليلاً من أعماقي فسألته: «تعني أنها لم تكن مهتمة به حق الاهتمام، وأنها كانت سجينة فيه على نحو ما؟».

قال هوجو: «كلا، كانت مهتمة به كما ينبغي، ولكن أنا الذي لم أكن مهتماً به حقاً. ثم إنها أدخلت فيه كل تلك المباذل الشرقية، ويعلم الله من أين حصلت عليها!».

قلت بأقصى ما أستطيع من الحسم الذي يمكنني أن أضعه في همسة: «حصلت عليها منك!».

قال «هوجو»: «هذا هراء! ربما التقطت بعض الأفكار المبهمة مني، ولكنها لم تكن تصل إلى ما وصلت إليه».

سألت: «لماذا قمت إذن بالتمثيل الإيمائي إذا كنت تعتقد أن المسألة كلها كانت سيئة؟».

قال هوجو: «أنت على حق؛ كان ينبغي ألا أفعل.. ولكني فعلت ذلك لأسُرها. وعلى كل حال، كان يبدو أنها تصنع شيئاً هناك».

قلت: «نعم، إنها تستطيع أن تبدع أشياء».

قال «هوجو»: «كلاكما يستطيع أن يبدع أشياء. أعني أنت وأنا».

سألت: «لماذا تقولها على هذا النحو؟».

قال «هوجو»: «لقد طرأت على بالي هكذا» ثم أضاف: «أنا لم أصنع شيئاً في حياتي على الاطلاق».

سألت: «لماذا حطمت المسرح؟».

فقال هوجو: «أنا لم أحطمه.. آنّا هي التي فعلت ذلك، إذ بدأت تشعر فجأة أنه كان عبثاً كله، وانصرفت عنه».

قلت: «يا لهوجو المسكين! وهكذا أعطيته «لنيسب» لحزب الاشتراكيين المستقلين الجدد NISP.

قال هوجو: «أجل. كان الحزب يريد مكاناً بصورة عاجلة، فاعتقدت أنهم يستطيعون أن يأخذوه».

أحسست بالأسف من أجل «هوجو». وتصورته واقفاً بمفرده في المسرح بعد أن رحلت الإنسانة التي كانت حياته. قلت: «لم أكن أعرف أن لك أية آراء سياسية. لا بد أنك نمّيتها منذ أن رأيتك آخر مرة».

قال «هوجو»: «ليست لدي بالضبط أية آراء سياسية، ولكني أعتقد أن أفكار لفتي محترمة». كانت هذه أسمى عبارة إطراء في مفردات «هوجو».
سألت: «هل تعمل معه؟».

قال هوجو: «يا للسماء، كلا! لن أعرف كيف يكون ذلك. كل ما في الأمر أنني أعطيه نقوداً. هذا كل ما أستطيع أن أفعله».

قلت: «أظن أن الصواريخ مازالت في رواج. فقد لاحظت أن بلدية باريس من زبائنك».

قال هوجو: «أوه، الصواريخ، لقد بعت المصنع، كما تعلم».

قلت: «لم أكن أعلم. لماذا؟».

قال هوجو: «لأنني لا أؤمن حقاً بالقطاع الخاص. أو على الأقل أرى أنني لا أؤمن. ولا أصلح لفهم هذه الأمور. وإذا ساور المرء شك في أمر ما فعليه أن ينصرف عنه، ألا تعتقد ذلك؟ على أي حال، عندما كنت أملك المصنع، لم يكن يسعني إلا أن أكسب مالاً، وهذا ما لم أكن أريده. كنت أبغي السفر خفيفاً. وإلا لما استطاع المرء أن يفهم شيئاً على الاطلاق».

قلت: «أما أنا فقد سافرت خفيفاً دائماً، ولا أرى أن ذلك قد ساعدني على فهم أي شيء. ولكن ماذا عن الأفلام، أم تراها مختلفة؟».

قال هوجو: «إنني أنسحب من هذه أيضاً. هناك استعراض إنجليزي - فرنسي جديد سيستولى على باونتي بلفاوندر، وأتمنى لهم حظاً سعيداً».

قلت: «فهمت. ولكنك ستظل رجلاً ثرياً، يا هوجو».

قال «هوجو»: «أظن ذلك. وإني لأحجم عن التفكير في هذا. وأتوقع أن أتخلص من أموالي بطريقة أو بأخرى. سأمنح لفتي مقداراً كبيراً منها. وتستطيع أن تنال منها شيئاً أنت أيضاً، إذا أحببت».

قلت: «أنت رجل غريب الأطوار، يا هوجو. لماذا تشعر بهذا الدافع المفاجىء لتجريد نفسك؟».

قال هوجو: «إنه ليس مفاجئاً، والمسألة هي أنني كنت جباناً مشوش الفكر. ولا أظن أنني كنت أستطيع أن أستقر على رأي بأن أفعل شيئاً، حتى في هذه اللحظة، إن لم تكن حياتي قد ارتبكت ذلك الارتباك الشنيع بحيث لم يعد في استطاعتي حتى أن أقوم باستعراضها».

تذكرت آنا: «كنتَ شقياً إلى أقصى حد؟».

قال هوجو: «هذا، طبعاً. أوشكت على الجنون تقريباً. غير أن هذا لم يكن عذراً للتصرف على ذلك النحو السيّىء. وبهذه المناسبة، يؤسفني

أنني قطعت عليك المكالمة ذلك اليوم حين اتصلت هاتفياً «بشارع ولبك» Welbeck Street. أجفلت حين سمعت صوتك، وجعلني أشعر بالخزي من نفسي لأنني قمت بذلك الاتصال».

لم أستطع أن أفهم هذا، فسألت: «ما هذا الذي كنت تشعر بالخزي منه؟».

قال هوجو: «أوه، من الأشياء التي كنت أفعلها، ومن أشياء كنت أنوي أن أفعلها. أنت تحسن الظن بي كثيراً، يا جيك. أنت رجل عاطفي، رقيق العاطفة».

قلت له محتداً: «هس!» وأخلدنا معاً إلى الصمت.

كان هناك وقع أقدام في الدهليز. أدركت إدراكاً مصحوباً بصدمة أين كنت. واقترب الصوت الناعم لوقع الأقدام. ربما سُمِعت أصواتُنا، حين ازدادت ارتفاعاً مع انفعالنا بالمناقشة. تحركت بهدوء في الجهة المقابلة لحافة السرير، لكي أتأكد أنني لست مرئياً لمن يقف عند الباب. لعلها كانت «الأخت الليلية» تقوم بجولاتها، ولم يسمعنا أحد على كل حال. توقفت الخطوات خارج باب «هوجو»، وأظلمت الفتحة المربّعة. ضغطت وجهي في البطانية الحمراء، وكتمت أنفاسي. وساءلت نفسي فجأة: ترى أَيَشِي بي «هوجو» للأخت الليلية؟ وشعرت لحظة أنه خليق بأن يفعل ذلك. غير أن «هوجو» رقد متصلباً، وكنت أسمعه يتنفس بعمق. وبعد لحظة انسحب الوجه، ومضت الخطوات متباطئة إلى الحجرة التالية. استرخيت، وظللت مستنداً إلى السرير، شاخصاً إلى «هوجو»، بينما كنت أستجمع أفكاري.

كنت أحس بأنني مُقْبل على صيد وفير، إذ كان «هوجو» متواصلاً. والآن، لم يبق إلا أن أقول الأشياء السديدة، فيخبرني «هوجو» بكل شيء.

قطعت الصمت بهمسة خافتة: «انقطعت «آنا» عن الغناء».

ظل «هوجو» صامتاً برهة، ثم قال في اقتضاب: «آنا بخير».

أحسست بأن حركتي كانت طائشة، فحاولت شيئاً أكثر مباشرة، قلت: «هوجو، ما هو ذلك الشيء الذي شعرت بالخزي منه حين اتصلت بالهاتف هناك، فأجبت أنا عليه؟».

تردد «هوجو». وكنت أراه متأففاً من ضمادته، متحاشياً النظر في عيني. قال: «لقد تصرفت تصرفاً سيئاً نحوها».

ـ «كيف؟» تنفست السؤال خارج فمي، محاولاً إلغاء حضوري على قدر المستطاع. إذ كنت أريد أن يناجي «هوجو» نفسه. وتمثلت أمام ذهني «آنّا» في هروبها.

قال هوجو: «أوه، لقد اضطهدتها اضطهاداً بشعاً».

غمغمت قائلاً: «أكانت تحبك؟» وكان الهواء الذي يحيط بي قد اعترته رعشة.

قال هوجو: «أوه، كلا. لم يكن ثمة أمل، أتعرف، كنت أعتقد أحياناً أنها مهتمة بك».

استرخت عضلاتي واحدة فواحدة في جسدي كله كأنها حيوانات صغيرة تخلد إلى النوم، ومددت ساقيّ. شعرت بالأسف من أجل «هوجو» حين أمعنت النظر لحظة أو لحظتين في الصورة التي أستحضرها. أما الآن، فلم يعد ثمة وقت للتأمل. لا بد من الحصول على الوقائع: وعلى النظريات أن تأتي فيما بعد. كان مزاجي في هذه اللحظة يكاد يكون علمياً. سألت: «ماذا جعلك تفكر على هذا النحو؟ أعني أنها كانت مهتمة بي».

قال هوجو: «تحدثْت عنك كثيراً، ووجهت إليّ أسئلة عنك».

قلت وأنا أبتسم لنفسي: «كم كان ذلك مضجراً لك». إذ لا شيء أدعى إلى الجنون من أن تسألك من كانت موضوع اهتمامك عن الشخص الذي هو موضوع اهتمامها، إذا لم تكن أنت ذلك الشخص.

قال «هوجو» بلهجة متواضعة تثير الاشمئزاز: «كنت سعيداً بإسداء هذه الخدمة لها».

أكان «هوجو» صريحاً معي؟ ساءلت نفسي فجأة، ثم سألته: «متى ستراها مرة أخرى؟ أهي حقاً راحلة؟».

قال هوجو: «لا أدري. . لا أدري حقاً ماذا تنوي أن تفعله. إنها أشبه بالطقس. فالمرء لا يستطيع أبداً أن يعرف ما تخفيه سادي».

قلت: «تقصد آنا، أجل».

قال هوجو: «أقصد سادي!».

كان لاسميْ المرأتين رنين أشبه بصوت نفير يتردد صداه بين جنبات غابة. وفجأة تناثر نموذج في ذهني وتطايرت شظاياه حولي كأنها طيور.

نهضت على ركبة واحدة، وكان وجهي قريباً من وجه «هوجو». سألته: «عمن كنا نتحدث منذ لحظة؟».

قال هوجو: «عن سادي بالطبع، من سواها تتخيل؟».

شددت قبضتي على البطانية، إذ أخذ فكري الذي ارتد على أعقابه فعلاً في الاتجاه المضاد ـ يعرض عليّ مشهداً مختلفاً تمام الاختلاف. قلت: «هوجو، أمن الممكن أن نوضح هذا توضيحاً تاماً؟».

قال هوجو: «اهدأ! فأنت تتحدث بصوت مرتفع».

قلت: «من هي المرأة التي تحبها؟ أيّهما؟».

قال هوجو: «سادي».

سألت: «أأنت متأكد؟».

قال: «يا للجحيم اللعين! ينبغي أن أعرف! تعذبت أكثر من سنة من التعاسة بسبب هذه المرأة! ولكني ظننت أنك تعرف كل هذا؟».

قلت: «لقد أنبأتني. . لقد أنبأتني! ولكني لم أصدقها بالطبع». وعدت للجلوس على الأرض، واضعاً رأسي بين يديّ.

قال هوجو: «ولماذا «بالطبع»؟ فهي على كل حال قد لجأت إليك لتدافع عنها ضدي، ألم تفعل ذلك؟ كل ما في الأمر أنك خرجت من المعمعة!» وكان يتحدث بمرارة.

قلت: «لقد أغلقت عليّ الأبواب، فلم استطع احتمال ذلك».

قال هوجو: «يا إلّهي! يا ليتها غلّقت عليّ الأبواب!».

قلت: «لم أستطع تصديقها، لم أستطع!».

قال هوجو: «هل أخبرتك بأنني كنت فظاً معها؟».

ـ «قالت شيئاً غامضاً عن احتمال اقتحامك ـ ثائراً ـ لشقّتها».

قال هوجو: «إنها امرأة كريمة، إن كانت لم تخبرك بأكثر من هذا. تصرفت كالمجنون. اقتحمت شقتها ذات مرة أثناء الليل، وفي مرة أخرى حضرت أثناء النهار بينما كانت في الاستوديو، وبحثت عن رسائل، وأخذت بعض حاجياتها. . كنت متيماً تماماً بها. وأقول لك ـ يا جيك ـ إن حياتي كانت فوضى تامة طيلة عام تقريباً. وهذا هو ما يدعوني إلى انتزاع نفسي منها تماماً، والبدء من جديد».

قلت: «ولكن، يا هوجو، ليس هذا ممكَناً! إنك لا تستطيع أن تحب سادي!».

قال هوجو غاضباً: «ولِمَ لا؟».

لم أعد قادراً على التفكير المتسق. فاستحالة أن يحب «هوجو» «سادي» كانت تحوم فوق رأسي دون معنى، وكلما أمعنت النظر في واقعة حب «هوجو» لسادي، لم أكن أستطيع إلا أن أتمتم بكلام غير مفهوم. وكانت عبارة: «إنها غير جديرة بحبك» على طرف لساني، ولكني لم أنطقها. ولم يكن هذا هو السبب على كل حال. قلت: «ولكنك عرفت آنا. كيف يمكن لأي مخلوق يعرف «آنا» أن يفضّل سادي؟».

قال هوجو: «سأخبرك بسبب واحد»، وامتلأ صوته إلى حافته بالغضب. «لأن سادي أكثر ذكاءً!».

انتابني إحساس مبهم بأن ثمة شيئاً رهيباً يرتفع الآن حائلاً بيننا. ورآه «هوجو» أيضاً، فاردف من فوره: «جيك، أنت أحمق. فأنت تعرف أن أي إنسان يمكن أن يحب أي إنسان، أو أن يفضّل أي إنسان على أي إنسان».

كنا صامتيْن، وما زلت متشبثاً بالبطانية، وهوجو نصف جالس في السرير. وكنت أشعر برجليه قريبتين من يدي، وكانتا متصلبتين.

وأخيراً قلت: «مازلت لا أفهم. ليس الأمر أنني اعتقدت في استحالة ذلك. وإنما كان كل شيء يشير إلى الطريق الآخر. لماذا تجشمت كل هذا العناء من أجل المسرح الإيمائي (الصامت)؟

قال هوجو: «أخبرتك بالسبب.. لكي أسر «آنا»».

تصارعت مع هذه الفكرة فقلت: «ولكن لماذا، لماذا؟».

قال هوجو نافد الصبر: «حسن، لا أدري. وكان من المحتمل ألا أفعل ذلك. لا شيء يمكن أن يأتي من هذه التنازلات.. والمرء لا يكف عن قول الأكاذيب».

نفذت كلماته إلى عقلي في بلادة بلا معنى. ثم أدركت الحقيقة بغتة. فنهضت قائلاً: «آنا تحبك».

قال هوجو: «أجل، بالطبع. إنها مجنونة بي بقدر جنوني بسادي. ولكني أعتقد أنك كنت مدركاً لهذا كله، يا جيك؟».

قلت: «كنت في وعي بهذا كله.. كنت أعرف كل شيء. ولكني كنت أدور في الطريق الخاطىء، هذا كل ما في الأمر!».

مشيت إلى الباب، وأطللت من خلال النافذة الصغيرة. فشاهدت صفاً من الأبواب البيضاء في مواجهتي، وأرضية حمراء. استدرت إلى «هوجو»، ورأيت وجهه واضحاً لأول مرة. كان لا يزال ممتقعاً، وعندما تطلع إليّ قلقاً من تحت الضمادة، بوجهه المتغضن العازم ـ كان يشبه رمبرانت(*) Rembrandt.

رجعت إلى الجانب الآخر من الحجرة.. كنت أريد أن تغشى الظلمة وجه «هوجو». فقلت: «لم أكن أدرك هذا كله.. وكان من الممكن أن اتصرف تصرفاً مختلفاً».

ولم أستطع في تلك اللحظة أن أفكر في الطريقة التي كنت سأتصرف بها تصرّفاً مختلفاً. كلّ ما أعرفه هو أن لديّ مفتاحاً يقوم بتحويل مواقع الماضي والحاضر والمستقبل. كان هو جو ينظر إليّ شزراً فمنحته وجهي دون أن أمنحه عينيّ. لو كان يستطيع أن يقرأ الحقيقة هناك، فهذا من حسن حظه. أما بالنسبة لنفسي، فكنت أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقت طويل لكي أصير واضحاً.

(*) رسام هولندي (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) يعد من أعظم الفنانين التشكيليين في تاريخ الفن بوجه عام. (المترجم).

قلت: «حدثني بالمزيد عن آنّا، يا جوهو، هلا فعلت؟ قل أي شيء يتبادر إلى ذهنك. أي شيء يمكن أن يمنحني فهماً أفضل».

قال هوجو: «حسن، لا أدري ما يمكن أن أقول. أنا آسف أسفاً شديداً عن كل هذا، يا جيك، هذا أشبه بالحياة، أليس كذلك؟ أحببت «سادي»، التي تهتم بك، وأنت أحببت «آنا»، التي تهتم بي. شيء معكوس، أليس كذلك؟».

قلت: «هيا يا هوجو، قل شيئاً عن آنا. أخبرني متى بدأ هذا كله».

قال هوجو: «بدأ منذ زمن بعيد. التقيت بآنا عن طريق سادي، وألقتُ نظرة واحدة، أقصد، «آنّا».

قلت: «لا تهتم بالضمائر! لقد اتضح كل شيء، من الآن فصاعداً».

قال هوجو: «في البداية كانت هي التي تتعقبني. توقفتُ عن عمل أي شيء آخر، واقتصرت على مطاردتي فحسب. ولم تكن هناك جدوى من مغادرتي لندن والبقاء في فندق. إذ كانت تلحق بي بعد يوم أو يومين. كنت مهتاجاً».

قلت لهوجو: «يصعب عليّ تصديق هذا.. لا أعني أنك اخترعته. كل ما في الأمر أنني أجده صعب التصديق».

قال هوجو: «إذن، حاول».

كنت أناضل للتعرف في هذه المينادة(*) الهائجة على «آنا» التي عرفتها، «آنا» الرقيقة الهادئة التي كانت لا تكف عن الموازنة بين مطالب معجبيها بعضها والبعض الآخر بذلك الحياد اللطيف الذي تتسم به الأم.

(*) الميناد maenad امرأة تشارك في مهرجان باخوس (إله الخمر عند الإغريق) تتصف بالهياج الشديد واختلاط العقل (المترجم).

فكنت أتألم ألماً شديداً.

قلت: «قلت «في البداية»، فماذا حدث بعد ذلك؟».

قال هوجو: «لم يحدث شيء كثير على الإطلاق. كتبتْ إلي مئات من الرسائل.. رسائل جميلة، احتفظت ببعضها. ثم أصبحتْ أشد حساسية، ولم أعد أراها إلا قليلاً». أجفلتُ، فقال هوجو: «كنت أحب أن أراها، لأنني أستطيع التحدث إليها عن «سادي»».

قلت: «يا لآنّا المسكينة!».

قال هوجو: «أعرف أنني كنت فظاً مع كلٍّ منهما. والآن، هاأنذا أُخْلي الساحة». أردف قائلاً: «وأنصحك بأن تخليها أنت أيضاً».

قلت: «لا أدري ماذا تقصد، ولكني ملعون إن فعلت ذلك!».

قال هوجو: «لا سبيل إلى حل خيوط بعض المواقف، فلا مفر من إسقاطها والتخلي عنها. عيبك يا جيك، هو أنك تريد أن تفهم كل شيء على نحو متعاطف. وهذا ما لا يمكن فعله. وما على المرء إلا أن يخطىء. الحقيقة تكمن في ارتكاب الخطأ».

قلت له: «أوه، فلتذهب الحقيقة إلى الجحيم!» كنت أحس باضطراب شديد، وبأنني مريض جداً.

قلت: «هذا شيء غريب» كنت أحاول أن ألتقط شيئاً بين الأشياء التي تعلمتها. «كنت على يقين من أن المسرح كان كله من بنات أفكارك.. إذ كان يشبهك إلى حد كبير. الأفعال لا تكذب، إنما الكلمات هي التي تكذب دائماً. غير أنني أرى الآن أن هذا كله لم يكن سوى هذيان».

قال هوجو: «لست أدري ما تعنيه بقولك «إنه يشبهني». كان المسرح كله فكرة «آنا». لم أفعل أكثر من أنني انضممت إليه. كان لديها نوع من

النظرية عنه، ولكني لم أفهم مطلقاً فهماً صحيحاً ماذا كانت تلك النظرية».

قلت: «كانت هذه هي ما يخصك أنت. كنتُ أنت منعكساً في «آنّا»، مثلما كان ذلك الحوار هو أنت منعكساً فيّ».

قال هوجو: «أنا لا أتعرف على الانعكاسات. المسألة هي أن الناس ينبغي أن يفعلوا ما يقدرون عليه بالضبط، وأرجو لهم حظاً سعيداً».

سألته: «ماذا تستطيع أن تفعل؟».

التزم «هوجو» الصمت فترة طويلة ثم قال: «أستطيع أن أصنع أشياء دقيقة صغيرة بيديّ».

سألت: «أهذا كل شيء؟».
قال هوجو: «أجل»، وعدنا للصمت مرة أخرى.
قلت: «وماذا أنت صانع بذلك؟».
قال هوجو: «سأصبح صانعاً للساعات».
قلت: «ستصبح ماذا؟».

ـ «صانعاً للساعات. بالطبع، سيكلفني هذا أعواماً كثيرة، غير أنني رتّبت فعلاً أن أكون صبياً لرجل طيب في نوتنجهام Nottingham .

ـ «من أين؟».

ـ «في نوتنجهام. لم لا؟».

قلت: «لا أدري لم لا. ولكن لماذا هذا كله على الإطلاق؟ لماذا صانع ساعات بالذات؟».

قال هوجو: «لقد أخبرتك بأنني ماهر في هذا الصنف من الأشياء. أتذكر كيف كنت بارعاً في تركيب مجموعات القطع؟ كل ما في الأمر أن

هذه القطع كانت تتضمن كثيراً من العبث».

سألته: «ألا تتضمن صناعة الساعات شيئاً من العبث أيضاً؟».

قال هوجو: «كلا. إنها حرفة قديمة.. كصناعة الخبز».

حملقت في وجه «هوجو» الذي غشيته الظلمة. كان مقنّعاً، كما هو حاله دائماً ـ بضرب من البراءة. قلت: «أنت مجنون».

قال هوجو: «لماذا تقول هذا، يا جيك؟ لا بد لكل شخص من مهنة. مهنتك هي الكتابة. وستكون مهنتي هي صناعة الساعات وإصلاحها، على ما أرجو، إذا كنت ماهراً بما فيه الكفاية».

قلت بضراوة: «وماذا عن الحقيقة؟ وماذا عن البحث عن الله؟».

قال هوجو: «ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الله مهمة شاقة. الله تفصيل a detail. وكل شيء قريب من يدك». ومد يده وأمسك بقدح كان موضوعاً على المنضدة بجوار سريره. وتألق الضوء الذي تسلل من الباب على القدح، وكأنه وجد وميضاً مجيباً في عينيْ «هوجو»، عندما حاولت أن أستشف ما تقولانه في الظلام.

قلت: «فليكن، فليكن، فليكن، فليكن».

قال «هوجو»: «إنك تتوقع دائماً شيئاً، يا جيك».

قلت: «ربما». وبدأت أرى في المحادثة عبثاً ثقيلاً. فعزمت على الانصراف، نهضت، وسألت هوجو: «كيف حال رأسك الآن؟».

قال: «إنه أحسن نوعاً ما.. لقد جعلتني أنساه. إلى متى تعتقد أنهم سيبقونني في هذا المكان؟».

ـ «حوالي خمسة أيام، كما قالت الأخت».

قال هوجو: «يا إلّه السموات! لا أستطيع احتمال ذلك! لدي أمور كثيرة لا بد من إنجازها».

قلت: «ربما سمحوا لك بالخروج قبل ذلك» لم أكن معنياً بالأمر. وكنت أريد أن أجلس هادئاً في مكان ما لأهضم ما أخبرني به هوجو.

قلت: «سأنصرف».

قال هوجو: «ليس بدوني!» وشرع في مغادرة السرير.

ارتعت مما يفعل، فقبضت عليه وأخذت أدفعه إلى مكانه. كانت أخلاقيات المستشفى قد ضربت بجذورها في أعماق نفسي. ينبغي على المريض أن يصدع بما يؤمر به، وألا يتصرف مفترضاً أنه فاعل حر. قلت في همسة مرتفعة: «عد في الحال!».

تصارعنا لحظة. ولم يلبث هوجو أن تراخى وسحب قدميه عائداً إلى السرير. قال: «كن رحيماً، يا جيك. إن لم تساعدني الآن، فربما لن يُسْمح لي بالخروج إلا بعد أيام. وأنت تعلم طبيعة هذه الأماكن. إنهم يأخذون ملابسك بعيداً، فتصبح عاجزاً لا تملك من أمرك شيئاً. أين ملابسي، على كل حال؟».

فأجبته بحماقة: «في درج مغلق في نهاية هذا الدهليز».

قال هوجو: «كن رياضياً. اذهب وأحضرها لي.. وأرشدني إلى طريق الخروج».

قلت: «لست على ما يرام لكي تستطيع الحركة. قالت الأخت إن من الخطورة بمكان أن تتحرك».

قال هوجو: «لقد اخترعت ذلك في هذه اللحظة فحسب. والواقع أنني لائق تماماً، وأنا أعرف ذلك، وأنت تعرفه. لا بد لي من الخروج من هذا

المكان. هذه أشياء عاجلة جداً عليّ أن أنجزها غداً، وستحل عليّ اللعنة إذا مكثت حبيساً ها هنا. والآن، اذهب واحضر لي ثيابي».

كان «هوجو» يتحدث الآن بلهجة مفاجئة من السلطة، ولاحظت ـ في شيء من الأسى ـ ميلاً قوياً في نفسي إلى طاعته. فأجبته على سبيل المقاومة لهذا الميل: «أنا أعمل هنا يا هوجو. ولو فعلت ذلك، فسأفقد وظيفتي».

سأل هوجو: «أيعلم أحد أنك هنا؟».

ـ بالطبع لا».
ـ «إذن، فلن يعلم أحد أنك أنت الذي ساعدتني».
قلت له: «سيقبضون علينا في طريقنا إلى الخروج».
قال هوجو: «لستَ في حاجة إلى المجيء معي».

قلت: «لا مناص لي من ذلك، فلن تستطيع الاهتداء إلى الطريق وحدك». كنت ألعن «هوجو» من كل قلبي. ولم أكن أريد أن أقدم على هذه المخاطرة من أجله، وكنت أرى الآن أنني مُقْدم على ذلك.

قال «هوجو»: «افعل هذا من أجلي، يا جيك. لم أكن لأطلب منك ذلك لو لم يكن عاجلاً».

قلت: «عليك اللعنة!».

ذهبت إلى الباب، ونظرت في ساعتي. كانت تتجاوز الرابعة. إذا كنت أنوي التصرف، فلا بد أن أتصرف في الحال. تأملت وجه «هوجو» الليلي. كنت أعلم أنني سأفعل ما يريده أياً كان. يجب عليّ ذلك. قلت مرة أخرى: «عليك اللعنة»، وأمسكت بمقبض الباب. فتحت الباب بهدوء، وتركته موارباً. ووقفت لحظة في الدهليز حتى أتعود على الضوء. ثم أخذت أسير هوناً. كانت حجرة الثياب في الباب التالي، ولكنها

مجاورة أيضاً لحجرة «الأخت»، على أقرب جانب لي. وكانت تحتوي على الأدراج في علاقة واحد إلى واحد برقم المرضى في «كوريللي ٣»، بحيث يخصص كل درج لسرير معين. وكانت مفاتيح الأدراج محفوظة في الحجرة أيضاً، في أحد الأدراج. فإن تمكنت من دخول الحجرة، لن تصادفني أية صعوبة في العثور على ملابس «هوجو»؛ ولكن قد تكون الحجرة نفسها موصدة بالطبع. ووجدتُني أتمنى مخلصاً أن تكون كذلك. قلت لنفسي: «أوه، ليتها كانت موصدة!» على حين لمست يدي باب حجرة الملابس. لم تكن موصدة. وانفتح الباب لي بلا ضجة. وبينما كنت أقف في الداخل في العتمة ناقشت نفسي مناقشة سريعة: هل أعود إلى «هوجو» وأخبره بأن الباب موصد. كان من الممكن بالطبع أن يكون موصداً. . وبسهولة كان يمكن أن يكون كذلك. ناضلت مع هذه الفكرة، دون أن أكون واثقاً من أن أعتبرها إغراءً أو لا اعتبرها كذلك. وحاولت أن أستحضر شيئاً من الإحساس بالالتزام إزاء المستشفى، غير أن الأوان كان قد فات للاستنجاد بمثل هذه التحفظات. ولو كنت مهيأً للتأثر بأية رابطة أو عقد بيني وبين المستشفى، فإن الوقت المناسب لهذا قد مر منذ أربع دقائق؛ وأبحرت الآن لمساعدة «هوجو». أصبحت ملتزماً تجاه «هوجو». والكذب عليه سيكون فعلاً من أفعال الخيانة. ووضعت يدي على المفاتيح.

فتحت الدرج وأفرغت محتوياته بهدوء قطعة قطعة على المنضدة: قميص «هوجو» القديم ذو المربعات، وسراويله المضلَّعة الأقدم من قميصه، سترته الرياضية المجدَّدة التي تفوح منها رائحة الصابون، صديري «يايجر»، وسراويله التحتية، وجواربه المثقوبة، وحذاء قذر برقبة، وأشياء أخرى صغيرة كانت «تشخلل» في جيوب «هوجو». كتمت أنفاسي وبدأت أشحن نفسي، فكوّمت الثياب في حضني، ووضعت الحذاء في أعلاها، بحيث لم أكد أستطيع رؤية ما وراء هذا الحِمْل؛ ثم

تذكرت أنني تركت الدرج مفتوحاً، وحزمة المفتاح معلَّقة في القفل. فوضعت الثياب قطعة قطعة فوق المنضدة، وأغلقت الدرج، ثم أعدت المفاتيح إلى الدرج التي كانت فيه. لا لأن هذه الأمور كانت مهمة، ما دام اختفاء «هوجو» سيعرف حالما تكتشف سرقة الدرج؛ ولكن المسألة هي أنني أحب أن أكون مرتّباً. شحنت نفسي مرة أخرى، وهرولت نحو الباب. وعندما سرت، جعلت أتخيل صوراً سمعية لما يمكن أن يحدث من صوت إذا وقعت فردة من حذاء «هوجو» على الأرض. ولكن لم يقع شيء من هذه الحوادث المؤسفة. وتسللت من الدهليز بإحساس تركز في ظهري وكأن شخصاً يسدد إليه مدفعاً رشاشاً. وكان باب حجرة «هوجو» موارباً، فدخلته بجنبي، وألقيت بكومة الثياب على السرير بارتطامة خفيفة.

كان «هوجو» قد نهض من السرير ووقف عند النافذة، مرتدياً جلباباً ليلياً أبيض لا شكل له، وقد أخذ يقضم أظافره.

قال: «هذا عمل شامخ!» وانقض على ثيابه مبتهجاً، على حين قمتُ بإغلاق الباب مرة أخرى دون إحداث أي صوت.

قلت له: «أسرع! وإذا كان لا بد أن نخرج، فلنخرج حالاً». لم أكن أبداً أقل تعاطفاً ومراعاة لهوجو مني في تلك اللحظة. ولاحظت أنه أثناء ارتدائه ملابسه، كان يضع يده على رأسه من حين لآخر، وساءلت نفسي في شيء من البلادة، تُرى أيكون في هذا الهرب ضرر خطير عليه حقاً؛ غير أن هذه الامكانية لم تعد تهمني، سواء أكانت نقطة للجدل، ما دام وقت الجدل قد فات، أم بوصفها عاملاً في مصلحة هوجو، لأن أي اهتمام لي بهذه المصلحة قد أزاحته هموم أشد حدة تتعلق بي. وكان حنقي شديداً على «هوجو» لأنه وضعني في وضع منافٍ لولائي للمستشفى، كما كنت أشعر بقلق شديد عن احتمالات خروجنا دون أن يلحظنا أحد. أما بالنسبة لما

يمكن أن يحدث لي إذا قبض علينا، فكنت أشعر إزاءه برعب أخذ يتزايد باطراد مع غموض تصوراتي. واعترتني رعدة.

كان «هوجو» مستعداً. وأخذ يرتِّب سريره على نحو لا طائل وراءه. قلت له بأشد ما في وسعي من فظاظة: «دع عنك هذا؟». ثم أردفت قائلاً: «انظر. علينا أن نجتاز حجرة «الأخت الليلية» وباب هذه الحجرة فيه جزء زجاجي، ومن ثمّ ينبغي أن نعبر هذه المسافة زحفاً. ومن الأفضل أن تخلع هذا الحذاء الطويل الرقبة، إذ يبدو متأهباً لإحداث ضجة من مجرد منظره. اتبعني وافعل مثلما أفعل. ولا تتكلم، واحذر بحق السموات، من أن يتساقط شيء من جيوبك. فهمت؟»». أومأ «هوجو» برأسه، واتسعت عيناه، وأشرق وجهه بالبراءة. نظرت إليه في سخط، ثم أخرجت رأسي من الباب.

لم يكن هناك أثر للحياة يصدر عن «أخت الليل»، أو صوت يُسْمع من أي نوع. دلفت خارجاً يتبعني «هوجو» وهو يصدر صوتاً كصوت الدب، مزيجاً من الزمجرة والقرقعة. عدت على عقبيّ مكشّراً، ووضعت إصبعي فوق فمي. فأطرق «هوجو» برأسه في حماسة. كان النور ما زال منبعثاً من حجرة «أخت الليل»، وعندما اقتربنا منها، كنت أستطيع أن أسمعها وهي تتحرك في الداخل، فأحنيت ظهري ومرقت مجتازاً للحجرة، حريصاً على أن أكون تحت مستوى الزجاج. ثم استدرت لأراقب «هوجو». كان متردداً؛ وكان من الجليّ أنه لا يعلم ما ينبغي أن يصنع بحذائه، الذي كان يحمل في كل يد من يديه فردة منه. تبادلنا النظرات عبر تلك المسافة، فأتى «هوجو» بحركة استفسار. فأجبته بإشارة تعني أنني نفضت يديّ من ورطته، واتجهت صوب باب العنبر. ثم التفت إليه مرة أخرى، وضحكت ضحكة عالية تقريباً. إذ كان «هوجو» يقبض بأسنانه على لساني الفردتين، زاحفاً فوق الممر بيديه وقدميه، وقد ارتفعت مؤخرته كالهضبة في الهواء. راقبته في شيء من القلق، متسائلاً: تُرى ألن تسترعي انتباه «أخت الليل» حركة هذا السطح شبه

الكروي الذي لا بد أنه برز بوضوح في مجال رؤيتها؟ غير أن شيئاً لم يحدث، وأدركني هوجو عند الباب ولعابه يتقاطر داخل فزدتي حذائه. هززت رأسي مشيراً إليه؛ وهكذا غادرنا معاً «كوريللي ٣».

والآن، لم تعد هناك أية حماية، لم يبـق سوى الأمل. هبطنا درجات السلّم الرئيسية، و«هوجو» متوَّج بإكليل من الضمادات. فكان منظره فاضحاً. بينما يرقد المستشفى هادئاً حولنا، مركِّزاً أضواءه الساطعة علينا، مثل عين كبيرة تراقبنا، ونسير في إنسانها نحن الاثنين معاً. كنت أنتظر النداء الذي سوف يتردد صداه في الطوابق المتعددة فوقنا، متهماً إيانا وآمراً لنا بالوقوف، ولكنه لم يأت. تركنا السلم، واقتربنا الآن من «مطبخ الملحق». وسرَّني كثيراً أن أرى «المطبخ» مظلمـاً؛ لم يكن به أحد. في لحظة سنكون حُرّين. وكان قلبي قد بدأ يخفق فعلاً بفرحة الإنجاز، وأفكاري محلِّقة بأجنحة الانتصار. لقد فعلناها! خطوات قلائل تفصل الآن بيننا وبين باب حجرة المخزن. واستدرت لأنظر إلى «هوجو».

وما كدت أفعل ذلك، حتى ظهر شخص عند ركن الدهليز، على بعد خمس عشرة ياردة أمامنا. كان «ستيتش»، مرتدياً جلباباً أزرق. وقفنا نحن الثلاثة جميعاً كالأموات... أُخذ بنا ستيتش، وأخذنا به... ثم رأيت «ستيتش» وقد بدأ يفغر فاه.

قلت لهوجو بصوت مرتفع: «أسرع. من هذا الطريق!». كانت هذه أولى الكلمات التي أنطقها بصوتٍ مرتفع منذ لحظات، ولهذا كان لها رنين غريب. مرقت إلى باب المخزن، ودفعت «هوجو» من خلاله.

صحت وراءه: «خلال النافذة!» وكنت أستطيع أن أسمعه هاذياً وهو يتقدمني، كما كنت أسمع وقع قدمي «ستيتش» وهما تحكّان أرضية الدهليز. أغلقت باب المخزن بعنف خلفي، وبينما كنت أستدير صوب النافذة، دفعني إلهام طارىء إلى الإمساك بمجموعة من هياكل الأسرّة المرفوعة على

أحد الجوانب، وجذبتها جذبة عنيفة نحو مركز الحجرة. أحسست بها تتحرك عمودية، وتتخبط، ثم بدأت تتهاوى إلى الداخل. وَثَبْتُ إلى الجانب الآخر، وفي لحظة كنت أحرك المجموعة القائمة هناك أيضاً. وكما تلتقي حزمتان من أوراق اللعب، وبقعقعة شبيهة بيوم القيامة، التقت الكوْمتان وتشابكت أمام الباب. وسمعت «ستيتش» يسب ويلعن على الجانب الآخر. وتبعت «هوجو».

ترك «هوجو» النافذة مفتوحة على مصراعيها، فقفزت من خلالها كما يقفز نيجنسكي(*)، وانقضضت على «هوجو» الذي كان يحجل على المرجة.

كان «هوجو» يصيح في قلق: «حذائي! حذائي!» كان من الواضح أنه وضع الفردتين داخل النافذة أثناء وثوبه منها.

قلت له: «لا تعبأ بحذائك المشؤوم! امض في الجري!».

وخلفنا كانت ترن الجلبة المعدنية الناجمة عن محاولة «ستيتش» لفتح الباب بعد أن حال بينه وبين ذلك المتراس المكوّن من هياكل الأسِرَّة. ألقيت برأسي إلى الوراء مستعيناً بذلك على الجري، فشاهدت في شيء من الدهشة أن الحديقة بادية بوضوح في نور الصباح الرمادي؛ وبينما كنا نسرع الخطى بين أشجار الكرز، لم يكن ليدهشني أن يطلق علينا الرصاص شخص من نافذة الطابق العلوي.

عبرنا المرجة والممشى المفروش بالحصباء، وقفزنا فوق السلاسل وهرولنا على الرصيف متجهين صوب «طريق جولد هوك». انفكت ضمادة «هوجو»، وأخذت ترفرف وراءه كالراية. وقبل أن ننعطف عند الناصية، نظرت خلفي؛ ولكن، لم يكن هناك أثر للمطاردة. فأبطأنا الخطى.

---

(١) Vaslav Nijinsky راقص باليه روسي معروف (ولد في كيث ١٨٨٩ وتوفي في لندن ١٩٥٠) وهو واحد من أعظم الأسماء في تاريخ الباليه. (المترجم).

قلت لهوجو: «وكيف حال رأسك الآن؟» ولا بد أننا كنا نعدو بسرعة عشرين ميلاً في الساعة على أقل تقدير.

قال هوجو: «كأنه جحيم!» واستند إلى جدار، ثم قال: «عليك اللعنة، يا جيك. كنت تستطيع أن تدعني ألتقط حذائي. كان حذاء خاصاً.. ابتعته من النمسا».

قلت له: «من الأفضل أن تزور طبيباً في أي وقت هذا اليوم. لا أريد أن أثقل ضميري بأكثر من ذلك».

قال هوجو: «سأذهب إلى طبيب أعرفه في المدينة»، وسرنا على مهل في اتجاه «أجمة الراعي» Shepherd's Bush.

كان الضوء يزداد بسرعة. لا بد أن الوقت تجاوز الخامسة، ولما وصلنا إلى «أجمة الراعي الخضراء» Shepherd's Bush Green، كانت الشمس تلمع من خلال الضباب. ولم يكن ثمة أحد في ذلك المكان؛ وتوقفنا مرة لتسوية ضمادة «هوجو». ثم واصلنا المسير بخطى متثاقلة صامتين. وعندما نظرت إلى قدم «هوجو» الضخمة التي كانت تطل من ثقوب عديدة في جوربه، لم يكن في وسعي إلا أن أفكِّر في «آنا»؛ وعند هذه الفكرة أحسست فجأة نحو «هوجو» بمزيج من التعاطف والغضب. ما أكثر المتاعب التي سبَّبها لي هذا الرجل! ومع ذلك لم يكن فيها ما يمكن أن يكون عكس ما هي عليه.

قلت له: «لقد جعلتني أفقد وظيفتي».

قال هوجو: «ربما لم يتعرفوا عليك».

قلت: «لقد تعرفوا عليّ. ذلك الشخص الذي شاهدني يعمل في كوريللي. وهو عدوِّي».

قال هوجو: «متأسف».

كنا نسير في «شارع متنزه هولندا» Holland Park Avenue . وساد ضوء النهار، وإنجاب الضباب. وكانت الشمس التي ارتفعت فوق المنازل ـ تضفي علينا ظلالاً حادة. مررنا بنوافذ نائمة؛ لم تكن لندن قد استيقظت بعد. وعبرت بنا حافلة أو حافلتان من خافلات العمال. ومع ذلك، مضينا في السير. كان «هوجو» مطرقاً برأسه، وقد أخذ يقضم أظافره وينظر إلى الرصيف دون أن يرى شيئاً. وجعلت أراقبه عن كثب كما يراقب المرء صورة أو رجلاً ميتاً. وكان لدي إحساس غريب بأنه بعيد عني كل البعد ولكنه ـ في وقت معاً ـ أقرب إليّ من أي وقت مضى أو سيكون مرة أخرى. كنت محجماً عن الكلام، وهكذا واصلنا السير في صمت فترة طويلة.

وأخيراً قلت: «متى ستذهب إلى نوتنجهام؟».

قال «هوجو» في لهجة مبهمة، رافعاً رأسه: «أوه، في ظرف يومين أو ثلاثة، على ما أرجو. ويتوقف هذا على الوقت الذي أستغرقه في تسوية المسائل هنا».

نظرت إلى وجهه، ومع أن خطاً واحداً لم يتغير فيه، فقد أبصرته كوجه إنسان تعس. تنهدت. «ألديك مكان تعيش فيه هناك؟».

قال هوجو: «ليس بعد، وعليّ أن أجد غرفاً للإيجار».
سألته: «أيمكنني أن أراك مرة أخرى قبل أن ترحل؟».

قال هوجو: «أخشى أن أكون مشغولاً جداً». تنهدت مرة أخرى.

وخطر لنا في هذه اللحظة نفسها ـ نحن الاثنين ـ أن هذه هي نهاية حديثنا، وأنه سيكون من العسر، غاية العسر، أن يودِّع أحدنا الآخر.

قال هوجو: «أقرضني نصف جنيه يا جيك». وناولته ما طلب؛ وكنا لا نزال سائرِيْن.

قال هوجو: «ينبغي أن أسرع، فأرجو المعذرة».
قلت: «لك ما تريد».
قال: «شكراً جزيلاً على مساعدتك لي على الخروج».
قلت: «عفواً».

كان يريد التخلص مني. وكنت أريد التخلص منه. وسادت لحظة صمت بيننا كان كل منا يحاول أن يفكِّر في الشيء المناسب قوله. غير أن أحداً منا لم يفلح. والتقت عيوننا لحظة، ثم قال هوجو بغتة: «يجب أن أسرع. آسف».

بدأ يسير بسرعة شديدة، وانعطف نازلاً في «طريق كامبدن هيل» Campden Hill Road . وسرت في أثره بسرعتي العادية. فسبقني بعيداً، وما زلت أمشي في عقبيه على طول الطريق. وانعطف في «شرفة شيفيلد» Sheffield Terrace ، وعندما اجتزت ناحية الشارع، كان يسبقني بحوالي ثلاثين ياردة. نظر خلفه ورآني، فحث خطاه. واستدار داخلاً في «شارع هورنتون» Hornton Street ؛ تبعته بالسرعة نفسها، ورأيته على البعد يتحول إلى «جلوسستر ووك» Glocester Walk . وعندما بلغت ناحية «جلوسستر ووك»، كان قد اختفى.

الفصل التاسع عشر

عندما مشيت خلال «كنسينجتون» Kensington كان النهار قد بدأ. لم يكن فيه ما أفعله. فتسكعت، متفرجاً على واجهات الحوانيت. وذهبت إلى «ليونز» Lyon's . فتناولت شيئاً للإفطار. استغرق مني هذا وقتاً طويلاً. ثم استأنفت السير مرة أخرى. سرت في «طريق إيرلز كورت» Earls Court Road ، ووقفت برهة خارج المنزل الذي تسكنه «مادج». كانت الستائر التي تغطي النوافذ قد تغيرت، وبدا كل شيء مختلفاً؛ وبدأت أشك فيما إذا كان هو المنزل نفسه. مضيت في طريقي. وبجوار «محطة إيرلز كورت» احتسيت قدحاً من الشاي. وخطر لي أن أتصل هاتفياً بديف، غير أنني لم أجد لدي شيئاً خاصاً أريد أن أخبره به.

وانتصف الصباح. إنهم في المستشفى ـ في مثل هذه الساعة ـ يقومون عادة بتنظيف الأواني في مطبخ «كوريللي ٣». دخلت حانوتاً للزهور وطلبت أن يرسلوا باقة ضخمة فخمة من الورود إلى «الآنسة بيدينجهام». ولم أبعث معها بكلمة أو رسالة. سوف تعرف بالتأكيد من الذي أرسل تلك الباقة. وأخيراً، فَتَحت الحانات أبوابها. فتناولت كأساً من الشراب. وطرأ على بالي أن لدي ما أقوله لديف ـ على كل حال، وهو أن أسأله عما إذا كانت هناك أية أخبار عن «فين». طلبت رقم «طريق جولدهوك»، ولكني لم أتلق جواباً. بدأت حاجتي إلى «فين» تشتد، وكان عليّ أن

أصرف انتباهي بقوة عنها. تجرعت كؤوساً أخرى من الشراب. وكان الوقت يمر بطيئاً.

وأثناء هذا الوقت لم أكن ـ لأول وهلة ـ أفكّر في شيء بالذات، وإنما جلست في هدوء، تاركاً للأشياء أن تتشكل بعمق في داخلي. لم أكن أزيد على الإحساس بالأشكال الكبيرة تتحرك في الظلام، تحت مستوى انتباهي، ودون معونتي، حتى بدأت أتبين رويداً رويداً أين كنت. كانت ذكرياتي عن «آنّا» قد تحولت تحولاً تاماً. ففي كلٍّ منها أضيف بُعْد جديد. وقد فاتني أن أسأل «هوجو» متى التقت به «آنا» على وجه التحديد، فأَخَذَتْ منه نظرة واحدة، على حد تعبيره الرهيب. ولكن، كان من المحتمل جداً ما دامت معرفة «هوجو» بسادي ترجع إلى زمن بعيد، فربما تداخلت معرفة «هوجو» بآنا في المراحل المتأخرة من علاقاتي بها، قبل افتراقنا الطويل كل منا عن الآخر. وعند هذه الفكرة، بدت كل صورة كانت لديّ عن «آنا» وقد تلوثت، وكنت أشعر بأن الصور التي وعتها ذاكرتي قد أصابها التحول، كتماثيل تتفصّد دماً.

لم تعد لدي أية صورة عن «آنّا». لقد تلاشت كما يتلاشى ظهور ساحر، ومع ذلك، كان حضورها ما برح باقياً لي على نحو ما، أكثر جوهرية من أي وقت مضى. إذ بدا أن «آنّا» توجد الآن حقًّا لأول مرة، بوصفها كائناً منفصلاً، لا بوصفها جزءاً من نفسي. هذه التجربة كانت مؤلمة إلى أقصى حد. ومع أنني حين حاولت أن أُثَبِّت عينيّ على المكان الذي كانت فيه، شعرت نحوها بإحساس للمبادرة لعله كان قبل كل شيء واحداً من الأقنعة التي يتنكر فيها الحب. كانت «آنا» شيئاً لا بد من تعلمه من جديد. ومتى يعرف المرء كائناً بشرياً على الإطلاق؟ ربما لا يكون ذلك إلا حين يدرك استحالة هذه المعرفة، وحين يتخلى عن الرغبة فيها، وأن يكف عن الشعور في نهاية الأمر ـ بحاجته إليها. وحين يكون ما

يحققه المرء شيئاً بعيداً عن المعرفة، إن مجرد نوع من التعايش، وهذا أيضاً قناع آخر من أقنعة الحب.

بدأت أفكِّر في «هوجو». كان قد استطال في ذهني حتى صار كالنُّصب العالي؛ حجر لم يتشكل ولم ينقسم أقامه الناس قبل بداية التاريخ لغرض إنساني سيظل دائماً محوطاً بالغموض. لم تكن غيريته ذاتها شيئاً يُلْتَمس فيه، وإنما يُلْتمس فيّ أو في «آنا». ومع ذلك، لم يكن يتعرف هنا على شيء مما فعله. كان رجلاً بلا مطالب وبلا تأملات. لماذا تعقبته؟ لم يكن لديه ما يخبرني به. كانت رؤيته كافية. كان علامةً، بشيراً، معجزة. وما أن فكرت في هذا، حتى بدأ فضولي نحوه من جديد. صورته لنفسي في نوتنجهام، في ورشة صغيرة مهجورة، ممسكاً بساعة في يده الضخمة، وشاهدت حركات الساعة الدقيقة التي لا يقر لها قرار، ورأيت أحجارها الكثيرة. أتراني نفضت يدي من «هوجو»؟.

غادرت الحانة. كنتُ في مكان ما من «طريق فولهام» Fulham Road. انتظرت في هدوء على الحاجز الحجري عند حافة الطريق حتى لمحت سيارة أجرة تقترب. أوقفتها وقلت للسائق: «جسر هولبورن» Holborn Viaduct. استلقيت برأسي على مقعد السيارة؛ وحين فعلت ذلك، أحسست بأن هذه آخر فعلة لي ـ لم أتخذ مثلها منذ زمن طويل ـ يمكن أن تبدو محتومة. كانت لندن تمر عليّ سراعاً، هذه المدينة المحبوبة، التي تكاد تكون لامرئية من شدة الألفة بها. «ساوث كنسنجتون» Sauth Kensington، نايتسبريدج Knights bridge، هايد بارك كورنر Hyde Park Corner. هذه آخر فعلة لا تثير أي تساؤل، ولا تطلب سبباً. وبعدها، تأتي آلام التأمل الطويلة. كانت لندن تمر أمامي كحياة شخص غريق يقولون عنها إنها تتراءى له كلها كومضة واحدة في اللحظة الأخيرة. بيكاديللي Piccadilly، شافتسبيري أفينيو Shaftsesbiry

Avenue ، نيو أكسفورد ستريت New Oxford Street ، هاي هولبورن High Holborn .

دفعت للسائق أجرته. وكان الوقت منتصف العصر. وقفت على الجسر أطل على الفجوة الممتدة في «شارع فارنجدون» Farringdon Street . طارت منها حمامة، تحرِّك أجنحتها في تكاسل، فراقبتها وهي تطير متباطئة إلى الجنوب صوب برج «كنيسة القديس برايد» St Bride . كانت الشمس دافئة فوق عنقي. تقاعست. كنت أريد أن أتوانى. ولو مجرد لحظات قصار ـ قبل الإقدام على فعلتي الأخيرة. وكان توقّعي للألم يدفعني إلى الإرجاء؛ الألم الذي يأتي بعد المأساة، حين تُحمل الأجساد خارج خشبة المسرح، وتسكت الأبواق، ويطلع يوم خاوٍ جديد، وسيطلع مرة بعد مرة ليسخر من نهاياتنا التي رسمناها لأنفسنا. وضعت قدمي على السلم.

كان طريقاً طويلاً. وعندما بلغت منتصف طريق الصعود توقفت لأنصت إلى العصافير، فلم أستطع أن أسمع شيئاً. إنها لا تغني ولا تشقشق إلا عندما يحين المساء. والسؤال عما إذا كان «هوجو» هناك، أو لم يكن، حتى هذا السؤال لم أكد أسأله لنفسي. وعند البسطة قبل الأخيرة، توقفت لألتقط أنفاسي. كان الباب مغلقاً، فصعدت إليه وطرقته. لا إجابة. طرقت مرة أخرى، بعنف شديد. كان المكان صامتاً تماماً. وعندئذٍ حاولت فتح الباب، فانفتح، وخطوت إلى الداخل.

ما أن دخلت إلى حجرة الجلوس في شقة «هوجو»، حتى انبعث بغتة اصطفاق وحشي. كانت الحجرة تتبعثر وتتناثر إلى عدد من الشظايا السوداء. تشبثت بالباب في هلع. ثم أبصرت. . . كان المكان ممتلئاً بالطيور، وعدد من فراخ الطير التي لم تهتد إلى النافذة في أول طيران لها، أخذت تحوّم بجنون حولها، وتضرب الجدران وألواح الزجاج. ثم

وجدت فتحة النافذة فانطلقت منها. تلفتُ حولي. كانت شقة «هوجو» تبدو أشبه بقفص كبير منها بمسكن كائن بشري. السَّلْخُ الأبيض يلطخ السجادة، ومن خلال النافذة المفتوحة كان المطر قد انساب إلى الداخل وترك بقعة عميقة على الجدار. وتبدو الحجرة وكأن «هوجو» لم يمكث فيها منذ أمد بعيد. مضيت قُدَماً إلى حجرة النوم. كان السرير مجرداً من كل شيء، ودولاب الملابس خاوياً على عروشه. تأملت ملياً هذه الظاهرة. ثم رجعت إلى الحجرة الأخرى، ورفعت سماعة الهاتف. كان لدي هاجس غريب بأنني سأجد «هوجو» على الطرف الآخر منه. ولكنه كان يبدو فاقداً للحرارة. جلست بعدئذٍ على الأريكة. لم أكن أنتظر أي شيء. ومضى بعض الوقت. وفي المدينة دقت ساعة عدة دقات، فأعقبتها ساعات أخرى. ولكنني لم أحاول معرفة عددها.

وبعد أن جاست نظراتي الشاردة في الحجرة ـ توقفت عند مكتب «هوجو». وحينئذٍ قمت من مجلسي واقتربت منه. فتحت الدرج الأعلى. وفي داخله، وقعت عيني على نسخة من «المُسْكت» كانت شبه مختفية تحت كومة من الملفات الفارغة. أخرجتها من الدرج. كان «هوجو» قد كتب اسمه بحروف كبيرة على الصفحة البيضاء الأولى. أخذت أقلِّب الصفحات، فرأيت أنه وضع خطوطاً على فقرات من الكتاب هنا وهناك، وصلباناً وعلامات استفهام على الهامش. وفي موضع ما كتب ملحوظة بالقلم الرصاص، «اسأل ج». ملأني هذا ألماً، فأغلقت الكتاب ودسسته في جيبي. ألقيت نظرة على محتويات الأدراج الأخرى، ثم فتحت أعلى المكتب. كان مكدساً بالرسائل والأوراق. شرعت في فحصها بسرعة. وكلما غصتُ في الصناديق والعيون، انهمر طوفان من الأوراق على الأرض. غير أنني لم أتمكن من العثور على ما أريد.

وأخذت تتدفق من خلال أصابعي الخطابات القديمة، والإيصالات، وأقلام الرصاص المستعملة، وشمع الأختام، وعلب الثقاب، وأنواع

كثيرة من دبابيس الأوراق، وكتب الطوابع التي لم يكتمل إلا نصفها، ودفاتر الشيكات العتيقة. وفي درج صغير وقعت على مجموعة من أشياء غريبة المنظر تعرفت فيها على وسائل بلفاوندر المنزلية للتفجير، وكانت أقل تنوعاً من المجموعة التي حرَّرتنا من استوديو الأفلام. وكان هناك درج آخر يحتوي على عقد من اللؤلؤ: ربما كان هدية ابتاعها «هوجو» بعناية رقيقة من أجل إهدائها لسادي، ولن تصلها الآن أبداً؛ أو لعلها ردَّتْها، فوصلت ذات صباح في طَرْد مسجَّل، وبقيت هناك أياماً لأن «هوجو» لم يجد من نفسه الشجاعة على فكِّها. غير أنني لم أستطع الثعور على ما أريد.

جلست، وتناولت ورقة بيضاء. كنت أبغي كتابة رسالة إلى «هوجو»، وسحبت قلم حبر من أقلام «هوجو»، ووضعت الحبر أمامي. طار فرخ صغير ووقف على النافذة.. لمحني، فطار خارجاً مرة أخرى. كانت هناك زقزقة ناعمة على الدرابزين. تطلعت إلى السماء الزرقاء فوق رأسي. كتبت على الورقة: «هوجو». لم يسعفني تفكيري بشيء آخر أقوله. خطر لي أن أكتب: «ابعث إليّ بعنوانك في نوتنجهام»، غير أن هذه العبارة بدت في غاية من الضعف واللاشخصية، فلم أخطها على الورق. وفي النهاية، رسمت خطاً منحنياً على الصحفة، ومهرتها في نهاية الصفحة باسمي، بعد أن أضفت عنوان حانوت «السيدة تينكهام». وضعت الورقة في مظروف، ثم تركته في وضع متزن على خزانة الكتب، وتأهبت للانصراف. وعندما استدرت، استرعى عيني شيء ما في الجدار وراء خزانة الكتب. كان الباب الأخضر لخزانة.

توقفت، ثم حركت خزانة الكتب إلى الخارج قليلاً من الجدار. جذبت باب الخزانة، ولكنه كان موصداً. أخذت أتأمله متفكراً. وهنا اتضح لي ما ينبغي أن أفعله. عدت إلى المكتب وأخذت من الدرج

مفجّراً من مفجرات بلفاوندر المنزلية. لمست بأصابعي هذا المتفجر الصغير، متعجباً من قوته. وكان تعجبي هذا مصحوباً بضرب من اللامبالاة وأنا أفتش في جيبي عن أعواد الثقاب. كان المفجّر مخروطي الشكل. وتحسست بإصبعي باب الخزانة، محاولاً العثور على شق صغير أضع فيه رأس المخروط، غير أن الخزانة كلها كانت ناعمة كراحة الأسقف، حتى المفصلات كانت مخفية في الداخل. لم تكن هناك أية تجاويف، كما لم تكن فيها أية نتوءات يمكن أن أوازن عليها المفجّر. وتناولت مصادفة لفّة من الأوراق اللاصقة من مكتب «هوجو»، فألصقت المفجّر بها على النقطة التي تبدو أنها أضعف النقط على جانب الباب الذي فيه القفل. وفي النهاية غير الحادة للمفجّر كان يبرز فتيل صغير من القطن أشبه بالورقة الزرقاء في صاروخ ناري. أشعلت هذا الفتيل بعود ثقاب، وانسحبت إلى الطرف الآخر من الحجرة. راقبت ممعناً الفكر. وأعتقد أنني لم أكن لأندهش أو أتأثر في قليل أو كثير لو أن الجدار كله انهار بغتة وتحول إلى سحابة من الخشب والجير، كاشفاً عن السماء المفتوحة، وعن منظر كنيسة القديس بولس.

انبعثت ومضة ساطعة وقرقعة. أغمضت عينيّ. كانت الحجرة ممتلئة بالدخان، وسحابة من أفراخ العصافير طارت من تحت الدرابزين. وعندما فتحت عينيّ، شاهدت من خلال الغمامة الكبريتية أن باب الخزانة قد فُتح على مصراعيه، وتدلّى صوب أرضية الحجرة معتمداً على مفصل واحد. لم تحدث أضرار أخرى. تقدمت ونظرت داخل الخزانة. كان جوفها يتألف من رفّين غائرين. وعلى الرف السفلي كان هناك ما يبدو أنه مقدار كبير من المال، مرتّباً في رزم من فئة الجنيه ومن فئة الجنيهات الخمسة. وعلى الرف العلوي رأيت ما كنت أبغي.

كانت عليه حزمتان من الرسائل. أخرجتهما. وكانت إحداهما حزمة

صغيرة مكتوبة بخط دقيق على وعي بنفسه تعرفت فيه على خط «سادي». أما الحزمة الأخرى فكانت أضخم كثيراً. نقرتها بأصابعي كما ينقر المرء حزمة من أوراق اللعب. كانت هذه الرسائل جميعاً من «آنا». وكان «هوجو» يدعوها «الرسائل الجميلة». وتصارعت في نفسي مشاعر الذنب والانتصار واليأس وأنا أمسك بها. جلست على الأريكة. الآن أستطيع أن أرى ما لم أكن قادراً على تخيله. وسحبت المظروف الأول.

في هذه اللحظة سمعت صوت عربة تقترب ويصدر عنها في الشارع بالخارج صوت مرتفع من احتكاك الفرامل بالأرض. نهضت وتسلقت مقعداً، وأطللت برأسي من النافذة، وما زلت ممسكاً بالرسائل في يدي. كانت هناك سيارة نقل قد توقفت خارج الباب. راقبتها برهة، ولكن دون أن يخرج منها أحد، ومن ثمّ، عدت إلى مجلسي مرة أخرى. تأملت المظروف؛ وما أن فعلت ذلك حتى شاهدت ـ وكأنها رؤية ـ الغابة المظلمة وشخص «آنا» وهي تخطو فيها حافية القدمين. تحسست أصابعي الرسالة في الداخل. كانت رسالة مكونة من عدة صفحات. شرعت في نشر طياتها، حين سمعت سيارة. كانت تقترب بتصاعد قوي في صوتها، ثم توقفت. نهضت متصلباً، وأخذت أسب وألعن لنفسي. تسلقت المقعد ثانية. وبعيداً إلى أسفل، شاهدت سيارة «هوجو» الآلفيس السوداء. كانت مسحوبة في الطريق وراء سيارة النقل مباشرة. وجعلني انفعال ـ لا هو بالسرور ولا هو بالخوف، بل مزيج منهما معاً ـ جعلني أراقب السيارة بقلب سريع النبضات. وأصابتني رعدة.. كان «هوجو» وشيك الظهور.

خرج شخص من السيارة، ولكنه لم يكن «هوجو». تفرست فيه لحظة، وعندئذٍ تعرفت فيه على رأس «لفتي» الوسيم وقوامه النحيل راقبت بشفتين منفرجتين، متشبثاً بحافة النافذة. كان «لفتي» واقفاً على الرصيف، يتشاور مع رجلين نزلا لتوهما من سيارة النقل. وكانت الشمس

الحامية تلقي بظلالهما الطويلة على الرصيف. ثم رأيت على طول نافذة «الألفيس» هذه الحروف «نيسب» NISP (حزب الاشتراكيين المستقلين الجدد). وهنا فهمت. وثبت من المقعد، ودرت حولي، ونظرت إلى الحجرة كما ينظر شخص بحثاً عن موطىء لقدمه على شفا جرف ينهار، . انتزعت الكلمة التي كتبتها لهوجو، ووضعتها في جيبي. وقفت لحظة مشلولاً. وهناك بعيداً في أسفل المبنى، كنت أسمع وقع أقدام على السلم. استعرضت المشهد بعيني: المكتب المنقلب رأساً على عقب والخزانة المفتوحة. تطلعت إلى الرسائل التي ما زلت أمسكها في يدي، ورددت الرسالة التي فتحتها إلى الحزمة. وظللت ممسكاً بها لحظة أخرى وتظاهرت بأنني أهم بوضعها في جيبي. غيرا ن ذلك كان مستحيلاً، إذ كانت تحرق يدي. رميت بها مرة أخرى إلى الخزانة. ثم انتقيت أضخم رزمة من رزم الأوراق المالية من فئة الجنيه الواحد ودسستها في سترتي، وحدثت نفسي بصوت مرتفع: «هذا شيء لن تحصل عليه الثورة!»؛ واتجهت صوب الباب.

اجتزت البسطة في خطوات ثلاث، وما أن دخلت مطبخ «هوجو» حتى سمعت صوت «لفتي» على السلالم. فتحت نافذة المطبخ، ووثبت على السطح المستوي. مشيت بخطوات ثابتة عبر السطح. وكانت مناور مبنى المكاتب المجاورة مفتوحة على مساندها لاستقبال ذلك الأصيل الصيفي. تدليت من خلال فتحة منها، فألفيت نفسي على بسطة مهجورة. شرعت أهبط السلالم، وبعد دقيقة أو دقيقتين خرجت من باب في ممر جانبي. سرت عائداً إلى الشارع واجتزت الطريق؛ وفيما كنت أسير في غير اكتراث أمام منزل «هوجو» على الجانب الآخر، كانوا ينقلون فعلاً من شقته لوحات رينوار.

الفصل العشرون

ابتهج «مارس» حين رآني.. كان حبيساً طيلة النهار. فأطعمته ووضعت ما تبقّى من اللحم في كيس. ثم حزمت بعض ثيابي في إحـدى الحقائب. وكانت هناك رسائل قليلة وطرد من أجلي في القاعة؛ دسست هذا كله في الحقيبة أيضاً دون أن أنظر إليه ـ وكتبت كلمة لديف، شاكراً له حفاوته، وغادرت المنزل مصطحباً «مارس».

استقللنا الحافلة العامة رقم ثمانية وثمانين. وأثار «مارس» طوفاناً من الملاحظات التي أبداها ـ قاطع التذاكر. جلسنا في المقعد الأمامي على القمة، وهو المقعد الذي جلست فيه منذ زمن غير بعيد جداً، أفكّر في «آنا» حتى كان لا بد من النزول من الحافلة والبحث عنها. وبينما كنت أطل الآن على الجموع السائرة في «شارع أكسفورد»، وأُربِّت على رأس «مارس»، لم أكن أشعر لا بالسعادة، ولا بالحزن، وإنما كنت أشعر بأنني غير حقيقي، مثل رجل محبوس في زجاجة. فالأحداث تمر بنا كهذه الحشود، فلا نرى وجه أحد فيها إلا لحظة عابرة. وما يكون مُلِحاً، لا يكون كذلك إلى الأبد، وإنما إلى وقت لا يلبث أن يمضي ويزول. كل عمل وكل حب، البحث عن الثراء والشهرة، البحث عن الحقيقة، وهو مثلها.. إنما مكوَّا من لحظات تُوَلِّي، ثم تصير لا شيء. ومع ذلك، ومن خلال هذا النفق من اللاأشياء نمضي قدماً إلى الأمام بتلك الحيوية

المعجزة التي تنشىء مساكننا الهشّة في الماضي والمستقبل. وهكذا نحيا؛ روح تحوم وتحلق فوق الفناء المستمر للزمن، المعنى الضائع، اللحظة التي لا سبيل لاقتناصها من جديد، الوجه الذي طواه النسيان، حتى تأتي الضربة الأخيرة التي تنهي لحظاتنا جميعاً، وتغوص بهذه الروح عائدة إلى الخواء الذي عنه صَدَرَتْ.

هكذا تتابعت خواطري؛ وكنت محجماً عن النزول من الحافلة. ولكن حين بلغنا «سيرك أكسفورد» Oxford Circus ، قمت وسحبت مارس خلفي على سلم الحافلة. كانت ساعة الذروة. فشققت طريقي خلال الزحام والكلب يسير في عقبيّ، وانعطفت إلى «ميدان راثبون» Rathbone Place . وكان حي «سوهو» Soho بعد الظهر حارًّا مُتْرباً؛ كسولاً متجهماً، متبلد الإحساس. وكان الناس يقفون في انتظار وقت الافتتاح. وفي غرفة علوية، كان شخص ما يعزف على البيانو، والتقط شخص آخر اللحن وأخذ يصفّر به، ماضياً إلى بعيد. سرت بعد ذلك في «شارع شارلوت» Charlotte Street . كان المشهد يرتعش ويختلج أمامي، ربما بفعل الهجير أو بسبب الخوف. وأسرعت خطاي كأنني شخص مُطارَد.

أتاني صوت «السيدة تينكهام» خارجاً من حلقات دخان التبغ. كان يبدو أنها تتوقعني. ولكنها كانت تتوقعني دائماً. جلست إلى المنضدة الصغيرة.

قالت السيدة تينك: «أهلاً يا عزيزي.. لم أرَك من زمن طويل».

قلت: «استغرق الأمر وقتاً طويلاً».

أخذ «مارس» يتشمم في حذر قطة أو قطتين من أقرب القطط إليه. وكان يبدو عليها أنها اعتادت عليه، فلم تفعل سوى أن أشاحت برؤوسها الرقيقة عنه، وطرَفَتْ عيونها. وخلف السيدة «تينك» كانت تقوم الواحدة إثر الأخرى، وأنا أرى عيونها من خلال الدخان كأضواء نهاية خط للسكك

الحديدية تومض في الضباب. ورقد «مارس» تحت قدميّ.

مددت ساقيّ وقلت للسيدة تينكهام: «ما رأيك في كأس من الشراب؟ لقد حان وقت الفتح تقريباً».

قالت: «ويسكي بالصودا؟» وكنت أستطيع أن أسمع صليل الكأس تحت الطاولة وخرير الويسكي وأزيز الصودا. ناولتني «السيدة تينكهام» الكأس، فألقيت برأسي إلى الوراء، وأغمضت عينيّ. ومن بعيد جداً، كان المذياع يهمس كأنه صوت عالَم آخر. وأصوات حي «سوهو» في المساء تنفذ من خلال الباب. كنت أشعر بمارس رابضاً على قدمي. أخذت جرعتين من الويسكي، فسرى في عروقي كالزئبق، وأحسست إحساساً يكاد يكون جسمياً - بنوع من رعشة الإمكانية. فتحت عينيّ، فألفيت «السيدة تينكهام» تنظر إليّ. كان على الطاولة شيء ما تخفيه تحت يدها. تعرفت عليه بوصفه الطرد الذي يحتوي على مخطوطاتي. بسطت يدي لآخذه، فناولتني إياه دون أن تنبس بكلمة.

وضعت الطرد على المنضدة. ثم أخرجت من حقيبتي رزمة الرسائل الصغيرة التي أحضرتها من شقة «ديف». لمحت من بينها في الحال رسالة من «سادي»، فنحّيتها جانباً.

قلت للسيدة تينكهام: «ألا يزعجك أن أقرأ خطاباتي؟».

قالت السيدة تينكهام: «افعل ما يروق لك، يا عزيزي. سأمضي في مطالعة قصتي، فقد وصلت إلى الجزء المثير».

لم أكن أريد أن أفتح خطاب «سادي» أولاً. ومن ثمّ، فقد تناولت خطاباً عليه طابع بريد لندن، ومكتوباً بخط غير مألوف، وفتحته. كان من «لفتي». قرأته كله مرات عدة، وابتسمت. كان «لفتي» يكتب بأسلوب أنيق وخطابي خفيف بعلامات الترقيم من نقط وشولات وأقواس.

وساون في فقرته الأولى ليلتنا على شاطىء التيمس: «حلم ليلة منتصف صيف»(*)، بالنسبة إليه، هذا ما قاله «لفتي» عنها، وكان كل ما يتمناه هو الا يكون قد قام بدور الحمار. ويبدو انه يتذكر أنه أفاض في الحديث إلى درجة الضجر. ومضى قائلاً إنه يأسف لأنه سمع عن مرضي. واقترح أن أذهب لزيارته إذا شعرت بتحسن، وإذا أحسست بانني استطيع ان اقوم بأي نوع من العمل السياسي، فسيكون سعيداً؛ ولكن ينبغي أن أزوره على كل حال، فالحياة لم تكن كلها مسألة سياسة فحسب، أكانت كذلك؟ تركت رسالته انطباعاً طيباً في نفسي؛ ومع أنني كنت أشك في أن «لفتي» لم يكن يَعْرض شعوره الأخير، إلا أنني شعرت بأنني هنا إزاء رجل حقيقي.

وضعت رسالة «لفتي» في جيبي، وحوّلت انتباهي إلى الطرد. كنت قد لاحظت فعلاً بطرف عيني أنه أتى من فرنسا. بدأت أفتحه. كان من «جان بيير»، ويحتوي على نسخة من «نحن المنتصرين». مع إهداء فرنسي موجّه إلي بخط «جان بيير» المسترسل. تأملت الكتاب بشيء من الانفعال. ثم سحبت مطواتي وفتحت الصفحات القلائل الأولى. وقبل أن أدري ما حدث، كنت قد قرأت حتى الصفحة الخامسة. كان الانطباع مذهلاً. إذ كان «جان بيير» دائماً قصاصاً أنيقاً. غير أنني أحسست من فوري أن في هذه الرواية شيئاً أكثر من الأناقة. كان الأسلوب أشد تماسكاً، والطريقة أكثر ثقة بالنفس، والإيقاع طويلاً متمهلاً. شيء ما قد تغير؛ والبدء في كتابة رواية أشبه بفتح باب على منظر طبيعي مغلّف بالضباب، تستطيع أن تتبين فيه أشياءً قليلة، ولكنك تستطيع أيضاً أن تشم عبير الأرض، وتشعر بهبوب الرياح. وكنت أشعر بهبوب الريح من

(*) مسرحية من ملهاوات شكسبير Amidsummer night's dream ، ومن بين أدوارها دور الحمار. (المترجم).

الصفحات الأولى من «نحن المنتصرين»، وكانت تهب بقوة، ولها مذاق منعش. قلت لنفسي: «كلما تطور على هذا النحو، كان ذلك أفضل». شيء ما قد طرأ عليه التغيير؛ وسوف يتاح لي من الوقت فيما بعد لأحدد طبيعة هذا الشيء. نظرت إلى اسم «جان بيير» على الغلاف، وأحسست لأول مرة أننا قد نكون داخلَيْن في المنافسة نفسها. وعندما ألفيت نفسي أفكِّر هذه الفكرة، هززت رأسي، ونحَّيت الكتاب جانباً.

انتقيت بعد ذلك رسالة مكتوبة بخط مجهول، وعليها طابع بريد آيرلندي. فتحتها. كانت تضم كلمة مقتضبة بخط لا يكاد يُقْرأ. واستغرقت وقتاً طويلاً لأدرك أن هذا الخطاب من «فين». وعندما فككت شفرة التوقيع، أحسست بأنني حزين مصدوم. ومن الغريب أنني لم أتلق من قبل أي اتصال مكتوب من «فين». كنا نتصل عادة بالهاتف أو بالبرق حين لا نكون معاً؛ وبالطبع اعتنق بعض أصدقائي ذات يوم نظرية تقول إن «فين» لا يستطيع الكتابة. كان ما تقوله رسالة فين كالآتي:

عزيزي جيك:

آسف لذهابي دون رؤيتك. حدث هذا عندما كنتَ في باريس. فاعتقدت أن الوقت قد حان للرجوع حينذاك من أجل المال. وأنت تعرف كيف فكرت كثيراً في العودة من قبل. سأكون الآن في «دبلن»، وسيجدني «بيرل بار» Pearl Bar (مشرب اللؤلؤة) دائماً متى شاء. أعتقد أنهم أرسلوا خطابات، غير أنني لم أوفّق بعد إلى مكان أعيش فيه. أرجو أن أراك حين تأتي إلى «جزيرة الزمرد» Emerald Isle. اذكرني لديفيد.

المخلص

ب. أوفيني.

أثارني هذا الخطاب إلى أقصى حد، فصحت قائلاً للسيدة تينكهام: «لقد عاد فين إلى آيرلندا!».

قالت السيدة تينكهام: «أعرف ذلك».

صحت: «أنت تعرفين؟ كيف؟».

قالت السيدة تينكهام: «أخبرني بذلك».

وطرأت على خاطري ـ لأول مرة ـ فكرة أن «فين» اتخذ من «السيدة تينكهام» موضعاً لأسراره، واندفعت في لحظة من الإمكانية إلى الاحتمال. فسألتها: «هل أخبرك بذلك قبل رحيله مباشرة؟».

قالت السيدة تينكهام: «أجل. . بل قبل ذلك أيضاً. ولكن لا بد أنه أخبرك بأنه يريد العودة؟».

قلت: «لقد فعل. وإني لأتذكر ذلك الآن. ولكني لم أصدقه». وكان لهذه الجملة رنين مألوف على نحو ما. قلت: «إنني أحمق». ولم تناقش «السيدة تينكهام» هذه المسألة.

سألتها: «أكانت لديه أسباب خاصة للرحيل؟». وأحسست بالألم والمهانة حين وجدت نفسي مرغماً على أن أوجه للسيدة تينكهام أسئلة عن «فين»؛ غير أنني كنت في حاجة إلى المعرفة. تطلعت إلى وجهها الوديع العجوز. كانت تنفث حلقات الدخان، وكنت أعرف أنها تريد أن تخبرني بشيء.

قالت السيدة تينكهام: «كان يبتغي العودة إلى وطنه، على ما أظن. ويخيل إليّ أن هناك أناساً يود أن يراهم». وأضافت بلهجة غامضة: «وهناك الدين دائماً».

أطرقت ببصري إلى المنضدة، وكنت أشعر على جبيني بضغط لطيف هو نظرة «السيدة تينكهام» ونظرات نصف دستة من القطط. أحسست بالخزي، بالخزي من افتراقي عن «فين»، ومن أنني كنت أعرف القليل جداً عنه، ومن تصوري للأشياء على هواي، لا كما هي فعلاً.

قلت: «إذن، فقد ذهب».

قالت السيدة تينكهام: «سوف تراه في دبلن».

حاولت أن أتخيل هذا؛ «فين» في بيته وأنا مجرد زائر. خفضت رأسي وقلت: «لن أستطيع». وكنت أعرف أن «السيدة تينكهام» قد فهمت.

ـ «إنك لا تعرف أبداً ما لا تريد أن تفعله حين يحين الوقت»، قالت «السيدة تينكهام» هذه العبارة بتلك النبرة المبهمة التي نطقت بها ملاحظاتها التي يمكن أن تكون نصائح عميقة أو عبارات خالية من المعنى. تطلعت إليها بسرعة. كان المذياع يثرثر ودخان السيجارة يطفو بيننا كالوشاح، ناقلاً طبقاته برفق شديد في نسيم الصيف البطيء القادم من المدخل. طرفت بعينيها نحوي، وبدا أن جفنيها قد ضاقا بحيث تحولا إلى شقين عموديين.

قلت لها: «حسن، سوف نرى».

قالت السيدة تينكهام: «هذا خير ما يقال دائماً، أليس كذلك يا عزيزي؟».

وأخيراً تناولت رسالة «سادي». كنت عصبياً إلى أقصى حد من هذه الرسالة، كنت واثقاً أنها تحتوي على شيء غير سار. تحرك «مارس» عند قدميّ، وتشمم حذائي. فتحت المظروف، وكان يحتوي على غلافين آخرين، نحيتهما جانباً، ونشرت ورقة طويلة معطرة كانت مطوية وفيها عمود ضيق من الكتابة بخط سادي الأنيق. كانت رسالتها كما يلي:

حبيبي جيك،

عن ذلك الكلب التعس ـ لا بد أنك تظنني بشعة لأنني لم أكتب إليك من فوري، ولكن الحقيقة هي أن خطابك اختلط بأضخم كومة من بريد المعجبين. (ويا لها من مشكلة! لا يدري المرء أبداً هل ينظر إلى هذه

المادة أم لا. إن مجرد النظر إليها في مكانها يرفع معنويات الأنا إلى حد ما، وإن كنت أظن أنها تقوض الشخصية قليلاً. ليس معنى ذلك أنني حلمت على الإطلاق بقراءتها حتى لو أتيح لي الوقت. فسكرتيري يقوم بتصنيفها إلى معتوهين في صفّي، ومعتوهين ضدي، وإلى مخبولين، ومهنيين، ومثقفين، ودينيين، وعروض للزواج!) وينبغي أن أقول ان لهجة رسالتك جرحتني قليلاً ـ أعني حتى أدركت بالطبع أنك لم تكتبها. (أليس كذلك، يا عزيزي؟).

نعم، والآن عن الكلب. الواقع هو أن «س» وأنا لدينا من الأعمال الكثيرة في هذه اللحظة بحيث لا نستطيع حقاً أن نُعْنى بذلك الحيوان. (ليست لديك أي فكرة عما يسببه فيلم يمثله حيوان ـ من ضيق. رجال لا سبيل إلى احتمالهم يرتدون ملابس صوفية خشنة يدخلون ويجوسون خلال الجهاز ـ والأمر التالي هو رابطة أصدقاء الحيوان التي ترسل جواسيس يتنكرون بوصفهم فتيات الربط). فكّر «س» أن أسهل طريقة بالنسبة لك هي أن تحتفظ به إذا شئت. وهذا معناه أننا كنا نتوقع أن تبيعه بالطبع. (آسفة أن أكون فتاة أعمال، ولكن على المرء أن يهتم بالنقود، مع نفقات المعيشة ومراعاة نوع المعيشة التي يعيشها المرء؛ ورجال ضريبة الدخل الذين يبتكرون طرقاً لإفقار المرء. على كل حال، إنه من ممتلكات «س»، وليس من ممتلكاتي. كل ما في الأمر أنني أكتب نيابة عنه). من الممكن أن أقول ٧٠٠ جنيه وأسمي هذا المبلغ تسوية. فهذا يغطي حقوق الفيلم جميعاً، حقوق الكتاب، وحقوق الإعلان (ليست لديك أية فكرة عن الحقوق الكثيرة التي تملكها هذه الصناعة! تحدث عن حقوق الكلب!) هو بالطبع مساومة في تحديد الثمن. غير أن «س» قد حصل عليه رخيصاً في الواقع، ولا نريد إلا تغطية نفقاتنا. فإذا أردت الشراء، فربما استطعت الاتصال بمحاميّ ـ ورفق هذا بطاقته، إن تذكرتُ أن أفعل ذلك. فإذا لم ترغب في الشراء فمن الممكن الاتصال

على كل حال ـ والاتفاق على ترتيب معين لإعادة الحيوان. آسفة إن لم أقم بهذا العمل شخصياً؛ فأنا مشغولة إلى درجة الخبل استعداداً للذهاب إلى الولايات المتحدة. وبهذه المناسبة، إذا قررت شراء الكلب، فلا تنس الإعلانات. وأرفق هنا (نسخة طبق الأصل) من رسالة لأصحاب صناعة بسكويت الكلاب، وقد نسيت اسمهم. وهم يريدون استخدام الصور أو شيء من هذا القبيل. وأياً كان العرض الذي يتقدمون به، اطلب الضعف.

أرجو أن تغفر لي هذه الخربشة المخيفة. كان شيئاً جميلاً أن أراك. دعنا نلتقي مرة أخرى، أترانا فاعلين، إذا انتهى هذا الهرج والمرج، وإن كان الله وحده هو الذي يعلم متى يكون ذلك. ربما في عام أو عامين. وإني لأحمل لك ذكرى طويلة رقيقة.

حبيبتك إلى الأبد

سادي

حاشية: يبدو أن «س» يحتفظ بمنسوخة لك أعارتها له امرأة. سأقنعه بإيداعها عند محاميّ، ومن ثمّ تستطيع أن تحصل عليها حين تتصل من أجل الكلب.

سرّني هذا الخطاب إلى أقصى حد. ولا أدري ما سرّني فيه أكثر: ما احتواه من لطف أو من مكر. لم يكن لديّ شك في أن «سادي» اعتقدت أنه من الممكن أن أكون من الغباء بحيث اشتري «مارس»، ومن المحتمل أنها لم تكن متأكدة عن معرفة بسر عمره، ولا بد أنها فكرت أنه من غير المحتمل أن تجد له في وسطها المطّلع جيداً على هذه الأمور ـ شارياً أفضل مني، فقد طلبت مبلغاً من المال كان حوالي الحد الأقصى لما يمكن أن أكون قادراً عليه أو مستعداً لدفعه، ثم سارعت إلى بيان الطريقة التي يمكن أن أتصرف بها لتعويض نفسي؛ ومن الواضح أن الفقرة

الأخيرة صدرت عن القلب، أو عن العضو الفاتر، وإن يكن حساساً، الذي احتفظت به «سادي» في مكان قلبها.

نظرت إلى المرفقيْن، كان أحدهما بطاقة محامي «سادي» التي دسستها في جيبي، والآخر كان خطاباً من أصحاب صناعة بسكويت الكلاب. ألقيت نظرة عليه ثم مزقته. قلت لمارس: «شخصيتك العامة قد انتهت!» ثم أخذت من سترتي حزمة الأوراق المالية التي استوليت عليها من خزانة «هوجو». وشرعت في عدِّها. وكانت «السيدة تينكهام» تراقبني في اهتمام، ولكنها لم تطلب استفساراً. كانت الرزمة تضم مائة من الجنيهات بالضبط. حزمتها مرة أخرى، وطرحتها جانباً.

سألت السيدة تينكهام: «أمن الممكن أن تبيعيني بعض ورق الكتابة والمظاريف؟».

ناولتني ما طلبت ثم قالت: «حساب هذه على الدار.. إذ لن أتمكن من بيعها إطلاقاً». كانت الأوراق والمظاريف صفراء اللون من أثر التراب وطول العمر. وفي داخل غلاف الكراسة أجريت حسبة بسيطة. مكاسبي من «لايربيرد» Lyrebird تصل إلى ستمائة من الجنيهات. هذا المبلغ بالاضافة إلى المائة التي استوليت عليها من «هوجو»، ورصيدي في المصرف، تجعل ثروتي حوالي سبعمائة وستين من الجنيهات. نظرت إلى هذا الرقم برهة، وإن كان في نظرتي من الحزن أكثر مما فيها من التردد. بالطبع، لا بد من أن أشتري «مارس». لم أكن بحاجة إلى التوقف لأسأل نفسي: لماذا؟ كان ذلك مكتوباً في السموات، وأن أحجم عن فعله معناه أن أبرهن على أنني شخص خسيس. كما لم يخطر لي أيضاً أن أخذل «سادي». فالظروف الرسمية للموقف لم تدع لي اختياراً. يجب عليّ أن أدفع دون مناقشة أو تعليق. وليست هذه لحظة المكابرة مع القدر. كل ما أسمح به لنفسي ـ حين تستقر الأمور جميعاً ـ هو ترف

إرسال كلمة لسادي: كلمة لن تتظاهر بأنها تاهت منها بين رسائل المعجبين. وعندما خطرت لي هذه الفكرة، عرفت أن «سادي» تهمني. ولم يكن من شك في أننا سنلتقي مرة أخرى. ولكن هذا يتعلق بالمستقبل. المستقبل ـ الذي انفتح لحظة أمامي، أرض التلال والمسافات البعيدة؛ وأغمضت عينيّ. ستحفظ «سادي» العهد. شيء واحد يدفع المرأة إلى الحفاظ على العهد، هذا الشيء هو الذكاء. وسادي تتمتع به. كان «هوجو» على حق.

كتبت إذن الصرف (الشيك). وتبينت أنني لم أعد أملك في رصيدي بعد كتابته سوى المبلغ الذي كنت أملكه عندما غادرت «طريق إيرلز كورت» في مستهل هذه القصة. تنهدت قليلاً لهذه الحقيقة، وأخذت الثروات الشبحية التي كنت على وشك اكتسابها ـ تتصاعد حولي برهة لتدور في دوامة، حتى عشيت عيناي في عاصفة ثلجية تتكون من الأوراق المالية فئة الجنيهات الخمسة. غير أن العاصفة خمدت؛ وعرفت أن نفسي لا تنطوي على ضروب عميقة من الندم. وكما تشعر السمكة التي تسبح بهدوء في المياه العميقة، شعرت في كل مكان حولي بذلك الضغط الآمن المُسانِد النابع من حياتي الخاصة. قد تكون مهلهلة، لا مجد فيها، لا هدف لها في ظاهر الأمر، ولكنها حياتي أنا. أكملت الرسالة الموجهة إلى محامي «سادي»، وطلبت منه أن يبعث بالمنسوخ عن طريق «السيدة تينكهام». وفي إمكاني أن أكسب من المال بهذا العمل حين أشاء. لن أقوم بالترجمة بعد ذلك. وأخذت أفك الطرد الذي يحتوي على المخطوطات.

نشرتها أمامي على المنضدة؛ وعندما لمستها كانت يداي ترتجفان كيديْ عرّاف ـ المياه. وشرعت أتصفحها، متأملاً في دهشة ما صنعت. كان منها قصيدة طويلة، وجزء من رواية، وعدد من القصص الغريبة. وخيِّل إليّ أنني كتبتها منذ أمد بعيد. كانت هذه ـ في رأيي ـ أعمالاً

متوسطة القيمة. ولكني كنت أرى أيضاً ـ كما هو واضح من خلالها ـ إمكانية إبداع ما هو أفضل ـ وكانت هذه الامكانية، ماثلة أمامي بوصفها قوة ترميني إلى الأدنى، وترفعني إلى أعلى مما كنتُ في أي وقت مضى. وأخرجت نسخة «هوجو» من «المسكت»، وغمرتني رؤيتها بالفرح. لم يكن هذا أيضاً سوى بداية.. اليوم الأول للعالَم. كنت مترعاً بقوة هي أفضل من السعادة، أفضل من تلك الرغبة الهزيلة في السعادة التي يمكن أن توقظها النسوة في الرجل لإفساد أنسجته. كان هذا هو صباح اليوم الأول.

تمددت وتثاءبت، وتمدد «مارس» أيضاً وهو يهز أطرافه جميعاً. بسطت ذراعيّ وابتسمت «للسيدة تينكهام» التي ردت على ابتسامتي من خلال الغيم كقطة من «التشسهاير» Cheshire cat(*). ولكنني عندما مددت جسدي، محاولاً احتضان العالم، سمعت همسة غريبة تطن في أذني، وكأنما هناك شخص أعرفه يهمس في أذني، شخص أحبه يحاول أن يفضي إليّ بسر؛ وهنا اشرأب جسدي ببطء كإنسان يرهف سمعه.

قالت السيدة تينكهام: «هناك صديقة لك على الهواء».
سألت: «مَنْ هي؟».

قالت السيدة تينكهام: «اسمها كوينتين». وناولتني مجلة «راديو تايمز» Radio Times، وفيما كنت أقلب صفحاتها، أدارت فجأة مفتاح الصوت على آخره.

وكموجة من أمواج البحر تلتف فوقي، تناهى إليّ صوت «آنا». كانت تغني أغنية حب فرنسية قديمة. كانت الكلمات تأتي متئدة، موشاة بأدائها. وأخذت تلتف في الهواء ببطء ثم تتهادى؛ وغمرت الحانوت

(*) نوع من القطط ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة لا تختفي أبداً (المترجم).

روعة الذهب المبحوح، فحولت القطط إلى فهود، والسيدة تينكهام إلى «كركيه» Circe(*) مُسِنّة. جلست هادئاً بلا حراك، مسدداً بصري على عيني «السيدة تينكهام» وهي منحنية هناك وقد وضعت يدها المتجمدة من البرد على مفتاح الجهاز. لم أكن استمعت إلى «آنا» وهي تغني منذ زمن طويل؛ وحين أنصتُ إليها كنت أراها، وأرى خصلة الشعر الرمادية الصغيرة في إكليل شعرها. وانتهت الأغنية. فقلت: «أسكتي المذياع!»، إذ لم أكن أطيق الاستماع إلى شيء بعدها.

صمت الحانوت بغتة، إذ أسكتت «السيدة تينكهام» المذياع تماماً، ولأول مرة منذ أن حضرت إلى حانوت «السيدة تينكهام» سمعت الحيوانات في تنفّسها.

وفي لهفة، قلبت صفحات مجلة الاذاعة «راديو تايمز» حتى وجدت الموضع الذي أبحث عنه. كانت المجلة تقول: «آنّا كوينتين، مذاعة عن طريق الالتقاط (إعادة الإرسال) من «نادي المجانين» Club des Fons في باريس، في الحلقة الأولى من سلسلة مؤلفة من عشر حلقات بعنوان: «ما الأغنية؟» «Qu'est-ce que la chanson?» وابتسمت ابتسامة تغلغلت في كياني كله كأنها الشمس.

قالت السيدة تينكهام: «ها أنت قد رأيت».

قلت: «أجل رأيت». وتعجبت عما تعنيه. فتبادلنا النظرات.

قلت: «يا سيدة تينكهام، سأخبرك بشيء».

قالت السيدة تينكهام: «ماذا؟».

قلت: «سأسعى للحصول على وظيفة».

(*) هي ابنة هيليوس Helios (الشمس) في الأساطير الإغريقية وأخت آئيتس Acètès ملك كولتشس Colchis وهي بارعة في فنون السحر بحيث حولت أتباع أوديسيوس إلى خنازير (المترجم).

لم أكن أتوقع أن تبدو عليها الدهشة، ولم تبـد عليها فعلاً. سألتني: «وماذا يمكن أن تعمل؟».

قلت: «سأجد وظيفة بعض الوقت في مستشفى؛ وهذا شيء أستطيع أن أفعله». كنت شديد المحافظة من حيث المزاج.

قلت: «ولكن ينبغي أولاً أن أجـد مكاناً أعيش فيه».

قالت السيدة تينكهام: «تستطيع أن تلقي نظرة على اللوحة القائمة في الخارج. فلعل هناك حجرة مُعْلناً عنها، لقد نسيت».

نهضت وذهبت إلى الخارج، وسار «مارس» في أثري متمهلاً، ووقف مستنداً في تكاسل على ساقي، وهو يفحص الشارع بحثاً عن القطط المتحركة الخليقة بالمطاردة. ألقيت نظرة فاحصة على اللوحة. كانت مغطاة ببطاقات بريد مكتوبة بخطوط رديئة، ومثبّتة إلى اللوحة نظير رسوم أسبوعية. واسترعت عيني بطاقة أبدع ترتيباً من الأخريات، تعلن عن حجرة في الطابق الأرضي بالقرب من «هامبستيد هيث» Hampstead Heath، دون أية قيود تافهة كانت هذه العبارة تشير بجلاء إلى النساء؛ وتساءلت: أمن الممكن أن تتسع لتشمل الكلاب؟

سألت السيدة تينكهام: «من الذي وضع هذه البطاقة»؟

قالت السيدة تينكهام: «رجل غريب الأطوار. لا أعرفه بالذات».

سألت: «ما شكله؟».

قالت السيدة تينكهام: «هو أميَلْ إلى الطول».

وكنت أعرف أنه لا بد لي من أن أذهب إلى هامبستيد لأكتشف ما هو الغريب في أطواره قلت: «أتعيبين عليه شيئاً؟».

قالت السيدة تينكهام: «أوه، لا شيء على الاطلاق. لماذا لا تذهب

وتلقي نظرة على الحجرة؟».

قلت: «سأذهب الليلة».

قالت: «إذا كنت في حاجة ملحة إلى سرير تستطيع أن تعود لتنام هنا».

كان هذا تنازلاً غير مألوف. قلت: «أشكرك، يا سيدة تينكهام، ولكن أين سأنام؟».

قالت: «سأعد لك سريراً خلف الطاولة (الكونتر). وسأنقل ماجي وصغارها إلى الحجرة الخلفية».

سألت بأدب: «كيف حال ماجي وقطيطاتها؟».

قالت: «تعال وانظر».

وبشعور شخص يطأ الأرض المقدسة، دلفت إلى ما وراء الطاولة. وفي الركن عند قدمي «السيدة تينكهام»، وفي صندوق من الورق المقوي توضع فيه الأدوات المكتبية، رقدت «ماجي» مع أربع من القطيطات التفّت حول بطنها المخطّط. وكانت «ماجي» تطرف بعينيها وتتثاءب وتنظر إلى الجهة الأخرى، على حين كانت القطيطات تتصارع داخل فرائها. نظرت، ثم نظرت عن كثب، ثم هتفت متعجباً.

قالت السيدة تينكهام: «أجل، ها أنت ترى». ركعت على الأرض، ثم بدأت أرفع القطيطات واحدة فواحدة. كانت أجسادها مستديرة كالكرة، وكانت تموء مواءً لا يكاد يسمع. وكانت واحدة منها عنّابيّة مخططة ومنقطة نقطاً سوداء، وأخرى مخططة وبيضاء، واثنتان يبدو عليهما أنهما سياميتان تماماً. أخذت أدرس علاماتها وذيولها الملتوية وعيونها الزرقاء المنحرفة الشرسة. وكانت تموء فعلاً مواءً أشد خشونة من الأخريات.

قلت: «إذن، لقد فَعَلَتْها ماجي أخيراً!». ودفع «مارس» برأسه تحت

ذراعي وجعل يتشمم الحيوانات الصغيرة في شيء من التنازل. وأعدتها مرة أخرى إلى الصندوق.

قالت السيدة تينكهام: «إن ما يحيرني هو لماذا كانت هاتان سياميتين نقيتين على حين تختلف عنهما الأخريان تمام الاختلاف، بدلاً من أن تكون جميعاً نصف مخططات ونصف سياميات».

قلت: «أوه، ولكن الأمر يجري على هذا النحو دائماً. وإنه لشيء بسيط غاية البساطة».

قالت السيدة تينكهام: «لماذا إذن كان على هذا النحو؟».

قلت: «حسن، إنها مجرد مسألة . . . » وتوقفت. لم تكن لديّ أية فكرة عما كانت المسألة؛ فضحكت وضحكت «السيدة تينكهام».

قلت: «لا أدري لماذا كانت على هذا النحو. إنها مجرد أعجوبة من أعاجيب العالم».

انتهت

أقبلت «مادج» نحوي. وكانت عيناها في صلابة العقيق، قالت: «هذه هي الحياة الحقيقية، يا جيك. خير لك أن تصحو». وضربتني بشدة فوق فمي. فتراجعت قليلاً من جرّاء الألم المباغت الذي أحدثته اللطمة. وقفنا لحظة في هذا الوضع، وصمدت لنظرتي على حين كانت الدموع تتجمع ببطء في عينيها. وعندئذٍ، تلقيتها بين ذراعيّ.

قالت «مادج» وقد دفنت رأسها بين كتفي: «جيك، لا تتركني».

وحملتها تقريباً إلى مقعدها. كنت أحس بالهدوء والعزم. ركعت إلى جانبها، وأخذت رأسها وأنا أمشط شعرها إلى الوراء بيدي. وارتفع وجهها نحوي كزهرة متصاعدة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت